

المقاصد والعِبر
في عقيدة اليوم الآخر
من المحتضر إلى المستقر
د. هيفاء حسين نعمه



هذا الكتاب

جاء كتابنا هذا في بيان أهم المقاصد والمعاني والعِبر التي نستنبطها نتيجة استقرائنا النصوص الصحيحة في عقيدتنا من الايمان باليوم الآخر، حيث ترتبط كبرى هذه المقاصد بحاكمية الله تعالى وربوبيته وعظيم قدرته، فضلاً عن مقاصد الجزاء التي ترتبط بالعدالة والرحمة والحكمة الإلهية والقيومية.

وقد رأينا إن معرفة مقاصد هذا الإيمان لها تأثير كبير على معارف ونفسيات العباد، فضلاً عن انعكاسه على سلوكاتهم كافة، مما يؤدي بدوره ويُسهم في رُقي الحياة المجتمعية، فلو لم تكن هناك من حياةٍ بعد الموت، متمثلةً بعالم البرزخ، والموقف والحساب، ومصيرٍ الى جنةٍ أو نار، ونعيمٍ أو عذاب لكانت الحياة في هذا العالم جوفاء وتافهة لا قيمةَ لها، أما مع الايمان بوجودها والتصديق بذلك، فإنه يمنح الحياة الهدفية والغائية لها، فضلاً عن إخراجها من العبثية التي اجتاحت قلوب ونفسيات الكثير من منكريها.

بناءً على ذلك فقد كان هذا الكتاب محاولة تقريب الحقائق العقدية المتعلقة باليوم الآخر للعقول المختلفة، ولا سيَّما مع المجادلين منهم ممن نشروا الإلحاد وغيره من أجل التشكيك في هذه الأمور؛ وذلك لما لها من دور في إحياء العقائد الايمانية لدى المسلمين، لتعود العقيدة الى دورها في قيادة النفوس وتربيتها، والدعوة الى التمسك بها، مع إمكان الدفاع عنها بوجه الحركات الالحادية أو تلك التي تدعي الاسلام مع بعدها الحقيقي عنه.

المقاصد والعِبر

في عقيدة اليوم الآخر

من المحتضر حتى المستقر

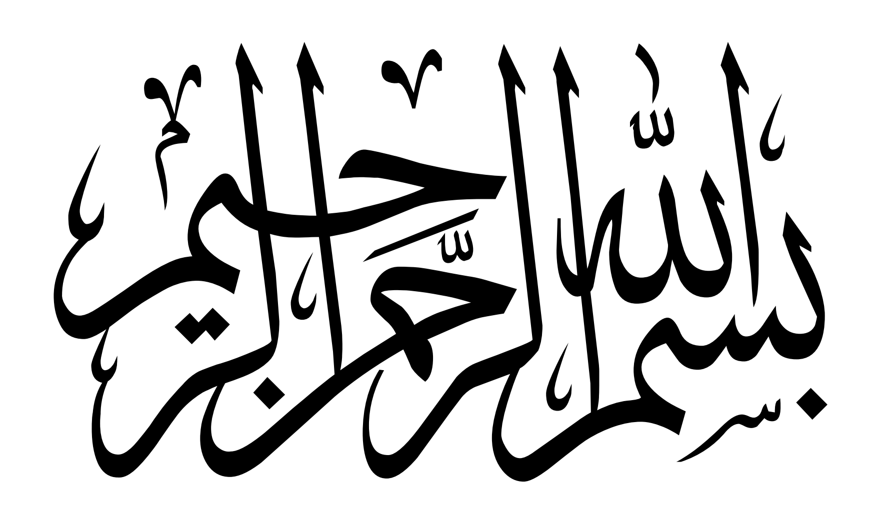
د. هيفاء حسين نعمه

تقديم

أ.د محسن قحطان حمدان

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ . ٢٠٢٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى..خاتم الأنبياء وآله ... نبينا وحبيبنا

محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وإلى... مَن كنت سندي وكافلي طيلة حياتي...

إلى من لا أُجازي مودتكَ لي حتى مماتي...

يا من شجعتني على الدراسة وطلب العلم في كل أوقاتي...

ثم فجعتني بفقدِكَ مع حاجتي إليك بأشد فتراتي...

يامَن اختارك تعالى بقدره للرحيل عن نواظرنا...

لكنك باقٍ.. وقد استوطنت عقولنا وقلوبنا... ومحاجر أعيننا..

أخي وفقيدي وعزيزي...

الشيخ الحاج حبيب حسين نعمه الفريجي ...

وإلى والديَّ.. وأخي الشهيد السعيد علي حسين نعمه الفريجي ...

أسكنهم الله تعالى فسيح جناته

أهدي ثمرة جهدي هذا

فهرس المحتويات

تقديم الدكتور محسن قحطان حمدان

لم تأخذ الدراسات المقاصدية المتعلقة بالعقائد الإسلامية حقها من البحث العلمي في الكثير من الجامعات والمؤسسات العلمية، ومن هنا توجه الباحثون في الوقت القريب اليها مدركين أهميتها ودورها في البناء العقدي للفرد المسلم إذ لها آثار تربوية تظهر في سلوكيات شباب المسلمين وفي معاملاتهم، ففهم العقائد بمقاصدها يهذب النفوس ويزكيها ويضبط الأعمال ويرقيها ويوسع آفاق العقول وينميها.

ولقد خطت الدكتورة الفاضلة (هيفاء حسين نعمة) خطوة في ميدان الدراسات المقاصدية نتج عنها هذا الكتاب المتقن في منهجه وأسلوبه وأهدافه، وهو إضافة مهمة وبارزة في المكتبة المقاصدية.

وإن القارئ لهذا الكتاب بتمعن وروية ليتبين له قناعة المؤلفة بأهمية موضوعه وحرصها على الاحاطة بجزئياته، وعنايتها بذلك، مع بذلها الجهد في عرض مسائل عقيدة اليوم الآخر مقرونة بمقاصدها ومعضدة باستنباط الحكم والعبر منها.

ولا شك في ان إدراك تلك المسائل في إطار هذه الاحاطة المعرفية يرتقي بالمتعلم من الناحيتين الفكرية والتربوية ، وهذا هدف من اهداف الدراسة في هذا الكتاب المستمد من اطروحة الدكتوراه للمؤلفة الفاضلة، وقد كانت من الأطاريح الجامعية التي قدمت اضافة معرفية الى حقل الاختصاص ونالت تقييماً ممتازاً من لدن لجنة المناقشة.. وأشعر بالفخر إذ كنت مشرفاً علمياً على ذلك النتاج العلمي.. وأسأل الله العلي المجيب ان يتقبل جهود الدكتورة (هيفاء حسين نعمة) وأن ينفع بها المسلمين...

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الكرام..

أ.د محسن قحطان حمدان

أستاذ العقيدة وعلم الكلام في جامعة بغداد

المقدمة

الحمد لله المتفرد بالعظمة والعزة والكبرياء، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ خاتم الأنبياء، وعلى آله الطاهرين الأتقياء وصحبه الأوفياء، وعلى رسل الله وأنبياءه أجمعين، ومن تبعهم وسارَ على نهجهم بصدقٍ ووفاء.

أما بعد...

تُعَد مباحث العقائد المتعلقة بالمعاد والملائكة وعالم الغيب من اعقد المباحث من ناحية البرهنة والاستدلال الكلامي عليها، لذلك نجد من المتكلمين عادةً مَن يقدمون مباحث الإلهيات، ثم النبوات، ويبرهنون عليها عقلياً، وعندما يصلون إلى المسائل الغيبية يذكرون أن دليلها هو ثبوت النبوات نفسه، ولذلك يسمونها بـ (السمعيات) إذ يتم الاستدلال عليها عن طريق النقل عن مصادرها الأصلية من الكتاب والسنة.

وهو منهج سليم لا يمكن لأحد أن يناقش فيه، ذلك أن المصدِّق بوجود الله تعالى، وبرعايته لخلقه عن طريق إرسال الرسل، وإنزال الكتب، لابد أن يسلم لكل ما جاءوا به من حقائق وقيم تسليماً مطلقاً، وإلا خدش ذلك في إيمانه بالله تعالى والأنبياء عليهم السلام.

كما إن هنالك قاعدة ذهبية تقول: (لا يتعارض نقل صحيح مع عقل صريح عند التحقيق)، وبما إن جميع مباحث اليوم الآخر هي ما يتوقف الإيمان به على النقل الصحيح من ورود السمع أو الوحي به، وليس للعقل في إثباتها أو نفيها مدخل، كأشراط الساعة وتفاصيل الموقف والحساب والجنة والنار وما الى ذلك، وضابطها أن العقل لا يمنعها أو يحيلها، فإنه بالتالي لا يتعارض معها..

وبناءً على ذلك، وتتمةً لدراستنا المقاصدية في العقيدة الإسلامية، فقد جاء كتابنا هذا في بيان أهم المقاصد والمعاني والعِبر التي نستخلصها من دراستنا هذه المباحث، والتي جمعناها تحت عنوان: (المقاصد والعِبر في عقيدة اليوم الآخر - من المحتضر إلى المستقر).

علماً إن هذا الكتاب هو جزء من اطروحتنا للدكتوراه في فلسفة أصول الدين، تخصص العقيدة الإسلامية، الموسومة (المقاصد العقدية في مباحث السمعيات) دراسة موضوعية، مع إجراء تعديلات عليها من اختصار أو إضافةٍ أو حذف أو تغيير لضرورة التفريق بين الكتابة الأكاديمية عن العامة منها، علماً إن اطروحتنا قد نُشرَت لمن يرغب بمطالعتها..

وقد كان مما دفعني ورغَّبني في هذه الدراسة امور عدة، منها:

١ـ (دافع ديني) من أجل الرد على الأفكار والشبهات المطروحة من قِبل بعض الإسلاميين فضلاً عن غير الاسلاميين؛ لما ينتشر في المجتمعات من فشو ظاهرة الإلحاد الجديد، وسخريتهم من قضايا الآخرة وتصويرها في أذهان الناس بصور مليئة بالاستهزاء والتنقيص، فكانت هذه الدراسة دفاعاً عن أحدى القضايا المهمة في العقيدة الإسلامية.

٢ـ (دافع علمي) وذلك للتوجه الحاصل في الوقت الحالي والالتفات الى الدراسات المقاصدية وربطها بالقضايا العقدية، فكانت الرغبة في طرح هذه القضايا بما يتعلق بمباحث اليوم الآخر بطريقة توفيقية بين النصوص النقلية الصحيحة، ومُدركات العقل الإنساني.

لذلك فقد ارتأيت بعد التوكل على الله تعالى وبتشجيع مباشر من الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة المحترمين خصوصاً التشجيع والمتابعة من قِبل الدكتور محسن قحطان حمدان، المشرف على كتابة الاطروحه، والدكتور ثائر إبراهيم الشمري، رئيس لجنة المناقشة لتشجيعه على الدراسات المقاصدية في العقائد الإسلامية فضلاً عن اختياره عنوان الدراسة، والدكتور نور الدين أبو لحية الأستاذ الدكتور في جامعة باتنه في بلد الجزائر الشقيق لمتابعته المتواصلة في تنسيق وإخراج هذا الكتاب بإذن الله تعالى..

وبناءً على ذلك، فقد كان عملنا هنا يتلخص بما يأتي:

١ـ جمع ودراسة ما ورد من النصوص الصحيحة في مسائل اليوم الآخر، من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، فضلاً عن أقوال العلماء فيها، علماً إن جمعي ليس شاملاً لها؛

لصعوبة الاحاطة بها جميعاً، فضلاً عن وجود العديد من النصوص التي قد يُختَلف في تفسير مضامينها، فكان استقراءها ناقصاً ليس تاماً.

٢ـ التأمل في جزيئات مسائل اليوم الآخر لاستنتاج المقاصد والمعاني والعِبَر الخاصة منها، وهو الاستنباط المباشر من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، سواءٌ من ظواهر النصوص الصحيحة وما حوته من أمر أو نهيٍ أو تحذير أو تبشير، أو من خلال علل هذه الأوامر والنواهي، وذلك من خلال ما ورد في هذه الجزئيات من أقوال علماء الكلام والمفسرين فيها ثم إدراجها تحت مقصد معين، وأُتبعه بشواهده والأقوال فيه.

وبناءً على موضوع الكتاب، فقد قسَّمتُ محتواه الى فصول ثلاثة وخاتمة، يتناول كل فصل ثلاثة أقسام حسب المواقف التي يمر بها العباد، ثم أُتبع كل قسم منها ما تناوله من مقاصدَ وعبَر ، وقد كانت تحت العنوانات التالية:

الفصل الأول: الإيمان بالحياة البرزخية ومواقفها، وتكون من أقسامٍ ثلاث، هي:

أولاً: الحياة البرزخية ومقاصدها العامة

ثانياً: مواقف الحياة البرزخية

ثالثاً: التواصل والسير التكاملي بين النشأتين

والفصل الثاني: الإيمان بالمعاد والموقف وأهواله، وتكون من أقسامٍ ثلاث، هي:

أولاً: النفخ في الصور وبعث الأموات.

ثانياً: المحكمة الإلهية ، في الحساب والأشهاد، الموازين والصراط يوم القيامة.

ثالثاً: الحوض والشفاعة.

والفصل الثالث: نعيم الجنة وعذاب النار ومراتبهما، وهو من أقسام ثلاث أيضاً، هي:

أولاً: مراتب الثواب والعقاب.

ثانياً: الجزاء الحسي للنعيم والعذاب.

ثالثاً: الجزاء المعنوي للنعيم والعذاب.

وبعد... وقد وصلت الى أعتاب هذا الموضوع الذي يمثل جزءً مهما من أجزاء المنظومة العقدية الإسلامية، لا يسعني إلا أن أذكر للقارئ الكريم إنها ليست سوى جهد المُقِل، وأرجو من الله تعالى أن أكون قد وُفِقت في طرحها، مع اعترافي بعدم احرازي لتمام حقها، وكما يقول العلامة الكبير عماد الدين أبو عبد الله الأصبهاني (ت٥٩٧هـ) : (إني رأيتُ أنهُ لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلَّا قال في غدهِ: لو غُيِّر هذا لَكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكانَ يُستَحسَن، ولو قَدِّمَ هذا لَكانَ أفضل، ولو تُرِك هذا لكانَ أجمل، وهذا من أعظَم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر).

فإنما ليس لي عذراً لأهل العلم والمعرفة في ما يجدوه في كتابنا هذا من خلل ونقص سوى التقصير الذي لا يخلو منه عمل إنسان، وحين أقدمه إلى الملأ الاسلامي الكريم ارجو ان يقرؤوه بتجرد علمي، وينبهوني إلى ما فيه من خطأ يلازم الانسان غير المعصوم، أخذَ الله بأيدينا جميعاً إلى ما فيه الخير والصواب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على سيدنا محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

هيفاء حسين نعمه

ربيع الأول ١٤٤٢هـ

الفصل الأول: الإيمان بالحياة البرزخية ومواقفها

نحاول في هذا الفصل التعرف على المقاصد والمعاني المرتبطة بالإيمان بوجود عالم البرزخ، باعتباره أول العوالم الغيبية التي يمر بها الإنسان بعد خروجه من الدنيا، فهو يبدأ من وفاة الإنسان، أو قبل وفاته بلحظات معدودة، وينتهي بالبعث، وبميلاد النشأة الآخرة.

وبناءً على ذلك، فقد رأينا أن نقسم هذا الفصل إلى أقسامٍ ثلاث رئيسية، هي:

الأول ـ البحث في المقاصد والمعاني العامة المرتبطة بوجود عالم البرزخ نفسه، واستمرارية الحياة بعد الموت، وقد رددنا فيه بشيءٍ من التفصيل على الذين ينكرونه نظراً لعدم معرفتهم بمقاصده وحِكَمه ومعانيه، فضلاً عن بيان علاقة استمرارية الحياة بعد الموت بشكلٍ عام ـ سواء في النشأة البرزخية وما يليها من النشآت ـ بمقاصد القدرة والعدالة والرحمة والحكمة الإلهية.

الثاني ـ البحث في المقاصد الخاصة المرتبطة بالموت والقبر والأحداث التي ورد الحديث عنها في النصوص الصحيحة المقدسة، واتفق عليها علماء العقيدة الإسلامية.

الثالث ـ المقاصد المرتبطة بالتواصل والسير التكاملي بين الحياتين، الحياة الدنيا والحياة البرزخية.

وقد اعتمدنا في استنباط هذه المقاصد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالدرجة الأولى، وأضفنا إليها فهوم العلماء، سواء كانوا علماء عقيدة، أو مفسرين أو محدثين.

أولاً: الحياة البرزخية ومقاصدها العامة

تمهيد: مفهوم الحياة البرزخية

قبل أن نذكر المقاصد والمعاني العامة المرتبطة بعالم الحياة البرزخية، نودُ أن نذكر أن هذا المصطلح [البرزخ] قد ورد في القرآن الكريم مراتٍ عدة، لذا لا نجد اختلافاً كبيراً بين العلماء من المدارس الإسلامية حوله، كما إن القرآن الكريم لم يكتف بذكره المجرد، وإنما ذكر بدايته ونهايته، فقد قال تعالى ذاكراً بدايته: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، فهاتان الآيتان الكريمتان تذكران أن الإنسان عندما يأتيه الموت، أي في اللحظة التي تنزع فيها روحه، يشعر بالمصير الذي سيصير إليه، ولذلك يطلب الرجوع.

ثم ذكر بعدها النهاية التي ينتهي إليها، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وهي النفخ في الصور، الذي يكون بمثابة دق جرس نهاية الدنيا[١].

وكذلك نجده تعالى يذكر هذه المرحلة، وبتفصيل أكبر في سورة الواقعة، حيث ذكر بعض المشاهد التي يراها الإنسان في ساعة احتضاره، وقبل موته، والمتمثلة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٠٦.

الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٦].

وبناء على هذا فقد عرَّف العلماءُ البرزخَ تعريفات كثيرة متقاربة، منها ما عبر عنه الجرجاني (٦١٨هـ) بقوله: (هو الحائل بين الشيئين، ويُعَبَر به عن عالم المثال، أي الحاجز من الأجسام الكثيفة، وعالم الأرواح المُجردة، أي الدنيا والآخرة)(١).

وعرَّفه الكفوي (١٠٩٤هـ) بقوله: (البرزخ هو كل فاصل بين شيئين)(٢)، كما عرفه السفاريني (١١٨٨هـ) بقوله ـ تعليقاً على قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] ـ (أي: حاجزٌ يمنعهما من أن يختلط أحدهما بالآخر، ووجه تسمية ما هاهنا برزخاً؛ لكونه يحجز بين الدنيا والآخرة)(٣).

ومن هذه التعريفات نستنتج أن عالم البرزخ، أو عالم القبر ـ كمركب إضافي ـ يعني: المرحلة التي يمر بها الإنسان ما بين موته وقيام الساعة، وإن لم يُدفَن، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وبذلك فإن هذا العالم ليس قاصراً على المدفونين في القبور، بل هو يشمل كل من مات، بغض النظر عن طريقة موته، فالداعي إذا قال (أعوذ بالله من عذاب القبر) إنما يعني الاستعاذة من عذاب البرزخ، فهو الثواب والعقاب ما بين الدنيا والآخرة، من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ(٤).

وبناءً على هذا، ومن خلال استقرائنا للمقاصد والمعاني العامة المرتبطة بالإيمان والتصديق بوجود هذا العالم وما يليه، يتجلى أمامنا مقصدين كبيرين، هما:

---

(١) التعريفات: ٤٥.

(٢) لسان العرب: ٣/ ٨، والكليات: ٢٢٦.

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: ٢/٤، و(يُنظَر) اصول العقائد في الإسلام: ١٥٣.

(٤) (يُنظَر) لسان العرب: ٣/ ٨، ومجمع البحرين ومطلع النيرين: ٢/٤٣٠.

١ . ارتباط الحياة بعد الموت بقدرة الله تعالى، ولذلك نرى ارتباط الحياة الأخرى بالقدرة، رداً على الذين يجحدون قدرة الله تعالى المطلقة.

٢ . ارتباط الحياة بعد الموت بالجزاء الإلهي، والذي يتناسب مع صفات الله تعالى من العدل والرحمة والحكمة الإلهية وغيرها.

علماً إننا إن أردنا ذكر جميع ما وردَ من مقاصدَ وعبَرٍ فإننا قد نقع في الإسهاب الذي من شأنه أن يُسبب لنا الخروج عن غاياتنا المرجوة في إيصالها الى الأفهام، وإنما نختصر الكلام في هذه الأبواب لتأثيرها الكبير في تثبيت هذه العقيدة في النفوس.

ولأجل تجنب التكرار فإننا وإن ركزنا هنا في المقاصد العامة من الحياة البرزخية، إلا إنها تتعلق بجميع مباحث اليوم الآخر، وإنما خصصناها بالحياة البرزخية من أجل التأكيد على أهمية الإيمان بوجود هذه الحياة من جهة، ومن جهةٍ أُخرى من أجل الدفاع عن هذا الايمان، وخصوصاً أمام ما يشوبه من شبهاتٍ.

المقصد الأول: استمرارية الحياة بعد الموت وعلاقته بقدرة الله تعالى

إن النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة تشير إلى قدرة الله تعالى على كل شيء، وكونه متكرماً على جميع المخلوقات بالإيجاد والحياة، ويُعد هذا المقصد من مهمات المقاصد التي نستنبطها من الأدلة النصية، باعتباره مقصداً تصديقياً تعبدياً، يقودنا الى صحة الايمان بهذه المسائل الغيبية، لذلك نحسبُ أنَّ المنكرين للحياة البرزخية لم يلاحظوا هذا البعد، حيث تصوروا أنه لا معنى لهذه الحياة، وكأن الله تعالى لا يقدر على أن يكرم عباده الصالحين، أو يعاقب المسيئين إلا بعد قيام الساعة.

ومن الأمثلة على تلك المقولات ما ذكره بعض المتقدمين من أمثال ضرار بن

عمرو[1](ت١٩٠هـ) وبشر المريسي[2](ت٢١٨هـ) غفر الله لهما ومَن وافقهما، والذين أنكروا عالم البرزخ بناء على قولهم: (إننا نرى الميت مُشاهدةً وهو غير مُعذّب، ويقولون أن الميت ربما تأكله السِباع والطير والوحوش)[3].

كذلك بعض الباحثين المعاصرين، ممن نكنّ لهم كل التقدير في الكثير من إسهاماتهم وبحوثهم، إلا إن عدداً منهم راح يدعو إلى الحداثة على حساب الدين وعقائده، منهم الباحث سامح عسكر[4] الذي قال في أحدى مقالاته في الرد على الايمان بهذه المسألة (إن الإسلام ـ كدين ـ لم يُشرّع، وبالتالي لم يُشير إلى وجود حياة ما بين موت الإنسان وبعثه يوم القيامة، وأن كافة ما ورد في هذا الشأن يُشير إلى [البرزخ]، وهو الحاجز الذي يفصل ما بين الحياتين الدنيا والآخرة، وأن الشعور بالزمان والمكان وراء هذا الحاجز معدوم)[5].

ومنهم الدكتور علي منصور كيالي[6] الذي ادعى استحالة حياة البرزخ، وراح ينشر ذلك عبر مواقع التواصل الاجتماعي ومواقع الانترنت المختلفة، مما سبب آثاراً سلبية على الكثير من

---

(١) قيل أنه قاض من كبار المعتزلة، طمع برئاستهم في بلده، فلم يدركها، فخالفهم، فكفروه وطردوه، وإليه تُنسَب الطائفة الضرارية، وصنف نحو ثلاثين كتابا، بعضها في الرد عليهم وعلى الخوارج، وفيها ما هو مقالات خبيثة، قال الجشمي: ومن عده من المعتزلة فقد أخطأ. (يُنظَر) تاريخ الإسلام: ٥/ ٧٣٨، الأعلام: ٣/ ٢١٥.

(٢) بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي الفقيه الحنفي المتكلم؛ درس الفقه، إلا أنه اشتغل بالكلام، تلقف مقالات جهم بن صفوان من أتباعه ولم يدركه، وإليه تنسب الطائفة المريسية من المرجئة، وصنف كتابا في التوحيد، وكتاب [الإرجاء]، و[الوعيد]، وغيرها، (يُنظَر) وفيات الأعيان: ١/ ٢٧٧ـ ٢٧٨، وسير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٠٠ـ ٢٠١.

(٣) الإقتصاد فيما يتعلق بالإعتقاد: ٢١٩، و(يُنظَر) شرح الاصول الخمسة: ٧٣٠، المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ١٩٣.

(٤) باحث تاريخي وفلسفي وكاتب مصري مستقل، من أعماله (١٢) كتاب منها [الإخوان بين الجمود وتحديات المرحلة]، و[الأزمة السورية محاولة للفهم]، [فلسفة الأخلاق]، [تحرير الفكر]، [الفلسفة هي الحل].
alquran.com/arabic/profile.php?main_id=٦١٠٣http://www.ahl

(٥) مصدر خرافة عذاب القبر، سامح عسكر http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid

(٦) علي كيالي، تولد ١٩٥٣، باحث إسلامي اشتهر في الفترة الأخيرة بكونه من المجددين في الخطاب الديني، بدأ

عامة الناس ممن لم يكلفوا انفسهم النظر في أمور العقيدة والأحكام، فقد نشر في أحد مواقعه مقالاً في عذاب القبر ابتدأه بقوله (كلّ آيات القرآن الكريم تقول أنّه [لا عذاب قبل الحساب]، حتى [الظالمين] الذين لهم أقسى أنواع العذاب، فإنّ الله سبحانه لن يُعذّبهُم قبل الحساب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [ابراهيم: ٤٢]، هل انتبهت لكلمة: [يؤخّرهُم]، والكافر يوم القيامة سوف يندهش من البعْث للحساب)[1].

ومنهم الباحث محمد شحرور (١٤٤١هـ)[2] الذي قال: (أن أحاديث عذاب القبر كثيرة، لكنها جميعاً تتناقض مع قوله تعالى ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ومع كل آيات البعث والحساب، والله تعالى لن يعذب أحداً قبل حسابه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨]، وهذه الأحاديث ارتبطت بالخرافات التي كانت سائدة في الحضارات السابقة للإسلام)[3].

اهتمامه في البحث في القرآن الكريم بعد الثلاثين من عمره، إلا إنه قال بتفسير بعض الآيات القرآنية بعيداً عما قال به عامة المفسرين: https://www.youtube.com/watch?v=GtXIPHaAzjI.

(١) موقع الباحث علي منصور كيالي:
https://m.me/DrAliKayali?fbclid=IwAR١bsTcPogwguB٦HE١١G٨fBq

(٢) محمد شحرور مهندس وباحث ومفكر سوري، بدأ كتاباته عن القرآن والإسلام بعد عودته من موسكو، في سنة ١٩٩٠أصدر [الكتاب والقرآن] الذي حاول فيه تطبيق بعض الأساليب اللغوية الجديدة في محاولة لإيجاد تفسير جديد للقرآن مما أثار لغطاً شديداً استمر لسنوا. توفي في ٢٠١٩م./https://ar.wikipedia.org/wiki

(٣) الباحث محمد شحرور
https://m.me/Dr.Mohammad.Shahrour?fbclid=I

ومنهم الدكتور أحمد صبحي منصور[1] الذي ألف كتاباً في ذلك بعنوان [اكذوبة عذاب القبر]، ويقول في مقدمته (العقائد التي لا وجود لها في القرآن يحاول أصحابها إيجاد سند شرعي لها، ونسبتها للرسول ﷺ، وذلك ما ينطبق على موضوع عذاب القبر ونعيمه والثعبان الأقرع أو الشجاع الأقرع)[2].

وغيرهم من الحداثيين، والذين ينشرون أمثال هذه المقولات سواء في مؤلفاتهم ، أو عبر مواقع الانترنت، ولهذا سنذكر هنا ما ورد من أدلة تبين المقصد في قدرته تعالى على وجود هذه الحياة من جهة، وترد على شبهاتهم هذه وغيرها من جهة أخرى.

١ . الأدلة من القرآن الكريم على استمرارية الحياة بعد الموت:

وقد بدأنا بهذا الدليل باعتبار إيمان كل الذين ذكرناهم بالقرآن الكريم، ولهذا، فقد رأينا إن أفضل رد هو دعوتهم لقراءته قراءة تدبرية، وحسب تفاسير العلماء لها، لا أن يحكمون فيها تفكيرهم الرغبوي، ومن هذه الأدلة:

آ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] (وهذه الآية واضحة في الدلالة على الحياة بعد الموت، بل لا تدانيها آيةً أخرى)(٣)، ومثلها قوله تعالى:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ومثلهما كثير مما هو رد على من أنكر عذاب القبر، وفيها (دلالةً على بقاء الإنسان بعد الموت ما بينه وبين يوم القيامة)[4].

---

(١) الدكتور أحمد صبحي منصور. تولد ١٩٤٩م، مؤسس حركة أهل القرآن التي تقول (القرآن وكفى)، وهي مجموعة تكونت مع نهاية السبعينيات حول مقالاته وخطبه، وكان وقتها طالباً بجامعة الأزهر، من مؤلفاته [الأنبياء في القرآن الكريم]، [الإسلام دين السلام]، و[حرية التعبير فى الإسلام]، [عذاب القبر والثعبان الأقرع]. alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=٦.http://www.ahl

(٢) اكذوبة عذاب القبر والثعبان الأقرع: ٢.

(٣) دراسات عقائدية: ٣٦١.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٦٣، و(يُنظَر) معالم أصول الدين: ١٢٧، وتفسير الأمثل: ١٥/ ٢٧٦.

ب ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ٤٦]، فعلى الرغم من الاختلاف في هاتين الموتتين والاحيائين إلا إن أكثر وجوه معناها تدل على الاحياء في القبر، ومما ذكره الطبرسي (٥٤٨هـ) في وجوه معناها:

- الإماتة الأولى في الدنيا بعد الحياة، والثانية في القبر قبل البعث، والإحياء الآتي في القبر للمساءلة، والثاني في الحشر.
- ان الاماتة الأولى حال كونهم نطفاً، فأحياهم الله تعالى في الدنيا، ثم أماتهم الموتة الثانية، ثم أحياهم للبعث، فهاتان حياتان وموتتان[١].
- إن الحياة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر، ولم يُرد الحياة يوم القيامة، والموتة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر[٢].

ج ـ قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، حيث عبرت هذه الآيات بصراحة عن وجود هذا العالم، أي إن آل فرعون يعرضون صباحاً ومساءً على النار قبل القيامة، وذلك كنوع من العقاب البرزخي لهم[٣].

د ـ قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فمما جاء في تفسير الآية الكريمة إنه (البرزخ ما بين الموت الى البعث، وقيل: هو القبر وهم فيه الى يوم يبعثون)[٤].

---

(١) انكر القاضي عبد الجبار هذا الرأي بقوله (ومتى قالوا: إن إحدى الإماتتين إنما هو خلق الله تعالى الخلق نطفةً هي موات، قلنا: إن الإماتة في الحقيقة هي إبطالٌ للحياة وإزالتها وتفريق للبنية التي تحتاج هي في الوجود إليها، وذلك لا يُتصور في النطفة التي لم تكن حيةً أصلاً، وبعد، فقد أثبت الله تعالى الإماتةَ مرتين، وعلى هذا الذي ذكرتموه يقتضي أن يكون ذلك مراراً) واتفقوا في بقية الرأيين، شرح الاصول الخمسة: ٧٣١.

(٢) (يُنظر) مجمع البيان: ٨/ ٣٢٦، و(يُنظر) مختصر الأصول: ٢٧٧، و(يُنظَر) شرح الاصول الخمسة: ٧٣٠.

(٣) (يُنظر) تفسير مجمع البيان: ٣٣٧/٨، وتفسير الأمثل: ١٥/ ٢٧٦، معالم أصول الدين: ١٢٧.

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن: ٣/ ٣٧٤.

ومع وضوح هذه الأدلة نجد المنكرين للحياة البرزخية يستعملون كل ما لديهم من أدوات القص والكتمان والحذف لأجل تقرير ما يريدوه، ومن أمثلة ذلك اقتباس بعضهم لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، مع حذفه لتتمة الآية، والتي تقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، ثم تعقيبه على النص الذي اقتبسه بقوله: (إذاً يقول الحق، هو موت فى البداية، ثم الحياة الدنيا التى نحياها الآن، ثم الموت، ثم الحياة فى الآخرة. موتتان وحياتان، أي: ٢+٢ = ٤. إذا اضفنا [حياة القبر] تصبح هذه المعادلة خاطئة لأننا نضيف حياة أخرى لمشاهدة الفلم المرعب [منكر و نكير والثعبان الأقرع.]، ثم بعد ذلك موتة أخرى. أي ٣+٣، وهذا لا يساوى ٤ كما قال الحق)، لكنه لو قرأ فقط تتمة الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لرد على نفسه بنفسه، فالله تعالى ذكر رجوعه إليه، أي يوم القيامة بعد الحياتين والموتتين، وذلك ما يتطلب وجود حياة برزخية[1].

كذلك إنكارهم الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فحملوا الآية الكريمة على المجاز، فقالوا إنّها بمعنى أنّ الشهداء يبقون بعد موتهم أحياء في قلوب الناس، أي إنّ ذكر الشهداء وأسمائهم خالدة حيّة بعد فقدهم، فهي من قبيل التعبير لقول الإمام علي عليه السلام: (أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة)[2]، وفي الواقع هذا الكلام في غير محلّه لأسباب، منها:

أولاً: إنّ تعبير الآية الكريمة في آخرها ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ينافي تماماً ما ذُكِر، إذ لو كان المعنى أنّه مع عدم حياتهم فإنّهم ما زالوا خالدين في النفوس والقلوب، فيشعر الناس بهم كأنّهم أحياء، فكيف يعود ليخاطبهم القرآن بأنه ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؟!

ثانياً: إنّ الآية الثانية التي كرّرت مفاد هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

---

(١) الاعتقاد بخرافة عذاب القبر، و(يُنظر) التنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٢٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤/ ٤٢٤.

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، إنّ هذه الآية تتحدّث بصراحة عن أنّ هؤلاء الشهداء بعد موتهم يُرزقون ويفرحون ويستبشرون، وهذا يتنافى مع القول بأنّ حياتهم مجرّد خلود أسمائهم في القلوب[1].

ثمّ إنّ البعض قد ادّعى اختصاص هذه الحياة بالشهداء، لأنّ هذه الآية خاصّة بهم؛ ولكن نقول: صحيح أنّ تلك الحالة من الرزق والفرح والاستبشار خاصّة بالشهداء، إلا أنّه من غير المحتمل في المقابل أن تكون الأصناف الأخرى من البشر ـ غير الشهداء ـ يلفّها سكون وفناء مطلق، بل لا بدّ أنّهم يعيشون حياة تتناسب مع ما يليق بها عملوه في هذه الدنيا، كما استحقّ الشهداء هذا النوع من الحياة، فالآية حينما تشير إلى الحياة السعيدة التي يحياها الشهداء بعد موتهم، فهي تنبّه إلى أنّ لكل بني البشر حياةً بعد الموت تناسب ما عملوه في الدنيا[2].

وهكذا نجدهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، ويتصورون أن العذاب سيؤخر إلى الآخرة، لأن الله تعالى لا يؤاخذ الظالمين قبل ذلك[3].

فيُرد على مدعاهم هذا بأنهم (لو قرأوا مع تلك الآيات آيات أخرى كثيرة جداً، تذكر تعجيل الله تعالى العقوبة لعباده في الدنيا قبل الآخرة، لفهموا تلك الآيات الكريمة فهماً صحيحاً؛ فهي لا تنفي العذاب المطلق، وإنما تنفي العذاب الأكبر الحقيقي، والذي لا يكون إلا

---

(١) دراسات عقائدية: ٣٦٣.

(٢) (يُنظر) دراسات عقائدية: ٣٦٣.

(٣) التنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٢٦.

في الآخرة، أما ما عداه؛ فهو هين جداً مقارنة بعذاب الآخرة، ولكن لا يعني أنه ليس عذاباً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، والتي فسرها ابن عباس بقوله: (عذاب القبر قبل عذاب يوم القيامة)[١].

وهكذا نجد القرآن الكريم نفسه يخبرنا بأن العذاب المرتبط بالكافرين والمنحرفين لا يصيبهم في الآخرة فقط بل في الدنيا أيضاً، وفي حال الاحتضار خصوصاً؛ فقد قال تعالى في أقسام المحتضرين، وكيف يعاينون العالم الذي سيفدون إليه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥].

وهكذا أخبرنا تعالى عن فزع الإنسان عند اكتشافه لحقيقة المصير الذي سيصير إليه مباشرة بعد موته؛ فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقد أقر أحمد صبحي منصور في كتابه الذي حاول أن يستدل فيه على عدم وجود عذاب القبر بحياة الشهداء في البرزخ، لكنه جعله خاصاً بهم، كما خصص العذاب بقوم فرعون ونوح، وهذا كله تصرف بالهوى المجرد مع النصوص الكريمة التي من شأنها أن تذكر الحقائق، لا أن تؤرخ لجهة من الجهات.

كما نجده يستعمل كل الوسائل للفرار مما تقتضيه الآيات الكريمة الواردة في آل فرعون، فراح يجادل في مصطلح[عذاب القبر]، فقال: (إن عذاب فرعون ليس فى القبر، ولكنه عذاب فى البرزخ لأن الخصوصية التالية لفرعون أن الله أنجى جسده وقال له عند الموت ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]، ولو كان هناك عذاب قبر كما يقول أشياع الثعبان لظل جسد فرعون فى القبر ينهشه الثعبان)[٢]، ونحن وكل من يؤمن بعذاب القبر يقره

---

(١) تفسير جامع البيان: ٢٢/ ٤٨٧.

(٢) أكذوبة عذاب القبر والشيطان الاقرع: ١٢ ـ ١٥، والتنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٣٤.

على هذا؛ فمصطلح [عذاب القبر] ليس المراد به القبر فقط، فحتى الذي لا يُقبر قد يُعذب، وقد يُنعم. إذ إن القبر ليس فقط محلاً للعذاب، وإنما هو أيضا محل للنعيم، لكن جرى الاصطلاح على تسميته بالعذاب، ولا مشاحة في الاصطلاح[1].

٢. الأدلة من السنة المطهرة على استمرارية الحياة بعد الموت:

للمنكرين للحياة البرزخية موقفان من الأحاديث النبوية المطهرة، والتي تنص صراحة على حياة البرزخ، بما فيها من نعيم أو عذاب، ذكرهم الدكتور نورالدين أبو لحية في كتابه [التنويريون والصراعات مع المقدسات]، وهما:

١ . (موقف من يسمون أنفسهم [قرآنيين]، فهو لا يهتم بتلك الأحاديث، ولا يراعيها، لأنه لا يعتبرها مصدراً مقدساً؛ فهو يرى أن القرآن الكريم وحده يمكن أن يهديه للحقائق، ولا خطاب لنا مع هذا الصنف عند هذه الشبهة، لأنا خاطبناه في الشبهة السابقة، وبينا أن القرآن الكريم ينص صراحة على عذاب القبر. وهو نوع من الهروب من الحقيقة القرآنية التي دلت عليها كل الأدلة.

٢ . موقف من يقر بالسنة، ولكنه يتعامل تعاملاً مزاجياً معها، ذلك أنه يضع حدوداً للسنة المقبولة تتناقض كل حين، بحيث لا يستطيع هو نفسه أن يضع ضابطاً يطبقه على الجميع. فإن أراد بالسنة المتواترة تواتراً لفظياً فقط، فسيلغي الكثير من العقائد والشرائع التي يقر بها، ذلك أن مثل هذا التواتر لا يكاد يوجد. وإن أراد بالسنة ما تواتر معنوياً، فعذاب القبر مما تواتر معنوياً)[2].

وهذه الأحاديث قد رويت عن كثير من الصحابة، لا كما يذكر التنويريون بأنها لم ترو إلا عن خمسةٍ منهم، فقد قال عبدالغني المقدسي (ت ٦٠٠هـ): (الإيمان بعذاب القبر حق واجب،

---

(١) التنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٥

وفرض لازم، رواه عن النبي ﷺ: علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبو أيوب، وزيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو بَكْرة، وأبو رافع، وعثمان بن أبي العاص، وعبدالله بن عباس، وجابر بن عبدالله، وعائشة زوج النبي، وأختها أسماء، وغيرهم)[1].

ولهذا حكى الكثير من العلماء تواتر هذه الروايات في المدرسة السنية[2]، ومما يقوي ذلك التواتر الأحاديث والروايات الكثيرة في مدرسة أتباع أهل البيت عليهم السلام، وهو ما يعطي المسألة قوة كبيرة تفوق التواتر، لأنه حينها يصبح إجماعاً للأمة، لا مجرد إجماع لطائفة، والإجماع أكبر من التواتر، لأن التواتر قد يحصل في مدرسة واحدة، ويعبر عن وجهة نظرها فقط، بخلاف الإجماع الذي يدل على اتفاق الجميع[3]، ومن تلك الأحاديث:

الحديث الأول: قوله ﷺ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ)[4].

فالحديث الشريف يدل على العرض للإنسان بعد موته و(العرض لا يكون إلا على حيٍّ، وفيه دلالة على بقاء الأرواح؛ لأنها التي يعرض عليها، ويحتمل أن يريد بالغداة والعشي: كل غداة وكل عشية، وذلك لا يكون إلا بإحياء جزء منه، فإنا نشاهد الميت ميتًا بالغداة والعشي، وذلك يمنع إحياء جميعه، وإعادة جسمه، ولا يمتنع أن تعاد الحياة في جزء أو أجزاء منه)[5].

الحديث الثاني: ما ورد أن رسول ﷺ كان يدعو في صلاته قائلاً: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا،

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد: ١٧٢، ١٧٣.

(٢) فتح القدير: ١/ ١٨٤، و(يُنظَر) معارج القبول بشرح سلم الوصول: ١١٧/٢.

(٣) التنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٤٦٤، وصحيح مسلم: ٢١٩٩/٤.

(٥) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ١٠/ ١٦٢

وَالْمَمَاتِ)[1].

فهذا الحديث يدل على أن عذاب القبر حق، حيث استعاذ منه ﷺ وهو معصوم مطهر مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[2].

الحديث الثالث: اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: (يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ[3]، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا)، فقيل له تدعو أمواتاً؟ فقال ﷺ: (مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لاَ يُجِيبُونَ)[4].

كذلك مما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في وجود الحياة البرزخية واستمرارية الحياة بعد الموت، إذ يقول الإمام علي عليه السلام: (يا عباد الله ما بعد الموت لمن لا يغفر له أشد من الموت، القبر فاحذروا ضيقه وضنكه وظلمته وغربته، إن القبر يقول كل يوم: أنا بيت الغربة، أنا بيت التراب، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدود والهوام، والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار)[5]، ومما وردَ عن الامام الباقر عليه السلام: (فإذا دخلَ حفرته رُدَّت الروح في جسده وجاءهُ ملكا القبر وامتحناه)[6].

ومن خلال هذا الامتحان ونتائجه يكون ثواب القبر ونعيمه أو عذابه وعقابه، إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام: (البرزخ: القبر، وفيه الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة)[7]، كما يؤيد ذلك ما رُويَ عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٤٦٣، وصحيح مسلم: ١/ ٤١٢.

(٢) (ينظر) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ١٠/ ١٦٠.

(٣) (أهل القليب) قتلى المشركين يوم بدر، وهو البئر التي لم تطو وقيل العادية القديمة التي لا يعرف صاحبها فائدة، والظاهر أن البئر لم يكن فيها ماء معين. (يُنظَر) فتح الباري: ١/ ٣٥٢.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٤٦٢.

(٥) بحار الأنوار: ٦/ ٢١٨.

(٦) الكافي: ٣/ ٢٣٤.

(٧) تفسير القمي: ٣/ ٢٠.

بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]، إذ يقول فيها: (يستبشرون والله في الجنة بمن لم يلحق بهم من خلفهم من المؤمنين في الدنيا)(١).

٣ . إجماع الأمة على استمرارية الحياة بعد الموت:

حيث اتفقت المدارس الإسلامية على وجود الحياة البرزخية والنعيم والعذاب في القبر، وقد صرَّح كل علمائهم بذلك، وسنقتصر هنا على ما قاله علماء أكبر مدرستين في العالم الإسلامي:

١ ـ علماء المدرسة الإمامية: حيث يقول الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ): (إعتقادنا في المساءلة في القبر، أنه حقٌ لا بدَّ منها، فمن أجابَ بالصواب فازَ بروحٍ وريحان في قبره، وبجنة النعيم في الآخرة، ومن لم يُجِب بالصواب فله نزلٌ من حميم في قبره وتصلية جحيم في الآخرة(٢).

وقال الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ): (إن عذاب القبر جائز غير مُحال ولا وجه فيه للقبح، أما الدِلالة على صحته ورفع استحالته: فمن حيث أن الميت إذا أُعيد حيّاً صحَّ أن يُعاقب كما صحَّ ذلك فيه قبل الموت، ولعلَّ من أحاله ظنَّ أنه يُعاقب وهو ميت، أما ضيق القبر عن العقاب فإنه يجوز أن يوسَع حتى يمكنه المعاقبة، على أنَّ المتولي من الملائكة للمعاقبة لا يحتاج سعة موضع للطافته، ولا وجه للإحالة)(٣).

٢ ـ علماء المدرسة السنية: من الاشاعرة والماتريدية وغيرهم، فقد قالوا بوجود عالم البرزخ والقبر، حيث يقول أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) فيه: (وقد رُوي عن النبي ﷺ

---

(١) بحار الأنوار: ٦/ ٢١٨.

(٢) الاعتقادات في دين الامامية: ٥٨.

(٣) الذخيرة في علم الكلام: ٥٢٨، و(يُنظَر) الإقتصاد فيما يتعلق بالإعتقاد: ٢٢٠.

من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه، وما روي عن أحد منهم أنه أنكره ونفاه وجحده، فوَجَب أن يكون إجماعاً من أصحاب النبي ﷺ)[1].

وتبعه الرازي[2](ت٦٠٦هـ) بقوله: (إنا بينا أن الإنسان جوهر لطيف نوراني ساكن في هذا البدن فبعد خراب هذا البدن إن كان كاملاً في قوة العلم والعمل، كان في الغبطة والسعادة، وإن كان ناقصاً فيهما كان في البلاء والعذاب، ثم القرآن القديم يدل عليه)[3].

وقال حافظ الحكمي[4](ت ١٣٧٧هـ): (نصوص السنة في إثبات عذاب القبر قد بلغت في ذلك مبلغ التواتر؛ إذ رواها أئمة السنة وحَمَلة الحديث ونقَّاده عن الجم الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم: أنس بن مالكٍ، وعبدالله بن عباسٍ، والبراء بن عازبٍ، وعمر بن الخطاب، وابنه عبدالله، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت أبي بكرٍ، وأبو أيوب الأنصاري، وأم خالدٍ، وأبو هريرة، وأبو سعيدٍ الخدري، وسمرة بن جندبٍ، وعثمان، وعلي عليه السلام، وزيد بن ثابتٍ، وجابر بن عبدالله، وسعد بن أبي وقاصٍ، وزيد بن أرقم، وأبو بكرة، وعبدالرحمن بن سمرة، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وأبوه عمرو، وأم مبشرٍ، وأبو قتادة، وعبدالله بن مسعودٍ، وأبو طلحة، وعبد الرحمن بن حسنة، وتميم الداري، وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، والنعمان بن بشيرٍ، وعوف بن مالكٍ رضي الله عنهم)[5].

---

(١) الإبانة: ٢٤٧.

(٢) فخر الدين الرازي ابن خطيب الري، إمام المتكلمين، كان شافعياً أشعرياً، ناظر المعتزلة، وانقطع في أواخر أيامه للوعظ فكان يحضر مجلسه الخاص والعام، له مصنفات كثيرة أقبل الناس عليها في حياته يتدارسونها، من كتبه [مفاتيح الغيب]، و[نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز]، وغيرها، توفي سنة (٦٠٦هـ). (يُنظَر) معجم المفسرين: ٢/ ٥٩٦.

(٣) معالم أصول الدين: ١٢٧.

(٤) أحد أعلام شبه الجزيرة العربية، نشأ في بيئة صغيرة متماسكة محافظة، ركزَ على الدعوة إلى العقيدة السليمة لما كان عليه مجتمعه وبيئته، من مؤلفاته [سلم الوصول إلى علم الأصول]، و[معارج القبول]، و[جوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة]، توفي رحمه الله أثر مرض ألَمَّ به وهو يبلغ من العمر (٣٥) عاماً، في سنة (١٣٧٧م). (يُنظَر) الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (١٣٤٢ ـ ١٣٧٧هـ) حياته وآثاره: ٥٦، و٦٩ ـ ٩٧.

(٥) معارج القبول لحافظ حكمي: ٢/١١٧.

وهذا قول أكثر المعتزلة، حيث يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت٤١٥هـ)[١] من كبار أئمتهم لمن سأله (فإن قال: أفتجوزون ما ورد في الأخبار من عذاب القبر ومنكر ونكير والمسائلة والمحاسبة والميزان والصراط وغير ذلك؟ قيل له: نعم نؤمن بجميع ذلك على الوجه الذي نجوز له، لا على ما يظنه أهل الحشو[٢] من إنه يعذبهم وهم موتى في قبورهم، ولا كما تقوله المجبرة[٣] من إنه لا أصل لعذاب القبر. وقد تظاهرت الأخبار بذلك، ولا يمتنع من يُلقَب من الملائكة بمنكر ونكير، ليكون أعظم في التعذيب)[٤].

أما ما يرد في المؤلفات من إنكار المعتزلة لعذاب القبر فهو لنسبة ضرار بن عمرو إليهم، حيث يقول فيه القاضي عبد الجبار: (كان من أصحاب المعتزلة ثم التحق بالمجبرة، ولهذا نرى ابن الراوندي يشنع علينا ويقول: ان المعتزلة ينكرون عذاب القبر ولا يقرون به)[٥].

---

(١) عبد الجبار بن احمد بن عبد الجبار بن احمد، القاضي أبو الحسين الهمداني الأسد أبادي، الذي تلقبه المعتزلة قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على سواه، درس الاعتزال حتى فاق الأقران، من مؤلفاته المشهورة،كتاب [المغني في أبواب العدل والتوحيد]، و[الأصول الخمسة]، و[الدواعي والصوارف]، و[الخلاف والوفاق]، وغيرها. (يُنظَر) باب ذكر المعتزلة وطبقاتهم: ١٠٩، ومذاهب الإسلاميين: ٣٨٠.

(٢) قيل هم مَن يجرون آيات الله على ظاهرها ويعتقدون أنه المراد، وسمّوا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري فوجدهم يتكلّمون كلاماً فقال: ردّوا هؤلاء إلى حشاء الحلقة فنسبوا إلى حشاء فهم حشوية بفتح الشين، وقيل سمّوا بذلك لأنّ منهم المجسّمة والجسم حشو. فعلى هذا القياس هم الحشوية بسكون الشين. وقيل المراد بهم طائفة لا يرون البحث في آيات الصفات التي يتعذّر اجراؤها على ظاهرها بل يؤمنون بما أراده الله مع جزمهم بأنّ الظاهر غير مراد ويفوّضون التأويل إلى الله تعالى، وقيل غير ذلك. (يُنظر) كشاف اصطلاحات الفنون: ١/ ٦٧٨.

(٣) من الفرق الإسلامية التي ترى أن الإنسان لا يخلق أفعاله، وليس له مما يُنسَب إليه من الأفعال شيء، أي نفي حقيقة الفعل إلى العبد وإضافته إلى الله تعالى، إذ العبد لا يُوصَف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة ولا إرادة ولا اختيار له، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتُنسَب الأفعال إليه مجازاً كما تُنسَب إلى الجمادات. (يُنظر) تاريخ المذاهب الإسلامية الإسلامية: ٩٨.

(٤) المختصر في أصول الدين: ٢٧، و(يُنظَر) شرح الاصول الخمسة: ٧٣٠ ـ ٧٣٣.

(٥) شرح الأصول الخمسة: ٧٣٠.

٤ . الأدلة العقلية على استمرارية الحياة بعد الموت

يتصور الكثير من المنكرين للحياة البرزخية أنفسهم بكونهم يستعملون العقل لإنكارهم هذه النشأة، ولذلك نحتاج في الحوار معهم إلى استعمال الأدلة العقلية، ومع إن جميع مباحث اليوم الآخر في الأصل تكتفي بالدليل النصي، لأنها مرتبطة بالإيمان بالغيب، إلا إننا نذكر هنا بعض الأدلة العقلية التي ساقها المتكلمون في الرد على الشبه المرتبطة بهذا الجانب، لكونها تشكل مقصداً عقدياً مهماً في توافق هذه المباحث مع ما يذهب إليه العقل الإنساني، ومنها:

الدليل الأول: دليل الفطرة

وهو من البراهين التي استدل بها الفلاسفة وغيرهم، ويمكن لأي شخص أن يكتشفها في نفسه، فالله تعالى أودع فينا من المعارف ما نتفق عليه جميعاً.

ويشير الى هذا الدليل قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، كما أشار إليه النورسي(ت١٣٧٩هـ) بقوله: (يرى العلماء المحققون أن أفكار البشر وتصوراتِه الإنسانية التي لا تتناهى المتولّدةَ من آماله غير المتناهية، الحاصلةَ من ميوله التي لا تُحد، الناشئةَ من قابلياته غير المحصورة، المندمجةَ في استعداداته الفطرية غير المحدودة، المندرجةَ في جوهر روحه، كلٌّ منها تمدّ أصابعَها فتشير وتحدُق ببصرِها فتتوجّه إلى عالم السعادة الأبدية وراء عالم الشهادة هذا، فالفطرةُ التي لا تكذب أبداً، والتي فيها ما فيها من ميلٍ شديد قطعي لا يتزحزحُ إلى السعادة الأخروية الخالدة تعطي للوجدان حدساً قطعياً على تحقق الحياةِ الأخرى والسعادة الأبدية).

ويقول: (نعم، إنّ دارَ الدنيا القصيرة هذه لا تكفي ـ كما أنها ليست ظرفاً ـ لإظهار ما لا يحدّ من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وإثمارِها، فلابدّ أن يُرسَل هذا الإنسان إلى

عالم آخر. نعم، إنّ جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشّح لها، وإنّ ماهيتَه عالية وراقية؛ لذا أصبحت جنايتُه عظيمة؛ فلا يشبه الكائنات الأخرى، وإن نظامَه دقيق ورائع، فلن تكونَ نهايتُه دون نظام، ولن يُهمَل ويذهب عبثاً، ولن يُحكم عليه بالفناء المطلق ويهرب إلى العدم، وإنما تفتح جهنمُ أفواهَها فاغرةً. تنتظره. والجنة تبسط ذراعيها لاحتضانه)[١].

ويذكر الدكتور نور الدين أبولحية[٢] في كتابه أسرار ما بعد الموت بأن (هذا الدليل يشبه كثيراً الدليل الأنطولوجي لأنسلم وديكارت، ودليل الصديقين للفارابي وابن سينا والملا صدرا، فكل هذه الأدلة تعتمد على تلك الحقائق التي ركزت في نفس الإنسان، فأصبحت من البديهيات التي لا يحتاج إلى الاستدلال لها)[٣].

ثم يضيف كمثال على ذلك بأن الدليل الذي ينص على أن (الموجود الذي لا يمكن تصور شيء أعظم منه لا يمكن أن يوجد في العقل وحده، وبالفعل، حتى إذا كان موجوداً في العقل وحده، فمن الممكن أن نتصور موجوداً مثله له وجود في الواقع أيضاً، وهو بالتالي أعظم منه، وعليه، إذا كان موجوداً في العقل وحده، فإن الموجود الذي لا يمكن تصور شيء أعظم منه سيكون من طبيعة تستلزم أن يكون بالإمكان تصور شيء أعظم منه)[٤]،

---

(١) الكلمات: ٦٠٧، و٦١٢.

(٢) كاتب وأستاذ جامعي في جامعة باتنة في الجزائر، له أكثر من مائة كتاب في المجالات الفكرية المختلفة، مرتبة على شكل سلاسل، آخرها سلسلة سنة بلا مذاهب في جمع الحديث الشريف والتي يحاول من خلالها أن تكون موسوعة شاملة لكل الأحاديث المقبولة، وسلسلة أحكام وحِكَم، والتي يذكر فيها المسائل الفقهية والخلافات الواردة فيها، ثم ترجيح الرأي المقاصدي لكل مسألة، فضلاً عن السلاسل والمحاضرات الصوتية، وهو مهتم خصوصاً بمواجهة الفكر المتطرف والعنف والإرهاب والدعوة لتنقيح التراث، والتقارب بين المذاهب الإسلامية، من دعاة التواصل الإنساني والحضاري بين الأمم والشعوب. مقتبس من سيرته الشخصية والتواصل معه على الموقع الاليكتروني http://www.aboulahia.com/.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ٢١.

(٤) تاريخ الفلسفة: ٣/ ٥١.

والذي ينسب إلى أنسلم يمكن تطبيقه هنا، فالإنسان يشعر بأن هذه الحياة لا تكفي لتلبية رغباته الكثيرة، ولا تفي برد حقوقه المستلبة، ولذلك يتطلع إلى حياة أخرى، يجد في نفسه شوقاً كبيراً إليها.

وهذه ليست عقدة نفسية كما يتوهم الذين يجعلون من الحياة بعد الموت نوعاً من التفكير الرغبوي، ذلك أن هذه الرغبة متفق عليها بين البشر جميعاً، وفي جميع العصور، وهي تدل على أن لها واقعاً لم نكتشفه لأننا لم نرحل بعد إلى ذلك العالم.

ولو كانت تفكيرا رغبوياً لانحصرت في أشخاص دون أشخاص، أو طائفة دون طائفة، مثلما نرى الكثير من النزغات الشاذة، أو العقد النفسية التي يحاول المرضى أن يحولوا منها حقائق واقعية، ولو كانت كذلك لما اشترك البشر جميعاً في الانفعال لها، مثلما يشتركون في عطشهم وجوعهم وأشواقهم المختلفة[1].

الدليل الثاني: اتفاق الأديان والفلاسفة القدامي

فالبشر بأديانهم المختلفة، متفقون على هذا، وهم في العادة لا يتفقون إلا على شيء واقعي، مركوز في فطرهم، ومن الأمثلة على ذلك الحضارة المصرية القديمة، والتي كانت تقوم على الكثير من المعتقدات، وكان من أهمها تلك المعتقدات المرتبطة بالحياة بعد الموت، حتى أن (إيمان المصريين بولادة جديدة بعد الموت أصبحت القوة الدافعة وراء ممارسات جنازة خاصة بهم، وكأن الموت مجرد انقطاع مؤقت، بدلاً من التوقف الكامل عن الحياة، وأنه يمكن ضمان الحياة الأبدية عن طريق وسائل مثل التقوى للآلهة، والحفاظ على الشكل المادي من خلال التحنيط، وتوفير التماثيل والمعدات الجنائزية الأخرى)[2].

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٢٢.

(٢) (يُنظَر) إشكالية الموت في الديانات السماوية والأرضية، بحث من إعداد ـ يسرى وجيه السعيد، مجلة ذوات: مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد ٤٣.

ويذكر الباحثون أن المصريين في حضارتهم القديمة كانوا يؤمنون بالبعث، وأن معتقداتهم تذكر أنه يمكن للإنسان أن يحافظ على حياته بعد الموت إذا حافظ على كينونته، وهي تتركب عندهم من أربعة أجزاء: الاسم (رين)، الروح (با)، الظل (شيوت) والنفس (كا).

وجميع هذه الأجزاء ـ كما يرى المصريون القدامى ـ (تولد مع الإنسان، فالاسم والروح والظل والنفس ترافقه مدى الحياة وما بعد الحياة كجزء من كيانه، وعند الموت تبقى هذه المركبات ملازمة للميت، وتبقى الـ [با]؛ أي الروح، حية حتى بعد موت الجسد. وهي أمور يحتاجها الميت للمثول أمام محكمة الآلهة للمحاسبة على أفعاله، ومن ثم يُبعث من جديد في الحياة الأخرى)(١).

وللأسف فإن هذا الدليل مع قوته واعتباره، إلا إنه كان شبهة للمنكرين للحياة البرزخية، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه سامح عسكر تحت عنوان [مصدر خُرافة عذاب القبر]، والذي أعاد فيه هذه العقيدة لمصادر مختلفة عبر عنها بقوله: (بما أن اليهود هم أصل هذه العقيدة عند المسلمين؛ فهذا يعني حدوث واحد من أمرين اثنين: إما أن اليهود ـ حينها ـ كانوا يؤمنون بالحياة في البرزخ، وأن البعث يكون مرتين الأولى في القبر، والثانية يوم القيامة، وبالتالي فهم يؤمنون بثلاثة أنواع من الحيوات، وهذه العقيدة هي نفسها عقيدة من يؤمن بعذاب القبر من المسلمين. أو أن اليهود لم يكونوا يؤمنون بالبعث يوم القيامة أصلاً. ولكن يؤمنون بالبعث في القبر، وأن الحساب الأخروي لديهم موجود بداخله، وهذا يعني أن عذاب القبر لديهم هو نفسه عذاب الآخرة).

ثم راح يرجح الاحتمال الثاني، ليبني عليه أن مصدر هذه العقيدة هم المصريون القدامى، فقال: (وأنا أرجح الثانية. لأن هذا الاعتقاد هو بعينه اعتقاد المصريين القُدماء،

---

(١) هاجس البعث: الموت والقيامة في الحضارات الإنسانية:https://ahlam٠٠٢.wordpress.com

فنشأة اليهود بالأصل كانت مصرية حتى مع الخلاف حول هذه النتيجة ـ حتى أن عقائد اليونان القدماء لم تَخْلُ من هذا الطرح ـ وعقيدة الحساب والجزاء لديهم كانت في القبور وهذا ما حملهم على دفن متاع الميت معه)[1].

ومثل ذلك ما كتبه أحمد صبحي في [أكذوبة عذاب القبر] الذي قال في مقدمته: (في الوقت الذى يستعد فيه العالم لارتياد القرن الحادى والعشرين بمزيد من التقدم فى العلوم تقدماً يقترب من الخيال، يحصر المسلمون اهتماماتهم حول قضايا ترجع إلى خرافات تنتمى إلى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد. وهكذا ينفصل المسلمون عن عصرهم بأكثر من أربع آلاف سنة مع أن الإسلام حين نزل فى القرن السابع الميلادى وقف موقفاً حازماً من الأساطير والخرافات ووضع منهجاً علمياً تجريبياً فى القرآن للبحث والاكتشاف)[2].

ونفس الأمر نجده يُردَد في كتب ومقالات تنويرية كثيرة، تحاول أن تربط هذه العقيدة بعقائد الأمم السالفة، لتقوم بنسفها بعد ذلك، وكأن القاعدة الشرعية هي أن الإسلام لا يقصد سوى مخالفة عقائد الأمم.

ولو طبقنا هذه المعايير التي ذكروها على أحكام الحج، لألغوها جميعاً، فقد كان الحج أيضاً موجوداً في الديانات المختلفة، بل إن القرشيين المشركين كانوا يتفقون مع المسلمين في كثير من أحكام الحج، وهكذا نجد أكثر الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم هم أنفسهم المذكورون في الكتاب المقدس، بل نفس قصصهم موجودة، والاختلافات بين ما ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس محدودة؛ فهل نعتبر تلك القصص مستمدة من الكتاب المقدس، وأنها إرث من الديانات الأخرى تسلل لكتاب المسلمين ودينهم.

ولو أن هؤلاء تواضعوا قليلاً، وحاولوا أن يتخلصوا من ذلك الفكر الرغبوي، وعادوا

---

(١) (يُنَظَر) خُرافة عذاب القبر، نقلاً عن التنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٢٢.

(٢) أكذوبة عذاب القبر: ١.

إلى نصوص القرآن الكريم نفسها، ومثلها إلى السنة المطهرة التي هي بيان للكتاب، وشرح له، لوجدوا الأدلة الكثيرة جداً، والتي تكفي آحادها لكف المؤمن عن التجرؤ على مخالفتها.

ولذلك، فإن مجرد اتفاق المسلمين مع أهل الكتاب أو غيرهم من أهل الأديان على هذه العقيدة لا يعني إلغاءها، بل إنه يعني أن هذه العقيدة من العقائد المقررة في الأديان الأخرى، والتي لا زالت تحتفظ بها[1].

وعلى ذلك أيضاً إجماع الفلاسفة القدامى (على أن النفس لها أصل إلهي سابق على البدن، وهم من هذا المنطلق اعتقدوا بضرورة مفارقتها له بعد اكتمال مهمتها من بلوغ الحد الذي يجعلها قابلة للانفصال عنه كلياً، مما يعني أن النفس لا بد لها أن تعود إلى عالمها الالهي الذي تنزلت منه، أي فكما أن هناك تنزلاً، فهناك عود وصعود)[2].

الدليل الثالث: التفريق بين التعقل والتصور

وهذا ما وقع فيه المنكرون للحياة البرزخية حيث أنهم ينكرون ما لا يدركونه بحواسهم وليس له وجود واقعي، وهذا غير صحيح، لأن عذاب القبر مثله مثل سائر عالم الغيب، لا علاقة للحواس به، فلذلك يكون التعامل معه بالتعقل، لا بالتصور.

ومن هذا الباب توهمهم أن المراد من عذاب القبر ونعيمه، ارتباطه بالقبر الحقيقي المعروف، وهذا غير صحيح، وإنما جائت التسمية من باب الغالب، لا من باب الحقيقة المطلقة، والتسمية الصحيحة لذلك، بحسب ما يذكر القرآن الكريم هي البرزخ، وهي المرحلة الفاصلة بين الحياتين الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ولهذا نرى العلماء ينبهون كل حين إلى أن المراد بالقبر هي حياة البرزخ، لا القبر في حد ذاته[3].

---

(١) (يُنظَر) التنويريون والصراعات مع المقدسات: ١٣٥، و١٣٦.

(٢) الفلسفة والعرفان والإشكاليات الدينية: ١٤٦.

(٣) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٥٠

وقال في ذلك الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ): (فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة، وأسرار خفيّة، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم)[١].

كما قال فيها النووي (ت٦٧٦هـ): (لا يمنع من سؤال الملكين وعذاب القبر كون الميت قد تفرقت أجزاؤه، كما نشاهد في العادة، أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أن الله تعالى يعيده للحشر، وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك، فكذا يعيد الحياة إلى جزءٍ منه أو أجزاءٍ وإن أكلته السِباع والحيتان، فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره، فكيف يسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر؟! فالجواب أن ذلك غير ممتنعٍ، بل له نظير في العادة، وهو النائم، فإنه يجد لذةً وآلامَا لا نحس نحن شيئًا منها، وكذا يجد اليقظان لذةً وآلمًا لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه، وكذا كان جبرائيل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وآله فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلي، وأما ضربه بالمطارق فلا يمتنع أن يوسع له في قبره فيقعد ويضرب)[٢].

ذلك أنه لا يخفى على كلِّ مؤمن بالله تعالى عظيم القدرة الإلهية وإمكانها، فهو تعالى الذي لا يُعجِزه شيء، لذلك فإن الإيمان بوجود الحياة البرزخية يُعَد من المسائل التي تثبت هذه القدرة من خلال الإيمان بحقيقة الموت وعدم فناء الإنسان بعده.

ويذكر السيد ناصر مكارم الشيرازي حقيقة الموت بقوله: (يتصوّر أغلب الناس أنّ الموت أمر عدمي ومعناه الفناء، إلاّ أنّ هذه النظرة لا تنسجم مع ما ورد في القرآن المجيد وما تدلّ عليه الدلائل العقلية ولا توافقها أبداً، فالموت في نظر القرآن أمر وجودي، وهو انتقال وعبور من عالم إلى آخر، ولذلك عُبّر عن الموت في كثير من الآيات بـ «تُوفّي» ويعني

---

(١) احياء علوم الدين: ٤/ ٥٠٠.

(٢) المنهاج: ١٧/ ٢٩١.

تسلّم الروح واستعادتها من الجسد بواسطة الملائكة.

والتعبير في الآية الكريمة ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، هو إشارة إلى هذا المعنى أيضاً)[١].

ويقول ابن حجر (ت٨٥٢هـ) (لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه، والحامل للقائلين بأن السؤال يقع على الروح فقط أن الميت قد يشاهَد في قبره حال المسألة لا أثر فيه من اقعاد ولا غيره ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب، وجوابهم أن ذلك غير ممتنع في القدرة بل له نظير في العادة وهو النائم، فإنه يجد لذة وألما لا يدركه جليسه، بل اليقظان قد يدرك ألما أو لذة لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يدرك ذلك جليسه)[٢].

فالذي يؤمن بالله تعالى، ويتلو ما ورد في كتابه ﴿اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التي وردت عشرات المرات سيؤمن حتماً بإحياء الله تعالى للميت في قبره ولو لم يُدفَن ويسأله عما وردت به الأحاديث، وإن ذلك ليس بمُحالٍ في عظيم قدرة الله تعالى ومالكيته لأمور العباد.

المقصد الثاني: استمرارية الحياة بعد الموت وعلاقته بالجزاء الإلهي

بعد أن بينا في المقصد الأول إثبات هذه العقيدة وأدلتها من القرآن الكريم والسنة والعقل، فضلاً عن إجماع الامة واتفاق الأديان عليها، والتي ترتبط مباشرةً بقدرة الله تعالى، نتناول هنا المقاصد والتجليات التي تُستَنبَط من الايمان بوجود عالم البرزخ واستمرارية الحياة بعد الموت، من حيث النعيم والعذاب الذي يلاقيه الإنسان لما قدَّمه خلال حياته من

---

(١) (في المراد من الباء في كلمة بالحقّ احتمالات عدة، فمنهم قال معناه التعدية والحقّ معناه الموت، ويكون معنى الجملة إنّ سكرات الموت لها واقعية أي أنّ السكرات تصحب معها الموت، وقيل أنّ الباء للملابسة، أي أنّ سكرات الموت تأتي مع الحقّ). تفسير الأمثل: ١٧/ ٣٦.(هامش الصفحة).

(٢) فتح الباري: ٣/ ٢٣٥.

أعمال، وارتباط هذا العمل بجزائه وعقابه.

وبناءً على ذلك فقد تكون هذا القسم من مقاصدَ عدة، أولها ارتباط عالم البرزخ واستمرارية الحياة بعد الموت بالعدالة الإلهية، وثانيها علاقته بالرحمة الإلهية، والثالث منه ما ارتبط بالحكمة والتربية الإلهية، وكلٌ حسب العنوانات التالية:

١. استمرارية الحياة بعد الموت وعلاقته بالعدالة الإلهية

وتتجلى هذه المقاصد في ترسيخ عدالة الله تعالى المطلقة في ذلك الموقف، يقول السيد كمال الحيدري في فلسفة الحياة البرزخية: (إن من أهم خصائص الحياة الآخرة كونها نتيجة لأعمال الإنسان، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، سواءٌ كانت نعيماً أو شقاء، فهي نتيجة لأعمال الإنسان في الحياة الدنيا، وحيثُ أن الحشر الأكبر لم يتحقق للجميع؛ لكون الحياة ما زالت مستمرة وما زال فيها أحياء، وسيأتي اليها أُناس لم يُولَدوا بعد، فاقتضت الحكمة الإلهية وجود حياة تسبق الحياة الأُخروية، وهي الحياة التي تكون الوسيط بين الدنيا والآخرة)[١].

وفي تلك الدار تتمثل لكل انسان أعماله التي استحق بها النعيم والعذاب البرزخي، ذلك (إن جزاء الآخرة هو تجسم لأعمال الدنيا، والنعيم والعذاب هناك هما نفس العمل الصالح والسيء الذي أداه الإنسان هنا، وقد كُشف عنهما الغطاء فظهرا للعيان، فمثلاً تلاوة القرآن تتجسم هناك بصورة جميلة وتستقر الى جانب صاحبها، أما الغيبة وظلم الناس فهما يتجسمان بصورة طعام كلاب جهنم للممارسين لهما.

وبعبارةً أخرى فإن لأعمالنا وجهين، الأول هو الوجه الظاهري الأرضي، وهو فانٍ ومؤقت، وهو الأعمال التي تظهر في الدنيا بصورة قول أو فعل، والثاني الوجه الغيبي الأخروي، حيث إن الأعمال بعد صدورها منا لا تفنى، وإنما تبقى ملازمةً لنا وتدور حولنا

---

(١) المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ١٨٤.

دوران الدائرة حول مركزها، وهذا الوجه الغيبي باقٍ وسوف نلتقي به في تلك الدار)[1].

وبما إن الموت أول مرحلة من منازل الآخرة، فإنه ومنذ اللحظات الاولى لهذه المرحلة يرى الإنسان نتيجة أعماله وآثارها بالإضافة الى تمثلها أمامه في عالم البرزخ، يقول السيد كمال الحيدري: (يعتقد الحكماء والفلاسفة وكثير من المتكلمين في مسألة تمثلات أعمال الإنسان في عالم البرزخ، أو ما يُسمى عندهم بتجسم الأعمال يوم القيامة أن الحقائق أو الأعمال من قبيل الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك من الأعمال التي نقوم بها لها وجودٌ آخر في عوالمٍ أُخرى في عالم الملكوت).

ثم يذكر المراد من الأعمال (المُراد من العمل في قولنا (تمثل الأعمال) ليس ما يقابل العقيدة فقط، بل العمل الذي هو أهم من الاعتقاد، أي العمل الجوارحي (المرتبط بالجوارح)، والعمل الجوانحي (المرتبط بالقلوب والاعتقادات والإيمان). وإن جميع أعمال الإنسان سوف تتمثل له في البرزخ، وستتجلى له، وكلُّ عملٍ سوف تكون له صورة تناسبه)[2].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٠]، حيث تشير هذه الآية الكريمة (إلى حضور الأعمال الصالحة والسيئة يوم القيامة، فيرى كلّ امريء ما عمل من خير وما عمل من شرّ حاضراً أمامه، فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون ويستبشرون، والذين يشاهدون أعمالهم السيّئة يستولي عليهم الرعب ويتمنّون لو أنّهم استطاعوا أن يبتعدوا عنها)[3].

كذلك قوله تعالى: ﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، فالآية الكريمة تدل

---

(١) العدل الإلهي: ٢٦٤، ٢٦٥، و(يُنظَر) مفاهيم القرآن: ٨/ ٣٣٠.

(٢) المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/، و(يُنظَر) مفاهيم القرآن: ٨/ ٣٣٠.

(٣) تفسير الأمثل: ٢/ ٤٦٢.

على أن نفس العمل يؤتى به يوم القيامة، فيؤتى بالصلاة والزكاة بثوبهما المناسب للنشأة الأُخروية، وهكذا الحال في الأعمال غير الصالحة[1].

كما ورد فيما يدل على تجسم الاعمال في البرزخ قوله ﷺ: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]، فدلَّ الحديث الشريف على تمثل ظلم الظالمين الى ظلمات يوم القيامة، التي يُعَد الموت أول مراحلها، (فلو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلماتُ الظلم الظالمَ حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً)[3].

ونعلم من ذلك إن النعيم والعذاب في الحياة البرزخية ما هو الا صورة عما قدمه الإنسان لنفسه في هذه الحياة الدنيا حيث تتجلى هذه الأعمال لصاحبها، إن كانت خيراً تجلت له بأبهى الصور وإن لم تكن كذلك فساءت بحسب مقدارها، فلذلك لا يلقى الإنسان في قبره إلا ما قدمه من عمل صالح، أو عمل سيء، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ في الحديث القدسي عن الله تعالى: (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)[4].

٢. استمرارية الحياة بعد الموت وعلاقته بالرحمة الإلهية

يتوهم الكثير من المنكرين للحياة البرزخية أنها تتنافى مع رحمة الله تعالى، وهذا غير صحيح؛ فحين يؤمن الإنسان بما أعده تعالى له جزاء إيمانه ويقينه من أول لحظات رحيله عن هذه النشأة من سعة القبر ونعيمه المتتالي، ان كان ايمانه حقيقياً صادقاً، أصبح هذا الإنسان يرجو رحمة الله تعالى ساعياً الى الحصول عليها بما يستطيعه من أعمال محمودة

---

(١) مفاهيم القرآن: ٨/ ٣٣٥، وأسرار ما بعد الموت: ١٦٢.

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٨٦٤، وبحار الأنوار: ٦/ ٣٢١.

(٣) فتح الباري: ٥/ ١٠٠.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٤.

العاقبة، خائفاً مما عملته يداه من المعاصي السابقة.

فالرحمة الإلهية من المقاصد المهمة والتي تكون متضمنة لجميع المباحث الغيبية، حيث تتمثل في بيان تكريم الله تعالى للمطيعين، وذلك بتبشيرهم بما سينالون خلال هذه المرحلة من حياتهم عن إيمانهم وطاعتهم لله تعالى، ويتبين لنا ذلك من خلال عدة نصوص دلت على هذا التكريم والجزاء الحسن خلال الحياة البرزخية.

ومن مظاهر هذه الرحمة العظيمة للمؤمنين والتي تتجلى لهم في برزخهم:

آ ـ توعد الله تعالى المؤمن بسعة قبره، ويُبَشَر بما أعده له تعالى من النعيم الدائم الى يوم البعث، بدليل ما روي من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ : (فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فيقول: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ)، قَالَ ﷺ: (فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ)، قَالَ ﷺ: (وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي)[1].

ب ـ وفي حديث آخر له ﷺ: (يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[2]، فمما ورد في شرحه بأنه (يملأ نعماً غضة ناعمة وأصله من خضرة الشجرة، ويحتمل أن يكون هذا الفسح له على ظاهره وأنه يرفع عن بصره ما يجاوره من الحجب

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٨٧/٤.

(٢) صحيح مسلم: ٢٢٠٠/٤.

الكثيفة بحيث لا تناله ظلمة القبر ولا ضيقه إذا رُدَت إليه روحه)[1].

ج ـ ومن مظاهر هذه الرحمة الإلهية للعبد المؤمن مدافعة أعماله الصالحة وعباداته عنه منذ أول لحظات برزخه ويستمر معه التكريم الإلهي حتى بعثه من قبره، ويدل على ذلك ما رُويَ عن النبي ﷺ، بقوله: (إِذَا دَخَلَ الإنسان قَبْرَهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، أَحَفَّ بِهِ عَمَلُهُ، الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ). قَالَ: (فَيَأْتِيهِ الْمَلَكُ مِنْ نَحْوِ الصَّلَاةِ، فَتَرُدُّهُ، وَمِنْ نَحْوِ الصِّيَامِ، فَيَرُدُّهُ)، قَالَ ﷺ: (فَيُنَادِيهِ: اجْلِسْ)، قَالَ ﷺ: (فَيَجْلِسُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، (يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ) قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ﷺ) قَالَ: (يَقُولُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ أَدْرَكْتَهُ؟ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ). قَالَ: (يَقُولُ: عَلَى ذَلِكَ عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ)[2].

أما المكذب بأحوال الحياة البرزخية فإنه (لن يتميز بأي شيء آخر عن المؤمن به، فلا هو يسعد في حياته الدنيا سعادة زائدة، ولا هو يتخلى عن الآلام التي تصيب المؤمن بالله، لأن الآلام تصيبهم وتصيب البشر جميعاً، ولكنها تهون للمؤمن نتيجة إيمانه وتعظم للكافر نتيجة جحوده، ولهذا أخبر الله تعالى أن تنعم الإنسان في الآخرة لن يحول بينه وبين التنعم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧])[3].

٣. استمرارية الحياة بعد الموت وعلاقته بالحكمة والتربية الإلهية

من خلال دراستنا للمسائل المتعلقة باليوم الآخر، وملاحظة التدرج في المحاسبة التي تبدأ من أول لحظات موت الإنسان وبدء حياته في البرزخ، نلاحظ من خلال مصاديق

---

(١) المنهاج: ١٧/ ٢٠٤.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٦/ ٣٥٢.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ١١.

النصوص الكريمة في هذه الحياة التحقيق التام للحكمة الإلهية التي أرادها تعالى منذ الأزل في تربيته لعباده المؤمنين كي ينالوا عظيم ما أعدَّه تعالى لهم من جزاء ونعيم.

فالإنسان بطبعه يعلم أن الموت لا محالةَ صائرٌ إليه، لكنه إن علِم بما سيلاقيه ويراه من نعيمٍ أو عذاب بمجرد خروج روحه من الجسد المحرك لها فإن ذلك يكون بمثابة درسٍ تربويٍ كافٍ في توجيهه لفعل الخيرات، واجتناب الشر، فالناس جميعاً يوقنون أن الموت أمرٌ حتمي، ولا خلود لأحد على هذه الأرض سواءٌ كان مؤمناً كامل الإيمان، أو كافراً أو فاسقاً متمادياً بفسقه.

ولمنكري عذاب القبر شبهةً في ذلك بتصورهم أن المصلحة الشرعية تقتضي تغليب الرجاء على الخوف، وأنه لا يصح أن يُذكر للناس عذاب القبر ونحوه، لأن ذلك قد يؤذيهم، ويخيفهم، ويقنطهم من رحمة الله تعالى.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عدنان إبراهيم[1] في مقطع فديو متداول له تحدث وهو يستهزئ بالذين يخوّفون الناس من عذاب يوم القيامة، ومن عذاب القبر، لكن، ما المانع من ذلك إن كان الغرض منه الدعوة إلى التقوى والصلاح.

فالقرآن الكريم نفسه مارس هذا المبدأ، فقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَّ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهو نفسه الذي أخبر عن حال المؤمنين، والمقربين منهم، وخشيتهم لله تعالى؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهَّ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهَّ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا

---

(١) عذاب القبر، حقيقة أم خرافة، https://www.youtube.com/watch?v=

(٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٥ ـ ١٠]، ثم عقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، وهكذا عندما ذكر عباد الرحمن، قال عنهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٦]، وهكذا نرى القرآن الكريم يتوعد المؤمنين بالعذاب الشديد على المعاصي المختلفة، ولم يذكر أبداً أنهم ما داموا مؤمنين، فهم مُعفَون من ذلك[1].

ثم إن هذا الإنذار والتبشير بحد ذاته يُعَد من المقاصد المهمة للإيمان بذلك الموقف، وله حكمتهُ العظيمة (فإن من علامات المؤمنين تذكر الأهوال وأنواع العذاب، حتى تردع النفس الأمارة وتؤدَب، ولهذا ورد في النصوص المقدسة بيان الأعمال التي يُعذَب بها صاحبها في القبر، حتى تكون تحذيراً له، وليس من الأدب مع الله تعالى، ولا مع رسوله ﷺ، والذي استعمل هذه الوسيلة التربوية في أن نقوم نحن بالتهوين منها وتحقيرها)[2].

كما إننا قد نجد إن الكافر أو المنكر للحياة البرزخية بعد الموت وما فيها من نعيمٍ وعذاب، كلما ذُكِر الموت قد يزداد ضراوةً وشراهة في التمتع بالشهوات، وازداد اعتداؤه على حقوق غيره مالم يردعه رادعٌ مادي من العقاب، ليأسه من أي نعيمٍ فيما بعد حياته الدنيوية هذه، فيسعى لتحصيل ما تتمناه نفسه خلال الحياة الدنيا، مهما كانت السبل تقوده لمعاصي الله تعالى وتمرداً وبعداً منه تعالى.

أما الإنسان المؤمن بالله تعالى عندما يتيقن أنه سيُعوض بعد موته وفي نشأته الثانية (جزاء كل ألم أصابه، وأجر كل جهد بذله، وأن كل من أصابه بأذى سينال عقابه الذي لم

(١) التنويريون والصراعات بين المقدسات: ١٥٥.

(٢) (يُنظَر) المصدر نفسه: ١٢١ـ ١٥٨.

ينله في الدنيا، سيشعر بالراحة، وسيهون عليه الألم، وسيقبل على جميع المكارم ينهل منها، ويضحي في سبيلها بكل راحته ولذاته، وهو ما يساهم في رفعه إلى المقامات العليا من سلم الأخلاق والقيم النبيلة)[1]، ونجد ذلك كثيراً في تجسد الصفات القويمة في نفس المؤمن، والتي تعتبر امتداداً لمقصد التربية الإلهية، منها:

آ ـ تزكية النفس

من مهمات المقاصد والعِبَر وكبرياتها التي نستنتجها مما ورد في هذه النشأة البرزخية، والتي تُعَد من المقاصد المهمة التي يربي الله تعالى عليها عباده لإنقاذهم من المهالك وقتئذٍ، تزكية النفوس وتربية الإنسان وتعليمه من خلال بلورة الأخلاق الحسنة في واقعه الوجداني والسلوكي، وإنما تتجسد هذه القيم في شخصيته جراء تزكية نفسه عن رذائل الاخلاق ويقينه أنه تعالى قد وفقه بهذه التزكية للنفس لأجل الوصول الى مرتبة الفلاح.

يظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الطلاق: ٢]، (فنجد القرآن الكريم وبعد ذكر أحد عشر قَسَماً مهماً، وهي من أطول الأقسام في القرآن ـ قسماً بالشمس والقمر والنجوم والنفس الإنسانية ـ وبعد ذلك يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

وهذا التأكيد المتكرر والشديد في هذه الآيات الكريمة يدلُّ على أن القرآن الكريم يولي أهمية بالغة لمسألة الأخلاق، وأن التزكية هي الهدف الأهم للإنسان، وتكمن فيها كل القيم الإنسانية بحيث تكون نجاة الإنسان بها)[2].

كما بين الطبرسي(ت٥٤٨هـ) هذه المرتبة في الفلاح، فأفلحَ من زكَّى نفسه، أي طهرها وأصلحها بطاعة الله تعالى وصالح العباد، وخابَ من أخملها وأخفى محلها، وقيل أضلها

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ١٠.

(٢) الأخلاق في القرآن: ١/ ١٢.

وأهلكها، وقيل أفجرها[1].

وهو ما بشر به ﷺ، لما رُوي أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟) قال ﷺ : (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلانٍ كَذَا وَلِفُلانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ)[2].

ب ـ الاستقامة

ان السفر الى النشأة البرزخية يُعَد سفراً عن هذه الحياة الدنيا الفانية، وخير ما يتزود الإنسان لنفسه منها بالاستقامة[3] التي تورِث حسن الخلق، بعد عبادة الله سبحانه وتعالى، لذلك حين قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال ﷺ: (قُلْ: آمَنْتُ بِالله، فَاسْتَقِمْ)[4].

وقد صرحت بالاستقامة نصوص في كتاب الله، مع ما أعدَّه تعالى للمستقيمين، منها ما جاء في الآيتين الكريمتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]، (وهذا من بدائع جوامع الكلم فقد جمعتا جميع معاني الإيمان والإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، إذ الإسلام توحيد وهو حاصل بالجملة الأولى ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾والطاعة بسائر أنواعها في ضمن الثانية ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ إذ الاستقامة امتثال كل مأمور وتجنب كل منهي

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٢٨٥.

(٢) صحيح البخاري: ٢/٥١٥.

(٣) الإستقامة: وتعني الثبات على الطريق المستقيم الخط الصحيح. وفسرها بعض علماء اللغة بمعنى «الإعتدال» ولا يستبعد الجمع بين المعنيين.تفسير الأمثل: ١٥/ ٣٩٧.

(٤) صحيح مسلم: ١/ ٦٥.

وعرفها بعضهم بأنها المتابعة للسنن المحمدية مع التخلق بالأخلاق المرضية)[1].

فقد بشر الله تعالى أهل الاستقامة﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾منذ أول لحظات احتضارهم بأنهم تتنزل عليهم الملائكة لتبشرهم ملائكة الله تعالى بسبع مواهب عظيمة عندما تهبط عليهم، ففي ظل الإيمان والاستقامة يصل الإنسان إلى مرحلة بحيث تنزل عليه الملائكة وتعلمهُ، نذكرها هنا كما قالها السيد ناصر مكارم الشيرازي، وهي:

فبعد البشارتين الأولى والثانية والمتمثلتين بعدم (الخوف) و(الحزن)، تصف الآية المرحلة الثّالثة بقوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

والبشارة الرّابعة يتضمّنها قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم في الخير ونعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنّة.

والبشارة الخامسة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أي في الجنّة.

أمّا البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية وما تريدونه، بل الاستجابة إلى العطايا والمواهب المعنوية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

والبشارة السابعة والأخيرة فهي أنّكم ستحلون ضيوفاً لدى الباريء عزّوجلّ وفي جنته الخالدة، وستقدم لكم كلّ النعم تماماً مثلما يتمّ الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢][2].

ج ـ الابتعاد عن مسببات عذاب القبر

يُعَد الابتعاد عن مسببات عذاب البرزخ من الجرائم والذنوب ذاته ما يجلب النعيم في تلك الدار، يقول في ذلك الدكتور نور الدين ابولحية: (إن الإنذار نفسه يتضمن تبشيراً،

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٤/ ٥٢٣.

(٢) تفسير الأمثل: ١٥/ ٣٩٧، ٣٩٨.

ذلك أن التحذير من تلك الجرائم والذنوب، يبين أن الابتعاد عنها، يقي صاحبها من المهالك التي تعترضه، وفي ذلك أعظم بشارة، ولذلك قيل: (إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف)[1][2].

ويضيف الدكتور نور الدين في [أسرار ما بعد الموت]: (البرزخ مدرسة من المدارس التربوية التي يربي الله فيها عباده، لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتهذيب نفوسهم لتصلح للدخول للجنة التي لا يدخل إليها إلا الطيبون، فقد اهتمت النصوص المقدسة بأنواع الدروس التي تقدم في هذه المرحلة أكثر من اهتمامها بالنعيم الذي يلقاه المقيمون فيها، وهي تدخل ضمن الإنذار النبوي، وهو لا يقل أهمية عن التبشير النبوي، إن لم يكن يفوقه، فالتبشير قد يكفي فيه الحديث والحديثان، لكن الإنذار يحتاج إلى المزيد من التفاصيل)[3].

لذلك يُعَد الايمان بنعيم القبر وعذابه درساً بليغاً في إصلاح الإنسان وانقاذه من الهلاك، وذلك من خلال ما روي في ذكر أسباب هذا العذاب ومقدماته، ومنها أنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدناً كانت فيه أبداً، فان عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب[4].

وسنكتفي هنا بذكر بعض ما ورد في النصوص الكريمة من ذلك[5]، لنرى من خلالها دور

---

(١) ذكر هذا القول الغزالي في الإحياء بقوله: (وقيل للحسن، يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواماً يخوفوناً حتى تكاد قلوبنا تطير!!، فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً...) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٦٢.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ١٨١.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٩، ١٨٠.

(٤) (يُنظَر) الروح: ٧٧.

(٥) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٨٣ ـ ١٨٨.

الإيمان بالبرزخ في التربية والإصلاح للنفس الإنسانية.

- الظلم والطغيان والاستبداد: ولعله من أكبر أسباب العذاب في البرزخ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1]، وقوله ﷺ : (اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ)[2].

ويوم القيامة، لا يشمل الموقف فقط، بل يبدأ من الموت نفسه، كما ورد في الحديث (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ)[3].

- الكفر والنفاق: ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، فقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يشير إلى أن أحدهما في الدنيا، والآخر في البرزخ.

- الذنوب المرتبطة باللسان: كالغيبة والنميمة والكذب وغيرها، والتي ورد فيها قوله ﷺ في ان الجزاء والعذاب البرزخي إنما يكون بما يقدمه الإنسان في حياته من قولٍ أو فعلٍ دلَّ على خيرٍ أو شر، وهو درس تربوي بليغ في الحرص عن الوقوع في مهالك آفات اللسان وغيرها، ومما ورد في ذلك في صحيح البخاري حين اتى ﷺ يعود سعد بن عبادة، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال ﷺ: (قَدْ قَضَى؟)، قالوا لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ، ولما رأى القوم بكاءه بكوا، فقال ﷺ: (أَلاَ تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وأشارَ إلى لسانه - أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ)[4].

وكذلك ما رُوِيَ من قوله ﷺ عن معاذ بن جبل: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟) قلت

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٨٦٤، وبحار الأنوار: ٦/ ٣٢١.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٦.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٨٧.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٤٣٩.

بلى يا نبي الله فأخذ ﷺ بلسانه وقال: (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا) فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال ﷺ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟!)(١).

وقد ورد في الأحاديث والروايات أيضاً ما يدل على ذلك، ومنها ما روي عنه ﷺ قوله: (لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي عَزَّ وجَل مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ)(٢).

وفي نفس حديث الإسراء بالنبي ﷺ، حيث يصف ما يحصل للكذابين، إذ يقول ﷺ: (فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ(٣) إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، قَالَ ﷺ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى قَالَ قُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟). ثم قال عن هذا المعذب في آخر الحديث: (فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ)(٤).

- الذنوب المرتبطة بالطهارة: ومما رويَ إنه ﷺ مرَّ بقبرين فقال: (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ من كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ)(٥).

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ١١.

(٢) مسند الامام أحمد: ٣/ ٢٢٤.

(٣) يشرشر شدقه: شدقه أي يقطعه ويشقه، والشرشرة أصلها أخذ السبع بفيه. فتح الباري: ١/ ١٣٨.

(٤) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٤٥٨.

ومنها ما ورد عنه ﷺ في قوله: (إِنَّ أَكْثَرَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ)[1].

• الذنوب المرتبطة بالأموال: وقد أشار إليها ﷺ في حديث الاسراء والمعراج، والذي يُعَد بحد ذاته دليلاً على الحياة البرزخية؛ إذ رأى النبي ﷺ أصناف النعيم للأنبياء والمقربين الذين فارقوا الحياة الدنيا، وكذلك أصناف العذاب للعصاة، ومنها ما وردَ بقوله ﷺ: (فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا) إلى أن قال ﷺ: (وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا)[2].

ومنها ما ورد في المتهاونين في أداء ما عليهم من ديون، فعن سعد بن الأطول قال: مات أخي وترك ثلاث مائة دينار، وترك ولدا صغاراً، فأردت أن أنفق عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَخَاكَ مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ، فَاذْهَبْ، فَاقْضِ عَنْهُ)، قال: فذهبت فقضيت عنه، ثم جئت فقلت: يا رسول الله، قد قضيت عنه ولم يبق إلا امرأة تدعي دينارين، وليست لها بينة، قال ﷺ: (أَعْطِهَا، فَإِنَّهَا صَادِقَةٌ)[3].

• الذنوب المرتبطة بالأعراض: ويشير إليها قوله ﷺ في حديث الاسراء السابق: (فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا [أي: صاحوا] قَالَ قُلْتُ لَهُمَا مَا هَؤُلَاءِ ؟) وفي آخره: (وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي).

---

(١) مسند الامام أحمد: ٢/ ٣٨٩.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٨٣.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٤/ ١٣٦.

• الذنوب المرتبطة بالتهاون بالعبادات: وقد أشار إليها قوله ﷺ في المتهاونين في قراءة القرآن الكريم والمتهاونين في الصلاة، إذ قال ﷺ : (أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنْ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ).

وفي الحديث نفسه يذكر المتهاونين في صيام رمضان، قال ﷺ : (بيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعْرًا فَقَالَا لِيَ: «اصْعَدْ» فَقُلْتُ: «إِنِّي لَا أُطِيقُهُ»، فَقَالَا: «إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ»، فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ فَقُلْتُ: «مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ؟» قَالُوا: «هَذَا عُوَاءُ أَهْلِ النَّارِ»، ثُمَّ انْطُلِقَ بِي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَةٌ أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، قَالَ: قُلْتُ: «مَنْ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ)[1].

• الذنوب المرتبطة بالمسيئين للدين: وهم الذين يمثلونه تمثيلاً خاطئاً، فيقفون حجاباً بين الخلق والدين الصحيح، وإليهم الإشارة بقوله ﷺ : (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قَالَ ﷺ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ)[2].

المقصد الثالث: تباين مراتب الجزاء بعد الموت بتباين مراتب الأعمال

بناءً على تمثل الأعمال للعباد يوم القيامة، سأذكر في هذا القسم أهم التجليات التي تظهر بعد الموت مباشرةً، متمثلةً بمختلف مظاهر الثواب والنعيم، أو العقاب والعذاب البرزخيين، وذلك بحسب ما دلت عليه النصوص الكريمة، والتي ذكرت أن تلك التجليات تختلف بحسب اختلاف درجات العاملين ومراتبهم، وهي درجات لا نهاية لها،

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٥٩٥.

(٢) مسند الامام أحمد: ٣/ ١٢٠.

لكن القرآن الكريم قسمها إلى ثلاثة أقسام كبرى: المقربين، وأهل اليمين، وأهل الشمال.

فالمؤمنون المطيعون قد تجلت في جزائهم بكرمه تعالى ولطفه بهم حسب ما قدموه من طاعات وأعمال صالحة، سواء كانوا من المقربين أو من أصحاب اليمين، أما أصحاب الشمال، والذين خلطوا بين الأعمال الصالحة والأعمال السيئة في حياتهم الدنيا، فتتجلى عدالة الله تعالى لهم بتأديبه للمسيئين منهم.

ولذلك تظهر في تلك الحياة التي تلي الموت مباشرة الأشياء على ما هي عليه في الواقع، كما قال تعالى مخبراً عن ساعة الاحتضار: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٤].

فتبين الآيات الكريمة إن البشر بعد موتهم يًصَنفون الى ثلاثة أصناف، المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ويأتي هذا التصنيف بعد الآيات التي تحدثت عن وصول الروح الى الحلقوم، والتعبير عن التصنيف فيه بـ(إما) التي تدل على الاتصال في اللغة، فدلَّ ذلك الى ان هذا التصنيف يُصار اليه مباشرةً بعد الموت بلا إي تأخير، أي قبل يوم القيامة(١).

وبناءً عليه، سيكون تقسيم مقاصد هذه المراتب بحسب أصنافهم الثلاث، وكما يأتي:

المرتبة الأولى: تجليات نعيم القبر للمقربين

يذكر القرآن الكريم أنَّ أفضل التجليات وأعظمها وأسعدها التجلي المرتبط بمصير

---

(١) (يُنظَر) دراسات عقائدية: ٣٦٦.

المقربين؛ ذلك لأنهم كانوا أكثر الخلق رغبة في الله تعالى وفيما عنده، ولهذا بمجرد أن تزاح عن أعينهم غمامة الحجاب تبرز لهم الجنان العظيمة التي كانت مخفية عنهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، وورَد في معنى الرَوح هنا (وجوه الأول: هو الرحمة قال تعالى: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، أي من رحمة الله، الثاني: الراحة، والثالث: الفرح، وأصل الروح السعة)[1]، وجميعها تدل على الخير والعوض الذي أعدَّه تعالى لهم.

كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في خطاب هذا النوع من النفوس الممتلئة بسكينة الإيمان: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: ٢٧- ٣٠]، ففي وصفه تعالى لاطمئنان النفس إشارة إلى صفة أخرى من صفات المقربين، وربما تكون السبب في جعل الموت يسيراً عليهم، وهو الاطمئنان الحاصل من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

يقول ناصر مكارم الشيرازي مبينا أسباب التحلي بهذه الصفة وأهميتها: (ويعود اطمئنان النفس، لاطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، ولاطمئنانها لما اختارت من طريق، وهي مطمئنة في الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضاً)[2].

فتبدأ ملامح نجاة المؤمن الذي زكَّى نفسه عن رذائل الصفات والأعمال منذ أول لحظات توفي الملائكة لروحه وانتقاله الى النشأة البرزخية، حيث قال فيهم تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٤٣٧.

(٢) تفسير الأمثل: ٢٠/ ١٩٨.

[٣٢].

أما سر هذا السلام في الآية الكريمة الذي حظي به هؤلاء الطيبون من قِبَل الملائكة في ذلك الموقف فقد أشار إليه الرازي(ت ٦٠٦هـ) في تفسيره قائلاً: (وقوله: طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهِدون لها، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت)(١).

وهذه المرتبة من المقربين لا ينالها جميع الخَلْق، إلا من زكَّى نفسه عن الكثير من مغريات الحياة الدنيا الفانية، وقدَّم لها من الأعمال الصالحة في حياته الدنيا ما جعله مستحقاً لهذه المنزلة العظيمة، ويدخل فيمن حملوا هذه الصفات كلُّ مَن زكَّى نفوسَهم اللهُ تعالى من موبقات الذنوب وسيئات الأعمال، ممن ارتضاهم ليكونوا أهلاً لهذه المنزلة، ومن بين المقربين الأنبياء عليهم السلام والشهداء والصديقون والصالحون، ومن اتبعهم في طريق رضوان الله تعالى فحصل على منزلتهم ومراتبهم العالية.

١ـ تجليات نعيم القبر للأنبياء عليهم السلام

فضلاً عن المنزلة العظيمة التي وعد تعالى بها عباده المقربين في الجنة، فقد تواترت الأخبار عن حياة الأنبياءعليهم السلام في قبورهم، إذ إن حياة النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة علماً قطعياً، لما قام من الأدلة في ذلك، وتواترت بها الأخبار الصحيحة(٢).

ومن هذه الأخبار ما روي من قوله ﷺ : (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٠/ ٢٥.

(٢) (يُنظَر) نظم المتناثر من الحديث المتواتر: ١٣٥

أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ)[1]، وهذه تُعَد فضيلة بحد ذاتها لهم، فضلاً عمّا كرَّمهم بها تعالى من الفضائل، وكذلك ما وردَ في قوله ﷺ: (الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ)[2].

وبالإضافةِ الى حياتهم عليهم السلام في قبورهم فإن لهم النعيم العظيم من جزاء الله تعالى في هذه الدار من قبل دخولهم جنات الخلود؛ بدليل ما رُوي في منازلهم وعلو مقاماتهم في جنة البرزخ في حديث النبي ﷺ ليلة الاسراء، فقد رآهم عليهم السلام في حياته، برغم وفاتهم عليهم السلام وقبل بعثهم من قبورهم، ولما ثبُت من صدق رؤياه ﷺ، ومما ورد في هذا الحديث الشريف (ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدِ اُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى

---

(١) مسند الامام احمد: ٤/ ٨.

(٢) مسند أبي يعلي الموصلي: ٦/ ١٤٧.

السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى صلى الله عليه وآله، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ صلى الله عليه وآله مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى)[١]. الحديث.

كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وآله إنَّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه صلى الله عليه وآله اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، خصوصاً بموسى عليه السلام، وقد أخبر صلى الله عليه وآله: (مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ)[٢]، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء عليهم السلام إنما هو راجع إلى أن غُيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال في الملائكة عليهم السلام، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم[٣].

وإن منازلهم في ذلك العالم كما أشار إليها حديث الإسراء وغيره من الروايات بأنها في أعلى عليين، فـ(الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي صلى الله عليه وآله ليلة الإسراء)[٤].

أما ما قد يَرِد في بعض الأخبار من ذكر لما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من شدائد الموت وسكراته، فذكر القرطبي(٦٧١هـ) في التذكرة إن هذا له فائدتان:

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٤٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٠٨٢٧: ٢/ ٥٢٧

(٣) الروح: ٣٦، و(يُنظَر) نظم المتناثر: ١٣٥، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ١/ ٣٨٢.

(٤) الروح: ١١٥، و(يُنظَر) شرح العقيدة الطحاوية: ٣٩٦.

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً، ويرى سهولة خروج روحه، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم: شدة ألمه، مع كرامتهم على الله تعالى وتهوينه على بعضهم، قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار.

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء أحباب الله، وأنبياؤه ورسله، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين، كما قال في قصة إبراهيم عليه السلام: أما إنا قد هونا عليك.

فالجواب: أن أشد الناس بلاء في الدنيا (الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ)[1]، فأحب الله أن يبتليهم تكميلاً لفضلهم لديه، ورفعة لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقهم نقصاً، ولا عذاباً.

بل هو كما قال، كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يجزي الله عليهم، فأراد الحق، سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم، ليرفع منازلهم، ويعظم أجورهم قبل موتهم[2].

كما ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالنار، وموسى عليه السلام بالخوف والأسفار، وعيسى عليه السلام بالصحارى والقفاز، ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرفعة في أحوالهم عليهم السلام ،وكمال في درجاتهم، ولا يُفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين فإن ذلك عقوبة لهم، ومؤاخذة على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٣٩.

(٢) (يُنظر) التذكرة في أحوال الموتى وامور الآخرة: ١٣٣.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وامور الآخرة: ١٣٣.

٢ـ تكريم شأن النبي ﷺ في البرزخ وتواصله مع أمته

كما تدل رواية حديث الاسراء والمعراج بأن الأنبياء عليهم السلام مع علو شأنهم في البرزخ فإنهم مع تواصل في الحياة الدنيا، ورؤية النبي ﷺ لهم وصلاته بهم تدل على ذلك، فضلاً عن قوله ﷺ: (مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ) وزادَ في حديث عيسى (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي)[١]، كما تدل روايات كثيرة على تواصل النبي ﷺ مع أمته ولو بعد وفاته، وعرض أعمال أمته عليه ﷺ، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، كما يدل عليه قوله ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ، قَالَ: قَالُوا: يا رسول الله، وكيف تُعرَض صلاتنا عليك، وقد أرِمتَ ـ يقولون بليتَ ـ؟ فقال ﷺ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)[٢].

كما ورد في الروايات سعة تأثيره ﷺ في حياة الأمة جميعاً، وهم لذلك يمكنهم أن يتوسلوا به أو يستغيثوا مثلما كانوا يفعلون في حياته تماماً، وقد روي في ذلك قوله ﷺ: (حياتي خيرٌ لكم تُحدِّثونَ ويُحدَّثُ لكم ووفاتي خيرٌ لكم تُعرَضُ عليَّ أعمالُكم فما رأَيْتُ من خيرٍ حمِدْتُ اللهَ عليه وما رأَيْتُ من شرٍّ استغفَرْتُ اللهَ لكم)[٣]، وهو دليلٌ على أن موته ﷺ لم يقطع صلته بالله، بل إنه زادها.

وقد ألف في هذا الحديث المحدث الكبير عبد الله بن الصديق الغماري[٤] جزءاً حديثياً

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٨٤٥.

(٢) سنن أبي داود: ٢/ ٢٧٩.

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٩/ ٢٤.

(٤) الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني الإدريسي، محدِّث فقيه أصولي متكلم متفنن، ولد بطنجة

خاصاً سماه (نهاية الآمال في صحة وشرح حديث عرض الأعمال) قرَّظه له شقيقه الحافظ السيد أحمد بن الصديق الغماري الحسني، وذكر فيه بتفصيل كلمات من صححوه من أمثال الحافظ النووي، والحافظ ابن التين، والقرطبي، والقاضي عياض، وابن حجر العسقلاني، والحافظ زين الدين العراقي، وولده الحافظ ولي الدين العراقي أبو زرعة، والحافظ السيوطي، والحافظ الهيثمي كما في (مجمع الزوائد)، والمناوي في (فيض القدير)، والحافظ المحدث السيد أحمد الغماري، وعبد الله بن الصديق رحمهم الله تعالى، وغيرهم كثير[1].

ولهذا فهم كل العلماء من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] شمولها لكل الأزمنة، وعدم اقتصارها على زمان حياته ﷺ[2].

والروايات الكثيرة حول الاستدلال بالآية الكريمة، تدل على اشتهار ذلك واعتباره، منها ما رواه ابن الجوزي(ت ٥٩٧هـ) عن محمد بن حرب الهلالي، قال: (دخلت المدينة، فأتيت قبر رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل! إن الله [عز وجل] أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، إني جئتك مستغفراً إلى ربك من ذنوبي، مستشفعاً بك، ثم بكى وأنشأ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظُمُهُ ... فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالأَكَمُ

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ... فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف، فرقدتُ، فرأيت رسول الله ﷺ في نَوْمِي وهو يقول: (الْحَقِ

ودرس في فاس، ثم دخل القرويين، ودرّس بالزاوية الصديقية، له مصنفات عديدة منها: [إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بسيد الأنبياء]، و[سمير الصالحين]، وغيرها. (يُنظر) تكملة معجم المؤلفين : ٣٤٩ . ٣٥٤، وتتمة الأعلام: ٢/ ٢٣ .

(١) (يُنظَر) نهاية الآمال في صحة وشرح حديث عرض الأعمال.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ١٩٤.

الرَّجُلَ، فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ غَفَرَ لَهُ بِشَفَاعَتِي)[1].

ويقول تقي الدين السبكي (ت٧٥٦هـ): (دلت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له لا تنقطع بموته، تعظيماً له. والآية وإن وردت في أقوام معينين في حالة الحياة، فتعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف في الحياة وبعد الموت، ولذلك فهم العلماء من الآية العموم في الحالتين، واستحبوا لمن أتى قبره ﷺ أن يتلو هذه الآية ويستغفر الله تعالى)[2].

وقال الشوكاني(ت١٢٥٠هـ) في نيل الأوطار(ووجه الاستدلال بها أنه ﷺ حي في قبره بعد موته كما في حديث (الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ)[3] وقد صححه البيهقي وألف في ذلك جزءاً.

قال أبو منصور البغدادي(ت٤٢٩هـ): (قال المتكلمون المحققون من أصحابنا: إن نبينا ﷺ حي بعد وفاته)[4]، ويؤيد ذلك ما ثبت أن الشهداء أحياء يرزقون في قبورهم والنبي ﷺ منهم، وإذا ثبت أنه حي في قبره كان المجيء إليه بعد الموت كالمجيء إليه قبله)[5].

كما يبين مكارم الشيرازي إن الآية الكريمة تصرح بأن الاستشفاع بالنّبي ﷺ إِلى الله تعالى، وطلب الاستغفار لمغفرة المعاصي، مؤثر في قبول التوبة وشمول الرحمة الإِلهية؛ وغاية ما في الباب أنّ على العصاة والمذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم ويرجعوا عن طريق الخطأ، ثمّ يستفيدوا ـ لقبول توبتهم ـ من استغفار النّبيﷺ، ومن البديهي أنّ النّبيﷺ ليس من شأنه

---

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن: ٢/ ٣٠٢.

(٢) شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ٦٦.

(٣) مسند أبي يعلي الموصلي: ٦/ ١٤٧.

(٤) نُقِل قوله هذا عن كتاب أجوبة مسائل الجارميين لكنني لم أعثر عليه، إلا إنه أورده الكثير من العلماء غير الشوكاني، منهم السيوطي في تنوير الحلك في رؤية النبي والملك: ١٥.

(٥) نيل الأوطار: ٥/ ١١٣.

أن يغفر الذنوب، بل شأنه في المقام أن يطلب من الله المغفرة خاصّة[١].

وقد أُيد ذلك بأحاديث عدة تشير إلى مدى تأثيره ﷺ في حياة الأمة، بعد وفاته، ومنها ما رُوِي عن عثمان بن حُنيف قال: سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: (ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ فَيُجَلِّي لِي عَنْ بَصَرِي، اللهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، وَشَفِّعْنِي فِي نَفْسِي)، قال عثمان: فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط)[٢].

وقد فهم الصحابة وكل العلماء من الحديث شموله لحياة رسول الله ﷺ وبعدها، حتى راوي الحديث فهم منه ذلك، فقد روي عنه أنّ رجلاً كان يختلف على عثمان بن عفان في حاجته، وكان لا يلتفت إليه، فلقي ابن حنيف وقال له: (ائت الميضأة ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين وقل: ((اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيِّكَ محمد ﷺ نبيِّ الرحمةِ، يا محمدُ إنِّي تَوَجَهتُ بِكَ إلى ربِّي فتقْضِي لي حاجَتي) وتذكر حاجتك، ورُح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجّة، فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلّمتَه فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمتُه فيك، ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ. الحديث[٣].

---

(١) (يُنظَر) تفسير الأمثل: ٣/ ٣٠٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٧٠٧.

(٣) المعجم الكبير: ٩/ ٣٠.

٣ـ تجليات نعيم القبر في مصير الشهداء

يدخل الشهداء الذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى، ممن أرادوا بشهادتهم نيل الفوز بأجر الدار الأخرة ونعيمها ضمن مرتبة المقربين الذين بشرهم تعالى بهوان موتهم على أنفسهم لما سينالون من عظيم الأجر حال خروج أرواحهم من أجسادهم، وحياتهم البرزخية المتواصلة، وهو ما يشير إليه قوله تعالى في وصف مصيرهم، وكونهم أحياء في حياتهم هذه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

ويذكر العلامة الطباطبائي(ت١٤٠٢هـ) في معرض تفسيره للآية الكريمة فيهم: (أنهم فرحون بما وجدوه من الفضل الإلهي الحاضر المشهود عندهم، ويطلبون السرور بما يأتيهم من البشرى بحسن حال من لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون[١]، ومن ذلك يظهر:

أولاً: أن هؤلاء المقتولين في سبيل الله تعالى يأتيهم ويتصل بهم أخبار المؤمنين الباقين بعدهم في الدنيا.

وثانياً: إن هذه البشرى هي ثواب أعمال المؤمنين، وهو أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وليس ذلك إلا بمشاهدة هذا الثواب في دارهم التي هم فيها مقيمون)[٢].

ودلالة هذا الجزاء أيضاً ما تلت هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهَّ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَّ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧١]، حيث إن (هذا الاستبشار أعمُّ من الاستبشار بحال غيرهم وبحال أنفسهم، والدليل عليه قوله تعالى:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٦٣.

﴿وَأَنَّ اللهَّ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنه بإطلاقه شاملٌ للجميع، ولعل هذه هي النكتة في تكرار الاستبشار، وكذا في تكرار الفضل)[1].

كما رُوي عن جابر بن عبد الله قوله: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: (يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟) قلت يا رسول الله استشهد أبي قُتل يوم أحد وترك عيالاً ودَيناً قال: (أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُّ بِهِ أَبَاكَ ؟) قال: قلت بلى يا رسول الله، قال ﷺ: (مَا كَلَّمَ اللهُّ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، قَالَ ﷺ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]، كما ورد قوله ﷺ فيهم: (الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ ـ نهرٍ بباب الجنة ـ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)[3].

حيث بشَّر تعالى بكرامتهم وما أعدَّه لهم من الجزاء، بدلالة تبليغ النبيﷺ وتبشيره بأحوالهم هذه، ومنها ما رُويَ عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وأسماء بنت عميس قريبة منه إذ رد السلام، ثم قال: (يا أسماءُ هذا جَعْفرُ بنُ أبي طالبٍ مع جِبْريلَ وميكائيلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعليهما، مَرُّوا فسلَّموا علينا فردَدْتُ عليهم السَّلامَ، وقد أخبَرَني أنَّه لقي المُشرِكينَ يومَ كذا وكذا، فأُصِبْتُ في جسَدي مِن مَقاديمي ثلاثًا وسبعينَ بَيْنَ طَعْنةٍ وضَرْبةٍ، ثمَّ أخَذْتُ اللِّواءَ بيدي اليُمنى فقُطِعَتْ، ثمَّ أخَذْتُه باليدِ اليَسرَى فقُطِعَتْ، فعوَّضني اللهُ مِن يدي جَناحَيْنِ أطيرُ بهما مع جِبْريلَ وميكائيلَ في الجنَّةِ، أنزِلُ منها حيثُ شِئْتُ وآكُلُ مِن ثمارِها ما شِئْتُ)[4].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٦٣.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٢٣٠.

(٣) مسند الإمام أحمد: ١/ ٢٦٦.

(٤) المعجم الأوسط: ٧/ ٨٧، ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٧٣..

فهذا الحديث يشير إلى أن جعفر بن أبي طالب عوض مباشرة جسداً جديداً متناسباً مع نفسه المطمئنة الممتلئة بالإيمان، وأنه في تلك اللحظات مباشرة، صار يطير مع الملائكة، ويأتي فيسلم على النبي ﷺ، فيتعامل مع كلا العالمين: عالم الدنيا، وعالم الآخرة، أو عالم الملك وعالم الملكوت(١)، كما يدل الحديث الشريف على استحباب السلام عليهم لفعل النبي ﷺ لذلك، فضلاً عما روي عنه ﷺ من قوله حين يدخل المقبرة: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ)(٢).

ويقول فيه أحمد بن عمر القرطبي(ت٦٥٦هـ): (وتسليمه ﷺ عليهم لبيان مشروعية ذلك، وفيه معنى الدعاء لهم، ويدل أيضاً على حسن التعاهُد وكرم العَهد، وعلى دوام الحُرمة، ويحتمل أن يَرد الله تعالى أرواحهم فيسمعون ويردون)(٣).

ويقول ابن القيم (ت٧٥١هـ) (وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلَّموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ).

وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به)(٤).

ويدلُّ عليه أيضاً ما رواه الحاكم(ت ٤٠٥هـ) في المستدرك: إن رسول الله ﷺ حين انصرفَ من أُحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه رسول الله ﷺ ودعا له ثم قرأ هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٢٥.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٢١٨.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ١/ ٥٠٠.

(٤) الروح: ٥.

قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ثم قال رسول الله ﷺ: (أَشْهَدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ شُهَدَاءُ عِنْدَ اللهَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأْتُوهُمْ وَزُورُوهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ; إِلَّا رَدُّوا عَلَيْهِ)[١].

والشهداء الذين شملهم الله تعالى بهذه المنزلة العظيمة قد ذكرهم النبي ﷺ بقوله: (الشُّهَدَاءُ خَمْسٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهَّ)، وكذلك في قوله ﷺ: (مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ)[٢].

فضلاً عن ذلك، فإن للشهداء منازلهم ومراتبهم المختلفة في الجنان، إنما أعلاهم منزلةً من يكون مع المقربين من الأنبياء والصديقين الذين نالوا هذا الجزاء لهوان نفوسهم عليهم أمام ما أعدَّه تعالى لهم، بينما منهم من يُحبَس عن الجنة لعمل أو دَينٍ بقيَ بذمته، ومما يدلُّ على ذلك ما رُوي أن رجلاً جاءَ الى النبيﷺ فسأله: يا رسول الله، ماذا لي إن قتلتُ في سبيل الله؟ قال ﷺ: (الْجَنَّةُ) فلما ولَّى قال ﷺ: (إِلَّا الدَّيْنُ، سَارَّنِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آنِفًا)[٣].

ويعود ذلك لأهمية الأمانة وأدائها، إذ روي عن سعد بن الأطول، ما قاله للنبيﷺ: أن أخاه مات، وترك ثلاث مائة درهم، وترك عيالاً، فأردت أن أنفقها على عياله، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ أَخَاكَ مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ، فَاقْضِ عَنْهُ)، فقال: يا رسول الله، فقد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة، وليس لها بينة، قال: (فَأَعْطِهَا فَإِنَّهَا مُحِقَّةٌ)[٤].

ولا يقتصر أصناف المقربين على الأنبياء عليهم السلام والشهداء، بل إنه يشمل جميع الصديقين والصالحين الذي صدَّقوا النبي محمد ﷺ في حياته وبعد مماته ونالوا بإيمانهم وتصديقهم له الدرجات العليا التي استحقوا بها حصولهم على الرحمة الإلهية في النعيم المقيم في حياتهم

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٢٧١.

(٢) سنن الترمذي: ٣/ ٣٦٩.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٣٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ٥/ ٧.

البرزخية وما يتلوها في جنات الخلود.

المرتبة الثانية: تجليات نعيم القبر لأصحاب اليمين

وقد ذكر القرآن الكريم التجليات المرتبطة بمصير هؤلاء، فقال: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١].

وهي تشير إلى الرتبة التالية لرتبة الفائزين المقربين، والتي يعبر عنها بعض العلماء برتبة الناجين، ولهذا وصف القرآن الكريم جزاءها بكونه سلاماً، بخلاف جزاء المقربين الذي وصفه بكونه روحاً وريحاناً وجنة نعيم[١].

وقد وصفهم الإمام الصادق عليه السلام، وفرق بينهم وبين المصدقين، فقال: (المؤمن مؤمنان، فمؤمن صدَّق بعهد الله ووفى بشرطه، وذلك قول الله عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ﴾، فذلك الذي لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة، وذلك ممن يَشفع ولا يُشفع له، ومؤمنٌ كخامة الزرع، تعوجُّ أحياناً وتقوم أحياناً، فذلك ممن تصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة وذلك ممن يُشفع له ولا يَشفع)[٢].

ويدخل في هؤلاء من يسميهم القرآن الكريم [المقتصدين]، والذين وضعهم الله تعالى ضمن أصناف المؤمنين المتبعين لورثة الكتاب: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

ويدخل فيهم أولئك الذين وصفهم تعالى بقوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى الله أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وما ورد في النصوص الكريمة يشير إلى أن نعيم البرزخ بعد الموت بصورته الكاملة

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ١٢٦

(٢) الكافي: ٣٥٤/٢.

الجميلة لا يناله إلا المقربون، أما أصحاب اليمين، فنعيمهم أقل، بل قد يختلط نعيمهم ببعض العذاب الناتج عن تقصيرهم في الطاعات أو قيامهم ببعض المعاصي، وكل ذلك عائدٌ الى عدالته تعالى في جزائهم على ما قدموه من أعمال وظهور آثارها في تلك النشأ، ولهذا يتحول الموت لهم إلى مدرسة تستمر فيها تربيتهم وإصلاحهم حتى يتخلصوا من تلك السيئات التي كانت تختلط مع أعمالهم الصالحة.

ولهذا قد يشعر هؤلاء بسكرات الموت الشديدة، ويتألمون لها، وربما يتذكرون حينها ما اقترفوا من المعاصي، ويندمون عليها، وبذلك يتخلصون من الكثير منها، فإن لم يكف ذلك عاينوا من أنواع الآلام في فترة البرزخ ما يساهم في تطييبهم وتطهيرهم. فإن لم يكفِ، أو كانت معاصيهم من الذنوب المتعدية، مروا على مواقف الحساب، وهناك يتعرضون للمزيد من عمليات التطهير والإصلاح التي تؤهلهم لدخول الجنة المناسبة لمرتبتهم[1].

وقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: (ما من المؤمنين عبدٌ يقارف أمراً نهيناه عنه فيموت حتَّى يُبتلى ببليّة تُمحِّصُ بها ذنوبه، إمّا في مالٍ، وإمّا في ولدٍ، وإمّا في نفسه، حتَّى يلقى الله عزّ وجلّ وما له ذنبٌ، وإنّه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه فيُشدَّدُ به عليه عند موته)[2].

أما سلام المؤمنين من الأحياء عليهم فقد ورد إن ذلك التكريم لا يقتصر على المقربين من أصحاب اليمين، بل إنه يشمل المؤمنين جميعاً، بدلالة ما نقله ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) قول النبي صلى الله عليه وآله: (مَا مِنْ أَحَدٍ مَرَّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ)، ثم يعقب بعد ذكره للعديد من الأخبار في ذلك بقوله: (وهذا المعنى في الأخبار كثير جداً، وليس كتابنا هذا موضعاً لإيرادها، وفيما ذكرنا منها دليل على المراد من الاعتبار بها والفكرة في المصير إليها)[3].

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٢٧، و١٣٠.

(٢) الخصال: ٢/ ٦٣٥.

(٣) الاستذكار: ١/ ١٨٥، و١٨٦.

كما يدل على ذلك (ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثاً)[1].

وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: (إذا ماتَ أَحَدٌ من إخوانِكم فسوَّيتمُ الترابَ عليهِ فليقمْ أحدُكم على رأسِ قبرِه ثم ليقلْ يا فلانَ بنَ فلانِ بنِ فلانةَ، فإنهُ يسمعُ ولا يُجيبُ، ثم يقولُ يا فلانَ بنَ فلانةَ فإنهُ يستوي قاعدًا ثم يقولُ يا فلانَ بنَ فلانةَ فإنهُ يقولُ أرشدْنَا رحِمَكَ اللهُ، ولكن لا تشعرونَ فليقلْ اذكرْ ما خرجتَ عليهِ من الدنيا شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ وأنكَ رضيتَ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دِينًا وبمحمدٍ نبيًّا وبالقرآنِ إمامًا فإنَّ منكرًا ونكيرًا يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبِهِ ويقولُ انطلقْ بنا ما نقعدُ عندَ من لُقِّنَ حُجَّتَهُ فيكونُ اللهُ حجيجَهُ دونَهما) قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ فإن لم يَعرفْ أُمَّهُ؟ قال ﷺ: (فينسبُه إلى حوَّاءَ، يا فلانَ بنَ حواءَ)[2].

ومع إن هذا الحديث ضعيف، (وإن لم يثبت، فإتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير انكار كاف في العمل به، وما أجرى الله سبحانه العادة قط بأن أمةً طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وهي أكمل الأمم عقولاً وأوفرها معارف تطيق على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك، لا ينكره منها منكِر بل سنَّه الأول للآخر ويقتدي فيه الآخر بالأول، فلولا أنَّ المخاطَب يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم، وهذا وان استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه)[3].

المرتبة الثالثة: تجليات عذاب القبر لأصحاب الشمال

اهتم القرآن الكريم بعرض مشاهد كثيرة لأصحاب الشمال، وهم الذين حادوا الله ورسوله، إما بعدم الإيمان مطلقاً، أو بعدم الخضوع لما يتطلبه الإيمان من تكاليف وعباداتٍ

---

(١) الروح: ١٣.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ٨/ ٢٤٩، ومجمع الزوائد ٢/ ٣٢٤.

(٣) الروح: ١٣.

وأعمال، مع الإصرار على ذلك، حيث نجد فيه المشاهد الكثيرة التي تصور أنواع الآلام التي يمر بها المجرمون أو العاصين من المؤمنين جزاء أعمالهم التي قاموا بها في المراحل المختلفة التي تمر بها حياتهم ابتداء من البرزخ، وانتهاء بدار القرار، ومن تلك المشاهد ما ورد من نصوص حول بيان مصيرهم عند الموت، ومنها ما ورد في آخر سورة الواقعة بعد ذكر المقربين وأصحاب اليمين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢ ـ ٩٤].

وهي تدل على أن هذا الصنف كان يعيش في هذه الأجواء بروحه ونفسه، وباطن دنياه، ولذلك بمجرد أن يرفع عنه الحجاب في تلك اللحظات الخطيرة، يكتشف الحقيقة، ويعرف أنه لم يكن سوى مثل ذلك المخدَّر الذي يعيش كل ألوان العذاب، وإن كان يتوهم أنه يعيش بسلام وطمأنينة.

وبناء على هذا، فإن هذا الصنف يعاين العذاب بدءً من لحظات خروج روحه، وهو جزاء موافق لعمله، لأنه لا يبدو له حينها إلا الصور الحقيقية لأعماله التي قدمها[1].

وقد ورد في نصوص القرآن الكريم ما يدل على أن هذا الصنف، وفي تلك اللحظات العصيبة، يطلب العودة للحياة لتصحيح ما أخطأ فيه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ١٣٢.

وإنما إخبار الله تعالى لهذه النتائج التي يتلقوها نتاج أعمالهم إنذاراً لهم لما سيلاقون بمجرد مغادرتهم هذه الحياة الدنيا بموتهم وانتقالهم الى النشأة الثانية، لذلك يحذرهم تعالى من هذا المصير، إذ ستظل هذه الحسرة في قلوبهم يرددونها كل حين، مع علمهم أنها لن تجديهم شيئاً، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥][١].

كما ورد عنه ﷺ ما يتلقوه من مسائلة الملائكة حال خروج ارواحهم من أجسادهم، إذ رُوي وصفه ﷺ لحالهم منذ انتزاع أرواحهم بقوله: (.ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ)، قَالَ ﷺ: (فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ)، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا)[٢].

لذلك فهؤلاء في البرزخ سيلاقون فضلاً عن الإهانة والسخط، فإنهم ستكون حسرتهم دائمة عليهم لما فرَّطوا بما خلَّفوه بعدَهم في الحياة الدنيا، وقد رُوي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ، ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم فناداهم، فقال: (يا أَبَا جَهْلِ بْنَ

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٣٣.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٨٧.

هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا) فسمع عمر بن الخطاب قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا) ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر[1].

وتبعاً للعدالة الإلهية فإن عذابهم قد يكون لفترة معينة حسب انتهاء فترة مؤاخذتهم عن ذنوبهم إن كانوا من عصاة المؤمنين، أو يكون مؤبداً إن كان من الكافرين، لذلك فالله تعالى يخاطب المسرفين على أنفسهم بألوان الذنوب قائلاً: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فالله تعالى عرَّف نفسه لهؤلاء المسرفين بكونه غفوراً رحيماً، وإن هذا التعريف هو الذي يحرك القلوب للسير نحو الله، ويكبح الغرائز عن معارضة الرحيم الودود[2].

ونخلُص من هذه المقاصد والمعاني في تباين مراتب الجزاء في البرزخ، أن ما ورد فيه من مظاهر النعيم والعذاب جميعها تعود الى الرحمة الإلهية في تطييب النفوس، حيث يعود النعيم الذي يلاقيه المقربين الى بشارة المؤمنين الصادقين بالجنان التي وعدهم بها تعالى، فتقر بها أنظارهم منذ لحظة رحيلهم عن هذه الدار الفانية، مع طمأنينتهم عمَّن يخلفوهم في الدار الدنيا وطمأنتهم على أحوالهم إن كانوا مؤمنين مع الدعاء لهم.

اما من خلطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين فإنه قد يرى من العذاب في البرزخ بحسب ما قدَّمه من أعمال في حياته؛ لأجل أن يكون طاهراً من أدران ذنوبه، ليكون له بمثابة درساً تربوياً يجعله أهلاً لمنزلة الجنة وكراماتها، فيندرج تحت عدالته تعالى ورحمته في هذا

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٠٣.

(٢) أسرار الأقدار: ٤٢٢.

الجزاء، بينما أصحاب الشمال فإنهم سيجدون من المنغصات والضيق في القبر، ما يستمر بهم حتى استقرارهم الجحيم، وهذا ليس بظلمٍ من الله تعالى، بل بمحض قوته وعدالته وقدرته لأنهم لم يسلكوا طريق الحق، فحالوا أنفسهم عن طريق الإيمان الى الكفر والجحود والعصيان.

وقد أشار ابن القيم (ت٧٥١هـ) الى حال الأرواح في تلك الدار بقوله (وان لها شاناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة، فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم والم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار)(١).

لذلك (يجب اليقين بأن في البرزخ ـ إجمالاً ـ ثواباً وعقاباً، أي إن الإنسان يواجه آثار عقائده وأفعاله، حتى يصل الى القيامة الكبرى والثواب الكلي الإلهي والجنة الخالدة، أو نعوذ بالله العذاب الدائم، وكثير من المؤمنين الذين كانت لهم أعمال قبيحة يُسَوى حسابهم بذلك العذاب البرزخي، وإنَّ لازم اليقين المذكور السعي في تمتين المُعتَقد الحَق بحيث يستقر في القلب؛ حتى لا يبقى الإنسان عند السؤال (في القبر) مرتبكاً وحيراناً، وكذلك لكي يصبح من المبادرين الى كل عمل خير من الواجبات والمُستحبات)(٢).

---

(١) الروح: ١١٦

(٢) القلب السليم: ١/ ٢٨٠.

ثانياً: مواقف الحياة البرزخية ومقاصدها

بعد بحثنا مهمات المقاصد والمعاني التي ترتبط بالإيمان بأساس وجود الحياة البرزخية وما يلاقيه فيها الإنسان من جزاءٍ لأعماله، من قدرة الله تعالى وعدالته، ورحمته وتربيته لعباده، نتناول في هذا القسم من الفصل المقاصد العقدية الخاصة بالإيمان بأول لحظة الاحتضار وخروج الروح من الجسد، وما يعانيه من سكرات الموت وانتقالها الى عالم البرزخ، وسؤال المَلكين له وضم القبر لجسده.

وبناءاً على ذلك، فقد قسَّمناه إلى فروعٍ ثلاث، الأول في مسائل الاحتضار وسكرات الموت والموت، والثاني في سؤال القبر، والفرع الثالث في ضغطة القبر، وقد قدَّمنا كل فرعٍ منها بتمهيد في بيان المُراد من المصطلحات بعيداً عن الاسهاب الذي يخرجنا عن مقصودنا، ثم اتبعه بذكر ما جاء فيه من مقاصد ومعان، ولم أخصص الأدلة النقلية بالذكر المنفصل خشية التكرار لاعتمادنا عليها من خلال عرضنا للمقاصد فيها.

١. الاحتضار والموت

تمهيد: مفهوم الاحتضار والموت وسكراته

قبل حدوث الموت وخروج الروح من الجسد، تحدّث القرآن الكريم عن فترة الاحتضار، وهي أول مراحل الانتقال الى ذلك العالم الواسع، وما يرافقها خلال هذه اللحظات من سكرات الموت التي تختلف من انسانٍ لآخر، فإذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان في الدنيا على الانتهاء أرسل الله تعالى رسل الموت لسل الروح المدبرة للجسد والمحركة له، وسنتحدث عن هذا من خلال العناوين الآتية:

آ- مفهوم الاحتضار

الاحتضار في اللغة يأتي على معانٍ عدة، منها من حضر فلان واحتضر إذا دنا موته، وحَضَره الموت واحتضره، أشرَف عليه فهو في النزع وهو محضور ومحتضر(١).

أما اصطلاحاً، فالاحتضار هو حضور الموت ونزوله بالعبد، فإذا حان أجل العبد وأراد الله تعالى قبض روحه أرسل إليه ملك الموت ومعه ملائكة يعاونونه على قبض روح ذلك العبد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] ، فقوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي احتضر وحان أجله(٢).

ب- مفهوم سكرات الموت

السكرات لغةً: من (سكر)، والسكر: حالة تعرض بين المرء وعقله، وسكرة الموت: شدته وهمه وغشيته، وهي التي تدل الإنسان على أنه ميت، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، فقوله تعالى ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي بالموت الحق(٣).

واصطلاحاً، سكرة الموت: (شدته الذاهبة بالعقل)، كما تُعرَّف السكرات بشدائد الموت وأهواله وكربه التي تصيب المحتضر، بسبب نزع الروح، ومثلها غمرات الموت: بمعنى شدائده وسكراته، وتظهر على الإنسان بصورة الاضطراب والانقلاب والتبدّل، وربّما استولت هذه الحالة على عقل الإنسان، وسلبت شعوره واختياره(٤).

---

(١) (يُنظَر) لسان العرب:١٩٩/٤، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير: ٥٤.

(٢) (يُنظَر) احوال المحتضر: ٩٣، و(يُنظَر) القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى: ١٩.

(٣) (يُنظَر) مفردات الفاظ القرآن الكريم: ١/ ٤٨٤، العين: ٢/ ٢٦٠، ولسان العرب: ٣٧٣/٤.

(٤) (يُنظَر) الكليات: ٨٢٠، التفسير الكاشف: ٣/ ٢٢٨، تفسير الأمثل: ١٧/ ٣٠.

ج ـ الموت، وأنواعه

- **مفهوم الموت**

إن اشتقاق لفظة الموت في اللغة من مَيِّت، في الأصل (مَوْيِتٌ)، مثل سَيِّد وسَوْيِد، فأُدغِمَت الواو في الياء وثَقُلَت الياء، وقيل مَيْوِت وسَيْوِد، ويُخَفف فيقال مَيْت. والمِيتَةَ الموت بعينه، والموت هو السكون، وكل ما سكن، فقد مات، أما الأجل فهو غاية الوقت في الموت[1].

أما الموت اصطلاحاً: فقد تعرَّض العلماء لتعريفه في كتب العقيدة والتفسير والشروح وغيرها، ومن بين تلك التعريفات: إن (الموت هو عدم الحياة عمَّا وُجِد فيه الحياة؛ لئلا ينتقض بالجنين[2])، وعرفه محمد جواد مغنية[3](ت١٤٠٠هـ) في تفسيره الكاشف أنه (عبارة عن قطع العلاقة بين الروح والبدن)[4].

أما الآجال فهي الأوقات، وأجَل الحياة وقتها، وأجل الموت وقته الذي يوجد فيه، وكذلك الأجل في الدَين، إنما هو وقت وجوبه[5].

ومثله الوفاة، فهي والموت مفهوم واحد، وهو عدم الحياة، وتُستعمل كلتا الكلمتين في النوم مجازاً؛ لأن الحواس تتعطل أعمالها بسببه، ومنه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ

---

(١) (ينظر) العين: ١/ ٥٨، و٤/ ١٧٢، ولسان العرب:٩٢/٢، وتاج العروس: ٥/ ٩٨.

(٢) الكليات: ٨٥٧.

(٣) المجتهد الإمامي، الكاتب الموسوعي، كتب في العقائد والتفسير والفلسفة والتاريخ والفقه والأصول والأخلاق وغيرها بأسلوب واضح ورؤية عصرية، وتصدّى لدحض الشبهات وإزالة التشكيكات، له من المؤلفات الكثيرة منها: [الله والعقل]، و[النبوة والعقل]، و[شبهات الملحدين والإجابة عنها]. (يُنظر) أعيان الشيعة: ٩/ ٢٠٥

(٤) تفسير الكاشف لمغنية: ٦/ ٤١٩.

(٥) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد: ٣٦١، الإقتصاد فيما يتعلق بالإعتقاد: ١٧٠.

مُسَمًّى﴾ [الزمر: ١٤٢]، أي ان الله يقطع صلة الأرواح بالأبدان ظاهراً وواقعاً حين الموت، ويمسكها عنده، ويقطع هذه الصلة ظاهراً لا واقعاً حين النوم[1].

- **أنواع الموت**

ورد ذكر المَوت في العديد من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، واختلف المُراد منه حسب موقع وروده، فرأينا هنا ذكر أنواعه باختصار لأجل الإشارة لما يطابق مجال دراستنا هذه، فقد ذكر الراغب الأصفهاني(ت٥٠٢هـ) أنواع الموت بحسب أنواع الحياة، وتبعه في ذلك ابن منظور(ت٧١١هـ)، ونحا الكثير من المفسرين لهذه المعاني خلال تفاسيرهم، حسب دلالة الآيات الكريمة، منها:

❖ ما هو بإزاء القوَّة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّبات، نحو قوله تعالى: ﴿يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ [الروم: ١٩]، ﴿وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ [ق: ١١].

❖ زوال القوّة الحاسَّة، قال تعالى: ﴿يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا﴾ [مريم: ٢٣]، و﴿أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

❖ زوال القوَّة العاقلة، وهي الجهالة، كما جاء في قوله تعالى:﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وإيّاه قصد بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ [النمل: ٨٠].

❖ الحزن المكدِّر للحياة، وإيّاه قصد بقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [ابراهيم: ١٧].

❖ المنامُ، فقيل: النّوم مَوْتٌ خفيف، والموت نوم ثقيل، وعلى هذا النحو سمّاهما الله تعالى توفِّياً، فقال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قد قيل: نفي الموت هو عن أرواحهم فإنه نبّه على

---

(١) تفسير الكاشف لمغنية: ٣/ ٢٠١.

تنعّمهم، وقيل: نفى عنهم الحزن المذكور في قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [ابراهيم: ١٧][1].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، عبارة عن زوال القوّة الحيوانيَّة وإبانة الرُّوح عن الجسد، تنبيها أن لا بدّ لأحد من الموت، كما قيل: والموت حتم في رقاب العباد[2].

المقصد الأول: مقصد توحيد الله تعالى في الأمر والتدبير

يندرج هذا المقصد من الايمان بالاحتضار وسكرات الموت في ان الامر كله بيد الله، وأنه تعالى يتوفى الأنفس عن طريق الملائكة الموكلين بذلك، وهذه المسألة (لا تتنافى مع تفرد الله بالتدبير، وهي أن الله تعالى قد يوكل تنفيذ بعض هذه التدابير إلى بعض خلقه، فالله هو الآمر وعباده هم المنفذون، ولذلك جمع القرآن الكريم بين كون الله تعالى هو المتوفي المميت، وبين الإخبار بتوكيل الملائكة بذلك)[3].

فقال تعالى في الأول، وهو الذي يقرر توحيد الله تعالى وتفرده في التدبير: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [سورة الزمر: من الآية ٤٢].

---

(١) سمي موتا لأنه يزول معه العقل والحركة، تمثيلا وتشبيهاً، لا تحقيقاً، (يُنظَر) لسان العرب:٩٢/٢، والمفردات: ٨٧١.

(٢) هذا عجز بيت، وقبله:

شرّده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد
منخرق الكفين يشكو الوجى ... تنكبه أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

وهذه الأبيات كان زيد بن علي يتمثل بها، وهي لمحمد بن عبد الله. زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ٣٩، و١/١١٨، (يُنظَر) المفردات في غريب القرآن: ٨٧١.

(٣) أسرار الأقدار: ٣٩١.

فذلك لا يتنافى مع اخباره تعالى في تولي ملك الموت أو غيره من الملائكة عليهم السلام لروح الإنسان، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ويعود هذا لأن (المتوفي في الحقيقة هو الله، إلا أنه تعالى فوض في عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت، وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفي في هذه الآية ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية، وفي الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس في هذا العمل، وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت)[1].

كما ن هذا لا يؤدي الى تنافٍ بين فعل الله تعالى وفعل ملائكته عليهم السلام، إذ إن الفاعل حين يقوم بفعله بوساطة فاعلٍ آخر يصحُّ حينئذٍ نسبة الفعل الى كليهما، فالله تعالى يقبض الأرواح بواسطة ملك الموت، وملك الموت بدوره يؤدي عمله بواسطة الملائكة الذين يخضعون لأمره[2].

من جهةٍ أُخرى فقد أخبر الله تعالى عن (طبيعة الملائكة، وهي الانقياد التام لله تعالى، فيستحيل على طبيعتها أن تنفذ غير ما طلب منها، ولهذا كان اسمها مشتقاً من (الألوكة)، وهي الرسالة[3]، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره)[4]، وقد قال تعالى في وصفهم: ﴿لا

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٥٧، و(يُنظَر) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: ٣/ ٣.

(٢) المعاد، رؤية قرآنية: ١/ ١١٩.

(٣) (يُنظَر) العين،: ٤/ ١٦٦.

(٤) أسرار الأقدار: ٣٩٣.

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَّ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

كما ورد في الحديث الشريف كيفية تلقي الملائكة عليهم السلام لأوامر الله تعالى بقوله ﷺ: (إذا قَضَى اللهَّ الأمْرَ في السَّماءِ، ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بأَجْنِحَتِها خُضْعانًا لِقَوْلِهِ، كأنه سِلْسِلَةٍ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قُلُوبِهِمْ، قالوا: ماذا قالَ رَبُّكُمْ، قالُوا لِلَّذِي قالَ: ﴿الحَقَّ وهو العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذا واحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، فَرُبَّما أدْرَكَ الشِّهابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أنْ يَرْمِيَ بها إلى صاحِبِهِ فيُحْرِقَهُ، ورُبَّما لَمْ يُدْرِكْهُ حتَّى يَرْمِيَ بها إلى الذي يَلِيهِ، إلى الذي هو أسْفَلَ منه، حتَّى يُلْقُوها إلى الأرْضِ، فَتُلْقَى علَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ معها مِائَةَ كَذْبَةٍ، فيُصَدَّقُ فيَقولونَ: ألَمْ يُخْبِرْنا يَومَ كَذا وكَذا، يَكونُ كَذا وكَذا، فَوَجَدْناهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ)(١).

المقصد الثاني: لطف الله تعالى وحكمته في لحظات الموت وسكراته

تدل لحظات الاحتضار وشدائد الموت على قرب مفارقة الروح للجسد، وهي تختلف من إنسانٍ لآخر، وحاول الغزالي(ت٥٠٥هـ) أن يقرب هذه الصورة، فقال: (إن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النَزع على شدة ما هم فيه.

فأما القياس: الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو، جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح، فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم، يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم؛ فإن كان من الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده، والنَزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٠٤، (يُنظَر) أسرار الأقدار: ٣٩٤.

من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم.

فألم النَزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه؛ فإنه المنْزوع المجذوب من كل عرق من العروق، وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء، ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من العرق إلى القدم. فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم، لا من عرق واحد، بل من جميع العروق)[١].

ولذلك فإنّه حين يُسأل الإمام الصادق عليه السلام عن سبب اضطراب الجسد حين خروج الروح منه يجيب: (لأنّه نما عليها البدن)[٢].

ومع شدة ظاهر هذه اللحظات، إلا أنه يتجلى فيها عظيم لطف الله تعالى بعباده حين تتولى الملائكة تنفيذ أمره؛ إذ صرَّحت الأدلة الصحيحة بأن هذه الشدائد إنما تلحق الكافر أو العاصي حين تبلغه بسخط الله تعالى وغضبه، بخلاف المؤمن بالله تعالى، ومما دلَّ على ذلك في كتاب الله، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وهذا التنزل ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة﴾ كما قال طائفة من أئمة التفسير إنما يكون حال الاحتضار[٣]، كما قيل: إن هذه البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم ﴿أَلاَّ تَخَافُواْ﴾ وأصله: بأنه لا تخافوا؛ والخوف: غمّ يلحق لتوقع المكروه،

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٦٢، و(يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ٦/ ١٥٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢١/ ٤٦٦، تفسير الكشاف: ٤/ ١٩٩.

والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضارّ، والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غمّ، فلن تذوقوه أبداً، وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم، كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين[١].

كما أشار الى بشارة المؤمن عند حضور الموت نبينا الكريم ﷺ بقوله: (إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ)، قَالَ ﷺ: (فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ)، قَالَ ﷺ: (فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى)[٢].

(والموت على كل حال أحد بشارات المؤمن؛ إذ كان أول طرقه إلى محل النعيم، وبه يصل إلى ثواب الاعمال الحسنة في الدنيا، وهو أول شدة تلحق الكافر من شدائد العقاب وأول طرقه إلى حلول العقاب؛ إذ كان الله تعالى جعل الجزاء على الاعمال بعده، وصيّره سبباً لنقله من دار

---

(١) (يُنظَر) تفسير الكشاف: ٤/ ١٩٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٩٣

التكليف إلى دار الجزاء)[1].

أما ما ورد من السكرات والشدائد التي يعانيها بعض المؤمنين مما يسبق خروج أرواحهم فقد أشار إليها الامام الصادق عليه السلام حين سُئل: (صف لنا الموت؟) فقال: (هو للمؤمنين كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه، فينقطع التعب والألم كله عنه، وللكافر كلسع الأفاعي، وكلدغ العقارب وأشد)، فقيل له: (فإن قوماً يقولون هو أشد من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، ورضخ بالحجارة، وتدوير قطب الأرحية في الأحداق؟)، فقال: (كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين، ألا ترون منهم من يعاين تلك الشدائد، فذلك الذي هو أشد من هذا، إلا عذاب الآخرة، فإنه أشدُّ من عذاب الدنيا)، قيل: (فما لنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفئ وهو يتحدث ويضحك ويتكلم، وفي المؤمنين من يكون أيضاً كذلك، وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد؟)، فقال عليه السلام: (ما كان من راحة هناك للمؤمنين فهو عاجل ثوابه، وما كان من شدة فهو تمحيصه من ذنوبه، ليرد إلى الآخرة نقياً نظيفاً مستحقاً لثواب الله، ليس له مانع دونه، وما كان من سهولة هناك على الكافر، فليوفى أجر حسناته في الدنيا، ليرد الآخرة وليس له إلا ما يوجب عليه العذاب، وما كان من شدة على الكافر هناك، فهو ابتداء عقاب الله عند نفاد حسناته، ذلكم بأن الله عَدْلٌ لا يجور)[2].

كما وردَ في فتح الباري إن (الميت لا يعدو أحد القسمين، إما مستريح وإمامستراح منه، وكل منهما يجوز أن يشدد عليه عند الموت وأن يخفف، والأول هو الذي يحصل له سكرات الموت ولا يتعلق ذلك بتقواه ولا بفجوره، بل إن كان من أهل التقوى ازداد ثواباً، وإلا فيكفر عنه بقدر ذلك ثم يستريح من أذى الدنيا الذي هذا خاتمته)[3].

---

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية: ٩٦، وبحار الأنوار: ٦ / ١٦٩.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٧٤.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٣٦٥.

المقصد الثالث: التكريم الإلهي للعباد لحسن ظنهم بالله تعالى لحظات الموت وسكراته

يقول الإمام علي عليه السلام في شدة سكرات الموت: (إن للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا)[1].

وكما يتجلى اللطف الإلهي للمستقيمين في هذه اللحظات، فكذلك بشَّر تعالى بالنزع اليسير المرتبط بأرواح المؤمنين من المقربين وأهل اليمين، ممن أحسنوا ظنهم بالله تعالى، مقارنة بالنزع المرتبط بالجاحدين من أهل الشمال، وما يواجهوه لحظة خروج أرواحهم، فقال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٤].

إذ روي عن الإمام علي عليه السلام قوله في تفسيرها: (﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾هي الملائكة تنزع أرواح الكفّار، و﴿النَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾ هي الملائكة تنشط أرواح الكفّار، ما بين الأظفار والجلد حتّى تخرجها، و﴿السَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض، ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ هي الملائكة تسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى)[2].

وبهذا التفسير وردت الأقوال عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما في إنَّ (الملائكة، حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط)[3].

وعلاقة هذا النزع للروح بحسن الظن بالله تعالى، إنما هو من تجليات مقاصد الرحمة الإلهية للعباد، ويعود لتأثره المباشر في تحصيل حسن العاقبة للمؤمن بالله تعالى من أول

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٧، وميزان الحكمة: ٣٦١/٩.

(٢) كنز العمال: ٢/ ٤٥٤.

(٣) تفسير ابن كثير ت سلامة: ٨/ ٣١٢، و(يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١١٣.

مراحله لمغادرة هذه الحياة الدنيا (وذلك لأن استشعار رحمة الله يحبب في لقاء الله، بخلاف اليأس من رحمته، فإن الإنسان يكره لقاء من لا يحبه، ولهذا ورد الأمر بحسن الظن بالله خاصة في موقف الاحتضار)(١).

وقد ورد عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول قبل وفاته بثلاثٍ: (لا يَموتَنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ تَعَالى)(٢)، وقد ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله تعالى، وزاده: (فإن قوماً أرداهم سوء ظنهم بالله فقال لهم تبارك وتعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣])(٣).

وقد وردَ في شرح الحديث الشريف إنه هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتم، فمما ورد في معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، ففي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً ويكونان سواء، وقيل يكون الخوف أرجح فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له، ويؤيده الحديث المذكور بعده (يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ عَلى مَا مَاتَ عَلَيه)(٤)(٥).

وأمس حاجة للإنسان في حسن ظنه بالله تعالى لحظات حضور الموت وتوالي سكراته،

---

(١) أسرار الأقدار: ٤٢٣.

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٢٠٥.

(٣) حسن الظن بالله :١٦، والتذكرة: ١٧٢.

(٤) صحيح مسلم: ٤/٢٢٠٦.

(٥) المنهاج: ١٧/ ٢١٠.

ويؤيده ما ورد من (أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال ﷺ: (كَيْفَ تَجِدُكَ؟) قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: (لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمُوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ)[1].

وإنما تكون ضرورة قوة يقين العبد ودوام حسن ظنه بالله تعالى ما لها من التأثير الكبير في تهوين سكرات الموت، وإيمانه بحسن عاقبته الذي يعود لكرم الله تعالى لحسن ظنه برحمته وشمولها إياه في ذلك الموقف وما يتبعه من مواقف اليوم الآخر، كما أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود قال: (والذي لا إله غيره لا يحسن عبد مؤمن بالله ظنه إلا أعطاه ذلك، فان كل الخير بيده)[2].

وقد بيَّن تعالى أن كفر الكافرين وضلالهم ناتج عن سوء ظنهم بربهم، ويأسهم من رحمته، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ [الفتح: ١٢].

وكذلك بيانه تعالى تأثير حسن الظن في تنزل فضله العظيم على عباده، لقوله ﷺ في الحديث القدسي: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي)[3].

---

(١) سنن ابن ماجة: ٢/ ١٤٢٣، وسنن الترمذي: ٣/ ٣١١.

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار: ١٠٨/٧، وشرح الصدور بشرح حال الموتى في القبور : ٢٤.

(٣) صحيح البخاري: ٢٦٩٤/٦.

٢. القبر وفتنته

تمهيد: مفهوم القبر وفتنته

مفهوم القبر

القبر لغةً: موضع القبر، والمراد به مدفن الإنسان، والجمع قبور، ومنه المقبرة وهي موضع القبور، كما جاء بمعنى الجدث مفرد، وجمعه اجداث[١].

أما اصطلاحاً، فقد ورد فيه معنيان، أحدهما مشابه لمعناه اللغوي، وهو الغالب، والآخر يختلف عنه، وهو البرزخ، وبيانهما:

الأول: القبر هو مقر الميت، وأقبرته: جعلت له مكاناً يُقبر فيه، كما في التعريف اللغوي، لكن هذا التعريف للقبر، وهو الحفرة التي يُوضع فيها بدن الإنسان الميت مما يتعلق بالأحكام الفقهية، وهو ما يُسمى (بالقبر الفقهي) فليس محل بحثنا.

الثاني: وهو تعريف القبر في الاصطلاح الكلامي، وليس المراد به فقط القبر المعروف، بل المراد به نفس البرزخ والبُعد المعنوي والروحاني والنفسي، والمرتبط بالحقيقة القرآنية ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وهي الحقيقة التي لا ارتباط بها بنشأة المادة حتى توضع في الحفرة المادية[٢].

فكل ميت يُقبَرَ ولو لم يدفَن في قبره، إذ تُعاد روحه إلى جسده بقدر ما يفهم الخطاب ويرد الجواب، ولا فرق في ذلك بين من دُفن في القبر أو صار في بطن السبع أو في قعر البحر، وبذلك وردت الآثار ويجب به الإيمان[٣].

---

(١) (ينظر) معجم اللغة العربية المعاصرة: ٣٤٨/١، العين: ٣/ ٣٥٢، و١٥٧/٥، ومجمل اللغة: ٧٤٠/١.

(٢) (يُنظَر) مفردات الفاظ القرآن الكريم: ٢/ ٢١٣، والمعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ١٨٤، ٢١٢

(٣) (يُنظَر) غاية المرام في عقائد أهل الإسلام: ٤٣، وأصول الدين للغزنوي: ٢١٥.

مفهوم فتنة القبر

أما الفتنة، ففي اللغة: الابتلاء والاختبار، والفتنة: الخبرة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]، ومعناه: أنهم افتتنوا بشجرة الزقوم، وكذبوا بكونها، وذلك أنهم لما سمعوا أنها تخرج في أصل الجحيم، قالوا: الشجر يحترق في النار، فكيف ينبت الشجر في النار؟ وصارت فتنة لهم.

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، أي: لا يختبرون فيُميّز خبيثهم من طيّبهم، ومثلها سؤال القبر أو مسائلته، و(السُّؤَالُ: استدعاء معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة)[١].

واصطلاحاً: سؤال القبر، أو فتنة القبر هي سؤال منكرٍ ونكير إيانا - معاشر أمة الدعوة مؤمنين وعُصاة وكافرين - وهو حقٌ واجب الإيمان به، ويُراد به: أن الله تعالى يحيي العبد المُكَلَف في قبره برد الحياة اليه، ويجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يُسأل عنه، وما يجيبه، ويفهم ما أتاه من ربه وما أعدَّ له في قبره من كرامةٍ أو هوان.

وهي حقٌ لا بدَّ منها، فمن أجابَ بالصواب فازَ بروحٍ وريحانٍ في قبره، وبجنةٍ نعيمٍ في الآخرة، ومن لم يأتِ بالصواب فله نزلٌ من حميم في قبره، وتصلية جحيم في الآخرة[٢].

ويتولى السؤال ملَكَان أسمهما منكرٍ ونكير، ويُسَميان أيضاً (فتانا القبر)؛ لأن في سؤالهما إنتهاراً، وفي خلقهما صعوبة، وإنما سميا منكراً ونكيراً لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين ولا خلق الملائكة، ولا خلق الطير ولا خلق البهائم، ولا خلق الهوام، بل لهما خلقٌ بديع، وليس في خلقهما أُنسٌ للناظرين اليهما، جعلهما الله مكرمةً للمؤمن ليثبته وينصره، وهتكاً لستر المنافق في البرزخ قبل أن يُبعَث، حتى يحل عليه العذاب.

---

(١) مفردات غريب القرآن: ٤٣٧، و(يُنظَر) تفسير روح المعاني: ١٢/ ٩٢.

(٢) الاعتقادات في دين الامامية: ٥٨، و(يُنظَر) عون المريد: ١٠٢١، واصول العقائد في الإسلام: ١٥٣.

وقيل هما للمؤمن الموفق مبشرٍ وبشير، وأما الكافر والمؤمن العاصي فلهما منكرٍ ونكير[1]، ومن مقاصد هذه الفتنة في القبر:

المقصد الأول: قدرة الله تعالى وبيان حال المثبتين من غيرهم

ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية، عن النبي ﷺ قال: (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شهِدَ أَن لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهَّ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾)[2].

والتثبيت في الحياة الدنيا يكون على كلمة التوحيد بقول لا إله الا الله، واما التثبيت في الآخرة فيكون بمثل ما ثبتهم به في الحياة الدنيا وذلك في القبر عندما يسألون من ربهم ودينهم ونبيهم، واما قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يهدي ولا يوفق المشركين الى الجواب بالصواب عند السؤال في القبر[3].

فلمْ يسأل الملائكة الميت هذه الأسئلة لجهلهم بحاله، إنما جعله تعالى دليلاً كي يتعرف الإنسان على حقيقة إيمانه، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

لذلك، فإنَّ ما ورد من الروايات الكريمة في توسعة القبر للميت مد بصره، وإتيانه بالطعام والشراب الذي مصدره من الجنة بمجرد إجابته لسؤال الملكين عن عقائده وعمله، فإن كل ذلك لا يكون ممتنعاً في قدرة الله تعالى وإرادته.

وقد روي بإسنادٍ عن الإمام الصادق عليه السلام ان النبي ﷺ قال: (إذا مات المؤمن، شيَّعهُ سبعون ألف مَلَك الى قبره، فإذا أُدخِل قبرَه، أتاهُ منكر ونكير فيقعدانه ويقولان له: من

---

(١) (يُنظَر) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٢١، والعقيدة الإسلامية ومذاهبها: ٦٣٣، والتذكرة: ٣٨٥.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٧٣٥.

(٣) (ينظر) معالم التنزيل في تفسير القرآن: ٣٤٩/٤. ٣٥١.

ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، فيفسحان له في قبره مد بصره، ويأتيانه بالطعام من الجنة، ويدخلان عليه الروح والريحان، وذلك قوله عزَّ وجل: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ في قبره، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]في الآخرة)[١].

ويذكر ابن عطية الأندلسي[٢](ت ٥٤٢هـ) دلائل هذه القدرة العظيمة لله تعالى في معرض تفسيره للآية الكريمة ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [ابراهيم: ٢٧]، بقوله (إن الله يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلاً، إما بحياة كالمتعارفة، وإما بحضور النفس وإن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل هذا جائز في قدرة الله تعالى، فسبحان رب هذه القدرة)[٣].

فضلاً عن ذلك، فإن من المقاصد الظاهرة في مساءلة القبر تمييز صادق الايمان من كاذبه، ففيها بيان حال المثبتين من غيرهم، حيث جعلها الله مكرمةً للمؤمن ليثبته وينصره، وهتكاً لستر المنافق في البرزخ قبل أن يُبعَث، حتى يحل عليه العذاب[٤].

ومن الأدلة على هذا المقصد قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، أي: لا يختبرون فيميّز خبيثهم من طيّبهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، (أي أظن الناس أن يقنع منهم بأن يقولوا إنا مؤمنون فقط، و يقتصر منهم على هذا القدر ولا يمتحنون بما تبين به حقيقة إيمانهم، هذا

---

(١) بحار الانوار: ٦/ ٢٢٢، وجامع الأخبار أو معارج اليقين في اصول الدين: ٤٧٧.

(٢) عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرحيم ابن عطية الغرناطي، كان فقيهًا جليلًا، نحويًا، لغويًا، شاعرًا، عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير، روى عن أبيه الحافظ أبي بكر وغيره وولي قضاء المرّية وصنَّف [المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز]. (يُنظَر) سير اعلام النبلاء: ١٩/ ٥٨٧، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/ ٦٧٩.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب: ٣/٣٣٧.

(٤) (يُنظَر) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٢١، التذكرة: ٣٨٥، والعقيدة الإسلامية ومذاهبها: ٦٣.

لا يكون، وهذا استفهام إنكار و توبيخ)[1].

المقصد الثاني: تجليات حكمة الله تعالى وعدالته في فتنة القبر

وتتجلى مقاصد الحكمة والعدالة الإلهية في فتنة القبر من خلال أمورٍ عدة، منها:

١ـ تثبيت المؤمنين أمام دعوة الشيطان عليه اللعنة ضد الدين والمبادئ الإسلامية.

ذكر العلماء أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة بصورة أبيه أو أمه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له، فيدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام، فهناك يزيغ الله من كتب له الشقاء[2]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ومما ورد في محاولات الشيطان لأجل أن يزيغ الإنسان عن جميع مظاهر العبودية لله تعالى، ما رُويَ عن سبرة بن أبي فاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبَائِكَ، وَآبَاءِ أَبِيكَ؟) قَالَ ﷺ: (فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ، وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ) قَالَ ﷺ: (فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ) قَالَ ﷺ: (ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ، وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقَسَّمُ الْمَالُ) قَالَ ﷺ: (فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ وكَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ)[3].

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٨/ ٤.

(٢) (يُنظَر) التذكرة: ٣٣.

(٣) مسند الامام أحمد: ٣/ ٤٨٣

فالذي يستيقن ثباته في الدنيا عن اتباع الشيطان فسوف يتأكد من صدق يقينه وسلامة ايمانه عن الانحرافات الدنيوية فيكتشف وقتئذٍ حقيقة إيمانه هذه، وهي ما ستنقذه من الدركات التي كان سيقع بها فيما لو كان يقينه ضعيفاً أو مزيفاً.

٢ـ إخفاء فتنة القبر عن العيان

ومن تجليات حكمته تعالى في هذه المسألة إخفاؤها عن العيان، وقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ قوله: (إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَّ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ)(١)، أي: لولا خشية أن يفضي سماعكم إلى ترك أن يدفن بعضكم بعضاً، و(إن الله تعالى ستار العيوب، ولا يسمح لأحد أن يطلع على أحوال الناس في البرزخ، نعم في الحشر الأكبر يختلف الأمر، فهو يوم الخزي والندامة والفضيحة، وهو بتعبير القرآن الكريم ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، ففيه يمكن أن يطلع الكثير من الناس على أحوال الآخرين، وهذا يُعَد من الفوارق الأساسية بين عالم البرزخ وبين الحشر الأكبر، ويُستثنى من ذلك إخفاء عيوب بعض الناس عن الآخرين، وهم الذين ستروا على عيوب الناس في هذه الدنيا، وما ذلك إلا جزاءاً من الله تعالى وإثابةً لمن كان ستاراً لعيوب الآخرين في الدنيا)(٢).

٣ـ دفاع الأعمال الصالحة على صاحبها

ومن أهم تجليات العدالة الإلهية في المساءلة في ذلك الموقف ما ورد من أحاديثه ﷺ في وصف حال الميت المؤمن، في حال انتقاله للنشأة البرزخية، وكيف تدافع عنه عباداته لله تعالى وأعماله الصالحة، وهو ما يدل على تجسمها في صور حسية قد يراها(٣)، وذلك في قوله ﷺ: (إِنَّ الْمَيِّتَ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ

---

(١) صحيح مسلم: ٢١٩٩/٤.

(٢) المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ٢٠٢.

(٣) (ينظر) أسرار ما بعد الموت: ١٧٦، وأسرار الأقدار: ٢٩٣.

رَأْسَهُ، وَكَانَ الصَّوْمُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصَّوْمُ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ، وَتُمَثَّلُ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ فَيُقَالُ لَهُ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَا تَشْهَدُ بِهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي، فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِّي عَنْهُ ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي. فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِّي ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبِرْنَا مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ وَمَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدًا، أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ، لَوْ عَصَيْتَ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧])[1].

المقصد الثالث: تجليات نعيم المؤمنين في فتنة القبر

يظهر في كل مسألة فرضها تعالى على عباده نعماً ومصالح لا تُعَد ولا تُحصى، ومن هذه المسائل سؤال القبر للمؤمنين، حيث يظهر في حين إجابة المؤمن لسؤال الملَكين وتثبته بالقول الحق، ما أعدَّه تعالى له من النعيم العظيم الذي بشره به تعالى من رؤية منزله في الجنة وإفساح القبر له، كما يريه تعالى ما أبدله به من منزلٍ في النار لو أنه لم يتثبت بالقول الحق في

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٥٣٥.

سؤال الملكين.

ويدلُّ على ذلك ما وردَ في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية، حيث قال ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا الإنسان دُفِنَ فَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَهُ مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ فَأَقْعَدَهُ، قَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلُكَ لَوْ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ آمَنْتَ فَهَذَا مَنْزِلُكَ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِ فَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا يَقُولُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولَ: لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ، وَلَا تَلَيْتَ، وَلَا اهْتَدَيْتَ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ كَفَرْتَ بِهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبْدَلَكَ بِهِ هَذَا، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ ثُمَّ يَقْمَعُهُ قَمْعَةً بِالْمِطْرَاقِ يَسْمَعُهَا خَلْقُ الله كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ " فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ إِلَّا هِيلَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾)[1].

وبما أنّ الآيات السابقة لهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [ابراهيم: ٢٤ ـ ٢٦]، حيث جسّدت حال الإيمان والكفر، الطيّب والخبيث من خلال مثالين صريحين، فإنّ هذه الآية تبحث نتيجة عملهم ومصيرهم النهائي، لأنّ إيمانهم لم يكن إيماناً سطحياً وشخصيتهم لم تكن كاذبة ومتلوّنة، بل كانت شجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء، وبما أنّ ليس هناك من لا يحتاج إلى اللطف

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٣.

الإلهي، وبعبارة أُخرى: كلّ المواهب تعود لذاته المقدّسة، فالمؤمنون المخلصون الثابتون بالاستناد إلى اللطف الإلهي يستقيمون كالجبال في مقابل أيّة حادثة، والله تعالى يحفظهم من الزلاّت التي تعتريهم في حياتهم، ومن الشياطين الذين يوسوسون لهم زُخرف الحياة ليزلّوهم عن الطريق[١].

وهذا ما يحدث في مسائلة القبر وفتنته، حيث يرى الميت منزله من الجنة ومنزله من النار، فتتجلى أمامه رحمة الله تعالى به، إذ نقله من أشقى المنازل الى أعلاها إن حافظ على جوابه تثبته على القل الحق.

ويشير إلى هذا قوله ﷺ: (الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)[٢]، فهو يشير إلى قرب المنزلين كليهما من العبد، وهو كناية عن سهولة دخولها لمن أطاع، وكذلك دخول النار لمن عصى، أي أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد، وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية[٣].

٣. ضغطة القبر

تمهيد: مفهوم ضغطة القبر

الضغطة لغةً من الضغط: وهو عصر الشيء الى الشيء، والضغاط تضاغط الناس في الزِحام وغيره، ومنه ضغطة القبر، وهي الضيق، والإكراه..

وأعوذ بالله من ضغطة القبر، واللهم ادفع عنا هذه الضغطة، وهي الشدة[٤].

أما اصطلاحاً: فهي الضغطة أو الضمة التي يتعرض لها الميت عند دفنه في قبره، وتُعَد من

---

(١) (ينظر) تفسير الأمثل: ٧/ ٥٠٣/ ٥٠٤.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٨٠.

(٣) (يُنظَر) فتح الباري: ١١/ ٣٢١، وأسرار الأقدار: ١٢٤.

(٤) (يُنظَر) العين: ٣/ ١٩، أساس البلاغة: ١/ ٥٨٣، ولسان العرب: ٧/ ٣٤٢.

أهم العقبات الصعبة التي يتعرض إليها البعض في قبورهم، وقلَّما ينجو أحدٌ منها.

وورد ذكر ضغطة القبر في الأحاديث كثيراً وتكون على البعض أشد منها على البعض الآخر، وهذه العقبة صعبة جداً وبتصورها تضيق على الإنسان سعة حياته الدنيا هذه[١].

وقد وردَتْ هذه الأحاديث فيها دالةً ظواهرها على قولين، القول الأول منهما ما جعلها عامةً للمؤمنين وغيرهم، والآخر بأنها لمن لا يُغفَر له من أصحاب الذنوب، وأن هنالك من ينجو منها.

حيث وردَ في عدد منها ان ضغطة القبر عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، ولا ينجو منها أحد، يقول ابن حجر: (قد جاءت الأحاديث الكثيرة بضمة القبر، وأنه لا ينجو منها صالح ولا غيره، إذ أخبر ﷺ في سعد بن معاذ سيد الأوس من الأنصار أنه اهتز لموته عرش الرحمن استبشاراً لقدوم روحه، وإعلاماً بعظيم مرتبته، وأنه لم ينجُ منها، وأنه شيع جنازته سبعون ألف ملك، وأنه لو كان أحد ينجو منها لنجا منها هذا العبد الصالح، وقد قال فيه ﷺ: (هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلائِكَةِ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ)[٢].

كما روي عن جابر بن عبد الله قوله: لما دُفن سعد، ونحن مع رسول الله ﷺ، سبَّحَ رسول الله ﷺ فسبَّحَ الناس معه طويلاً، ثم كبَّر فكبر الناس، ثم قالوا: يا رسول الله مم سبَّحت؟ قال ﷺ: (لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ عَنْهُ)[٣].

كما أن عمومية هذه الضغطة يُستدَلُ بها أنها تشمل حتى الأطفال بدليل قوله ﷺ: (لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ الْقَبْرِ لَنَجَا هَذَا الصَّبِيُّ)[٤].

---

(١) الكافي للكليني: ٢/٢٤١، و(يُنظَر) منازل الآخرة: ٢٣.

(٢) سنن النسائي: ٤/ ١٠٠، (يُنظَر) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين: ٣/ ١٦٤.

(٣) مسند الإمام احمد: ٣/ ٣٧٧.

(٤) المطالب العالية: ١٨/ ٤٧٥.

ومع ذلك فقد وردت الأخبار أيضاً بعدم شمولية هذه الضغطة للجميع، يقول عبد الله شبر(١٢٤٢هـ)[1] في حق اليقين: (والكلام في ضغطة القبر كثوابه وعقابه، والذي يظهر من الأخبار المعتبرة أنها تقع في البدن الأصلي وليست بعامة، وإنما تابعةً للسؤال، فمن لم يُسأل لم يُضغَط)[2].

ويتضح لنا سبب هذا التباين الظاهري في هذه الأخبار من خلال دراستنا لمقاصدها، والتي سنذكرها فيما يأتي:

المقصد الأول: تجليات العدالة الإلهية في شمولية ضغطة القبر

في جميع مواقف النشآت الإنسانية يتصدر مقصد العدالة الإلهية ما دونه من المقاصد؛ وذلك لأنه الأصل الذي خلقَ تعالى بناءً عليه السمواتِ والأرض، فهو تعالى الحكم العدل الذي حاشاه أن يظلم أحداً، وفي القول بشمول هذه الضغطة لجميع العباد فإنه لا خروج عن هذا المقصد، بل إنه يتوافق معه تماماً، وهو الذي يتبين لنا من خلال بحثنا لما ورد فيها من النصوص الكريمة بما يدل على هذا الاختلاف في الضغطة بحسب إيمان الخَلْق وطاعتهم.

١ـ وردَ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، حيث يذكر البغوي[3](ت ٥١٦هـ) في تفسيره الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ

(١) المحدث الجليل عبد الله شبر بن السيد محمد رضا الشبر الحسيني الكاظمي، كان سريع الكتابة والتصنيف، كتب آخر بعض مصنفاته: شرعت فيها عند العشاء وتمت عند نصف الليل .وجاوزت مؤلفاته٥٢ مؤلفاً، منها [حق اليقين في معرفة أصول الدين]، و[صفوة التفاسير]، توفي سنة ١٢٤٢هـ. (يُنظر) الكنى والألقاب: ٢/ ٣٥٢.

(٢) حق اليقين في معرفة اصول الدين: ٣٨٩

(٣) الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، الشافعي، المفسر، وكان عالما علامة، زاهدا قانعا باليسير، بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام، ، من مؤلفاته [معالم لتنزيل]، و[المصابيح]، و[التهذيب]، توفي سنة ٥١٦هـ. (يُنظر) سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٤١.

عَنْ ذِكْرِي﴾ (يعني (القرآن) فلم يؤمن به ولم يتبعه، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: ضيقاً، وروي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: هو عذاب القبر)[1]، ويؤيده ما روي عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى، ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قوله ﷺ: (يَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ)[2].

ودليل ذلك (إن القرآن يسمى ذكراً، قال تعالى ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

وعلى هذا فإضافته كإضافة الاسماء الجوامد التي لا يقصد بها اضافة العامل الى معموله ونظيره. وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم)[3].

٢- ما رُويَ من قوله ﷺ في مساءلة المنافق(. وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ: مِثْلَهُ، لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ، فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ)[4].

وهذا يدل على أن الضغطة إنما يتعرض لها من أعرض ذكر الله تعالى وعن القرآن الكريم في الدنيا، وفيمن كان منافقاً أو جاحداً لما أنزل تبارك وتعالى من الحق، وكذَّب برسالاته.

٣- ما روي من قوله ﷺ: (إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ

---

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي:٣/ ٢٧٨، و(يُنظَر) مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٣.

(٢) اثبات عذاب القبر: ١/٦٠، وهو جزء من حديث أورده الإمام أحمد في مسنده بإسنادين: ٣/ ١٢٦.

(٣) مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٣.

(٤) سنن الترمذي: ٣/ ٣٨٣.

غَيْرَ فَزِعٍ، وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللهَ ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللهَ، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِي قَبْرِهِ فَزِعًا، مَشْعُوفًا، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُهُ، فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى)(١).

فدلَّ هذا الحديث على شدة ضغطة القبر لمن لم يؤمنوا بالله تعالى بإيمان خالص، أو شابوا إيمانهم بالشك فيه، فتكون هذه الضغطة أشدها عليهم، أما المؤمنين فإنه تعالى يريهم ما أبدلهم ووقاهم منه إيمانهم به وتصديقهم لآياته.

ومما نستخلصه مما أوردناه في شمول هذه الضغطة في القبر، إلا إنها ليست على منحىً واحداً للجميع، فعدالة الله تعالى تأبى ذلك، وهو الرحيم على عباده الغفور لذنوبهم.

أما الأقوال التي تؤيد شمول الصحابي سعد بن معاذ بها، وكذلك الصبي الصغير، وغيرهما. فهي وأن كانت شاملة للجميع إلا إنها تكون للمؤمنين كحنو الام على طفلها، وإن كانت لها من الشدة فسرعان ما تُفَرَّج عليهم، كما وردت بذلك الروايات، وهي ليست من عذاب القبر في شيء، بضد ما تكون للكفار والعصاة، وكما هو سائر مبادئ الجزاء الأخروي التي تقوم على العدالة واللطف والرحمة الإلهية، فتكون شاملةً لكن كلاً حسب

---

(١) سنن ابن ماجة: ٢/ ١٤٢٦.

عمله، حتى أنها تكون للمؤمنين الصالحين بإذن الله تعالى سبباً في سعة قبورهم لهم، وهو ما سنتطرق إليه في المقصد الثاني من مقاصدها.

كما بينت الروايات إنَّ هذه الضغطة كفارة للمؤمنين لمن لا يُغفَر له، إذ قد لا ينجو الإنسان من تبعات الذنوب التي يزينها له الشيطان، فتكون كفارةً عن ذنوبه هذه، ومما ورَد في ذلك قوله ﷺ: (ضَغْطَةُ الْقَبْرِ لِلْمُؤْمِنِ كَفَّارَةٌ لِمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ تَضْيِيعِ النِّعَمِ)(١)، فإن هذا الحديث الشريف يدل على أنها تكون جزاءاً لتضييع النعم التي ينعم الله تعالى بها على عباده، فالله تعالى أعدّل من أن يعذب من لا ذنب له.

كما إنه مما ورد بإمكان ممارسة أعمال معينة في الدنيا، لتجنب أنواع معينة من العذاب، وهذا ما يدل على البعد التربوي للعقائد الإسلامية، وأثرها في تقويم السلوك(٢).

فحين يعلم المؤمن أنه لا محالة سيتعرض الى ضغطة القبر وأنها عامة لجميع المؤمنين، إلا إنها تختلف من انسانٍ لآخر، فإنه سيحاول قدر جهده محاولة تهوينها عليه والتحرز من أسبابها مادام في هذه الحياة الدنيا، فلا يعمل عملاً إلا وتفكَّر في عواقبه وسيئاته، وما من نعمةٍ إلا وحاول شكرها وعدم تضييعها بما يسخط الله تعالى عليه، فقد يكون إيمان الإنسان بهذه الضغطة سبباً من أسباب سلوكه العمل الصالح، ومحاولته التحرز من شدتها.

المقصد الثاني: تبشير المؤمنين بسعة قبورهم

وهذا المقصد ينطلق من أقواله ﷺ في تبشير المؤمن بسعة قبره ونظره الى موقعه من الجنة، لما جاء في العديد من الروايات، منها قوله ﷺ : (إِنَّ الْعَبْدَ، إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ) قَالَ ﷺ: (يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟) قَالَ ﷺ: (فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ) قَالَ ﷺ:

---

(١) علل الشرائع: ١/ ٣٠٩.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ١٧٤.

(فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ) قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: (فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا) قال قتادة وذكر لنا (أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[1].

وقد ورد في شرح الحديث في قوله ﷺ: (وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا) الخضر ضبطوه بوجهين أصحهما بفتح الخاء وكسر الضاد، والثاني بضم الخاء وفتح الضاد والأول أشهر، ومعناه يملأ نعماً غضة ناعمة وأصله من خضرة الشجرة. ويحتمل أن يكون هذا الفسح له على ظاهره، وأنه يرفع عن بصره ما يجاوره من الحجب الكثيفة بحيث لا تناله ظلمة القبر ولا ضيقه إذا رُدَّت إليه روحه)[2].

كما يدلُّ على ذلك قوله ﷺ: (إِنَّمَا القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ)[3].

وهذا وغيره إنما يفيد على أن هنالك من يفلت منها، وأن الأمر مرتبط بالعمل، وبناء على هذا، فإن كل ما ورد في النصوص الكريمة يدل على ارتباط كل جزاء أو عقوبة بالأعمال التي تناسبها، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في الروايات التي تذكر إمكانية تجنب ضغطة القبر، والأعمال المرتبطة بذلك، وهو ما يجعل من القول بعدم شمولها أكثر جدوى، بالإضافة لكونها أقرب لعدالة الله ورحمته بعباده[4].

كما روي عن الإمام علي عليه السلام قوله فيها: (يا عباد الله ما بعد الموت لمن لا يغفر له أشد من الموت، القبر فاحذروا ضيقه وضنكه وظلمته وغربته) الى أن قال: (وإن المعيشة الضنك التي حذر الله منها عدوه عذاب القبر)[5].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٢٠٠.

(٢) المنهاج: ١٧/ ٢٠٤.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٦٣٩، وبحار الأنوار: ٦/١٥٩، و ٦/٢٠٥.

(٤) أسرار ما بعد الموت: ١٧٤.

(٥) بحار الأنوار: ٦/ ٢١٨.

ففي قول الامام علي عليه السلام (لمن لا يُغفَر له)، أيضاً دلالةٌ على عدم شمولها للجميع، وهو ما يظهر من بقية الاخبار الدالة على أن المؤمن يُفتح له من قبره بابٌ الى الجنة، وكذلك قوله عليه السلام (التي حذر الله منها عدوه)، وقد خصَّ الله تعالى المؤمنين الصادقين بمحبته وقربه.

كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام نجاة المؤمنين الصادقين من هذه الضغطة، بقوله ـ يصف موت المؤمن: (فإذا أدرج في أكفانه ووضع على سريره، خرجت روحه تمشي بين أيدي القوم قدماً، وتَلَقَّاه أرواح المؤمنين يسلمون عليه ويبشرونه بما أعد الله له جل ثناؤه من النعيم، فإذا وُضع في قبره رُدَّ إليه الروح إلى وركيه، ثم يسأل عما يعلم، فإذا جاء بما يعلم فتح له ذلك الباب الذي أراه رسول الله صلى الله عليه وآله فيدخل عليه من نورها وضوئها وبردها وطيب ريحها).

فقيل له: جعلت فداك فأين ضغطة القبر؟ فقال: (هيهات ما على المؤمنين منها شيء، والله إن هذه الأرض لتفتخر على هذه فتقول: وطأ على ظهري مؤمن ولم يطأ على ظهرك مؤمن، وتقول له الأرض: والله لقد كنت أحبك وأنت تمشي على ظهري، فأما إذا وليتك فستعلم ماذا أصنع بك، فيفسح له مد بصره)[1].

وبهذا المعنى يقول الترمذي: لا نعلم أن للأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ في القبر ضمة ولا سؤالاً، لعصمتهم، وكذلك فاطمة بنت أسد سلمت من هذه الضمة[2].

أما ما وردَ في سعد بن معاذ وضم القبر له، وكذلك شمول الصبي الصغير بها، فإنها إن صحَّت فلا تكون في شدتها ما يتعارض مع هذه الرحمة الإلهية؛ ذلك إن المؤمنين وإن شملتهم هذه الضغطة، فإنها لا تكون عذاباً عليهم، بل إنها ستكون لهم جزءً من أجرهم الذي أعدَّه تعالى لهم، يؤيد ذلك ما أخرجَه البيهقي(ت ٤٥٨هـ) عن عائشةَ قالتْ: (يا رسول الله، إنك منذ يوم

---

(١) الكافي للكليني: ٣/ ١٣٠؟

(٢) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين: ٢/ ١٦٤.

حدثتَني بصوتِ مُنكرٍ ونكير وضغطةِ القبر، ليس ينفعني شيء قال: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ أَصْوَاتَ مُنْكَرٍ وَنكِيرٍ فِي أَسْمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ كَالإِثْمَدِ فِي الْعَيْنِ وَإِنَّ ضَغْطَةَ الْقَبْرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَالأُمِّ الشَّفِيقَةِ يَشْكُو إِلَيْهَا ابْنُهَا الصُّدَاعَ ؛ فَتَغْمِزُ رَأْسَهُ غَمْزًا رَفِيقًا، وَلَكِنْ يَا عَائِشَةُ وَيْلٌ لِلشَّاكِّينَ فِي الله، كَيفَ يُضْغَطُونَ في قبُورِهِم))(١).

فقيل هي للمطيع حنو، ولغيره ضمة سخط، ومما ورد في حكمتها: أن الأرض أمهم، ومنها خلقوا، فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما رُدوا إليها ضمتهم ضمة الوالدة التي غاب ولدها ثم قدم عليها، فمن كان مطيعاً لله تعالى ضمته برفق ورأفة، ومن كان عاصياً ضمته بعنف سخطاً منها لله عليه(٢)، كما يقول الذهبي (ت٧٤٨هـ) في هذه الضغطة على المؤمنين: (إن هذه الضمة ليست من عذاب القبر في شيء، بل هو أمر يجده المؤمن، كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه)(٣).

---

(١) عذاب القبر للبيهقي: ٨٥.

(٢) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين: ٢/ ١٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١ / ٢٩٠

ثالثاً: التواصل والسَير التكاملي بين النشأتين

إن الإيمان بما يحدث بمجرد موت الإنسان ومن لحظات احتضاره ومسائلة الملكين وسعة القبر وضيقه، فضلاً عمّا يليه من البعث والحساب والموقف وأهواله، يهب العبد حين التيقن به التأهب لما قد يواجهه، فيستدعي منه أن يفكر فيما يقدمه لهذا اليوم وما بعده من زاد، ليقيه من العذاب والخزي والندم يومئذ، ولم يتركه تعالى مخفياً عن عباده، إذ أمرهم بخير ما يتزودوا له من حق تقاته، فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وللإمام علي عليه السلام كلام بليغ يرسم لحظة الموت وسكراتها بعبارات حيّة بليغة إذ يقول: (اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم، ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم ومنطقه، وانّه لبيّن أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه، يفكّر فيمَ أفنى عمره؟ وفيم أذهب دهره؟ ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتّعون بها)(١).

لذلك يقول حافظ حكمي(ت١٣٧٧هـ) في الإيمان بالمرور بهذه المرحلة لكل إنسان وتعرضه لما ورد فيها وما يليها بأن (المقصود الاعظم التأهب له قبل نزوله، والاستعداد لما بعده قبل حصوله، والمبادرة بالعمل الصالح والسعي النافع قبل دهوم البلاء وحلوله؛ اذ هو الفيصل بين هذه الدار وبين دار القرار، وهو الفصل بين ساعة العمل والجزاء عليه، والحد الفارق بين أوان تقديم الزاد والقدوم عليه، اذ ليس بعده لأحد من مُستعتَب ولا اعتذار، ولا زيادة في الحسنات ولا نقص من السيئات، ولا حيلة ولا افتداء ولا درهم ولا دينار ولا مقعد ولا منزل، الا القبر وهو اما روضة من رياض الجنة، او حفرة من حفر النار

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٥٢.

الى يوم البعث والجزاء. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَّ ﴾ [الحشر: ١٨])[١]

وبناءً على ذلك، فقد خصصتُ هذا القسم من الفصل في أهم المقاصد التي تتجلى في نفس العبد المؤمن وسلوكياته من الإيمان بهذه العقيدة، وما يسبقها ويليها، أولها مقصد العبودية واليقين، والثاني في تقديم العمل الصالح على غيره وقبل الوفاة، والثالث فيما ينتفع به العباد بعد وفاتهم لحقيقة السير التكاملي بين النشأتين الدنيوية والبرزخية.

المقصد الأول: التحقق بمرتبة العبودية لله تعالى وتقواه

يتحصل في نفس المؤمن عند إيمانه ويقينه بما يلاقيه من هذه المرحلة من النعيم والعذاب السعي الحقيقي من أجل الحصول على أعلى مراتب النعيم، ويختلف سعيه هذا بحسب قوة العقيدة في نفسه، لذلك يلجأ المؤمن بالله تعالى الى التحقق بمرتبة العبودية التي يرتضيها له تعالى، فإن سعى الى هذه الدرجة اتصف بوجدانه وسلوكه بصفات العباد الصالحين الذين يؤثرون الحياة الأخرة وما أعدَّه تعالى فيها على الحياة الدنيا الزائلة.

و(العبودية الخالصة لله تعالى هي العلامة على التحرر من كل القيود التي تحرم الإنسان من نعمة التواصل مع الله، ومع الكمال المتاح له، ذلك أنها تجعله متجرداً خالصاً ليس فيه أي شوائب يمكن أن يتعلق بها الشيطان أو الأهواء، ذلك أن الشيطان لا يقترب إلا ممن فيه حظ منه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهَّ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[النحل: ٩٨ - ١٠٠])[٢].

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: ٢/ ٧١٠.

(٢) منازل النفس المطمئنة: ٤٣٨.

ولهذا وصف الله تعالى المتحررين من كيد الشيطان واستعماره وسلطانه بكونهم عبيداً لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فمن وقع في الغواية خرج من العبودية، وصار فيه استعداد لاستحواذ الشيطان عليه، كما قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ [المجادلة: ١٩]، فإن نسي العبد ذكر الله، نسي عبوديته، وتحول من حزب الله إلى حزب الشيطان، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، فإن حصل له ذلك انتكست حقيقته الإنسانية لتصبح حقيقة شيطانية، وحينها يمتلئ بالعذاب؛ فكل من خالف حقيقته وفطرته التي فطر عليها امتلأ بالعذاب، بقدر مخالفته[١].

لذلك كانت العبودية لله تعالى أشرف المقاصد التي بالإمكان التحقق بها، والتي تقي الإنسان من كل ما يهوي به الى سخط الله تعالى، وهي المقصد الأعظم من جميع ما أراده من خلقه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، لذلك وصف نبيه ﷺ بهذه المنزلة العظيمة؛ لتحققه بمقصدها الأساس واقترانها بتقواه تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فلا تتحقق هذه العبودية لعبدٍ لم تقترن بتقواه من الوقوع في المعاصي والهلكات، وقد وصفها الإمام علي عليه السلام بقوله: (هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل)[٢].

كما ذكر الإمام علي عليه السلام أهميتها حين قال في بعض وصاياه: (إنّ تقوى اللهّ مفتاح سداد،

---

(١) (يُنظَر) هكذا تكلم لقمان: ١٥٢.

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: ١/ ٤٢١.

وذخيرة معاد، وعتق من كلّ ملكة، ونجاة من كلّ هلكة، بها ينجح الطّالب، وينجو الهارب، وتنال الرّغائب، فاعملوا والعمل يرفع، والتوبة تنفع، والدعاء يُسمع)[1].

وكذلك يصف عليه السلام المتقين الذي يعبدون الله حق عبادته ويتقوه، فيقول فيهم: (المتّقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصّواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التّواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم اللهّ عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النّافع لهم، نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالّتي نزّلت في الرّخاء، ولولا الأجل الّذي كتب اللهّ عليهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثّواب، وخوفاً من العقاب)، ثم يذكر دوافع تلك الصفات، أو التقوى الباطنية، فقال: (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنّار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون)[2].

ولهذا يرد في القرآن الكريم الحديث عنها، وعن الجزاء العظيم المُعد لأهلها، والذي لا يتوقف على موقف الموت والبرزخ وما يتبعه، بل إن تأثيرها يشمل الحياتين الدنيا والآخرة.

لذلك يبشر القرآن الكريم عباده المتقين بـ (العون والنّصرة، والتّكريم، والعلم والحكمة، وتكفير الذّنوب وتعظيم الأجر، والمغفرة، واليسر والسّهولة في الأمر، والخروج من الغمّ والمحنة، والرّزق الواسع في الدّنيا، والنّجاة من العقوبة في الآخرة، والتّوفيق والعصمة والفوز بالمراد، وشهادة الله لهم بالصّدق، ومحبّة الله وإكرامه ونيل الوصال وقبول الصّدقة والصّفاء وكمال العبوديّة، والمقام الأمين والجنّات والعيون والأمن من البليّة وزوال الحزن والخوف من العقوبة، وأعظم من هذا كلّه القرب من الحضرة الإلهيّة عند الفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١٦٠، ١٦١.

(٣) (يُنظَر) الآيات الدالة على هذه البشارات في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ الشيخ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ): ٥/ ٣٠٠ ـ ٣٠٣، ومنازل النفس المطمئنة: ٤٣٩.

المقصد الثاني: المسارعة بتقديم العمل الصالح

فإن آمن العبد بالله تعالى واتقاه حق تقاته، يتحقق في نفسه ما يقوده لتقديم العمل الصالح خلال حياته، وقبل حلول أجله، ذلك إن الله تعالى يريد أن يُعطي للإنسان حظاً وفرصةً، كي يُعلِمه أنه إذا انتهت حياته الدنيوية فإن ما بعدها يكملها ويتممها بما تركه من أعمال صالحة ما دامَ قد قرنها بتوحيد الله تعالى، بل إن حياته الحقيقية تبدأ بعد مرحلة الحياة الدنيا.

وقد ورد في النصوص الكريمة الدعوة الى صالح الأعمال التي تقترن بتوحيده تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[ابراهيم: ٢٤]، فالروايات تبين أن هذه الكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد.

وفي الآية الكريمة ايضاً إشارة الى التكامل البرزخي وان الانسان عند انتقاله الى النشأة الأخرى لن ينقطع عن أعماله الحسنة وكذلك السيئة، فما عمله في الدنيا من أعمالٍ حسنة فسيلحقه ثوابها في البرزخ، وهكذا بالنسبة الى الأعمال السيئة...وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[ابراهيم: ٢٥]، تعني ان الثمر لن يتوقف، وذلك كله مشروط بأن يبدأ العمل من الدنيا، وهذا هو الفارق بين الاستكمال الدنيوي والاستكمال الاخروي، ففي الاستكمال الدنيوي يبتدئ العمل ويبقى موجوداً، أما في الاستكمال المربوط بعالم البرزخ فهو من حيث الابتداء غير ممكن لأنه ليس للإنسان القدرة على البدء بالعمل من جديد، أما من حيث البقاء فهو باقٍ[1].

كما أشار النبيﷺ الى ضرورة هذه المسارعة بصالح الأعمال قبل حلول الأجل، وقد أشار الى ذلك ﷺ بقوله: (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا

---

(١) المعاد رؤية قرآنية: ١/ ٢٠٧.

تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ)[١]، وقد ورد عن العلاء بن زياد قوله: (لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل)[٢].

لذلك فقد حذَّر ﷺ من طول الأمل لأنه يُنسي الدار الآخرة، ويجعل فكر الإنسان مشغولاً بما في حياته الدنيا فقط، فقد رُويَ عن (ربيع بن خثيم عن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال ﷺ : (هَذَا الإِنسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطًا بِهِ ـ أَوْ :قَد أَحَاطَ بِهِ ـ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذا نَهَشَهُ هَذّا)[٣]، وكذلك ما جاء في قوله ﷺ: (هذا الأمَلُ، وهذا أَجَلُهُ، فبيْنَما هو كذلِكَ إذْ جاءَهُ الخَطُّ الأقْرَبُ)[٤].

ومن أكثر ما وصَّى به ﷺ من الأعمال الصالحة الصدقات لأنها تزكي النفوس من الشح والبخل وتنمى المال، وتعين على صالح الأعمال، ويدخل جميع أعمال البر والمعروف تحت مُسماها؛ لقوله ﷺ : (كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ)[٥].

لأن (المعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه، وكل ما ندب إليه الشرع من وجوه الإحسان وترك ما نهى عنه من القبائح)[٦].

ومعنى الحديث أنه (له حكمها في الثواب)[٧]، أي أن أي عمل صالح يقوم به المؤمن

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٧١٦.

(٢) الزهد: ٢٠٤.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ٥/ ٢٣٥٩.

(٥) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٤١، وصحيح مسلم: ٢/ ٦٩٧.

(٦) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٤١.

(٧) المنهاج: ٧/ ٩١.

بالله تعالى له كثواب الصدقة، ويدل على ذلك ما ورد من قوله ﷺ: (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ)، قالوا فإن لم يجد؟ قال ﷺ: (فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ)، قالوا فإن لم يستطع، أو لم يفعل ؟ قال ﷺ: (يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ)، قالوا فإن لم يفعل؟ قال ﷺ: (يَأْمُرُ بالخَيْرِ - أو قالَ - بِالمَعْرُوفِ)، قال فإن لم يفعل ؟ قال ﷺ: (فليُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ)[1].

وكذلك ما ورد في شمولية الصدقة قوله ﷺ : (كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ)، قَالَ ﷺ: (تَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ)، قَالَ ﷺ: (وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)[2].

وإنما ما ورد من عطاء الله تعالى بعد الموت وما يتبعه من جزاء عظيم فكله برحمة الله تعالى؛ إذ إن جميع أعمال العباد الصالحة لا تساوي بشارة واحدة من بشارات المؤمن بالله تعالى، لذلك يقول ﷺ : (قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: (وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ)[3].

ولا تقتصر رحمته تعالى على الصالحين من المؤمنين، بل إنه تعالى يغفر لمن سلك سبيل المعاصي إلا أنه انتبه عن غفلته، وسارع في تحصيل توبته عن الذنوب، فإن الله تعالى يغفرها له ، حيث ذكر تعالى في مواضعٍ عدة من كتابه الكريم أَنه هو﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، ليُستَدَل بذلك على أنه متفضل بقبول التوبة ومنعم بها عليهم، وإنَّ ذلك ليس واجباً عليه، فالتواب هو قابل التوبة، ولا يُطلَق إلا عليه تعالى[4].

كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٤١، وصحيح مسلم: ٢/ ٦٩٩.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٦٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢١٧٦.

(٤) (يُنظَر) التبيان في تفسير القرآن: ١٧٢/١ .

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي الجُملة الاسمية ما يقوي رجاء المذنبين، ويجبر كسر قلوب الخاطئين حيث افتتحها بـ «أن» في عدد من آياته في القرآن الكريم، وأتى بضمير الفصل(أنا) وعرف المسند وأتى به من صيغ المبالغ إشارة إلى قبوله التوبة كلما تاب العبد ...وإن قبول التوبة ليس على سبيل الوجوب، بل على سبيل الترحم والتفضل، وأنه الذي سبقت رحمته غضبه، فيرحم عبده في عين غضبه(١).

لذلك فإن الله تعالى لم يترك باب إلا فتحه أمام عباده كي يسلكوا طريق الحق والهداية إليه؛ فيتحرزوا بذلك من غضبه وما يقود الشيطان إليه من سبل، وقد تكرر ذلك في النصوص الكريمة، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [البقرة: ٦٠]، وهو ما أشارَ إليه الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله : (ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل)(٢).

المقصد الثالث: السير التكاملي للحياة البرزخية وما ينتفع به الأموات

يرتبط هذا المقصد في تواصل السير التكاملي للإنسان بجوانبٍ عدة، ولا يقتصر في استعداد العبد بما يتعلق بحاله فقط، بل يُضاف إليه باب البر الذي أمر به تعالى للوالدين والأقربين، زيادةً عمّا ورد فيه من التوادد والتراحم بين العباد سواء في حياتهم أو بعدها، ذلك أن مَن قضوا آجالهم ولم يُعلَم مصيرهم، فإنهم في تلك الدار، قد انتهي سبيلهم؛ لكنهم قد يتمكنون من إكمال سيرهم التكاملي إن حصل لهم الفرصة في أن يهديهم الأحياء من الأعمال الصالحة لترتفع بهم درجاتهم ان كانوا من المنعمين أو تنقذهم من العذاب أو تقلله

---

(١) (يُنظَر) تفسير روح المعاني: ٢٣٨/١، والشفاعة حقيقة اسلامية: ٥٩.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٥٨.

عنهم ان كانوا من المعذبين، يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: (إن الصلاة والصوم والصدقة والحج والعمرة وكل عمل صالح ينفع الميت حتى أن الميت ليكون في ضيق فيوسع عليه، ويقال: إن هذ بعمل ابنك فلان وبعمل أخيك فلان ـ أخوه في الدين)[1].

فإذا قضى الإنسان أجله وكان مؤمناً، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فإن لمن يخلفه أن يتصدق عنه أو يدعو له، كي يخفف عنه من عذابه، او يرفع درجاته في النعيم والثواب، وقد خصصت أغلب الروايات التأكيد على أداء الأبناء من الأعمال الصالحة وإهدائها للوالدين كي يتداركوا بِرهم بعد رحيلهم عن الدنيا، ولا سيَّما حين يعلم الأحياء بما يلاقيه من فارقوا الدنيا من المسائلة وضغطة القبر وغير ذلك.

يقول النووي(ت٦٧٦هـ): (أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابها وهو كذلك بإجماع العلماء، وكذا أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدَين بالنصوص الواردة في الجميع، ويصح الحج عن الميت اذا كان حج الاسلام، وكذا اذا وصَّى بحج التطوع على الأصح عندنا، واختلف العلماء في الصوم اذا مات وعليه صوم فالراجح جوازه؛ عنه للأحاديث الصحيحة فيه)[2].

ودليله ما ورد في الأحاديث الشريفة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِذَا مَاتَ الإنسان انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)[3].

حيث (قال العلماء معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف)[4].

---

(١) قبس من غياث سلطان الورى: ٨٥/ ٣١٢.

(٢) المنهاج: ٧/ ٩٠.

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٢٥٥.

(٤) المنهاج: ١١/ ٨٥.

كما ورد بأن استغفار الأبناء يرفع من درجات والدَيهم في الجنة، إذ وردَ عنه ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَنَّى هَذَا؟ فَيُقَالُ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ)[١].

وكذلك ورد أن الأعمال الصالحة تُهدى للأموات فينتفعون بها، مثل الصدقة والحج أو العمرة وغيرها، وبالذات إن كانت من الأبناء لآبائهم، ومما يدل على ذلك إنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي افتُتِلت نفسها (أي ماتت)، وأظنها لو تكلمت تصدَّقت، فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال ﷺ: نَعَمْ)[٢].

كما روي عن ابن عباس: أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها؟ قال ﷺ: (نَعَمْ). قال سعد بن عبادة: فإني أشهدك أَن حائطي المخراف صدقة عليها)[٣].

كذلك مما يصل إلى الميت أجر الحجّ والصيام عنه وقبول ذلك، ويدل عليه ما رُوي في المرأة التي تسأله بعد وفاة أمها إذ قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها، قال ﷺ: (صُومِي عَنْهَا)، قالت: إنها لم تحج قَط، أفأحج عنها؟ قال ﷺ: (حُجِّي عَنْهَا)[٤].

ذلك أن هذه الواجبات إنما هي حق الله تعالى، فإن لم يفِ بها العبد في حياتِه، فلمَن يخلفهُ أن يؤدي ذلك عنه، وكما يُحاسَب الميت على الواجبات فإنه يُحاسَب على ما نذره فانتهى أجله دون وفاءه به، مما يؤدي بذلك الى إمكان الوفاء بالنذر إن لم يستطع هو خلال حياته، فقد روي ان امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرتْ أن تحج، فلم تحج حتى

---

(١) سنن ابن ماجة: ٢/ ١٢٠٧.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٤٦٧.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٠١٣. وورد في شرح الحديث ((حائطي) هو البستان من النخل إذا كان له جدار، (المخراف) اسم لحائطه، والمخراف الشجرة وقيل ثمرها).

(٤) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٨٣.

ماتت، أفأحج عنها؟ قال ﷺ: (نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللهَ، فاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ)[1]، ودلاله الحديث واضحة في إن النذر يُعَد من الدَّين الذي يجب وفاءه عن الميت، وهو أهم من الدَّين بين العباد؛ لأن وفاءه إنما يكون لله تعالى.

لذلك فقد عُدَّ ما يهديه الأحياء لأمواتهم والتشجيع عليه من مقاصد عقيدة الايمان بالحياة البرزخية، وما يحدث في هذه الحياة من المسائلة وضيق القبر أو سعته، ذلك أن ما يُهدى إليهم إنما هو يبرء ما بذمتهم من جهة ومن جهةٍ أخرى فهو يُدخِل عليهم السرور في ذلك الموقف، إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام: (إن الميت ليفرح بالترحم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تهدى إليه)[2].

أما ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، فيشير إليه السيد محمد كاظم الموسوي في تعليقه على قول الإمام الصادق عليه السلام بقوله: (وربما يستشكل بأن ما جاء في تلك الروايات ينافي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ واجيب تارة بأن الآية منسوخة الحكم في شريعتنا لقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، يعنى برفع الدرجة ورفع درجة الذرية مما لم يستحقوها بأعمالهم ونحو هذا.

وقال بعضهم: ان ذلك لقوم ابراهيم وموسى عليهما السلام فأما هذه الامة فلهم ما سعى غيرهم نيابة عنهم، وهو كما ترى، وتارة بعدم التنافي، وبيانه أن القربات والاعمال الصالحة التي ينتفع بها المؤمن بعد موته على أقسام، قسم منها كالصدقة الجارية وبناء المساجد والعلم الذى ينتفع به الناس وما شابهها فلا كلام في أنها تكون من عمله وسعيه فمجزى بها بعد موته، وقسم له دخل ما في تحققه وان لم يكن في ظاهر الامر من عمله كالوصية بأنواع الخير فهو أيضا يعد من سعيه ويشمله عموم ﴿مَا سَعَى﴾؛ لأنه ان لم يوص لم يتحقق، أو كالولد البر التقى الذى أدبه في أيام حياته فيدعو له بعد موته ويصلى ويصوم ويحج عنه، فهو أيضاً

---

(١) صحيح مسلم: ٦/ ١٦٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢٩/ ١٢.

من كسبه كما جاء في قوله ﷺ: (إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِه)[1]، قسم لا دخل للميت في وقوعه على الظاهر كاستغفار المؤمنين له والاعمال الصالحة التي تهدى اليه مثوباتها فذاك اما مرتبط بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد ايمانهم، الذى من آثاره ما يأتون به من القربات والخيرات كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، واما مرتبط بإحسانه ومحبته اليهم في حياته، فهو أيضاً نتيجة احسانه ومحبته ويشمله عموم السعي أيضاً.

وقسم لا يتصور للميت أي مدخل فيه كتبرع ذوي قرباه أو غيرهم له لا من جهة أنه من المؤمنين بل من أجل القرابة في النسب فحسب أو لمحبوبية التبرع عن الغير عند الشارع ورجحانه عند الله تعالى، فهذا أيضاً لا ينافي حكم الآية التشريعي؛ لان لكل عمل عبادي ثواباً مقرراً عند الله تعالى يصل إلى العامل جزاء لعمله وسعيه لا محالة تفضلاً كان أو استحقاقاً، فحينئذ إذا أهدى العامل ثواب عمله إلى شخص عينه وسأل الله سبحانه حوالته وأعطى أجره من كان يريده فلا منافاة؛ لان ذلك جزاء علم المحيل لا غيره)[2].

وبناءً على ذلك، فإن في هدية أجر الأعمال لمن رحلوا عن هذه الحياة الدنيا لا يخلوا من الأجر الذي سيُكرَّم به الحي والميت سواء، وهو من أبواب تفضله تعالى على عباده ليحثهم على الاستزادة في الخيرات الأخروية الباقية، يقول أبو العتاهية:

المَوْتُ بابٌ وكلُّ الناسِ داخِلُهُ ... يا ليْتَ شعرِيَ بعدَ البابِ، ما الدَّارُ!

الدَّارُ جنَّةُ خلدٍ إنْ عمِلتَ بِمَا ... يُرْضِي الإلَهَ، وإنْ قصّرْتَ، فالنّارُ

همـا محلان ما للنـاس غيرهما ... فانظر لنفسـك ماذا أنت تختـــار

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٤٠/ ٣٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ١٨٤.

خلاصة الفصل الأول

نستخلص من دراستنا لما يلاقيه الإنسان في المرحلة التي تلي موته مباشرةً، وبدأ نشأته التالية لها في الحياة البرزخية، الردود الكافية على من ينكرون هذه الحياة نظراً لما جاء فيها من أدلة ظاهرة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة واعتبار الموت بدء حياة جديدة للإنسان في عالم جديد من عوالم الآخرة هو عالم البرزخ.

ومن خلال دراستنا للمقاصد من هذه العقيدة، نخلص بنتائج عدةٍ فيها، منها:

١ـ ان جميع مظاهر الكون تُعّد علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وربوبيته، كما تُعَد دليلاً على هداية الله تعالى لعباده، ومن ضمنها مسائل الإيمان باليوم الآخر واستمرارية الحياة بعد الموت، وبدءً من أول لحظات موت الإنسان وتحوله الى ذلك العالم، فثبت من مقاصد هذه العقيدة المستنبَطة من النصوص الكريمة، والمتوافقة مع ما يثبته العقل الإنساني من حيث توافقها مع الفطرة السليمة، واتفاق الأديان عليها، فضلاً عن إجماع أغلب الفلاسفة القدامى، وكذلك بالدلالة عليها عن طريق التمييز بين التعقل والتصور، مما يهيئ رداً مباشراً على المنكرين لهذه الحياة ودحض الشبهات التي يتمسكون بها، ويحاولون اثارتها في كل حين.

٢ـ من المقاصد والحِكم العامة التي ترتبط بوجود عالم الحياة بعد الموت إثبات عدالة الجزاء الإلهي، والتي يندرج تحتها مقاصد الحكمة الإلهية وتربية الله تعالى لعباده، والتي تهيؤهم لتزكية النفوس واستقامتها وتحصينها عن الخسران الكبير فيما يوصِل الى العذاب في تلك الحياة.

٣ـ تتباين مراتب العباد في الحياة البرزخية وما يليها بحسب إيمانهم وأعمالهم وما استحقوه من جزاء الله تعالى عليها، وتبعاً لذلك فإن منهم المقربين الذين يُبشرون بنعيمهم منذ خروج أرواحهم من أجسادهم، ويشملون الأنبياء عليهم السلام ـ والشهداء والصديقين، ومن تبعهم ممن أنعم تعالى عليهم، ولا يقتصر جزاءهم على ما سيلقونه من نعيم القبر بل يشمل أيضاً طمأنتهم على مَن بعدهم، وتثبيتهم على القول الثابت في توحيده تعالى وإجابة الملكين، ويتبعهم مرتبة

أصحاب اليمين، ثم مرتبة أصحاب الشمال من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فحُرِموا من نعيم ذلك العالم ونالوا الحسرة والخسران المبين، وتبعاً لمنازل المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال تكون قبورهم لهم روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

٤ـ يُعَد من مقاصد الايمان باحتضار الإنسان مقصد توحيد الله تعالى وإفراده بالأمر والتدبير، فهو وحده محدد الآجال وموعد خروج هذه الروح، وإن كان ملك الموت هو الموكل بقبض الأرواح إلا إنه لا يفعل إلا بأمره تعالى، ويندرج عنه أيضاً مقاصد لطف الله تعالى ورأفته بالمؤمنين في لحظة خروج أرواحهم، فضلاً عن مقاصد حسن الظن بالله تعالى وتأثيره في نيل رضاه ورحمته في هذا الموقف، ونظراً إلى شدة هذه اللحظات، إلَّا أنه ثبُت بالنصوص الكريمة تجلي الرحمة الإلهية للمحسنين المتمثلة بالنزع اليسير لأرواحهم مقارنةً بالنزع المرتبط بأهل الشمال.

٥ـ بيان مقاصد قدرة الله تعالى في مسائلة القبر وبيان حال المثبتين من غيرهم، وتجليات هذه القدرة في أبواب الجزاء من الرحمة والعدالة الإلهية، فضلاً عن تجلي حكمته تعالى فيما أراده من عذاب للمسيئين باعتباره تطهيراً لأصحاب الذنوب من المؤمنين، لأجل تخلصهم من أدران ذنوبهم التي قاموا بها، وكونها بداية ما حذَّر به الكفار والجاحدين.

٦ـ من مقاصد العدالة الإلهية شمول ضغطة القبر لجميع العباد من الموحدين وغيرهم، إلا إنها وتبعاً لهذه العدالة والرحمة التي وعد بها تعالى عباده، لا تكون مستواً واحداً للجميع، إذ تكون شديدةً على أصحاب الشمال، وضغطة حنو وعطف على المؤمنين، فضلاً عن سعة قبورهم عليهم ونظرهم الى جنانهم التي وعدهم بها تعالى.

٧ـ ومن مهمات مقاصد هذه العقيدة التذكير فيما ينتفع به الأموات من صالح الأعمال من الدعاء والصدقة والصلاة والحج والقراءة والعلم وغيرها، والتي تُسهِم في جعل الإنسان متذكراً ذلك اليوم، ليس غافلاً عنه من جهة، ومن جهةٍ أخرى فهو بابٌ لعمل

الطاعات مما يزكي النفوس ويشجعها نحو العطاء وأداء الحقوق للوالدين والأقربين وصالح المؤمنين ولو بعد رحيلهم عن هذه الحياة الدنيا.

ثم نختتم هذا الفصل في مقاصد الحياة البرزخية في أهم ما يتزود به الإنسان لذلك اليوم وما يليه من الأعمال الصالحة التي حثَّ عليها نبينا محمد ﷺ، في موعظته لقيس بن عاصم رضي الله عنه : (يَا قَيْسُ إِنَّ مَعَ الْعِزِّ ذُلًّا، وَ إِنَّ مَعَ الْحَيَاةِ مَوْتاً، وَ إِنَّ مَعَ الدُّنْيَا آخِرَةً، وَ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً، وَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً، وَ إِنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثَوَاباً، وَ لِكُلِّ سَيِّئَةٍ عِقَاباً، وَ إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

وَ إِنَّهُ يَا قَيْسُ: لَا بُدَّ لَكَ مِنْ قَرِينٍ يُدْفَنُ مَعَكَ وَ هُوَ حَيٌّ، وَ تُدْفَنُ مَعَهُ وَ أَنْتَ مَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ كَرِيماً أَكْرَمَكَ، وَ إِنْ كَانَ لَئِيماً أَسْلَمَكَ، لَا يُحْشَرُ إِلَّا مَعَكَ، وَ لَا تُحْشَرُ إِلَّا مَعَهُ، وَ لَا تُسْأَلُ إِلَّا عَنْهُ، وَ لَا تُبْعَثُ إِلَّا مَعَهُ، فَلَا تَجْعَلْهُ إِلَّا صَالِحاً، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَالِحاً لَمْ تَأْنَسْ إِلَّا بِهِ، وَ إِنْ كَانَ فَاحِشاً لَا تَسْتَوْحِشْ إِلَّا مِنْهُ، وَ هُوَ عَمَلُكَ)[١].

فقال: يا نبي الله أُحب أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر به على من يلينا من العرب وندخره فأمر النبي ﷺ من يأتيه بحسان (بن ثابت)، قال فأقبلت أفكر فيما أشبه هذه العظة من الشعر، فاستتب لي القول قبل مجيء حسان فقلت: يا رسول الله قد حضرتني أبيات أحسبها توافق ما يريد، فقلت لقيس (ابن عاصم):

تخير خليطاً من فعالك إنما	قرين الفتى في القبر ما كان يفعلُ
ولابُدَّ بعد الموت من أن تعده	ليوم يُنادى المرء فيه فيقبلُ
فان كنت مشغولاً بشيء فلا	بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
فلن يصحبَ الإنسان من بعد موته	ومن قبله إلا الذي كان يعملُ
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله	يقيم قليلاً بينهم ثم يرحلُ[٢]

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٧١، ومجموع الأربعين أربعين من أحاديث سيد المرسلين ﷺ: ٣٨٩

(٢) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٧١، وأمالي الصدوق: ٣.

الفصل الثاني: الإيمان بالمعاد والموقف وأهواله

بعدما ذكرنا حياة البرزخ وما يجري للخَلْق فيها من السؤال ورؤيتهم لأعمالهم وما أعدوا لأنفسهم في حياتهم من نعيم القبر وسعته أو ضيقهِ وعذابه، وبعد استخلاصنا للمقاصد فيها والمعاني والايات التي أرادها تعالى لعباده في هذه النشأة، ننتقل الى المرحلة التي تلي ذلك، وهي بعثهم من قبورهم ونشرهم للحساب والمحكمة الإلهية.

وبناءاً على ذلك فقد قسمنا هذا الفصل الى أقسامٍ ثلاثـة، بحسب المواقف التي تلي الحياة البرزخية، وهي:

أولاً: النفخ في الصور وبعث الأموات.

ثانياً: المحكمة الإلهية ـ الحساب، الأشهاد، الموازين، الصراط.

ثالثاً: البشارات والتكريم الإلهي في الحوض والشفاعة.

ونحن إذ نذكر المقاصد والمعاني في هذه المواقف إنما لا يمكن القطع بها أو حصرها فيما نذكره هنا؛ وذلك لقصور التفسير البشري والتعبير الاجتهادي من النصوص الصحيحة، ذلك إن التعابير الواردة حول القيامة والحياة الأُخرى لا تستطيع ـ بحال ـ أن تكشف القناع عن جميع خصوصيات تلكم الحياة، بل للتعابير ـ أحياناً ـ صفة التشبيه والتمثيل. لأنّ الحياة في ذلك العالم تكون في آفاق أعلى، وهي أوسع بمراتب كثيرة من الحياة في هذا العالم، تماماً مثل سعة الحياة الدنيا هذه بالقياس إلى عالم الرحم والجنين، وعلى هذا فلا عجب إذا كانت الألفاظ والمفاهيم المتداولة في هذا العالم لا تستطيع أن تعكس بصورة كاملة ومعبّرة تلك المفاهيم(١).

---

(١) تفسير الأمثل: ٥/ ٥٦.

أولاً: النفخ في الصور وبعث الأموات

وأذكر في هذا القسم المعاني والتجليات مما يتعلق بالصور وبعث الأموات ومن خلال فروع ثلاثة، هي:

١ـ النفخ في الصور.

٢ـ المعاد الجسماني والروحاني.

٣ـ مظاهر القيامة.

واقدم كلَّ فرعٍ منها بتمهيد عام في مفهومه، ثم أذكر ما ورد فيها من هذه المقاصد والحِكَم.

١. النفخ في الصور

النفخ في الصور أول الأحداث التي تبدأ بها النشأة الآخرة، وتنتهي بها حياة البرزخ، وهو من مقدمات يوم القيامة، وقد ورد الحديث عنه في مواضع متعددة من القرآن الكريم، وبصيغ مختلفة، وكلها ـ كما يذكر علماء الكلام والمفسرون ـ تقرب الحقائق إلى الأذهان بما تعودت من صور، أما الحقيقة، فلا يعلمها إلا الله تعالى، وهي تدل على أن ذلك الحدث العظيم ستنتهي به النشأة الأولى، وتبدأ به النشأة الثانية، بشكلها الجديد، وقوانينها الجديدة.

ومع اتفاق أغلب العلماء على وجود نفختين للصور، إلا أنه وقع الخلاف حول ما ورد في بعض النصوص الكريمة من وجود نفخات أخرى، أُختُلف في سرها ومقاصدها، واختلف قبل ذلك في مدى صحتها.

وبناءً على ذلك سنحاول في هذا القسم بيان موضع الاختلاف مركزين على المقاصد العقدية المرتبطة بها وحِكمها، وقد قدمنا لها بتمهيدٍ في مفهوم النفخ في الصور في اللغة والاصطلاح.

تمهيد: مفهوم النفخ في الصور

تباينت أقوال العلماء في تعريف الصور في اللغة؛ فمنهم من قال : أنَّ (الصُور) بمعنى (الَميْل)، يُقال: فلان يصور عنقه إلى كذا، أي مالَ بعنقه ووجهه نحوه، وهو مصدر صورته أَصُورة صَوْراً إذا عطفته[١].

والصور القَرْن، جاء في تاج العروس: (الصُور (بالضم) القرن يُنفَخ فيه)[٢].

ومنهم من يرى أن الصوُر: جمع صورة، قال فيه الأزهري (ت٣٧٠هـ): (وادَّعوا أن الصور جمع الصورة، كما أن الصوف جمع الصوفة، والثوم جمع الثومة)[٣]، وقال ابن منظور (ت٧١١هـ):(ويُقال الصُور جمع الصُّورة، مثل بُسْر وبُسْرة، أي يُنفَخ في صور الموتى الأرواح)[٤].

أما في الاصطلاح، فكما في اللغة، للعلماء قولين في معناه، ذكرهما الطبري والطوسي والطبرسي والرازي والشيخ الشيرازي، وغيرهم، هما:

الأول: الصور هو قَرن يُنفخ فيه، وهو القول الراجح، وذهب الى هذا القول مجموعة

---

(١) (ينظر) العين: ٤/٤٢١، وتهذيب اللغة: ١٢/ ١٥٩، ولسان العرب: ٤/ ٤٧١، جمهرة اللغة: ٢/٧٤٥.

(٢) تهذيب اللغة: ١٢/ ١٦٠، وتاج العروس: ١٢/٣٦٢.

(٣) قال الأزهري في القول بأن الصور جمع صورة: (قال أبو الهيثم: وهذا خطأ فاحش، وتحريف لكلم الله عن مواضعها، لأن الله جل وعز قال: ﴿بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ﴾ [غافر: ٦٤]، بفتح الواو، ولا نعلم أحدا من القراء قرأها: ﴿فَأَحْسن صُوْرَكم﴾، وكذلك قال الله: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩] فمن قرأها (ونُفخ فِي الصُّوَر) أو قرأ: (فَأَحْسن صُوْرَكم) فقد افترى الكذب وبدل كتاب الله)، وقال الفراء: كل جمع على لفظ الواحد الذكر سبق جمعه واحدته، فواحدته بزيادة هاء فيه، وذلك مثل الصوف والوبر والشعر والقطن والعشب، فكل واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه، فإذا أفردت واحدته زيدت فيها هاء، لأن جميع هذا الباب سبق واحدته، ولو أن الصوفة كانت سابقة للصوف لقالوا: صوفة وصوف، وبسرة وبسر، كما قالوا: غرفة وغرف، وزلفة وزلف....وأما الصور القرن فهو واحد لا يجوز أن يقال واحدته صورة، وإنما تجمع صورة الإنسان صورا، لأن واحدته سبقت جمعه... قلت: قد احتج أبو الهيثم فأحسن الاحتجاج، ولا يجوز عندي غير ما ذهب) تهذيب اللغة: ١٢/ ١٦٠.

(٤) لسان العرب: ٤/ ٤٧١، وتاج العروس: ١٢/٣٦٢.

من المفسرين، منهم ابن كثير والقرطبي والبغوي ومغنية وابن عطية الاندلسي[1].

والثاني: هو جمع صورة، فإن الله سبحانه يصور الخلق في القبور كما صورهم في أرحام الأمهات ثم ينفخ فيهم الأرواح كما نفخ وهم في أرحام أمهاتهم[2].

ويقول الشيرازي: (طبقاً لهذا القول [جمع صورة]، فقد اعتبروا النفخ في الصور يعني النفخ في الوجه، مثل نفخ الروح في بدن الإنسان، ووفق هذا التّفسير ينفخ مرّة واحدة في وجوه بني آدم فيموتون جميعاً، وينفخ مرة أُخرى فيبعثون جميعاً)[3]، وقال القرطبي (ت٦٧١هـ): (والصور قرن من نور يجعل فيه الأرواح، يقال: إن فيه من الثقب على عدد أرواح الخلائق.. وسماه الله تعالى ايضاً بالناقور في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، قال المفسرون: الصور ينقر فيه مع النفخ الأول لموت الخلق)[4].

كما ورد في بعض الروايات صفة (الصور) الذي ينفخ فيه «إسرافيل، عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام (وللصور رأس واحد وطرفان، وبين طرف رأس كلّ منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض...) قال: (فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض ذو روح إلاّ صعق ومات، ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات فلا يبقى في السماوات ذو روح إلاّ صعق ومات، إلاّ إسرافيل، قال: فيقول الله لإسرافيل عليه السلام: يا إسرافيل، مت، فيموت إسرافيل)[5].

وبناءاً على ذلك، فالنفخ في الصور إما أن يعود الى النفخ في القَرْن، أو الى نفخ الارواح

---

(١) (يُنظَر) تفسير القرآن العظيم:١٥/ ٤١، وتفسير الطبري: ١٨/ ٣٦٩، التذكرة: ١٦٩/١، معالم التنزيل: ١٥٧/٣، تفسير روح المعاني: ١٩١/٧، وتفسير الكاشف لمغنية: ٢٤٢/٥، ٤٣١/٦.

(٢) (يُنظَر) تفسير مجمع البيان: ٦/ ٢٩٩، تفسير جامع البيان: ١١/ ٤٦٣، مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٢٩.

(٣) تفسير الأمثل: ١٥٠/١٥.

(٤) التذكرة: ١٦٨/١. ١٦٩.

(٥) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٥٠٢.

في الاجساد بردها إلى حال الحياة التي كانت عليها، إلا إن القول الأول هو ما نراه راجحاً أكثر لدلالة الروايات عن النبيﷺ، منها ما جاء في الحديث ان إعرابياً سأل النبي ﷺ: ما الصور؟ قالﷺ: (قرن ينفخ فيه)[1].

إضافة الى اتفاقه مع أكثر التفاسير للآيات الكريمة، وهو ما ذهب إليه أغلب العلماء، يقول الشيرازي عند ذكره للقول في الصور بجمع صورة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1]: (هذا التّفسير إضافة إلى كونه لا يتطابق مع ما جاء في الروايات، فإنّه لا يتطابق أيضاً مع الآية مورد بحثنا، لأنّ الضمير في عبارة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ مفرد مذكر يعود على الصور، في حين لو كان يُراد منه المعنى الثّاني لكان يجب استعمال ضمير المفرد المؤنث في العبارة لتصبح (نفخ فيها).

كما إنّ النفخ في الوجه في مجال إحياء الأموات يعد أمراً مناسباً (كما في معجزات عيسى عليه السلام) إلاّ أنّ هذا التعبير لا يمكن استخدامه في مجال قبض الأرواح)[2].

أما عدد النفخات، فقد اتفق جميع المفسرين والمتكلمين والمحدثين وغيرهم على أن هناك نفختين في الصور، واختلفوا في الزائد عليهما، وبناء على ذلك الاختلاف وقع الاختلاف في مقاصدَ وحِكَم كل نفخة، وسنذكر تلك الأقوال ومقاصدها المرتبطة بها.

آ . النفخ في الصور عند القائلين بالنفختين

اتفق القائلون بانحصار نفخ الصور في نفختين، على أن أولاهما نفخة إماتة، والثانية نفخة إحياء، وقد أيدَ هذا القول أغلب العلماء، ومما استدلوا به عليهما نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، إذ سمَّى القرآن الكريم النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، قال

---

(١) سنن الترمذي: ٤/١٩٨.

(٢) تفسير الأمثل: ١٥/ ١٥١، و(يُنظَر) التبيان في تفسير القرآن: ٨/ ١١٥.

تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وقال الغزالي: (سبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة)[١].

كما استخدمت في بعض الآيات الكريمة عبارة «صيحة» عن النفخة الأولى، والتي تعني الصوت العظيم، كما في سورة يس ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، التي تتحدث عن الصيحة التي تقع في نهاية العالم وتفاجئ كل بني آدم، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٤٩ ـ ٥٠][٢].

وكذلك ما رُوي عن ابي هريرة قال: (بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئاً كرهه، فقال لا والذي اصطفى موسى على البشر فسمعه رجل من الانصار فقام فلطم وجهه وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين اظهرنا فذهب اليه، فقال: أبا القاسم إن لي ذمةً وعهداً فما بال فلانٍ لطم وجهي؟ فقالﷺ: (لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟) فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رؤى في وجهه، ثم قالﷺ: (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، (أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ)، فَإِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ)[٣].

فهذا الحديث يدل على ان النفخ مرتين لا ثلاثة، حيث (إن النفخة الأولى يعقبها الصعق

---

(١) احياء علوم الدين: ٤/ ٥١٣.

(٢) (يُنظَر) تفسير الأمثل: ١٥/ ١٤٩، القيامة الكبرى: ٣٩، وأسرار ما بعد الموت: ٢٢٦.

(٣) صحيح البخاري: ٣/١٢٥٤.

من جميع الخلق أحيائهم وأمواتهم وهو الفزع كما وقع في سورة النمل، ثم يعقب ذلك الفزع للموتى زيادة فيما هم فيه وللأحياء موتاً، ثم ينفخ الثانية للبعث فيفيقون أجمعين)[1].

فالقول بالنفختين قد اتفق عليه أكثر العلماء[2]، أما تفاصيل هاتين النفختين، فهي من الأمور الغيبية التي يجب التسليم لها، يقول الشيخ جعفر السبحاني[3] في مفاهيم القرآن (وفي الواقع أنّ النفخ في الصور بتفاصيله مازال مجهولاً لنا، وهو من الأُمور الغيبيّة التي يجب الإيمان بها، وقد عبر عنها القرآن بأمر محسوس من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وعلى كلّ حال فالنفخ له مرحلتان، أما المرحلة الأُولى: هي مرحلة الإماتة، وهي قُبيل يوم القيامة يسفر عن هذا النفخ الصعقُ والفزع اللّذان كُنّيَا بهما عن الموت، والمرحلة الثانية: مرحلة الإحياء وإحضار الناس إلى المحشر)[4].

ونستنبط من خلال توافق النصوص الكريمة مع ما يذهب اليه العلماء في ثبوت هاتين النفختين مقاصدَ ومعاني وحكم عدة، نستطيع تلخيصها في مقصدين مهمين كبيرين، يتعلق أحدهما بتجليات الأسماء والصفات الإلهية، والآخر في الدور التكويني لهاتين النفختين، وكما يأتي بيانه:

المقصد الأول: تجليات الإرادة والقدرة الإلهية وانقياد العباد تحتها.

مما حوته النصوص الكريمة من مقاصد مقدمات القيامة من النفخ في الصور تجليات الأسماء والصفات الإلهية من إرادة الله تعالى وعظمته وقدرته على البعث والاحياء بعد فناء

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٤٤.

(٢) (ينظر) تفسير مجمع البيان: ٤/ ٦٧، تفسير مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٤٧٦، الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٧٩.

(٣) الشيخ جعفر السبحاني التبريزي أحد الفقهاء المعاصرين، ومن مراجع الدين المعروفين في قم، قام بتدريس المقدمات والسطوح والبحث الخارج، بالإضافة إلى علم الكلام، وعلم الرجال والدراية، وتاريخ الإسلام والتشيّع وتفسير القرآن وغيرها ، له مؤلفات كثيرة منها[مفاهيم القرآن]، و [بحوث في الملل والنحل]، و[الموسوعة الرجالية الميسرة.]. (يُنظر) موقع مؤسسة الامام الصادق عليه السلام الذي أسسه: http://imamsadeq.org/

(٤) مفاهيم القرآن: ٨/ ٢٠٧.

الخلق وصعقهم، فهو المبدئ والمعيد، وهو المحيي والمميت، فضلاً عن فزَع الخلْق الشديد وصَعقهم وانقيادهم التام لهذه المشيئة والإرادة الإلهية.

ومما ورد في ذلك ما ذكره الرازي (ت٦٠٦هـ) بقوله: (إنه تعالى لما قدَّر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً على كمال قدرته وعظمته، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة؛ لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، واختلفوا في الصعقة، منهم من قال إنها غير الموت بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ [الأعراف: ١٤٣]، مع أنه لم يمت، فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد، وهو المذكور في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين)[١].

وقال الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في الميزان: (ولعل انحصار النفخ في نفختي الإماتة والاحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الأولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشية. يقال: صعق الرجل صعقاً وتصاعقاً: أي غشيَ عليه وأصعقه غيره، وقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾: أي مات[٢].

فكان تفسير النفخة الأولى بنفخة الفزع والصعق، يقول مكارم الشيرازي: (فالظاهر من الآية الكريمة يدل على أن النفخة هنا إشارة إلى النفخة الأُولى التي تقع في نهاية الدنيا، لأنّ التعبير بـ (فزع) وهو يعني الخوف أو الإستيحاش الذي يستوعب جميع القلوب، يعدّ من آثار هذه النفخة، ونعلم أن الفزع في يوم القيامة هو بسبب الأعمال لا من أثر النفخة)[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٤٧٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٢٩٣.

(٣) تفسير الأمثل: ١٢/ ١٥٠، ١٥١.

لذلك فإن النفخة الأولى، وهي نفخة الصعق، فيها من المقاصد والحِكَم التي تظهر وتتجلى فيها قاهرية الله تعالى وقوته ومالكيته، وهي تدعونا للتدبر في هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه، والذي يعجُّ بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم، وما هم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف، وسيبقى حاله كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يُهلك الله فيه الجميع، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

فعندئذٍ لم يبقَ في هذا الكون إلا وجه الله الكريم، إذ تُنهي هذه النفخة الحياةَ في الأرض والسماء ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ﴾، وهي نفخة هائلة مدمرة، يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء، ولا يقدر على العودة إلى أهله وخلانه[١].

وكذلك الحال في النفخة الثانية، إذ يشاء تعالى بحكمته وقوته ليذعن له الخَلق أجمعين، ينتظرون ماذا حلَّ بهم، إذ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، ويقول السيد الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في تفسير الميزان: (ضمير (فيه) للصور، والمعنى: ونفخ في الصور نفخة أخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينظرون نظر المبهوت المتحير)[٢].

ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعد النفخ قياماً ينظرون، مع تحيرهم وفزعهم مع ما ورد في آيات أخرى بل يتوافق معها تماماً، كقوله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، أي يسرعون، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ

---

(١) (يُنظَر) القيامة الكبرى: ٣٢.

(٢) (يُنظَر) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٢٩٤.

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، فإن فزعهم بالنفخ وإسراعهم في المشي إلى عرصة المحشر وإتيانهم إليها أفواجاً كقيامهم ينظرون حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضاً[١].

كذلك مما يُشير الى هذا المقصد من تجليات القدرة والارادة الإلهية والتسليم لها ما رويَ عن النبي ﷺ: (.ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا[٢]، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ ـ أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ ـ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ ـ نعمان (راوي الحديث) الشَّاك ـ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)[٣].

ويستدل القرطبي وابن حجر والآلوسي وغيرهم من العلماء بهذا الحديث على أنهما نفختان لا ثلاث[٤]، الأولى يحصل بها الصعق والثانية يحصل البعث، وفيه من التجليات الظاهرة لجميع الأسماء والصفات الإلهية، من القوة والقدرة والقاهرية، وانقياد جميع الناس للأمر الإلهي العظيم.

المقصد الثاني: الدور التكويني للنشأتين الأولى والثانية

نستطيع أن نستنبط هذا المقصد من خلال ما ذكره أغلب العلماء، من القدامى والمحدثين، وهو يعني أَن النفخ في الصور لا يقتصر على التنبيه للنشآت الجديدة، وإنما يتعداه

---

(١) (يُنظَر) تفسير الأمثل: ١٢/ ١٥٠.

(٢) قوله ﷺ: (أصغى لِيتا ورفع لِيتاً) الليت بكسر اللام وآخره مثناة فوق وهى صفحة العنق وهى جانبه وأصغى: أمال، قوله ﷺ: (وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله) أى يطينه ويصلحه. المنهاج: ١٨/ ٧٦.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٥٨.

(٤) فتح الباري: ١١/ ٣٧٠، والتذكرة: ١/١٧٥.

إلى الدور التكويني لهذه النشآت، أي أن النفخة الأولى تكون سبباً في نهاية النشأة التكوينية الأولى، والنفخة الثانية تكون سبباً في نهاية النشأة التكوينية الثانية، كما يشير إلى ذلك كون النفخ في طين الإنسان سبباً في تشكل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩][١].

لذلك فبالاستناد إلى آيات القرآن الكريم ـ يظهر أن إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور مرتين، ونستنبط منها المقاصد التي تعود الى زمان هاتين النفختين، التي تقع أُولاهما في نهاية هذا العالم، حيث يموت مَن في الأرض والسماوات، وفي ثانيتهما يبدأ بعث من في القبور، ليعودوا لحياة جديدة، وليستعدّوا للحساب والجزاء[٢].

ويدل لهذا قوله تعالى في بيان الغرض من كلا النفختين: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، أي أن النفخة الأولى في الصور هي نفسها نفخة الموت التي يحدث فيها الصعق والفزع وموت الأحياء جميعاً، أما الثانية فهي نفخة إحيائهم جميعاً، وبناء على هذا فسروا كل الآيات الكريمة التي قد يتوهم منها أن العدد أكثر من نفختين أنَّ من مقاصدها ذكر بعض ما يحصل، لا تعدد النفخ نفسه، فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، يراد به الفزع عند حصول النفخ لا كونها نفخة أخرى عدا نفخة الصعق، ونفخة الإحياء[٣]، كما رُوي عنه صلى الله عليه وآله: (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ)[٤]، حيث يتضح من بيانه صلى الله عليه وآله المدة بين النفختين انحصار العدد بهما دون

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٢٢٥.

(٢) تفسير الأمثل: ١٠/ ٥١٥، و١٧/ ٣٢، والعقيدة الإسلامية للسبحاني: ٢٤٠.

(٣) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٢٢٦.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٧٠.

غيرهما، وهما نفخة الإماتة ونفخة الإحياء، ولو كان ثمة نفخة أخرى لبينها النبي ﷺ بقوله.

وهكذا، فإن لتينك النفختين أثرهما التكويني سواء بالصعق والإماتة، أو بالإحياء من جديد، وفق القوانين الجديدة، والصعق والإماتة لا تعنيان إعدام الموجودات، كما عرفنا في النشأة الأولى، وإنما تعني التحول إلى هيئة أخرى متناسبة مع الوضع الجديد، وقوانينه الجديدة[1].

ب . النفخ في الصور عند القائلين بالنفخات الثلاث والأربع

وقد ذهب البعض من العلماء الى القول بأنها ثلاث نفخات، حيث ذكرها الطوسي وابن كثير وابن العربي وابن حجر وغيرهم، وهذه النفخات هي: النفخة الاولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين.

أما المقاصد التي تظهر في قولهم هذا فهي لا تخرج عن مقاصد القائلين في كونها نفختين، في تجليات الإرادة والقدرة الإلهية فيما ينتاب الخَلْق من فزع يومئذٍ، فضلاً عن الدور التكويني للنشآت الثلاث.

حيث استدلوا لهذا القول بأن الله تعالى ذكر نفخة الفزع في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾ [النمل: ٨٧]، فقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في معرض تفسيره للآية الكريمة (هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مصرح به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول تعالى: ﴿للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٢٢٥.

على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل عليه السلام، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أحياء، بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة)[1].

ويؤيد هذا القول السفاريني (ت١١٨٨هـ) بقوله (وأما النفخ في الصور فالمراد به نفخة البعث والنشور، واعلم أن النفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، وهي التي يتغير بها هذا العالم، ويفسد نظامه، وهي المشار إليها في قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥]، وإنما يحصل الفزع لشدة ما يقع من هول تلك النفخة. ـ والنفخة الثانية نفخة الصعق وفيها هلاك كل شيء، قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وقد فُسِّر الصعق بالموت، والنفخة الثالثة نفخة البعث والنشور، وقد جاء في الكتاب العزيز آيات تشير إليها كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١])[2]، وغيرهم.

وقال القرطبي (ت٧٥١هـ) : (والصحيح انهما نفختان فقط؛ لثبوت الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ في كل من الآيتين ولا يلزم من مغايرة الصعق للفزع ان لا يحصلا معاً من النفخة الأولى)[3].

كما أن استدلالهم بالآية الكريمة التي تذكر نفخة الفزع ليست صريحة على أن هذه نفخة ثالثة، إذ لا يلزم من ذكر الحق تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب مَن في السماوات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة، فالنفخة الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (دار طيبة): ٧/ ١١٦.

(٢) (يُنظَر) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٤.

(٣) (يُنظَر) فتح الباري: ١١/ ٣٦٩.

(٤) القيامة الكبرى: ٤١.

كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث، كحديث الصور، وهو حديث طويل، أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال، وفيه: (يَنْفُخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفْخَاتٍ، النَّفْخَةُ الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[١]، وقال فيه ابن كثير (ت٧٧٤هـ): هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة[٢]، إلا أنه مع ذلك لا يصح أن يُستَدَلُّ به على عدد النفخات لأنه حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ) عنه[٣].

كذلك في مقاصد من قال بأنها أربع نفخات، حيث نسب ابن حجر هذا العدد لابن حزم الظاهري، وتتضح مقاصدها عنده بقوله: (زعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع: الأولى: نفخة إماتة يموت فيها من بقي حياً في الأرض، والثانية نفخة إحياء يقوم بها كل ميت وينشرون من القبور ويجمعون للحساب، والثالثة نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد، والرابعة: نفخة إفاقة من ذلك الغشي).

ثم عقب ابن حجر على هذا بقوله: (وهذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعاً ليس بواضح بل هما نفختان فقط، ووقع التغاير في كل واحدة منهما باعتبار من يسمعهما، فالأولى: يموت بها كل من كان حياً ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله، والثانية: يعيش بها من مات ويفيق بها من غشي عليه والله أعلم)[٤].

ثم نسب هذا القول إلى آخرين من غير أن يسميهم، فقال: (ذهب آخرون إلى أنها أربع نفخات، بناء على فهمهم لقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا

---

(١) الأحاديث الطوال: ٢٦٦، (يُنظَر) فتح الباري: ١١/ ٣٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٧.

(٣) (يُنظَر) التذكرة: ١٨٤، وفتح الباري: ١١/ ٣٦٩.

(٤) فتح الباري: ١٠/ ٢٠٥

مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، ولذلك ذكروا أن الغرض من هذه النفخة جمع الخلق وإحضارهم، وأنها نفخة أخرى بالإضافة للنفخات السابقة.

وقد رد جمهور العلماء من أصحاب القول الأول على هذا، بأنه لا مانع من أن يكون هناك هذه الصيحة المرتبطة بالجمع والإحضار، ولكنها لا تعتبر من النفخ في الصور، لأن القرآن الكريم، وفي مواضع أخرى حدد العدد باثنتين، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾[النازعات: ٦ ـ ٩])[1].

٢. المعاد الجسماني والروحاني

من خلال استقرائي لما ورد عن علماء الكلام، نجد اتفاق المسلمين عامة على حقيقة البعث والمعاد بعد النفخ في الصور وثبوت النشأة الآخرة، وشاطرهم المحققون من الفلاسفة الرأي في ذلك، إلا إنهم اختلفوا في كيفية المعاد على قولين، الأول أن المعاد يكون جسمانياً، والقول الثاني أن المعاد روحانيٌ فقط، فضلاً عن أقوال أخرى فيهما، وبناءاً على ذلك فسوف نذكر هذه المسألة بفرعيها، يتقدمهم تمهيد في مفهوم البعث والمعاد.

تمهيد: مفهوم البعث والمعاد

للبعث معان متعددة في اللغة منها: (الإرسال)، و(الايقاظ)، و(الإثارة)، و(الإحياء)، وقد عرَّفه الجوهري(٣٩٣هـ) بقوله (بعثه وابتعثه بمعنى، أرسله فانبعثَ، وبَعَثَ الموتى: نَشَرَهُم ليوم البعث)[2].

وقال الكفوي (ت١٠٩٤هـ): (البعث هو الإثارة والإيقاظ من النوم، قال تعالى:﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، وإيجاد الأعيان والأجناس عن ليسٍ يختّصُّ به الباري تعالى

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٢٢٦.

(٢) الصحاح: ١/ ٢٧٣، و(يُنظَر) لسان العرب: ٢/ ١١٦.

والإحياء والنشر من القبور[١].

والنشر هو البعث، والنشور: الحياة بعد الموت، يُنشِرُهُم اللهُ انتشاراً، وهو بعث الموتى يوم القيامة[٢].

أما اصطلاحاً، فالبعث هو أن يبعث الله جميع العباد من القبور بأن يجمع أجزائهم الأصلية وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء[٣].

ويُعَد البعث من القبور من اصول الاعتقادات الايمانية، فهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يبعث الخلائق بعد موتها فيجمع أجزاءها بعد تفرقها ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها ويعيدها كما بدأها[٤].

ومثله النشور، وهو الإخراج من القبور برَد الروح في الجسد، فالبعث والنشور معنيان مترادفان، يُقال نُشِرَ الميت: إذا عاشَ بعد الموت، وأنشرهُ الله: أي أحياه[٥].

ويوم النشور هو يوم القيامة والإحياء بعد الإماتة، يقال: نشر الله الموتى فَنُشِروا أي أحياهم فحيوا، والنشر إحياء الخلق بعد موتهم[٦].

ومثلهما المعاد، و(يوم البعث) فيراد بهم يوم القيامة، والآخرة، والجزاء، والحساب، والساعة، والحشر، والمعاد[٧]. ولهذا عبر أكثر المتكلمين عن البعث بالمعاد، وعبر بعضهم عنه بالحشر والنشر.

---

(١) الكليات: ٢٤٤، و(يُنظَر) المعجم الوسيط: ٦٢.

(٢) (يُنظر) العين: ٢٢١/٤، المعجم الوسيط: ٩٢٢.

(٣) (يُنظَر) شرح العقائد النسفية: ١٣٠، ولوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٥٨.

(٤) الايمان بعوالم الآخرة ومواقفها: ١١٦.

(٥) (يُنظَر) شرح الخريدة البهية: ١٣٢، لوامع الأنوار البهية: ١٥٨، والعقيدة الإسلامية ومذاهبها: ٦٤٠.

(٦) (ينظر) المسامرة بشرح المسايرة: ٩٨/٢، فتح الباري: ١١٤/١١، تفسير الكاشف لمغنية: ٣٧٧/٧.

(٧) قاموس الشوارفية للمترادفات: ٦٢٢.

وقد (اتفق المحققون من الفلاسفة والمليين على أحقية المعاد، وثبوت النشأة الباقية، لكنهم اختلفوا في كيفيته، فذهب جمهور الإسلاميين وعامة الفقهاء وأصحاب الحديث إلى إنه جسماني فقط، بناءً على أن الروح عندهم جسمٍ سارٍ في البدن سريان النار في الفحم، والماء في الورد، والزيت في الزيتونة، وذهب جمهور الفلاسفة وأتباع المشائين إلى أنه روحاني، أي عقلي فقط؛ لأن البدن ينعدم بصوره وأعراضه لقطع تعلق النفس بها، فلا يُعاد بشخصه تارةً أُخرى؛ إذ المعدوم لا يُعاد والنفس جوهر باقٍ لا سبيل للفناء إليه، فتعود الى عالم المفارقات؛ لقطع التعلقات بالموت الطبيعي.

وذهب كثيرٌ من أكابر الحكماء والعرفاء والمتكلمين كالغزالي والكعبي والحليمي[1] والراغب الأصفهاني وكثير من الإمامية كالشيخ المفيد[2] والعلّامة الحلي[3] الى القول بالمعادين، ذهاباً الى ان النفس مجردة تعود الى الأبدان، وذكر هذه الأقوال الملا صدرا (ت ١٠٥٠هـ) والعلامة المجلسي[4] (ت١١١٠هـ)، والشيخ السبحاني، والسيد كمال الحيدري[5]، وغيرهم.

---

(١) أبو عبد الله الحليمي، نسبة إلى حليمة ظئر النبي ﷺ وإلى الحسن بن محمد بن حليم بن إبراهيم بن ميمون الصائغ الحليمي المروزي نسبة إلى جده حليم وإبراهيم بن ميمون الصائغ. (يُنظر) الجواهر المضية في طبقات الحنفية : ١/ ١٦٠.

(٢) محمد بن محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم، من كبار أعلام الإمامية، صاحب التصانيف الكثيرة، منها كتاب [النكت الاعتقادية]، و[المسائل العكبرية]، و[تصحيح الإعتقادات]، (ت٤١٣هـ)، وصلى عليه الشريف المرتضى في ميدان الأشنان وضاق على الناس مع كبره، ودفن في داره سنين، ونقل إلى مقابر قريش. (يُنظَر) رجال النجاشي: ٢٩٠.

(٣) الشيخ الحسن بن يوسف، بن المطهر الحلي، شيخ الطائفة وعلامة وقته وصاحب التحقيق والتدقيق، انتهت رياسة الامامية اليه في المعقول والمنقول، وله المؤلفات المتنوعة، منها: [منتهى المطلب]، و[القواعد]، و[التحرير]، و[نهاية المرام في علم الكلام]،وغيرها كثير، توفي رحمه الله سنة ٧٢٦هـ. (يُنظَر) أعيان الشيعة: ٤٠٢/٥، والدرر الكامنة:٧١/٢.

(٤) محمد باقر المعروف بالمجلسي الثاني ابن محمد باقر المعروف بالمجلسي الأول، بلغ من الفصاحة وحسن التعبير الدرجة القصوى، وكان يباشر جميع المرافعات بنفسه، ويباشر أمور معاشه وحوائج دنياه بغاية الضبط، ومع ذلك بلغت مؤلفاته ما بلغت وقد تجاوت السبعين مؤلفاً، منها [بحار الأنوار]، و[مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ﷺ]، وغيرها كثير، توفي في أصفهان سنة ١١١٠هـ. (يُنظر) أعيان الشيعة: ٩/ ١٨٢، ١٨٣.

(٥) الحكمة المتعالية: ٩/ ١٦٥، وبحار الأنوار: ٧/ ٤٣، ومفاهيم القرآن: ٨/ ٧٦، والمعاد رؤية قرآنية: ١/ ٢٤٥.

أما القول الآخر فهو للفلاسفة الذين نفوا المعاد، حيث يقول فيهم التفتازاني (ت٧٩١هـ): (وأنكره الفلاسفة بناءً على امتناع إعادة المعدوم بعينه، هو مع أنهم لا دليل لهم عليه يُعتّدُ به، غير مضرٍ بالمقصود؛ لأن مرادنا أن الله تعالى يجمع الأجزاء الأصلية للإنسان ويعيد روحه إليه، سواءٌ سُمَّ ذلك إعادة المعدوم بعينه أو لم يُسَمَ)[1].

وذكر هذا القول السيد عبد الله شبر (ت١٢٤٢هـ) بقوله (ورابعهما: قول من نفى المعاد عن الأمرين، ولا أعرف عاقلاً ذهب اليه، بلى كان جالينوس من المتوقفين في أمر المعاد)[2].

وبناءً على ذلك، فقد اختلفت أراء العلماء حول هذا الموضوع إلى عدة أقوال، أوصلها الرازي (ت٦٠٦هـ) الى آراءٍ خمسة، بقوله: (فاعلم أن الأقوال الممكنة في هذه المسألة لا تزيد على خمسة: وذلك لأن الحق: إما أن يكون المعاد هو المعاد الجسماني فقط، وهو قول أكثر المتكلمين، أو المعاد الروحاني فقط، وهو قول أكثر الفلاسفة الإلهيين، أو كل واحد منها حق وصدق، وهو قول أكثر المحققين، أو الحق هو بطلانهما معاً، وهو قول القدماء من الفلاسفة الطبيعيين، أو الحق هو التوقف في كل هذه الأقسام وهو المنقول عن جالينوس)[3].

أما تفصيل هذه الأقوال:

الرأي الأول: يذهب إلى القول بإثبات المعاد الجسماني فقط، وهو قول أكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقة[4]، واستدلوا على ذلك بأن البدن وحده هو الحيوان، وهو الإنسان بحياةٍ وإنسانيةٍ خُلقتا فيه، وهما عرَضان، والموت هو عدمهما فيه أو ضدٍ لهما، وفي النشأة الثانية يخلق في هذا البدن حياة إنسانية بعد تفتت هذا الجسم، ويصير ذلك الإنسان بعينه حياً[5].

(١) شرح العقائد النسفية: ١٣٠.

(٢) حق اليقين في أصول الدين: ٣٣٨.

(٣) الأربعين في أصول الدين: ٢/٢٧٨-٢٨٨.

(٤) المواقف، الإيجي، ٣/٣٥٩، و٥٢٠.

(٥) (يُنظَر) رسالة أضحوية في أمر المعاد

ولذلك قالوا بأن المعاد هو جسماني فقط[1]،وهذا على اعتبار أن النفس والجسد شيء واحد، وأن الموت يحدث لكل من النفس والبدن معاً، أي أنهم يقولون بجسمية النفس الإنسانية وينفون تجردها[2]، لأن حقيقة الإنسان في نظرهم يتكون من جسمين مختلفين بالماهية والشخص، والتي ذكرها الشيرازي (ت١٠٥٠هـ) في الحكمة المتعالية، هما:

(جسم كثيف: وهو البدن أو الجسم: أي ذلك الهيكل المشاهد المحسوس المركب من الأعضاء الإنسانية الخارجية والداخلية المعروفة.

جسم لطيف: وهو سار في البدن سريان النار في الفحم، والماء في الورد، والزيت في الزيتون، وهو الروح أو النفس، وهي جسم خفيف، حي لذاته، مخالف بالماهية للجسم الذي تتولد منه الأعضاء، فبقاؤها في البدن سبب للحياة، وانتقالها عنه سبب للموت)[3].

الرأي الثاني: يذهب إلى القول بإثبات المعاد الروحاني فقط، وهو قول بعض الفلاسفة الإلهيين[4]، وسبب رأيهم هذا كما يذكره الشيخ السبحاني: (لانقطاع الصلة بين الروح والبدن بالموت فيستحيل حينئذ أن تتعلق الروح بالمادة من جديد)[5].

الرأي الثالث: يذهب إلى القول بإثبات المعادين الروحاني والجسماني، فالإنسان إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة

---

(١) وفي هذا يقول أبو بكر بن الأصم المعتزلي (ت٢٧٩هـ): (الإنسان هو الذي يرى، وهو شيء واحد لا روح له، وهو جوهر واحد، ونفى إلا ما كان محسوساً) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ٣٣١، ويقول القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ): (لابد في إعادة الحي المخصوص بأجزائه، لأن الحى هو الجسم المبني بنية مخصوصة)، إلا إنه يرى أنه ليس من الضروري إعادة كل أجزاء الإنسان، بل هي أقل الأجزاء بشرط أن يكون الإنسان بها حياً، وما عدا ذلك، فالقديم تعالى مخير، إن شاء أعاد نفس الأجزاء التي اختص بها من قبل، وإن شاء ما يقوم مقامها، وهذا يدل على نفي وجود النفس، وإثباته لوجود الجسد فقط. (يُنظَر) المغني في أبواب التوحيد والعدل: ٤٦٧/١١، و ٤٧٨.

(٢) (يُنظَر) مقالات الإسلاميين: ٣٣٥.٣٣٦.

(٣) الحكمة المتعالية: ٩/ ١٦٥، و(يُنظَر) مفاهيم القرآن: ٨/ ٧٦، و(يُنظَر) المعاد رؤية قرآنية: ١/ ٢٤٥.

(٤) كتاب المواقف، الإيجي، ٣٥٩/٣، ٥٢٠، و(يُنظَر) المعاد رؤية قرآنية: ١/ ٢٤٥.

(٥) مفاهيم القرآن: ٨/ ٧٦.

البـدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالأبدان أحياناً، فيحصل له معاده النعيم والعذاب، وهو قول أكثر المحققين من الامامية وأهل السنة[1].

وهم الذين يعتقدون بخلود النفس وبقائها بعد الموت، باعتبار أن قضية البقاء بعد الموت قد وردت في الشرع، وأنها تبعث مع البدن يوم القيامة، وأنهم وقفوا موقف الوسط بين القائلين بالمعاد الروحاني فقط ـ كما عند الفلاسفة ـ وبين القائلين بالمعاد الجسماني فقط.

الرأي الرابع: يذهب إلى القول بعدم ثبوت المعادين الروحاني والجسماني، وهو قول قدماء الفلاسفة الطبيعيين، فالنفس عنـدهم هي المزاج، وإذا مات الإنسان فقد عدمت النفس، وإعادة المعدوم محال[2].

الرأي الخامس: التوقف، فلا يقطع بأحد الأقوال السابق ذكرها، وهو المنقول عن جالينوس حيث قال: (لم يتبين لي أن النفس هل هي المزاج فينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها، أو هي جوهر باق بعد فساد البنية فيمكن المعاد)[3].

هذا عن آراء الديانات والمذاهب في قضية المعاد إجمالاً، أما المتكلمين المسلمين فقد انقسموا في هذه القضية إلى قَولين رئيسين، هما: المعاد الجسماني، والمعاد الروحاني، أذكرهما مع مقاصدهما فيما يأتي:

آ. المعاد الجسماني

المعاد الجسماني يعني أن الله سبحانه يحشر الناس يوم القيامة بهذا البدن المشهود بعد رجوعه إلى هيئته الأُولى، والمعاد بهذا المعنى أصل عظيم من أُصول الدين وضرورياته الواجبة الاعتقاد، وأركانه الثابتة، وجاحده كافر بالإجماع، والدليل على ثبوته أنه ممكن، وقد أخبر تعالى بثبوته في القرآن الكريم والحديث الشريف.

---

(١) (يُنظَر) الاقتصاد فيما يتعلق بالإعتقاد: ١٢٦، نهاية الإقدام في علم الكلام: ٤٦٧-٤٦٩، وعقائدنا للشيرازي: ٢٦.

(٢) المواقف: ٤٧٩/٣

(٣) المواقف: ٤٧٩/٣، تفسير روح المعاني: ١٢/ ٦٠، والفرائد في حل شرح العقائد: ٣٦٠.

والقائلون بالمعاد الجسماني هم عامة أهل الإسلام، وقد اتفقت كلمتهم على إعادة الإنسان ببدنه يوم القيامة كما أخبر عنه الله تعالى في كتابه الكريم، ويطلق عليه البعض بالمعاد الجسماني والروحاني، وقد يحصل اللبس لمن لم يعلم حقيقة الفرق بين التسميتين، الجسماني فقط، أو الجسماني والروحاني.

يقول الشيخ السبحاني فيه: (ذهب المحقّقون من المتكلّمين والحكماء كالمفيد والمرتضى والشيخ الطوسي والمحقّق الطوسي والحلّي من الإمامية، والغزالي والكعبي والحليمي والراغب الاصفهاني من السنّة، إلى أنّ المعاد جسماني وروحاني، لأنّ النفس وإنْ كانت مجرّدة إلاّ أنّ تجرّدها ليس تامّاً حتى يستحيل تعلّقها بالمادة من جديد)[١].

ويقول السيد عبد الله شبر (ت١٢٤٢هـ): (المعاد جسماني وروحاني، فالجسماني عبارة عن إن الله تعالى يعيد أبداننا بعد موتها ويرجعها الى هيئتها الأولى، والروحاني عبارة عن بقاء الروح بعد مفارقة البدن سعيدة منعمة أو معذبة شقية بما اكتسبه في الدنيا)[٢].

ومن خلال استقرائنا لما ورد من النصوص الكريمة وتفاسيرها في إثبات هذا المعاد رأينا أن من المقاصد التي تتعلق بهذا الاعتقاد توافقه مع القدرة الإلهية وحقيقة الروح، وتوافقه مع الحقيقة الإنسانية، فضلاً عن توافقه مع الحقائق العلمية، وبناءاً على ذلك فقد قسمنا هذه المقاصد الى فروعٍ ثلاثة بحسبها، هي:

المقصد الأول: توافق المعاد الجسماني مع القدرة الإلهية وحقيقة الروح

لم يرد في شريعةٍ ما من الدلائل أكثر مما وردَ في شرعنا عن حشر الأجسام، وكأن الزمان لَمَّا كان مقروناً بالقيامة كانت الآية أصرح بها، والبينات أدّل عليها، وحشر الأجساد لَمَّا كان ممكناً في ذاته وقد ورد به الصادق، وَجَب التصديق بذلك من غير أن يُبحَث عن كيفية ذلك؛

---

(١) مفاهيم القرآن: ٨/ ٧٦.

(٢) حق اليقين في أصول الدين: ٣٣٨.

إذ الرب تعالى قادرٌ على الإعادة، وقدرته على الإعادة كقدرته على الإنشاء والابتداء، فيحيي العِظامَ وهي رميم كما أنشأها اول مرة، وكما يحيي الأرض بعد موتها كل ربيع، كذلك يحيي الموتى، ودليل من رامَ إثباته على طريق الحكمة هو إن النفوس الجزئية إذا فارقت الأبدان ولم تستقر في تصوراتها عن آلات جسمانية احتاجت الى الأبدان ضرورةً وإلّا كانت مُعَذبة، فإن سعادتها في تصوراتها إنما تكون بآلاتها، والآلات إنما تتحقق إذا عادت بسعيها كما كانت[1].

ويقول الشيرازي(ت١٠٥٠هـ) في شرح الهداية الأثيرية: (إن إعادة النفس الى بدن مثل بدنها الذي كان لها في الدنيا، مخلوق من سنخ هذا البدن بعد مفارقتها عنه في القيامة، كما نطقت به الشريعة من نصوص التنزيل وروايات كثيرة متضافرة من أصحاب العصمة والهداية، غير قابلة للتأويل، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٤) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، أمرٌ ممكن غير مستحيل، فوجب التصديق بها لكونها من ضروريات الدين، وإنكارها كفرٌ مبين)[2].

وقد استفاض بالنقل والعقل بأن الروح جوهر لطيف نوراني مغاير للبدن، وأنّها تبقى بعد خرابه مبتهجة مسرورة حيّة مرزوقة، أو بالعكس[3].

وإنما الدافع الى القول بهذا الرأي من أكثر المتكلمين؛ لأنّ القول بكون المعاد جسمانيّاً فقط، لا يخلو عن غموض، فلو أريد من جسمانيته هو بعث البدن المنسلخ عن الروح، فيعود إلى القول بمعاد الإنسان بصورة جماد فاقد للإدراك والشعور، ومن الواضح انّ مثل هذا لا

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام: ٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) الهداية الأثيرية: ٣٨١، و(يُنظَر) البراهين القاطعة: ٤/ ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) حق اليقين في معرفة أصول الدين: ٢/ ٣٨ ـ ٣٩.

يقبل الجزاء ولا الثواب والعقاب، فينتفي الغرض من المعاد، وإن أُريد منه البدن المرافق مع الروح، فلا يكون المعاد عندئذٍ جسمانياً فقط، ولأجل ذلك عاد كثير من المتشرّعة إلى القول بجسمانية المعاد وروحانيته(١).

كما أرجَعَ هذا الفرق السيد صدر الدين الشيرازي لاختلاف العلماء في حقيقة الروح، فمنهم من يرى أن الروح هي جسم سارٍ في البدن، سريان النار في الفحم، والماء في الورد، وعليه فيكون المعاد عندهم بالنسبة للبدن والروح جسمانياً، ولا يعني ذلك قولهم بعودة الأجسام ميتةً لا روح فيها، بل تعود حية عاقلة، وإنما الروح عندهم معدودة في عداد الأجسام.

أما الذين قالوا بتجرّد الروح عن البدن، فالمعاد عندهم سيكون للأجسام وللأرواح، وذلك بعودة الروح إلى البدن عند البعث، والقائلون بهذا هم كثير من أكابر الحكماء ومشايخ العرفاء وجماعة من المتكلمين، كالغزالي، والكعبي، والحليمي، والراغب الأصفهاني، وكثير من الإمامية، كالشيخ المفيد، وأبي جعفر الطوسي، والسيد المرتضى، والمحقق الطوسي، والعلامة الحلي (رضوان الله عليهم أجمعين) ذهاباً إلى أن النفس المجردة تعود إلى البدن في يوم القيامة(٢).

المقصد الثاني: توافق المعاد الجسماني مع الرحمة والعدالة الإلهية والحقيقة الإنسانية

ونستفيد هذا المقصد من خلال النظر والبحث في حقيقة الإنسان، وإنعام الله تعالى له في الآخرة كي يحظى باللذائذ الحسية والمعنوية التي أعدها تعالى له في تلك الدار.

وذلك أن من مبادئ المعاد هو الجزاء الإلهي الذي وعد تعالى عباده أن يروه بكافة جوارحهم، وبما يتناسب مع عظيم الرحمة والعدالة الإلهية والحقيقة الإنسانية، (فلو كانَ المعاد روحانياً فقط لحُرِمَ الإنسان في النشأة الآخرة من اللذائذ الحسية، وأكثر الخلق إنما

---

(١) مفاهيم القرآن: ٨/ ٧٦.

(٢) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية: ٩/ ١٦٥، المبدأ والمعاد: ٣٧٥.

يكون همهم في الدنيا مثل هذه اللذائذ، ولو كان جسمانياً فقط، لحُرم الأولياء والمقربون من اللذائذ العقلية الروحانية التي جاهدوا في سبيلها الجهاد الشاق والمضني في الدنيا لكي يصلوا الى لذة القرب الإلهي ولذة العلم والمعرفة، فحرموا أنفسهم من متع الحياة في سبيل الحصول على تلك اللذة، بل قد عرَّض البعض نفسه للمهالك والمخاطر لأجل لذةٍ علمية ومتعة عقلية)[1].

ومن الآيات الكريمة الدالة على ذلك ما ورد في لذّات الجنة التي لا تدرك إلاّ بآلة جسمانية، والآلام التي تقع على بعض أجزاء الجسم المعذّب في نار جهنم، إذ قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ٢٣]، وكذلك توافقه مع العدالة الإلهية فيما أعده تعالى في وصف عذاب أهل النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

أما مقصد توافق المعاد مع الحقيقة الإنسانية والخلاف فيه، فيقول السيد كمال الحيدري بأن هذا الخلاف إنما يعود الى الاختلاف في النظر لهوية الإنسان في هذه النشأة (فالذي يعتقد بأن هوية الإنسان وحقيقته هي جسمه لا شيء آخر، فلا بُدَّ أن يحصر المعاد بالجسماني دون غيره.

وأمّا الذي حصر هوية الإنسان وحقيقته بروحه لا بجسده، فإن المعاد سيكون عنده روحانياً ليس إلا، إذ العَود الى الشيء وشيئية الشيء بحقيقته، وهي روحانية، فمعاده لا يكون إلا روحانياً.

بينما الذي وجد أن الإنسان في الدنيا حقيقة واحدة ذات بعدين أحدهما روحاني، وهو

---

(١) المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ٢٤٧

روحه التي بين جنبيه، والآخر بدنه الذي يُعتبَر آلة تنجز روحه من خلال الأفعال، ووجد أن لكل من هذين البعدين أحكامه الخاصة به. فالذي يعتقد بمعاد هذه الحقيقة لا بُدَّ أن يقول بمعادٍ مزيجٍ لها، فتلتذ بلذائذ حسية، وأخرى روحانية، والحسية لا بُدَّ لنيلها من جسم، وكذلك الروحانية لا تُنال إلا بمبدأ يتناسب مع طبيعته)[1].

ويوضح هذا المزيج للحقيقة الإنسانية الامام الصادق عليه السلام بقوله الذي يستوعب حقيقة المعاد بأكملها حين سأله من استنكر البعث: وأنّى له بالبعث والبدن قد بلى، والأعضاء قد تفرقت، فعضو ببلدة يأكلها سباعها، وعضو بأُخرى تمزّقه هوامها، وعضو صار تراباً بني مع الطين حائط؟

فقال عليه السلام: (إنّ الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفُسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته، كلّ ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض، ثمّ تُمخَضوا مخض السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غُسِل بالماء، والزبد من اللبن إذا مُخِض، فيجتمع تراب كلّ قالب إلى قالبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصوّر كهيئتها وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً)[2].

المقصد الثالث: توافق المعاد الجسماني مع الحقائق العلمية المعاصرة

ونتناول في هذا المقصد ما ثبُتَ من خلال الأبحاث العلمية المعاصرة مما يدل على امكان المعاد الجسماني يوم القيامة، لا اثباته؛ ذلك إنَّ مبحث البعث هو أصعب وأكثر إعضالاً من أي مبحث ديني آخر، لأنه يرجع لشيء لا مثيل له ولا شبيه، كما أن المعاد الذي يمكن قبوله

(١) المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ٢٤٧

(٢) الاحتجاج: ٣٥٠

عقلاً، هو المعاد الروحاني فقط، أما الجسماني فلا يمكن تصوره وتفسيره على ضوء العقل والعلم، ولذلك ذهبت طائفة إلى القول بضرورة الإيمان به تعبداً مطلقاً، وذهبت طائفة لا يريدون القول بالاستحالة فقط، بل قالوا بنفيه نفياً مطلقاً(١).

كذلك فإنَّ الدراسات العلمية لا ترتقي الى الحقيقة العلمية اليقينية إلا بعد التجربة والتكرار والاختبار والمشاهدة، وقطعاً لا يمكن تحقق هذا الشرط؛ لأن ميدان البعث الجسماني إنما هو يوم القيامة في عالم الأخرة، وقد كان مما توصلت إليه أنه بعد تحليل رميم الإنسان المتوفى وُجِدَ أنه مشابهٌ تماماً في شكله وتركيبه الكيميائي لتراب الأرض[٢]، وهذه الحقيقة العلمية تؤكد مدى الإعجاز العلمي لتلك الآيات القرآنية الكريمة التي تذكر المعاد، ولتكون هذه الدراسات مما يدل على إمكان المعاد الجسماني في يوم القيامة.

كما أنَّ من أهم الإشارات في بيان وإثبات هذه الحقيقة العلمية هو ماورد عن الرسول ﷺ عن عجب الذنب الذي هو آخر عظمة في العامود الفقري، وقد جاء ذكره في الأحاديث النبوية أنه أصل الإنسان والبذرة التى يُبعث منها يوم القيامة وأن هذا الجزء لا يبلى ولا تأكله الأرض(٣)، ومن هذه الأحاديث:

١ـ قوله ﷺ: (وَلَيْسَ مِنَ الإنسان شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ[٤]، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٥].

---

(١) (يُنظَر) البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية (بحث منشور) ، على الرابط:

٦٨٧٠.htmlpostnurdin.blogspot.com/٢٠١٣/٠٩/blogkamaluddinhttps://dr

(٢) الاستنساخ جريمة العصر: ١٥، نقلاً عن البعث الجسماني والحقائق المعاصرة.

(٣) (يُنظَر) البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية.

(٤) (عجب الذنب) أي العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب وهو رأس العصعص ويقال له عجم بالميم وهو أول ما يخلق من الأدمى وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه.. المنهاج: ١٨/ ٩٢.

(٥) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٧٠.

٢ـ قوله ﷺ: (كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ، خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ)[١].

٣ـ قوله ﷺ: (إِنَّ فِي الإنسان عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، قالوا: أي عظمٍ يا رسول الله؟ قَالَ ﷺ: (عَجْبُ الذَّنَبِ)[٢].

ومعنى الأحاديث أن كل خلايا جسم الإنسان تموت وتتحلل إلاّ عجب الذنب منه خُلقنا ومنه سنُبعث، وهذه الأحاديث تفيد أموراً ثلاثة، هي:

ـ الأول: إن عجب الذنب عنصر أساس يتخلق ويتكون منه الجنين، أي أنه مركز التخليق.

ـ الثاني: إن عجب الذنب أو قسماً منه لا نعرف مقداره (لا يبلى).

ـ الثالث: ومن هذا القسم أو البذرة يركب منه الخلق يوم القيامة، أي أنه إعادة التركيب[٣].

ومن هنا يذهب العلماء إلى أن جسم الإنسان بعد موته يتحلل ويصير تراباً، وفي بعض الظروف قد يتوقف تحلله، ولا ينتهي إلى تراب، ولكن تستبدل المواد العضوية في الجسم بمواد أخرى موجودة في التربة، كأملاح السليكون (Latinsilicium ـ Silicon)[٤]، فيصير الجسم بعد مرور الآف من السنين أحفورة صخرية أو معدنية، وذلك بسبب استبدال المواد العضوية بالأملاح المعدنية الموجودة في التربة، ولذا تسمى بقايا أجسام الكائنات الحية بالأحافير، (وهي تحويل المواد العضوية في الأجسام الميتة المطمورة تحت التربة إلى مواد صخرية أو معدنية)[٥].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٧١.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٢٧١.

(٣) الإعجاز العلمي في عجب الذنب، نقلاً عن: البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية.

(٤) ملح السليكون هو عنصر من مكونات صخور الطبقة الخارجية لقشرة الأرض، كما أنه من أهم العناصر المكونة لصخور الطبقة الداخلية في القشرة الأرضية. موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي: ١٤٨/٢.

(٥) موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي: ١٤٨/٢.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الأحافير قبل أن يكتشفها العلماء حديثاً، وهو خير دليل على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وتحدي الله سبحانه وتعالى للمنكرين بعث مَن في القبور، حيث أشار إلى تلك التحولات التي سوف تحدث للأجسام الميتة في التراب، إن الله قادرٌ على إعادتها مرة أخرى على الرغم من تلك التحولات التي تحدث لها، فسوف تعاد يوم البعث، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١][١].

كما أوضح علم الأجنة في العقود المتأخرة من القرن العشرين أن خلق الجنين يبدأ بالنطفة الأمشاج، ومن ثم يبدأ في الانقسامات والتكوين إلى أن يأتي اليوم الخامس عشر من عمر الجنين ويظهر في أحد أطراف الطبقة العلوية خيط دقيق يحدد مؤخرة الجنين من مقدمته، وهذا الخيط يعرف باسم الخيط البدائي أو الأولى (Hypoblast)[٢]، ومنذ لحظة ظهوره يبدأ الشريط الأولى في الانقسام والتكاثر بسرعة فائقة، ومنه يتكون الجهاز العصبي

---

(١) البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية ـ

٦٨٧٠.htmlpostnurdin.blogspot.com/٢٠١٣/٠٩/blogkamaluddinhttps://dr

(٢) الخيط البدائي أو الأولى هي كتلة داخلية التي فيها يتكون الجنين بإذن الله في اليوم الخامس عشر من الحمل، يظهر في مؤخرة الجنين الطبقة الظهرية خيط يسمى الخيط الأولى (Primiveistreat) نهايته مذنبة تسمى العقدة الأولية وبمجرد ظهور هذا الخيط يعرف أن هذه المنطقة هي مؤخرة القرص الجنيني، ومن هذا الخيط الأولى والعقدة الأولية (Primitivenode)، كما نعلم أن بعد تكوين وخلق الجنين من الخيط الأولى والعقدة الأولى يتراجعان ويستقرا في العصعص وفي آخر فقرة منه، وتبقى موجودة في العصعص محتفظة بخصائيها ومقدراتها الكلية الشاملة...وهذا يستدل به على إمكانية إعادة تركيب الانسان يوم القيامة من عجب الذنب الذي يحتوي خلايا الخيط الأولى والعقدة الأولية. ملخص بحث ألقاه الدكتور عثمان جيلان في المؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عقد في دبى، ٢٠٠٤م.

للجنين على هيئة بدايات للحبل الظهري (Thenotochord)[١]، وسالفه العمود الفقري (Vertebral Column)، ومن ثم يبدأ الجنين في تكوين جميع أعضاء جسمه بالتدريج، من طبقاته الثلاث: الخارجية والوسطى والداخلية، ومن كل واحدة منها عدد من أعضاء الجسم بخلاياه وأنسجته المتخصصة في عملية تعرف باسم عملية تكون المعيدات، وأول هذه الأجهزة تكونا هو (محور الرأس) وهو العصعص الذي يتكون فيه بدايات الجهاز العصبي المركزي بما في ذلك من بدايات المخ والجمجمة، والحبل العصبي الظهري والعمود الفقري.

وبذلك تتكون جميع أجهزة جسم الجنين من الخيط والعقدة البدائيين، وذلك مصداقا لقول النبي ﷺ عن عجب الذنب (منه خلق) وبعد تمام تكون جميع أجهزة الجنين يتراجع الخيط والعقدة البدائيان بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين الكامل، حتى يستقر في نهاية العمود الفقري في منطقة العصعص، حيث يبقيان على هيئة جنين كامن، ويعاد تركيب جسم الإنسان منه يوم البعث[٢].

وكان هذا الوصف العلمي لمراحل الجنين والذي أُكتُشِف في وقتٍ متأخر قد أعلن به الإسلام منذ الوقت المبكر أي منذ خمسة عشر قرناً كما جاء في ذكره في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ١٢ ـ ١٦]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الدليل

---

(١) الحبل الظهري يبدو بظهور حوإلى عشر أيام (يوم السادس عشر) من الحمل، حتى يتخذ الجنين مظهر العلقة، وهو حبل مرن موجود في الجنين ويتكون من خلايا مشتق من الطبقة الوسطى المكونة للجنين، ويتطور في جنين الإنسان إلى العمود الفقري.

(٢) الإعجاز العلمي في السنة النبوية: ١/١٠٤ـ١٠٦.

العلمي وعالمية الرسالة المحمدية وصدقها.

ودليلٌ آخر لذلك ما ذكره الدكتور كمال الدين نور الدين مرجوني[1] في بحث له، بقوله (ولقد قام الدكتور عثمان الجيلاني بالتعاون مع الشيخ عبد المجيد الزنداني في رمضان ١٤٢٤هـ في منزل الشيخ عبد المجيد الزنداني في صنعاء بتجربة على العصعص حيث قاموا وتحت تصوير تلفزيوني بأخذ أحد فقرتين لخمس عصاعص للأغنام وقاموا بإحراقها بمسدس غاز فوق أحجار ولمدة عشرة دقائق (حتى احمرت وتأكدوا من احراقها التام بحيث أصبحت حمراء وبعد ذلك أصبحت سوداء متفحمة فوضعوا القطع في علب معقمة وأعطوها لأشهر مختبر في صنعاء (مختبر العولقي) وقام الدكتور صالح العولقى أستاذ علم الانسجة والامراض في جامعة صنعاء بفحصها نسيجياً، وكانت النتيجة مبهرة حيث وجد خلايا عظمة العصعص لم تتأثر ولازالت حية وكأنها لم تحرق (فقط احترقت العضلات والأنسجة الدهنية وخلايا نخاع العظم المصنعة للدم، أما خلايا عظمة العصعص فلم تتأثر)[2].

إذن، فإن هذه التجربة العلمية تعتبر دليلاً علمياً معاصراً يبين أن خلايا عظمة العصعص لم تتأثر بالإحراق، وبقيت حية[3]، ودلالتها على ذلك دلالةً قطعية، أما دلالتها على إمكان المعاد الجسماني فهي ظنية، ومع أنَّ العقيدة تُبنى على اليقين الواضح لا الظن الراجح، إلا إننا نرى في هذا المقصد توافق ما جاء في تفاصيل المعاد الجسماني مع الحقائق والأبحاث العلمية التي جاء القرآن الكريم مقرراً لها قبل أكثر من أربع عشر قرناً لما يدلُّ

---

(١) أ.د كمال الدين نور الدين مرجوني، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والأديان جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، تولد١٩٧٣م، من مؤلفاته [العقيدة الإسلامية والقضايا الخلافية عند علماء الكلام]، و[مدخل إلى علم الكلام]، وغيرها، (يُنظر) موقع أبجد: https://www.abjjad.com/author.

(٢) (يُنظر) الإعجاز العلمي في عجب الذنب، نقلاً عن البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية.

(٣) (يُنظَر) البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية.

على إمكانه يوم القيامة.

ب . المعاد الروحاني

ذهب جمهور الفلاسفة إلى أنَّ المعادَ روحاني ؛ لأنّهم لم يتمكّنوا من تعقّل عودة الأبدان على معاييرهم الفلسفية، فقالوا: إنَّ البدن ينعدم بصوره وأعراضه، لقطع تعلّق النفس به، فلا يعاد بشخصه تارة أُخرى، إذ المعدوم لا يُعاد، والنفس جوهر باقٍ لا سبيل للفناء إليه[1]، وعليه جعلوا المعاد وما يتعلّق به، من شأن الروح وحدها التي لا يعتريها الفناء.

وهذا القول لا تساعده ظواهر آيات القرآن الكريم وصحيح سنة المصطفى ﷺ الدالّة على إعادة الإنسان ببدنه يوم القيامة، والقائلون بالمعاد الروحاني من بعض فلاسفة المسلمين، اعتبروا الثواب والعقاب هو التذاذ النفس أو تألمها باللذات أو الآلام العقلية أو الروحية بعد مفارقتها البدن، وحاولوا تأويل ظواهر الأدلّة الشرعية حتى تنطبق على أسسهم العقلية، فتكلّفوا في تأويل الآيات القرآنية الكثيرة الدالة على النعيم والعذاب الحسّيين اللذين يتعرض لهما الإنسان في الجنة والنار، حيث اعتبروهما من باب التمثيل الحسّي للنعيم والعذاب الروحاني أو العقلي، تقريباً لأذهان عامة الناس الذين تستهويهم الأُمور الحسيّة دون المعاني العقلية، ليكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد والطاعة.

وقد اشتهر عن الشيخ ابن سينا أنه ينكر المعاد الجسماني ويقول بالمعاد الروحاني[2]حتى أن الغزالي قد كفّره وبعض الفلاسفة في (تهافت الفلاسفة) لإنكارهم المعاد الجسماني[3].

والحق أنه لم يتعرّض ابن سينا في كتبه المعروفة لإنكار البعث الجسماني صراحة، بل نجده في (الشفاء) وهو أكبر كتبه، يعترف بالبعث الجسماني ويرى أنه حق لا ريب فيه،

---

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية: ٩/ ١٦٥، المواقف للجرجاني: ٨/ ٢٩٨ . ٣٠٠.

(٢) (يُنظَر) الأضحوية في المعاد: ١٢٦ .

(٣) تهافت الفلاسفة: ٢٣٥ . ٢٥٣.

وكذلك ما ذكره في كتابه (النجاة)، إذ يقرر أن المعاد للأبدان وللأنفس[١][٢]، إذ يقول: (يجب أن يُعلم أن المعاد منه ما هو منقول من الشرع، ولا سبيل إلى إثباته إلاّ من طرق الشريعة وتصديق خبر النبوة، وهو الذي للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا يحتاج إلى أن تُعلم، وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها نبينا وسيدنا ومولانا محمّد ﷺ حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن، ومنه ما هو مُدرك بالعقل والقياس البرهاني، وقد صدّقته النبوة، وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالقياس اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام هاهنا تقصر عن تصوّرهما الآن)[٣].

كما توهّم البعض أن الغزالي يُنكر حشر الأجساد، والحق بخلاف ذلك، فقد قال شارح المقاصد: (وقد بالغ الإمام الغزالي في تحقيق المعاد الروحاني وبيان أنواع الثواب والعقاب بالنسبة إلى الروح حتى سبق إلى كثير من الأوهام ووقع في السنة بعض العوام أنه ينكر حشر الأجساد افتراء عليه، كيف وقد صرح به في مواضع من كتاب الأحياء وغيره، وذهب إلى أن إنكاره كفر، وإنما لم يشرحه في كتبه كثير شرح لما قال إنه ظاهر لا يحتاج إلى زيادة بيان)[٤].

٣ ـ مظاهر القيامة

بعد أن يأذن تعالى لإسرافيل عليه السلام في النفخة الثانية في الصور لبعث الأموات

---

(١) (يُنظر) النجاة: ٢٩١. وأقسام العلوم العقلية: ١١٤ـ١١٥.

(٢) قال سليمان دنيا محقق كتابه (رسالة أضحوية في أمر المعاد) بأنه على العكس مما أُدُعي عليه، فقد أيد المعاد الجسماني بقوله: (لم نجد لابن سينا في كتبه المعروفة لجمهرة الباحثين حتى اليوم ذكراً لإنكار البعث الجسماني صراحةً، ولا ذكر أي دليل عليه، بل على العكس من ذلك نجد ابن سينا في (الشفاء) أكبر كتبه يعترف بالبعث الجسماني، ويرى أنه حق لا ريب فيه) سليمان دنيا: محقق مخطوط رسالة اضحوية في أمر المعاد لابن سينا: ١١، كما أثبت الأستاذ فتح الله خليفة في دراسته لمذهب ابن سينا في النفس أنه يقول بجسمانية المعاد بما لا يقبل الشكّ والترديد. ابن سينا ومذهبه في النفس: ١١٧

(٣) الشفاء ـ الإلهيات لابن سينا: ٤٢٣، وبحار الأنوار: ٧/ ٥٠.

(٤) شرح المقاصد للتفتازاني: ٣/ ٣٢٧.

وحسابهم، وإذ تقوم المخلوقات جميعاً لحشرهم في يوم الجمع وعرضهم على الله تعالى، سواءٌ منهم من قُبِروا أو من تفرقت أجزاؤهم، عندئذٍ يحدث الفزع الأكبر الذي صدَّق به المؤمنون وأنكره الكافرون فيرى كلاً منهم تلك الأهوال العظام في السموات والأرض.

ومن خلال دراستنا لهذا الحشر في يوم القيامةِ وأهواله وما يصاحبه من فزع وبروز، إذ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، وإذ تتطاير الكتب يميناً وشمالاً كلاً حسب إيمانه وما أعده لذلك الموقف، رأينا عدداً من المقاصد التي تكمن خلف هذه الأهوال منها ما يتعلق بعظيم قدرته تعالى على هذا التحول بين النشأتين وما يصحُب ذلك، ومنها ما يتعلق بربوبيته وحاكميته تعالى من خلال عرض الخلائق جميعاً عليه فلا يشغله شأنٌ عن شأن، ومنها ما يتعلق بعدالته في جميع الكون حيث شمول الحشر لجميع الكائنات.

بناء على هذا، ومن خلال استقرائنا لما ورد فيها في النصوص، وكلام العلماء القيامة وأهوالها، فقد رأينا تصنيفها الى أربعة مقاصد، هي:

المقصد الأول: تجليات ربوبية الله تعالى وملكه ومالكيته في مظاهر وأهوال القيامة.

المقصد الثاني: تبديل السماوات والأرض وتناسبهما مع أرض المحشر.

المقصد الثالث: التكامل الكوني في شمول الحشر جميع الكائنات.

المقصد الرابع: حاكمية الله تعالى في عرض الخلائق جميعاً عليه.

وقد خصصنا كل مقصد منها بفرع خاص، وقدمنا لذلك بتمهيد يعرف القيامة والحشر في اللغة والاصطلاح.

تمهيد: مفهوم القيامة

تُعرَّف القيامة في اللغة بيوم البعث، يوم يقوم الخلق بين يدي القيوم، وأصلها مصدر قام الخلق من قبورهم قيامة، فيوم القيامة هو يوم حشر الناس وجمعهم من قبورهم[1].

أما اصطلاحاً فمماثل لمفهومها اللغوي، وهو يوم الحشر، تقول حشرت الناس إذا جمعتهم، والمراد به جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة ثم إحياء الأبدان بعد موتها، إذ يطلق الحشر على حشر الأجساد وسَوقها الى الموقف[2] يوم القيامة[3]؛ لأجل عرضهم وحسابهم، أي بعد بعثهم من قبورهم المسمى بالنشر[4].

وهو كذلك يوم الحساب، ومعناه أن الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، فيعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشف منها على الآخر، حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر.

ففي ذلك اليوم يُساق الناس للحشر لمحاسبتهم على أعمالهم، وهو يوم الواقعة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، وهو يوم الفصل بينهم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٧، ١٨]، والقارعة، والحاقة، وتأتي أغلب اسماءه مؤنثة، يقول الكفوي في ذلك: (وَأَسْمَاء الْحَشْر كلهَا مُؤَنّثَة، وتأنيثها تَأْنِيث تهويل ومبالغة)[5].

---

(١) العين: ٣/ ٤٤٥، ولسان العرب: ١٢/ ٥٠٦، المحكم والمحيط الأعظم: ٣/ ١٠٣.

(٢) وهو الموضع الذي يقف فيه العباد من أرض القدس المبدلة التي لم يُعصَ الله عليها، لفصل القضاء بينهم، ولا فرق في ذلك بين من يُجازى وهم الإنس والجن والملك، وبين من لا يُجازى كالبهائم والوحوش على ما ذهب اليه المحققون. شرح الخريدة البهية: ١٢٩، و(يُنظَر) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٣٤.

(٣) (يُنظَر) مفردات الفاظ القرآن الكريم: ٢٣٧/١، وأساس البلاغة: ٨٤، لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٥٨.

(٤) (يُنظَر) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٥٨، شرح الخريدة البهية: ١٢٩.

(٥) (يُنظَر) التذكرة: ٢٧١، والكليات: ٨١٩.

فضلاً عن أسمائها فقد وردت كذلك الإشارة اليها وأهوالها في آياتٍ عدة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، حيث فسرها العلماء بالبعث من القبور والرجوع الى موقف الحساب، فالله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة، حيث وصف تعالى الموتى بأنه يبعثهم ويحكم فيهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾أي إلى حكمه ﴿يُرْجَعُونَ﴾، فقيل معنى الآية الكريمة يبعثهم الله من القبور ثم يرجعون إلى موقف الحساب.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم(١).

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تدل على أن الأموات يحييهم الله جميعاً يوم القيامة فيبعثهم من قبورهم ويعيدهم أحياءً، ويحشرهم إليه سبحانه، فيجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

ومما ورد في النصوص الكريمة في حشر الخَلْق وتبدل السموات والأرض يوم القيامة، وما يصاحبهُ من أحداثٍ وأهوال نستنبط مقاصدَ عدةٍ، منها:

المقصد الأول: تجليات ربوبية الله تعالى وملكه ومالكيته في مظاهر وأهوال القيامة

ويشير الى هذا المقصد آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

فالآية الكريمة تشير إلى أنه مع كون الله تعالى مالكاً وملكاً في كل الأوقات، وعلى كل الأكوان، إلا أن ذلك يتجلى بوضوح عند النفخ في الصور، وعند النشأة الثانية إذ حشر المخلوقات جميعاً، أي أنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا مقاصد ونتائج ومصالح، كذلك سيكون

---

(١) (يُنظَر) تفسير مجمع البيان: ٤/ ٣٦، وتفسير مفاتيح الغيب: ٢١٩/١٢، تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٠٨.

يوم القيامة ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾، وفي ذلك اليوم الذي ينفخ فيه في الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك لله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾[١].

والوجه في اختصاصه بذلك اليوم وإن كان قوله حقاً دوماً، إنه لا يبقى ملك لمن ملّكه الله في الدنيا، أو تغلب عليه، بل يتفرد سبحانه بالملك، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ولا شك أن الأمر في كل وقت لله تعالى، والمراد أن ذلك اليوم يوم لا يخالَف الله في أوامره، لأنها محتومة ليس فيها تخيير، ولا يقدر أحد على معصيته[٢].

وفي ختام هذه الآية الكريمة إشارة إلى ثلاث من صفات الله تعالى، فهو: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، وترد هذه الصفات غالباً في الآيات التي تخص يوم القيامة، أي أنّه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضى قدرته وحكمته يجازي كلا بما يستحقه[٣].

وممن تكلم في اهوال هذا الموقف المحاسبي(ت٢٤٣هـ)[٤]، ونقله عنه القرطبي (ت٧٥١هـ) في التذكرة من قوله: (ثم أقبلت الوحوش من البراري، وذُرى الجبال منكسة رؤوسها، لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق، ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطية أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها، منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٢٢٧.

(٢) مجمع البيان: ٤/٧٨.

(٣) (يُنظَر) مجمع البيان: ٤/ ٧٨، وتفسير الأمثل: ٤/٣٤١.

(٤) أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي، المحاسبي. قيل له ذلك لأنه كان يحاسب نفسه، شيخ الصوفية، صاحب التصانيف، قال الجنيد: خلف له أبوه مالا كثيرا، فتركه، وقال: لا يتوارث أهل ملتين، إذ كان أبوه واقفيا (يقف في مسألة خلق القرآن، فلا يقول: مخلوق أو غير مخلوق)، توفي سنة ٢٤٣هـ. (يُنظَر) سير أعلام النبلاء: ١٢/ ١١٠.

وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء، واختلاف خلقهم وطبائعهم، وتوحش بعضهم من بعض، قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب، تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها، فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة، والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، و﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩])[١].

ويذكر الشيخ السبحاني إن هذا الحشر وجمع الناس يكون بعد النفخة الثانية في الصور، أي بعد بعثهم من قبورهم، حيث إن القرآن الكريم يتحدث عن خصوص ذلك في العديد من آياته الكريمة ويصف أحوالهم، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] [٢].

كما يذكر جار الله الزمخشري[٣] (ت٥٣٨هـ) في الكشاف في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ

---

(١) التوهم في وصف أحوال الآخرة: ١١، والتذكرة: ٥٨٠.

(٢) العقيدة الإسلامية للسبحاني: ٢٤٠.

(٣) العلامة، كبير المعتزلة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، الخوارزمي، النحوي، برع في الآداب، صاحب

الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٧]، (فإن قلتَ: لم جيء بـ (حشرناهم) ماضياً بعد نسير وترى؟ قلتُ: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك (موْعِداً) وقتا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور)[١].

ويقول السيد اللواساني[٢] (ت١٤٠٠هـ)، صاحب كتاب [نور الأفهام]: (لا شك في قدرة القدير تعالى على كل شيء، ولا محذور لدى العقلاء في إمكان عالم آخر يكون مماثلاً لهذا العالم الدنيوي المُشاهَد وقوعه، فضلاً عن إمكانه، فإنه بعد التسالم على القدرة الكاملة منه تعالى على إيجاد المماثل لهذه النشأة لا محيص عن القول بإمكان النشأة الأُخرى)[٣].

المقصد الثاني: حاكمية الله تعالى وقوته وقدرته في تبدل الأرض والسموات وتناسبها مع أرض المحشر

ويشير إلى هذا المقصد العظيم ما ورد في القرآن الكريم من مظاهر وأحداث ذلك اليوم، والتي جمعها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[إبراهيم: ٤٨]، والتي يتجلى فيها من مقاصد التنبيه بكمال الله تعالى وحكمه بالعدالة المطلقة بين العباد، مما يجعله حرياً بهم الاتعاظ قبل حدوث هذا الموقف والتبريء من موبقات الأعمال التي تقودهم الى سوء العاقبة قبل مجيء ذلك اليوم، ومن أهم هذه المظاهر في التبديل والتغيير، وما يتفرع عنها من المقاصد، هي:

التصانيف الكثيرة، منها [الكشاف]في تفسير القرآن الكريم، و[المفضل]، و[ربيع الأبرار]، و[أساس البلاغة]، و[مشتبه أسامي الرواة]، و[النصائح]، توفي سنة ٥٤٨هـ. (يُنظر) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ١٥٢.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٢/ ٧٢٦.

(٢) الحسن بن محمد بن إبراهيم الحسيني، اللّواساني، أحد مجتهدي الإمامية وعلمائهم، اختلف إلى حلقات بحث مشاهير الفقهاء، ونال درجة الاجتهاد، وتضلّع من التاريخ وأصول الدين وغيرهما، ألف العديد من الكتب والرسائل، منها: [نور الأفهام]، و[الشريعة السمحاء]، و[تاريخ النبي أحمد ﷺ]، وغيرها. (يُنظر) معجم طبقات المتكلمين: ٥/ ٢٦٥-٢٦٧.

(٣) نور الأفهام في علم الكلام: ٢/ ٢٠٩.

أولاً: انتهاء الأنساب وفزع الخلائق.

ومن المقاصد التي نستنبطها مما ورد في هذا الفزع الذي ينتاب الخلائق جميعاً يومئذٍ، تلك العدالة الإلهية المطلقة في حكم الله تعالى، إذ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١]، إنما تقطعت الروابط، وسقطت القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾، وشملهم الهول بالصمت، فهم ساكنون لا يتحدثون ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[1].

ويقول الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) في الآية الكريمة: (من المعلوم أنه سبحانه إذا أعادهم فالأنساب ثابتة لأن المعاد هو الولد والوالد، فلا يجوز أن يكون المراد نفي النسب في الحقيقة بل المراد نفي حكمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال في الدنيا: أسألك بالله والرحم أن تفعل كذا، فنفى سبحانه ذلك من حيث إن كل أحد من أهل النار يكون مشغولاً بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات إلى النسب، وهكذا الحال في الدنيا لأن الرجل متى وقع في الأمر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده.

وثانيها: أن من حق النسب أن يحصل به التفاخر في الدنيا، وأن يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض، وفي الآخرة لا يتفرغون لذلك.

وثالثها: أن يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرئ مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التي تؤويه فكيف بسائر الأمور، قال ابن مسعود: (يؤخذ العبد والأمة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد وينادي مناد: ألا إن هذا فلان فمن له عليه حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها،

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٤٥.

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون))[1].

كما يقول فيها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (وعلى كلّ حال، فإنّ الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

أُولاهما: انتهاء مسألة النسب، لأنّ رابطة الأُسرة والقبيلة التي تسود حياة الناس في هذا العالم تؤدّي في كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم في حلّ مشاكلهم، أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كلّ إنسان وعمله، فلا معين له، ولا نفع في ولده، أو أخيه، أو والده.

وثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهي، فهو يوم وصفه تعالى في مطلع سورة الحجّ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ٢]، كما يحتمل أن تقصد عبارة ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عدم طلب أحدهم العون من الآخر، لأنّهم جميعاً يعرفون عدم جدوى ذلك[2].

ثانياً: قبض الأرض وطي السماء

حيث يقبض الحق تبارك الأرض بيده في يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، ومن مقاصدها تجليات القوة والمشيئة الإلهية في خَلْقه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧]، وورد في الحديث المتفق عليه عن رسول الله ﷺ: (يقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ)[3]، وهذا القبض

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٢٩٤.

(٢) (يُنظَر) تفسير الأمثل: ١٠/ ٥١٦.

(٣) صحيح البخاري: ٥/٢٣٨٩، وصحيح مسلم: ٤/ ٢١٤٨.

للأرض والطي للسموات يقع بعد أن يفني اللهُ تعالى خلقَه[1].

كما تتجلي فيها مقاصد أسمائه الحسنى تعالى، فهو الباقي، وهو القادر وهو المقتدر، ويفعلُ في ملكه ما يشاء، مع غناه عنهم، وقد بين الرازي (ت٦٠٦هـ) هذا القبض للأرض والطي للسماء وعلاقة الأحداث بقدرته تعالى في تفسيره بقوله: (فالحق سبحانه هو المتولي لإبقاء السموات والأرضين على وجوه العمارة في هذا الوقت، وهو المتولي لتخريبها وإفنائها في يوم القيامة، وذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام، وتنبيه أيضاً على كونه غنياً على الإطلاق، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد إفناءها، وذلك يدل على كمال الاستغناء.

وإنما خصص ذلك بيوم القيامة ليدل على أنه تعالى كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا، فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا)[2].

ثالثاً: دك الأرض ونسف الجبال

كذلك من مظاهر التغيير والتبديل يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أرضنا الثابتة وما عليها من جبال صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾[الحاقة:١٣ ـ ١٥]، ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[الفجر: ٢١]، وعند ذلك تتحول هذه الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾[المزمل: ١٤]، أي: تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء، والرمل المهيل: هو الذي إذا أخذت منه شيئا تبعك ما بعده، يقال: أهلت الرمل أهيله هيلاً، إذا حركت أسفله حتى انهال من أعلاه.

---

(١) القيامة الكبرى: ١٠٠.

(٢) (يُنظَر) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٤٧٦.

ومما يتجلى فيها من معانٍ ومقاصدَ في هوان ذلك على الله تعالى، بجبروته وقاهريته وقوته تعالى، حيث أخبر في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن وهو الصوف كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾[المعارج: ٩]، وفي نص آخر: مثلها بالصوف المنفوش: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾[القارعة: ٥]، ثم إن الله تبارك وتعالى يزيل هذه الجبال وعبَّر القرآن عن إزالتها مرة بتسييرها ومرة بنسفها: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾[التكوير: ٣] و﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾[المرسلات: ١٠]، ثم بين الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾[الكهف: ٤٧]، أي: ظاهرة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[طه:١٠٥ ـ ١٠٧][1].

رابعاً: تسجير البحار وتفجيرها

من مظاهر التبديل والتغيير للسموات والأرض تجليات اسم الله البديع، إذ نرى هذه البحار، بمياهها ومساحاتها الواسعة، فإنها تفجر في ذلك اليوم، وتشتعل ناراً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[الانفطار: ٣]، أي (فجَّر بعضها في بعض فذهب ماؤها)[2]وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦][3].

حيث يظهر ابداع الله في أمره وخَلقه، وهوان ذلك عليه، إذ مع كثرة هذه البحار على الأرض وسعتها، إلا أنها تجفُّ تماماً، فلا يبقى من مياهها شيء، وقد ذكر الرازي (ت٦٠٦هـ) ستةَ أوجه في معنى (سجرت) أحدها: أن أصل الكلمة من سجرت التنور إذا أوقدتها، والشيء إذا وقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذ لا يبقى في البحار شيء من

---

(١) (يُنظر) القيامة الكبرى: ١٠٢.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٨/ ٤٣٨.

(٣) (يُنظَر) القيامة الكبرى:، وأسرار ما بعد الموت: ٢٣٤.

المياه البتة، ثم إن الجبال قد سيرت على ما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾[النبأ: من الآية ٢٠]، وحينئذ تصير البحار والأرض شيئاً واحداً في غاية الحرارة والإحراق، ويحتمل أن تكون الأرض لما نشفت مياه البحار ربت فارتفعت فاستوت برؤوس الجبال، ويحتمل أن الجبال لما اندكت وتفرقت أجزاؤها وصارت كالتراب وقع ذلك التراب في أسفل الجبال، فصار وجه الأرض مستوياً مع البحار، ويصير الكل بحرا مسجوراً(١)، وما ذلك إلا وجه من وجوه إبداعه وقدرته تعالى في مظاهر السموات والأرضين.

خامساً: موران السماوات وانفطارها وتنزل الملائكة الى الأرض

كذلك من مظاهر التغيير والتبديل، والذي يُعَد من مقاصده تجليات أسمائه تعالى على جميع السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فهو تعالى مالك الملك، بيده أمر خلقه، وهو صاحب القدرة المطلقة فيهم، ومن المظاهر التي تحدث في القيامة ما يتعلق بالسماء فإنها تمور موراناً وتضطرب اضطراباً عظيماً قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾[الطور: ٩]، ثم إنها تنفطر وتتشقق، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١، ٢]، وعند ذلك تصبح واهية ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦](٢).

وكذلك من تجليات قدرته تعالى المطلقة تنزل الملائكة مع الخلائق في أرض المحشر، ويذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في معرِض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾، (يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر)(٣).

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٣١/ ٦٥.

(٢) القيامة الكبرى: ١٠٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦/ ٩٦.

سادساً: تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم

ومن المقاصد التي تظهر جليةً في مظاهر التغيير والتبديل ما يتعلق بعظيم قدرته وقوته تعالى أيضاً فيما يجري في السموات، فإن الشمس تكور ويذهب ضوؤها كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، والتكوير عند العرب: جمع الشيء بعضه على بعض ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها على بعض وإذا جمع بعض الشمس على بعض ذهب ضوؤها ورمى بها[1]، ويقول ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في تفسيره (وتكوير الشمس: فساد جرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها فيختل لاختلاله نظام سيرها)، ويقول الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) (لعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة)[2].

أما القمر فإنه يخسف، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾[القيامة: ٧، ٨]، ويُحتمل أن يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نعقله من حاله إذا خسف في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد ذهابه بنفسه، كقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

أما تلك النجوم المتناثرة فإن عقدها ينفرط فتتناثر وتنكدر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، والكدرة ضد الصفاء كتغير لون الماء ونحوه، وفُسِّر الانكدار بالتساقط والانقضاض، فإذا زال ضوء الشمس انكدرت النجوم لأن معظمها يستنير من انعكاس نور الشمس عليها، أي حصل للنجوم انكدار من تكدير الشمس لها حين زال عنها انعكاس نورها[3].

---

(١) (يُنظَر) القيامة الكبرى: ١٠٥.

(٢) (يُنظَر) التحرير والتنوير: ٣٠/ ١٤١، والميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٢٣٥.

(٣) (يُنظَر) مفاتيح الغيب: ٣٠/ ٧٢٤، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ١٤٢، والقيامة الكبرى: ١٠٥.

المقصد الثالث: التكامل الكوني في شمول الحشر جميع الكائنات

لا يكتفي القرآن الكريم بتقرير تلك الحقائق، وربطها بعالم الإنسان، بل إنه يشمل بها جميع الكائنات، ففي النشأة الأخرى يبعث كل شيء كان في النشأة الأولى، ولكن بصورة جديدة تتناسب مع طبيعته واختياراته المتاحة له.

وذكر هذا المقصد الدكتور نور الدين ابولحية في أسرار ما بعد الموت، من خلال الإشارة الى قوله تعالى عن عالم الحيوانات: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فهذه الآية الكريمة لا تكتفي بتقرير حقيقة تلك العوالم، وأنها أمم قائمة بذاتها، وإنما تضيف إليها كونها تحشر إلى الله تعالى، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

وهذا كله ينسجم مع الغائية التكاملية التي يسير بها الكون جميعاً، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٦، ١٧]، وهذا يعني أن كل شيء خُلق لغاية، ولم يُخلق عبثاً، وذلك ما ينفي عن البعث تلك الصورة البسيطة التي نتوهمه بها، والتي تجعله خاصاً بالإنسان، وإنما هو حركة تشمل كل شيء، ليصاغ من جديد وفق ما تقتضيه النشأة الثانية من قوانين[١].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى عندما ذكر أن أعمال الحيوانات أيضا تعرض في ذلك الموقف بعد بعثها، فقال: (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)[٢].

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٢٤٤.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٧.

حيث يُعَد هذا الحديث تصريحاً بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، وقال العلماء وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء والجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة، والجلحاء هي الجماء التي لا قرن لها(١).

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ كان جالساً، وشاتان تعتلفان، وفي نسخة (تقترنان)، فنطحت إحداهما الأخرى فأجهضتها، قال: فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: ما يُضحكك يا رسول الله؟ قال ﷺ: (عَجِبْتُ لَهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُقَادَنَّ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(٢).

وقول آخر له ﷺ: (يَقْتَصُّ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، حَتَّى لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، وَحَتَّى لِلذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّةِ)(٣).

كما ورد في الأثر عن أبي هريرة في قوله تعالى﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال: (يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائمَ والدوابَّ والطيرَ وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذَ للجمَّاء من القَرْناء)(٤).

المقصد الرابع: حاكمية الله تعالى في عرض الخلائق جميعاً عليه

وفي حشر الخلائق في ذلك اليوم، حيث يتم عرضهم على الله تعالى، فحسابهم جميعاً، من دون أن يشغله تعالى شأن عن شأن، أو سؤالٍ عن سؤال.

ورد هذا العرض في القرآن الكريم، ويُراد به البروز، قال ابن فارس: (العين والراء

---

(١) (يُنظَر) المنهاج: ١٦/ ١٣٦، ١٣٧.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥/ ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٣٦٣.

(٤) تفسير جامع البيان، الأثر: ١٣٢٢٢: ١١/ ٣٤٧، والمستدرك على الصحيحين: ٢/٣٤٥.

والضاد بناء تكثر فروعه، وهي مع كثرتها ترجع الى اصل واحد)[١]، يقال عرضت الشيء عرضاً وهو من باب ضرب، ويوم العرض يوم الدين[٢].

كما أشار الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) الى معنى العرْض بالإبراز والظهور، ويقال: عرض الجند: جعلهم يمرون عليه واحداً واحداً، وعرض له من حقه شيئاً: أعطاه إياه مكان حقه، وعرض القوم على النار: أحرقهم بها[٣].

أما في الاصطلاح فقد ذكر حافظ حكمي أنَّ العرض يقع في معنيين، هما:

الأول ـ معنى عام: وهو عرض الخلائق كلهم على ربهم عز وجل، بادية له عز وجل صفحاتهم، لا تخفى عليه تعالى منهم خافية، وهذا يدخل فيه من يناقش الحساب، ومن لا يحاسب.

والثاني ـ معنى خاص: وهو عرض معاصي المؤمنين عليهم، وتقريرهم بها، وسترها عليهم ومغفرتها لهم[٤].

وإن حاكمية الله تعالى على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثر في مسار هذه الدنيا وتقدمها نحو أهدافها، لذلك فقد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود الله وراء هذه الأسباب والعوامل، أمّا في ذلك اليوم الذي تتعطل فيه جميع الأسباب المؤدية لهذه الغفلات، فإنّ حكومة الله تعالى ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أي وقت سابق، ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ

(١) معجم مقاييس اللغة: ٢٦٩/٤.

(٢) (يُنظر) المصباح المنير: ٤٠٢/٢، ومعجم اللغة العربية المعاصرة: ١٤٨٣/٢.

(٣) (يُنظر) مفردات الفاظ القرآن الكريم: ٣٣٠، وأساس البلاغة: ٢٨٩.

(٤) (يُنظَر) معارج القبول: ٨١٥/٢.

المُلْكُ الْيَوْمَ للهِّ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٥، ١٦][(١)].

فيبرز جميع الخلْق ويُعرَضون على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، إذ بينت هذه الآية الكريمة الكيفية التي يعرض فيها الخلائق على ربهم، وقال جمهور المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ اي مصفوفين يُرى جماعتهم كما يرى كل واحد منهم منفرداً، لا يحجب أحدٌ أحداً، وقد شبه حالهم هذا بحال الجند المعروضين على السلطان ليأمر فيهم، أي احضروا محل حكمه وقضائه عز وجل مصطفين او مصفوفين.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٨]، وهو مجازٌ عن الحساب اي يومئذ تحاسبون، وهذا أيضاً تشبيهاً آخر بعرض السلطان العسكر ليعرف احوالهم فعُبِر عنه به[(٢)].

وهذا العرض لا يقتصر على العباد، بل إنه يشمل عرض أعمالهم عليه تعالى ومحاسبتهم عليها، فيدلَّ بذلك على مبدأ الترغيب والترهيب، يقول في ذلك الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ): (﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُّ عَمَلَكُمْ﴾[التوبة: ١٠٥]، فهو ترغيب عظيم للمطيعين، وترهيب عظيم للمذنبين، فكأنه تعالى قال: اجتهدوا في المستقبل، فإن لعملكم في الدنيا حكماً وفي الآخرة حكماً، أما حكمه في الدنيا فهو أنه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وإن كان معصية حصل منه الذم العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة، فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعاده)[(٣)].

---

(١) (يُنظَر) مجمع البيان: ٤/ ٧٨، وتفسير الأمثل: ٣٤١/٤، وأسرار ما بعد الموت: ٢٢٧.

(٢) (يُنظَر) الكشاف: ٧٢٦/٢، مدارك التنزيل: ٣٠٤/٢، روح المعاني: ٢٨٩/١٥، و٢٩/ ٤٦.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٤٩.

ويذكر الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في الميزان في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]، حيث أمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب منكري البعث بعد الموت بأنهم مبعوثون، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون مهانون أذلاء، وهذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة ونفوذ الإرادة من غير مهلة، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ فإن جميع الخلق جاؤا لله داخرين أي صاغرين ، فظاهرها عامٌ وليس فيه أي استثناء، حتى الأنبياء والأولياء يخضعون لله ويذعنون لمشيئته.

أما ما ورد من الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[النمل: ٨٧]، فإن هذا الاستثناء إنما هو من الفزع يومئذٍ، أما الصعق والموت عند النفخ في الصور فإنَّ الجميع يموتون ثم يبعثهم تعالى(١).

ويدل عليه ما روي عن ابي هريرة قال: (كنا مع النبي ﷺ في دعوةٍ فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس فقال: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ) الحديث(٢).

قال الكرماني (ت٧٨٦)(٣): (وقوله ﷺ (صعيد واحد) أي أرض واسعة مستوية، ويحيط بهم بصر الناظر فلا يخفى عليه منهم شيء لاستواء الارض وعدم الحجاب، واما

---

(١) (يُنظَر) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ١٣٠، و٨/ ١١٥، وتفسير الأمثل: ١٢/ ١٥١.

(٢) صحيح البخاري: ١٢١٥/٣.

(٣) محمد بن يوسف بن علي الكرماني، عالم بالحديث، له مصنفات منها [الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري]، وغيرها الكثير، تصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة وكان مقبلا على شأنه لا يتردد إلى أبناء الدنيا ملازما للعلم مع التواضع والبر، توفي سنة ٧٨٦. (يُنظَر) الدرر الكامنة: ٦٦/٦، ٦٧، والاعلام: ١٥٣/٧.

قوله (ويسمعهم) بضم الهاء من الاسماع[١]، وقال ابن حجر(ت٨٥٢هـ) نقلاً عن القرطبي (ت٧٥١هـ) رحمهما الله، والمعنى انهم يجمعون في مكان واحدٍ بحيث لا يخفى منهم أحد حتى إذا دعاهم داعٍ لَسمعوه ولو نظر إليهم ناظر لادركهم[٢].

فلا يخفى عليه تعالى في ذلك الموقف شأن عن شأن، ولا يشغلهُ أمرٌ عن آخر، يقول الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) : (والله تعالى يخاطب عباده من الأولين والآخرين بمجمل حساب عملهم مخاطبةً واحدة، يسمع منها كل واحدٍ منهم قضيته دون غيرها، ويظنُّ أنه المُخاطَب دون غيره، ولا تشغله تعالى مخاطبةً عن مخاطبة، ويفرغ تعالى من حساب الأولين والآخرين في مقدارِ ساعةٍ من ساعات الدنيا)[٣].

وقال العمادي (ت٩٨٢هـ)[٤]في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، اي الموصوفون بالظلم البالغ وهو الافتراء على الله تعالى، إذ يُعرضون هم واعمالهم على مالكهم والمتصرف في أمورهم، وعبر بعرضهم بتلك الحيثية لأنه عرض لأعمالهم لأن عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته[٥].

أما أهل الجنة فيهم فوصف حالهم النبي ﷺ في هذا العرض بما روي عن عبد الله بن مسعود عنه ﷺ: (أهلُ الجنَّةِ يَوم القِيامَةِ عِشرونَ ومِائَةُ صَفٍّ أنتم منها ثَمانونَ صَفًّا)[٦].

---

(١) (يُنظَر) الكواكب الدراري: ٢٣٣/١٣.

(٢) (يُنظَر) فتح الباري: ٤٤٧/١١، ٤٤٨.

(٣) الاعتقادات في دين الامامية: ٧٥.

(٤) محمد (ثم تحقق ان اسمه احمد) بن محيي الدين محمد العمادى، عالم في التفسير والعقائد والفقه، له مصنفات عدة، منها [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم]، و[بضاعة القاضى في الصكوك]، و[ثواقب الانظار في اوائل منار]، توفى رحمه الله سنة ٩٨٢هـ. (يُنظر) هدية العارفين: ٢/ ٢٥٣، ٢٥٤.

(٥) (يُنظَر) ارشاد العقل السليم: ١٩٦/٤، روح المعاني: ١٢/ ٣٠.

(٦) مسند الإمام أحمد: ١/ ٤٥٣.

ثانياً: المحكمة الإلهية

الحساب، الإشهاد، الموازين، والصراط

بعد عودة الموتى الى الحياة ونشرهم وحشرهم، وخلال ذلك الموقف الذي يقف الخَلق فيه بين يَدي الله تعالى وعرضهم عليه جميعاً، وإذ يرى كلاً منهم ما قدَّم وأخر في نشأته الأولى، حيث تُعَد هذه الأمور في عِداد الحجج التي تُقام يوم القيامة على الإنسان لتثبيت عمله من خيرٍ أو شر، والقضاء عليه بما ثبُت بالحجة القاطعة للعذر، والمنيرةِ للحق، ثم المجازاة بما يستوجبه القضاء من سعادةٍ او شقاء، وجنةٍ أو نار، وبه حكم هذه المحكمة التي تتحقق بقدرة الله تعالى وربوبيته على عباده، وهي التي تحدد للعباد مصيرهم من دخول الجنة أو النار(١).

ومن خلال هذه المحكمة تتحقق أمورٌ عدة قد أخبر بها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ومنها:

١ ـ إعطاء صحيفة عمل كل إنسانٍ بيده، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

٢ ـ مضافاً الى ما هو مندرج في صحيفة كل أحدٍ من الصغائر والكبائر، ثمَّة شهود من داخل الإنسان وخارجه تشهد يوم القيامة بأعماله التي عملها في العالم الدنيوي، فالشهود الذين من الخارج، هم الله تعالى ونبي كل امة، ونبينا محمد ﷺ والصفوة الأخيار، والشهداء والملائكة والأرض وغيرهم، أما الشهود من داخل الإنسان فهي جوارحه التي تشهد على ما أنكره من أعماله يوم القيامة.

٣ـ المواقف التي يمر بها الإنسان بعد عرض أعماله والشهود عليها، من وزن أعماله أو

---

(١) (يُنظَر) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٣٢٢.

صحفها، واثبات ثقلها من خفتها، وكذلك مرورهم على الصراط الذي يختلف سرعته وسيره عليه حسبما قدمه الإنسان في حياته من عبودية وطاعات لله تعالى، لينجو عباد الله تعالى منه الى جنات النعيم، أو يسقط والعياذ بالله تعالى المنكرين والمعاندين في دركات الجحيم.

وبناءً على ذلك، وبعد استقرائنا للنصوص الكريمة التي وردت في هذه المحاكمة، فقد وجدنا تقسيم مقاصدها الى فروعٍ أربع، وحسب المواقف التي يمر بها العباد، وهي:

١ـ الحساب

٢ـ الإشهاد يوم القيامة

٣ـ الموازين

٤ـ الصراط

١. الحساب

إن عَرض الاعمال ونشر الصُحف يوم القيامة، وتطايرها الى الأيمان والشمائل ثابتٌ في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والأنبياء كلُّهم متفقون على الإيمان بالآخرة ومبدأ الثواب والعقاب في مواقفها.

وبناءً على ذلك، فقد رأينا تصنيف مقاصد الحساب إلى أقسام أربعة، مسبوقةً بتمهيد في مفهوم الحساب، وكما يأتي:

المقصد الأول: إقامة الحجة على العباد بإعطائهم صحف أعمالهم قبل المحاسبة.

المقصد الثاني: مظاهر الجزاء الإلهي في تمييز المؤمنين عن الكافرين.

المقصد الثالث: مظاهر التكريم الإلهي في مَن لا يُحاسَبون.

المقصد الرابع: عدالة الله تعالى وإكرامه لمن يُحاسَبون.

تمهيد: مفهوم الحساب

الحساب في اللغة من (حَاسبه) محاسبة وحساباً، أي: ناقشه الْحساب وجازاه، وهو العَدُّ، والكثير الكافي، وفي التنزيل العزيز: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾[النبأ: ٣٦]، ويوم الحساب هو يوم القيامة[١].

أما اصطلاحاً فقد عرَّف الشيخ المُفيد (ت٤١٣هـ) الحساب بأنه: (موافقة العبد على ما أُمر به في دار الدنيا، وأنه يختص بأصحاب المعاصي من أهل الإيمان، وأما الكفار فحسابهم جزاؤهم بالاستحقاق، والمؤمنون الصالحون يوفون أُجورهم بغير حساب، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥])[٢].

وعرَّفه السفاريني(ت١١٨٨هـ) بأنه (توقيف الله تعالى عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيراً كانت أو شراً، تفصيلاً لا بالوزن، إلا من أُستثنى منهم)[٣].

وقوله: (لا بالوزن) يحتمل أنه يريد أن الله يحاسبهم ثم يزن أعمالهم، لا أنه يكتفي بالمحاسبة عن الوزن (إلا من استثنى منهم) فإنه لا يحاسبهم ولا يزن أعمالهم.

فهو تعريف الله ـ عزَّ وجل ـ الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة: ٦].

فإذا بعث الخَلق من قبورهم الى الموقف وقاموا فيه ما شاء تعالى على ما تقدم حفاة عراة وجاء وقت الحساب، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأوتوها،

---

(١) المعجم الوسيط: ١/ ١٧١.

(٢) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: ٨٩.

(٣) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٧٢.

فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره وهم الاشقياء.

ويقول الشيخ محمد جواد مُغنية (ت١٤٠٠هـ) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]: (قبل ان تذهب الملائكة بالمجرمين الى جهنم يحبسون للسؤال عما كانوا يعملون)[١]، ونقل الحديث المروي عن النبي ﷺ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)[٢].

كما صوَّر السفاريني اختلاف الأقوال في معنى محاسبته تعالى عباده على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعلمهم مالهم وما عليهم.

والثاني: ما نقل عن ابن عباس: ان الله تعالى يوقف عباده بين يديه ويؤتيهم أعمالهم فيها سيئاتهم وحسناتهم فيقول: هذه سيئاتكم وقد تجاوزت عنها، وهذه حسناتكم قد ضاعفتها لكم.

والثالث: أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم، وكيفية مالها من الثواب وما عليها من العقاب[٣].

وبناءاً على ذلك، ومن خلال استقرائنا لما ورد في هذا الحساب يوم القيامة سأذكر هنا المقاصد والمعاني المرتبطة ببعض أحداث ذلك اليوم، ومنها:

---

(١) تفسير الكاشف لمغنية: ٦/٣٣٤.

(٢) سنن الترمذي: ٤/٦١٢، و(يُنظَر) تفسير الكاشف للشيخ مغنية: ٦/٣٣٤.

(٣) (يُنظَر) لوامع الانوار البهية: ٢/١٧٢.

المقصد الأول: إقامة الحجة على العباد بإعطائهم صحف أعمالهم قبل المحاسبة

ورد ذكر صحف الأعمال[1] في الكتاب الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، وقد فسرها الطوسي(ت٤٦٠هـ) بقوله: (والصحف جمع صحيفة وهي الصحيفة التى فيها اعمال الخلق من طاعة ومعصية، فتنشر عليه ليقف كل انسان على ما يستحقه)[2]، وقال البغوي(ت٥١٦هـ): (يعني صحائف الأعمال تنتشر للحساب)[3].

وقال أبو الفضل الطبرسي(ت٥٤٨هـ) في تفسيرها: (صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها أعمال أهلها من خير وشر تنشر ليقرأها أصحابها ولتظهر الأعمال فيجازوا بحسبها)[4].

أما فخر الدين الرازي(ت٦٠٦هـ) فعرَّفها بقوله: (يريد ـ تعالى ـ صحف الأعمال تطوي صحيفة الإنسان عند موته، ثم تنشر إذا حوسب، ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها، أي فرقت بينهم)[5].

كذلك عرفها السفاريني (ت١١٨٨هـ) بأنها: (جمع صحيفة، وهي الكتب كتبتها الملائكة، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله في الدنيا القولية والفعلية، وقيل هي صحف تكتبها العباد في قبورها)[6].

ويبين الالوسي (ت١٢٧٠هـ) في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، (المراد من الكتاب كتب الأعمال فـ (أل) فيه

---

(١) ذكر العلماء الصحف في اللغة بأنها جمع صحيفة، وهو ما يكتب فيه من ورق او نحوه وفي التنزيل ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، والمراد بها صحف الاعمال. (يُنظَر) المصباح المنير: ٣٣٤/١، والمعجم الوسيط: ٥٠٨/١،

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٢٧٤.

(٣) معالم التنزيل: ٥/ ٢١٦.

(٤) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٢٤٩، و(يُنظَر) معالم التنزيل: ١٧٧/٥، الكشاف: ٧٢٦/٢.

(٥) مفاتيح الغيب: ٣١/ ٦٦.

(٦) لوامع الانوار البهية: ١٨٠/٢.

للاستغراق، ومن وضعه إما جعل كل كتاب في يد صاحبه اليمين أو الشمال وإما جعل كل في الميزان، وجوز أن يكون المراد جعل الملائكة تلك الكتب في البين ليحاسبوا المكلفين بما فيها، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد بالكتاب كتاباً واحداً بأن تجمع الملائكة عليهم السلام صحائف الاعمال كلها في كتاب واحد وتضعه في البين للمحاسبة)[١].

وما نستخلصه من تعاريف العلماء للصحف أنها تُعطى للعباد قبل محاسبتهم على أعمالهم. بل إن أساس محاسبتهم يكون بعد إن يروا أعمالهم جميعاً في هذه الصحف، فإذا وقف الناس على أعمالهم، من الصحف التي يؤتوها بعد البعث حوسبوا عليها.

وعليه، فإن الحق تبارك وتعالى يوقف عباده بين يديه ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها وأقوالهم التي قالوها وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر واستقامة وانحراف وطاعة وعصيان وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين وبشمالهم إن كانوا طالحين. ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده وما يقولونه له وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين وشهادة الشهود ووزن للأعمال[٢].

ويذكر العلَّامة الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في معرِض ذكره لهذه المسائل قوله: (إنه تعالى يعد في كلامه هذه الأمور في عِداد الحجج التي تُقام يوم القيامة على الإنسان لتثبيت ما عمله من خيرٍ أو شر، والقضاء عليه بما ثبُتَ بالحجة القاطعة للعذر والمنيرة للحق ثم المُجازاة عليها بما يستوجبه القضاء من سعادةٍ أو شقاء وجنةٍ أو نار، وهذا من أوضح ما يُستفاد من آيات القيامة الشارحة لشؤون هذا اليوم وما يواجه الناس منها)[٣].

فإذا تذكر العباد ما قدموه في حياتهم حين يؤتَوا كتبهم بأيمانهم أو شمائلهم ويحكموا بأنفسهم على أنفسهم فلا يكون لهم عذر فيما وجدوه من جزاء لأعمالهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ

---

(١) روح المعاني: ٨/ ٢٧٥، و(يُنظَر) تفسير جامع البيان: ١٨/٣٨.

(٢) (يُنظَر) التذكرة: ٢٥٥، ولقيامة الكبرى: ١٩٣، موسوعة الإعجاز: ١٤٠، الدر الثمين: ٧٢.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٣٢٢.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩][1].

ويُعَد هذا التقديم من كبريات مظاهر مقاصد العدالة الإلهية في الحساب؛ ذلك إن الإنسان مجبولٌ على النسيان فكيف الحال به وعِظَم ذلك الموقف وفزعه وهوله، حينما يبعث الله العباد من قبورهم فيخرجون وهم لا يذكرون شيئاً من أعمالهم التي قدموها في حياتهم الدنيا، كما ذكر الله ذلك عنهم في كتابه العزيز في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وما أسرع نسيان الإنسان لأعماله التي يعملها وهو غافل لا يدري أن هناك من يراقبه مراقبة دقيقة يسجل عليه كل ما يصدر عنه من قول أو فعل، ويدل على ذلك قول الطبري (ت٣١٠هـ) في معنى الآية: (يقول تعالى ذكره أحصى الله ما عملوا، فعدَّه عليهم، وأثبته وحفظه، ونسيه عاملوه، والله على كل شيء شهيد)[2].

المقصد الثاني: مظاهر عدالة الجزاء الإلهي في تمييز المؤمنين عن الكافرين

مما يحدث بعد إعطاء الصحف واستبشار المؤمنين، وندم وحسرة العصاة والكافرين، التمييز لكل فئةٍ عن الأُخرى بأمر الله تبارك وتعالى، المؤمنون في مكان، وغيرهم من الكفار والعُصاة كل فرقة في مكان، قال ابن كثير(ت٧٧٤هـ): (فإذا نصب كرسي فصل القضاء، إنماز الكافرون عن المؤمنين في الموقف إلى ناحية الشمال، وبقي المؤمنون عن يمين العرض، ومنهم من يكون بين يديه، قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩])[3]،

---

(١) (يُنظَر) القيامة الكبرى: ٢٠٦.

(٢) تفسير جامع البيان: ٢٨/ ١٢.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم: ٢/ ١١٠.

وقال الطبري (ت٣١٠هـ) في معناها: (أي تميزوا)[١].

فالثابت حسب ما أورده أكثر المفسرين هو تميز كل فريق عن الفريق الآخر، دون تحديد لجهتي اليمين والشمال، كما فسر الرازي(٦٠٦هـ) هذا التميز بقوله: (ثم بين أمراً آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَامْتَازُوا اليوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، فكأن هذه الحالة مترتبة على الإبلاس، فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير، وأعاد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تعالى تأكيداً للتخويف، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله)[٢].

كذلك يضيف ابن كثير(ت٧٧٤هـ) في قول الله تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، أي (الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين)[٣].

كذلك يدل عليه ما وردَ في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهَّ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، أي يصيرون فرقتين، فأهل الجنة يصيرون إلى الجنة وأهل النار يصيرون إلى النار[٤].

وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهَّ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢، ٢٣]، وهذه الآية فسرها بعضهم بأن كل صنف يتميز مع مثله، وقد جاء عن عمر بن الخطاب في قول الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ

---

(١) تفسير جامع البيان: ٢٣/ ٢٢.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٥/ ٨٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٦٤.

(٤) فتح القدير: ٤/ ٢٢٩.

﴾[الصافات: ٢٢]، قال: (أمثالهم، الذين هم مثلهم، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار)، وعن مجاهد قال: (أمثالهم، القتلة مع القتلة، والزناة مع الزناة، وأكلة الربا مع أكلة الربا)[١].

وخلاصة ما قيل عن تميز المؤمنين عن غيرهم، وتميز كل فرقة بمفردها والحكمة من ذلك: أن الله تعالى أمر بأن يتميز أهل محبته ورضوانه عن أهل عداوته وعصيانه، إلى حيث يشاء سبحانه وتعالى، كما أمر أن ينفرد أهل عصيانه عن أهل طاعته، ليكون لكل فرقة من الفرق موضع يليق بها، وليعرف كل فريق حاله.

كما أنه تعالى قد أكثر من ذكر هذا التميز والافتراق في القرآن الكريم، في مواضع كثيرة، بعبارات متنوعة، ودلالات مختلفة مصوراً هول ذلك، أو مخبراً عنه ومبشراً به، كل ذلك لزيادة العناية وللفت أنظار الناس إليه ليكونوا على بينة من أمرهم فيستعدوا له بالعمل الصالح إذ أنه من أهم الأمور التي تحدث في يوم القيامة، بل هو المراد ببعث الناس وقيامهم من قبورهم وفي الموقف، وبه يتميز الناس فيسعد من يسعد، ويشقى من يشقى، حينما يفصل الله بين خلقه في أكمل صور العدل وأجلها[٢].

المقصد الثالث: مقاصد التكريم الإلهي في من لا يُحاسبون

ويتجسد هذا المقصد بعد أن يتفرق المؤمنون عن المجرمين، فيصل أصحاب النفوس المطمئنة الى موقف البعث والحساب إذ يتفضل تعالى عليهم بالرحمة العظيمة، فيدخلهم جناته بغير حساب، ولا سابق عذاب، حيث تكون هذه أول بشاراتهم التي يتلقونها يوم القيامة.

فيكون هذا التكريم لفئة مميزة من المؤمنين المخلصين، يتميزون عن الخَلق حين يُحاسَب الناس على النقير والقطمير، إلا إنهم يُبشرون بجنانهم التي بها يُوعدون من دون هذا

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٧/ ٨٣، ٨٤.

(٢) (يُنظَر) الحياة الأخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار: ٢/ ٩١٣، و٢/ ٩٢٥.

الحساب، إذ أخبر عنهمﷺ أن أُناساً لا يُحاسَبون، وهم سبعون ألفاً من المؤمنين؛ إكراماً لهم كما جاء في حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ)، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: (مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟) فأخبروه، فقالﷺ: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فقام عكاشة بن محصن فقال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَﷺ: (أَنْتَ مِنْهُمْ)، ثم قام رجل آخر، فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)(١).

ومصداقه أيضاً ما رُويَ أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ اللهَ وَعَدَني أنْ يُدخِلَ مِن أُمَّتي الجنَّةَ سَبعينَ ألْفًا بغيرِ حِسابٍ)، فقال يزيد الأخنس: والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذبان، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ ربِّي قد وَعَدَني سَبعينَ ألْفًا، مع كلِّ ألْفٍ سَبعونَ ألْفًا، وزادني ثلاثَ حَثَياتٍ)(٢).

فهؤلاء يمثلون المقربين من أمته ﷺ فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام والشهداء، فقد نالوا هذا التكريم الإلهي العظيم كونهم الهداة والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والعمل الصالح والاستقامة على الدين الحق، يدخلون الجنة صفاً واحداً، لا يدخل أولهم حتى يدخل

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٩٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٢٥٠.

آخرهم، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، وهو ما يدلُّ عليه ما جاء في قوله ﷺ: (لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً، أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ مُتَمَاسِكُونَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ)[1]، وقد صحَّ أن الله تعالى أعطى رسوله ﷺ مع كل ألفٍ من السبعين هؤلاء سبعين ألفاً، كما جاء في قوله ﷺ: (وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ[2] مِنْ حَثَيَاتِهِ)[3].

ففي هذه الأحاديث وغيرها يتبين كرمه تعالى في عطائه الذي أعطاه لنبيه الكريم ﷺ والمخلصين من أمته، وزيادتهم منه تعالى فضلاً وشرفاً بأن يدخل هذا العدد (مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا) منهم بدون حساب، مع عدم الإحاطة بالعدد الذي تشمله (ثَلَاثُ حَثَيَاتٍ) من حثيات الرب العظيم الكريم، وهو تعالى أهل الجود والكرم.

وقال السفاريني (١١٨٨هـ): (ثبت في عدة أخبار عن النبي المختار ﷺ ـ ما كرَّ الليل على النهار ـ أن طائفة من هذه الأمة بلا ارتياب يدخلون الجنة بغير حساب، فيدخلون جنات النعيم قبل وضع الموازين، وأخذ الصحف بالشمال واليمين)[4].

كذلك الأنبياء عليهم السلام، فإنهم لا يُحاسَبون لثبوت عصمتهم عن الذنوب، وكونهم السبب الذي يبعثه تعالى لأجل هداية الناس.

ومع ذلك فإنه لم يتفق جميع العلماء على عدم حسابهم عليهم السلام، وسبب الخلاف فيهم هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِليهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]،

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٦.

(٢) (الحَثْيُ: مَا رفعت بِهِ يَديك، وَقد حَثَي عَلَيْهِ التُّرَاب حَثْياً... والحَثَا: التُّرَاب المِحثِيُّ أَو الحاثِي). المحكم والمحيط الأعظم: ٣/ ٤٣٢، وقال ابن حجر (من الحثي وهو الأخذ بالكفين)، و(الحثية ما يؤخذ باليدين جميعاً). فتح الباري: ٥/ ١٣٠.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٦٢٦.

(٤) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٧٧.

فإن هذه الآية تدل على أن الله يحاسب جميع البشر؛ الرسل والمرسل إليهم؛ لكننا لو بحثنا في المقصد من سؤال الأنبياء عليهم السلام حسب هذه الآية الكريمة، فنجده قد بينه الفخر الرازي(٦٠٦هـ) في إثباته أن السؤال يقع على الأنبياء والأمم أيضاً، بقوله:

(المسألة الثانية: الذين أرسل إليهم هم الأمة، والمرسلون هم الرسل، فبين تعالى أنه يسأل هذين الفريقين، قال: ونظير هذه الآية قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣].

فقال في معرض عدِّه للمسائل التي اشتملت عليها الآية: (الآية تدل على أنه تعالى يحاسب كل عباده؛ لأنهم لا يخرجون عن أن يكون رسلاً أو مرسلاً إليهم، ويبطل قول من يزعم أنه لا حساب على الأنبياء والكفار)(١).

وعلى هذا القول بأنهم يُسألون ـ ومعلوم أنه لا ذنوب لهم ليحاسبوا عليها ـ فما المقصود من وقوع السؤال عليهم؟

لَمَّا كان (سؤاله تعالى للمرسلين ليس بتوبيخ ولا تقريع لكنه توبيخ للكفار وتقريع لهم أيضاً)(٢).

وقد أجاب الرازي (ت٦٠٦هـ) عن ذلك بقوله: (فإن قيل: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؟ قلنا لأنهم إذا أثبتوا أنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؛ التحق التقصير بكليته بالأمة؛ فيضاعف إكرام الله في حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق الكفار لما ثبت أن كل التقصير كان منهم)(٣).

فالذي يظهر أن إطلاق القول بأن الأنبياء يُسألون؛ أن المقصود به مساءلتهم عن

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٠١.

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٣١٥، لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٧٥، (يُنظَر) فتح القدير: ٢/ ٢١٥.

(٣) تفسير مفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٠٠.

تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم، وهو مجرد مساءلة لزيادة إقامة الحجة على العصاة، وليست مساءلة مناقشة وتقريع، كما ظهر مما سبق.

أما إطلاق القول بأنهم لا يُسألون، فالمراد به ما تقدم من أنهم لا يسألون سؤال مناقشة واستظهار، وإذا كان قد ثبت أن طائفة من أتباع الأنبياء يدخلون الجنة بغير حساب، فكيف بالأنبياء الذين لهم المزية الأولى في كل تكريم؟

ويذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ) أن الله تعالى يسأل الأنبياء عن تبليغ أقوامهم رسالة الله تعالى، فقال: (فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته)[١].

وفي ذلك يقول النسفي فيما ينقله عنه السفاريني: (الأنبياء لا حساب عليهم، وكذلك أطفال المؤمنين، وكذلك العشرة المبشرة بالجنة، هذا في حساب المناقشة، وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب، ولهذا قال علماؤنا في عقائدهم: ويحاسب المسلمون المكلفون، إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب وكل مكلف مسؤول، ويسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل)[٢].

المقصد الرابع: عدالة الله تعالى وإكرامه لمن يحاسبون

إن من كبريات مقاصد الحساب والمساءلة يوم القيامة إظهار عدالته تعالى في حساب الناس وعدم ضياع الحقوق والمظالم بينهم؛ إذ يوفي الحق عز وجل عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة ولا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال لقمان في وصيته لابنه معرفاً

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٤٩.

(٢) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٧٥.

إياه بعدل الله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص ومثيلاتها أنه يوفي كل عبد عمله، وأنه لا يضيع منه ولا ينقص منه مقدار الذرة.

فالحساب والجزاء على الأعمال في ذلك اليوم يمثل قمة العدل الإلهي ومنتهاه إذ يُجازي تعالى العباد بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولا يحمل أحدٌ وزر غيره، قال تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥][1].

فلا يقتصر هذا الحساب على حقوق الله تعالى في العبادة والإيمان والطاعات، بل إنه يشتمل كذلك على حقوق العباد فيما بينهم، فضلاً عن العدل في القصاص يوم القيامة وتبادل الحسنات والسيئات يقول ﷺ: (مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ)[2].

يقول الشيخ الصدوق (٣٨١هـ): (يخرج الله تعالى لكل إنسان كتاباً يلقاه منشوراً، ينطق عليه بجميع أعماله، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، فيجعله الله تعالى حسيب نفسه والحاكم عليها، بأن يُقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[3].

لذلك، ذكر الشريف المرتضى (٤٣٦هـ) أصناف الحساب يوم القيامة بقوله: (وقد نطق القرآن الكريم بالمحاسبة، واجتمعت الأُمة على وقوعها، غير ان المسألة وإن كانت عامة

---

(١) (يُنظَر) القيامة الكبرى: ٢٠٤.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٤.

(٣) الإعتقادات في دين الإمامية: ٧٥.

فإنها مترتبة، فتكون للمؤمنين سهلة خفيفة لا إيلام فيها، وللكافر على سبيل المناقشة والتبكيت والتهجين، وقد فصَّل القرآن الكريم بتصريحه بين الحسابين)[1].

فالخَلْق يوم القيامة أصنافاً شتى، من هؤلاء مَن يُحاسب، ومنهم من لا يُحاسب، وهو ما ذكرناه في المقصد السابق، وقد أجمل القرطبي (ت٦٧١هـ) ذكر هذه الأصناف بالنسبة للحساب، فقسمهم إلى ثلاثة فرق، فقال: (فرقة: لا يحاسبون أصلاً، وفرقة: تحاسب حساباً يسيراً – وهما من المؤمنين ـ وفرقة: تحاسب حساباً شديداً، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله، فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله، فيدخله النار بغير حساب)[2].

أما من يُحاسَبون فلا ريب أن الله تعالى يحاسبهم محاسبة في منتهى العدالة الإلهية لمن توزن حسناته وسيئاته، وبالحساب يمتاز بعضهم على بعض بالدرجات؛ نتيجة لثقل موازينهم وخفتها، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الاسراء: ١٤].

كما رُويَ في الآية الكريمة إنَّ الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب فيقول: رب إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[3].

لذلك روى الطبري عن الحسن البصري أنه قال: (يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان احدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو اكثر،

---

(١) الذخيرة في علم الكلام: ٥٣١، و(ينظر) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٢٢١.

(٢) التذكرة: ٦٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢٣٢١/٧.

حتى إذا متّ طُويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاب يلقاه منشوراً ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك)[1].

٢ . الإشهاد

وإذ يرى العباد صحف أعمالهم قد أُحضرَت، ويرون المحكمة الإلهية قد أُعِدت لحسابهم وإذ تبلغ الأنفس غايتها من فزع يومئذ، ونظراً لحاجة أي محكمة الى الشهود برغم عدالة المحكمة الإلهية في الحساب، إلا أنه تعالى يأتي بالأشهاد على الخَلق الذين منهم مَن ينكرون ما قد عملوه في حياتهم الدنيا عند رؤيتهم لصحف أعمالهم التي قد قُدِّمت أمامهم.

ومن خلال استقرائنا للنصوص الكريمة في حضور الشهود يوم القيامة على الخَلق، فقد رأينا تقسيم المقاصد المتعلقة بها الى فروعٍ خمسة، مسبوقةً بتمهيد في مفهوم الأشهاد يوم القيامة وذكر أنواعهم، أما المقاصد، فهي:

المقصد الأول: اللطف الإلهي، ونجاة المؤمنين لاكتفائهم بشهادة الله تعالى على أعمالهم

المقصد الثاني: العدالة الإلهية في الاشهاد وإقامة الحجة على العباد

المقصد الثالث: القدرة الإلهية في شهادة الإنسان على نفسه ونطق جوارحه

المقصد الرابع: تكريم الأنبياء عليهم السلام بشهادتهم عامة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة

المقصد الخامس: تكريم أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالوسطية وعرض أعمالها عليه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) تفسير جامع البيان: ١٧/ ٤٠٠.

تمهيد: مفهوم الأشهاد

قال الفراهيدي: (الشهادة أن تقول: استشهد فلانٌ فهو شهيد، وقد شهِد على فلان بكذا شهادةً، وهو شاهدٌ وشهيد)[1].

والشهيد من أسماء الله تعالى الأمين في شهادته، وقيل الشهيد الذي لا يغيب عن علمه شيء، والشهيد: الحاضر. والجمع أشهادٌ وشهود)[2].

أما اصطلاحاً، فالشهادة: بيان الحق، سواء كان عليه أو على غيره، وخبر قاطع يختص بمعنى يتضمن ضرر غير المخبر فيخرج الإقرار، وقيل: إقرار مع العلم وثبات اليقين.

والأشهاد: جمع شهيد، كما الأشراف: جمع شريف[3]، وعرَّفهم السيد كمال الحيدري بقوله: (والمُراد منهم أولئك النفر أو الموجودات التي تشهد على أعمال الخلائق يوم القيامة حين تقوم المحكمة الإلهية ويؤتى بصحيفة الأعمال للإنسان، فهنا يؤتى بالأشهاد ليشهدوا على ما في صحيفة أعمال الإنسان، وليس المُراد بأعمال الخلائق الأعمال الظاهرية كالصلاة والصوم وغيرهما فقط، وإنما الأعم منها من الأعمال الجوانحية القلبية والاعتقادات)[4].

وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد هم الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]، ونبي كل أمة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[النحل: ٨٩]، ونبي الاسلام: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، والصفوة الأخيار من الأُمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والملائكة: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، والأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى

---

(١) العين: ٢/ ٣٦٣.

(٢) لسان العرب: ٣/ ٢٣٩، و(يُنظَر) الكليات: ٥٢٨.

(٣) (يُنظَر) الكليات: ٥٢٧، وتفسير جامع البيان: ٢١/ ٤٠٢.

(٤) المعاد ـ رؤية قرآنية: ٢/ ٨.

لَهَا﴾ [الزلزلة: الآيتين ٤، ٥]، ومن الشهود يومئذٍ أيضاً النفس والجوارح والأيام والليالي تشهد بما عمل فيها وعليها ويشهد المال على صاحبه، والأرض وكافة الجمادات، وبناءً على دور الأشهاد الكبير في الحساب، وأهميتهم في إقامة الحجة على العباد، فإن يوم القيامة يُنسَب إليهم، حيث قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

المقصد الأول: النجاة واللطف الإلهي للمؤمنين لاكتفائهم بشهادة الله تعالى

الشاهد الأوّل على سلوك الإنسان وعمله وتصرفاته هو اللهّ سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السموات، وهي أعظم الشهادات وأكبرها، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠]، والشهيد من أسماءه تعالى الحسنى، ويرجع معناه الى العليم مع خصوص إضافة؛ فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارة عمَّا بطن، والشهادة عبارة عمَّا ظهر، وهو الذي يشاهد جميع المخلوقات بأفعالها ونواياها، وهو الخبير العليم(١)، لذلك يكتفي المؤمنون يوم القيامة بهذه الشهادة، ولا يطلبون غيرها، ذلك أنهم مؤمنون بعلمه وخبرته بأحوالهم ونواياهم وكافة أعمالهم.

أما كيفية هذه الشهادة، فهي غيب محض، مثلما هو حال الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء عليهم السلام أو غيرهم، والذي يُنزَه عن التجسيم، مع كونه حقيقة نجهل كيفيتها، فالله تعالى يلهم من شاء كيف شاء متى شاء، ولذلك يشعر الشخص يومئذٍ بيقين ليس معه شك بأن الذي ألهمه ذلك الإلهام، أو حدَّثه ذلك الحديث، هو الله تعالى، وقد يُؤيَد ذلك الإلهام نفياً للشك، بما يدل عليه من الخوارق والمعجزات(٢).

ويدل على ذلك اللطف الإلهي في شهادته تعالى ما رُويَ عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر آخذٌ بيده إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) (يُنظَر) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ١١٢.

(٢) (ييُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣١٩

في النجوى؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللهَّ يُدْنِى الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَي رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهَّ عَلَى الظَّالِمِينَ)[1].

ومعنى قوله ﷺ (فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ) (بفتح أوله أي يستره فلا يفضحه)[2]، كما جاء (كنفه: فبنون مفتوحة وهو ستره وعفوه، والمراد بالدنو هنا دنو كرامة واحسان لا دنو مسافة والله تعالى منزه عن المسافة وقربها)[3].

كما يتجلى في وجود الاشهاد يوم القيامة مظاهر اسم الله تعالى الصبور، فبرغم علمه وخبرته بأعمال العباد، وبرغم الجحود الذي يستمر به المنكرون حتى في ذلك الموقف، إلا إنه تعالى لا يعجل فيعاقبهم قبل إقامة كافة الحجج عليهم، (فهو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة الى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدرٍ معلوم، ويجريها على سنن محدودة، لا يؤخرها عن آجالها المقدرة لها تأخير متكاسل، ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل، بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي، وكل ذلك من غير مقاساة داعٍ على مضادة الإرادة)[4].

وهو تعالى الحليم على عباده، في حياتهم الدنيا وكذلك في محاسبتهم؛ إذ يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يستفزه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة للانتقام ـ مع غاية الاقتدار ـ فكان حلمه عليهم في الآخرة كما كان حليماً عليهم في الدنيا،

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٨٦٢، وبلفظ مقارب في صحيح مسلم: ٤/ ٢١٢٠.

(٢) فتح الباري: ١/ ١٨١.

(٣) المنهاج: ١٧/ ٨٧.

(٤) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ١٣٣.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥][(١)].

وفضلاً عن هذا الصبر والحلم في المحكمة الإلهية، فإنه تعالى يهبهم الحرية الكاملة حتى في ذلك الموقف، لا سيَّما حين لا يقبل الطغاة والمجرمون شهادة الله نفسها، إذ لا يعاقبهم تعالى قبل أن يبين الحجة عليهم كما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ ضحك ذات يوم وتبسم، فلما سألوه عن ذلك، قال ﷺ: (مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ)[(٢)].

وقريب منها الرواية في جوابه ﷺ: (عجبتُ من مجادلةِ العبدُ ربَّه يومَ القيامةِ يقولُ: أي ربِّ، أليسَ وعدتَني أن لا تظلِمَني؟ قال: بلى قال: فإنِّي لا أقبلُ عليَّ شاهدًا إلَّا من نفسي قال: فيقولُ تباركَ وتعالى: أوليسَ كفاني شهيدًا وبالملائكةِ الكرامِ الكاتبينَ شهودًا؟ قال: فيُردِّدُ هذا الكلامَ مرارًا قال ﷺ: فيُختمُ على فيه وتتكلمُ أركانُه بما كان يعملُ فيقولُ: بُعدًا لكنَّ وسحقاً، عنكنَّ كنتُ أجادلُ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢][(٣)].

فقول المتهم في الآخرة: (أليسَ وعدتَني ألَّا تظلِمَني) يدل على الضمانات الكثيرة التي أخذها العباد لإقامة العدالة المطلقة في ذلك اليوم، وقوله: (عنكنَّ كنتُ أجادلُ) دليل على مدى الحرية التي أتيحت له للدفاع عن نفسه، وهذا الحديث وغيره يبين أن كل فترة البرزخ،

---

(١) (يُنظَر) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ٩٤.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٨٠.

(٣) البحر الزخار مسند البزار: ١٤/ ٤٤.

وأنواع العقوبات التي عوقب بها أولئك الطغاة المجرمون، وما بعدها من فترة المحشر، لم تكفِ في إصلاح نفوسهم المملوءة بالخصومة والجدل، ولذلك سرعان ما يعود لها طبعها إن أتيح لها ولو بصيصٍ من الحرية(١).

وعلى نقيض هؤلاء المعاندين، المؤمنون بالله تعالى، إذ يكتفون بشهادة الله، وتبشرهم الملائكة من الشهداء لما أحصوه عليهم من أعمال، ذلك أنها ستحضر يوم القيامة مع تلك الكتب لتكون شاهدة لهم على ما فيها، فضلاً عن حضور غيرهم من الملائكة الذين وُكلوا بالاهتمام بشؤون أخرى كمجالس الذكر والعلم، كما ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: (لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)(٢)، كما وروي أنه بينما كان رسول الله ﷺ يصلي، وعند رفع رأسه من الركوع، وقوله: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: (ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه)، فلما انصرف قال ﷺ: من المتكلم؟ فقال الرجل: أنا، فقال ﷺ: (رأيتُ بضعةً وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيُّهم يكتُبُها أولُ)(٣).

وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تثبت الحضور الدائم للملائكة عليهم السلام في كل شؤون الإنسان، كالملائكة الموكلين بيوم الجمعة، أو الموكلين بطلبة العلم، أو الملائكة الموكلين بتبليغ السلام لرسول الله ﷺ، أو الملائكة المنتشرين في كل محل، ولذلك تتاح لهم يوم القيامة الفرصة للشهادة، مثل غيرهم من الشهود، لأن العبرة في الشهود تكون بعدالتهم وصدقهم، بالإضافة إلى حضورهم أو شهودهم وعلمهم لما يريدون الشهادة فيه(٤).

وبذلك فإن من كُبرى المقاصد التي نستقرؤها من مواطن شهادة الله تعالى يوم القيامة

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣١٧.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٧٤.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٢٧٥.

(٤) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣٣٧.

هي عظيم لطفه ورأفته ورحمته تعالى بصبره وحلمه على العباد، وتبشيرهم بنجاتهم من العذاب يومئذٍ لاكتفائهم بها وعدم إنكارهم لها، فضلاً عن تبشيرهم بما قدموه من أعمالٍ صالحة لما أحصته عليهم الملائكة ﷺ، وهذا بخلاف من أنكر ما قام به من أعمالٍ طالحة واستحق بذلك شهادة الشهداء بل وحتى شهادة نفس جوارحه عليه.

المقصد الثاني: القدرة والعدالة الإلهية في شهادة الإنسان ونطق جوارحه

من المقاصد الظاهرة لقدرة الله تعالى المطلقة في ذلك الموقف وأهواله، واستكمالاً لمقاصد إقامة الحجة على العباد، نطق الجوارح بعد انكار العصاة لشهادة الله تعالى والأنبياء والملائكة على ما فعلوه من المحرمات، وشهادة كل ما يحيط بالإنسان على ما قام به من أعمال، واعترافها عليه، وفي حال إنكاره لهذه الأعمال التي عُرِضَت عليه إذ يفاجأه تعالى بشهادة جوارحه عليه بالحق.

فجوارح الإنسان[١] تشهد عليه في ذلك الموقف، وينطقها تعالى بعظيم قدرته بجميع ما أنكره عند محاسبته، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فبين تعالى حال الكافرين حين يُنطِق الله تعالى غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم وتشهد عليهم، وذلك في قدرته تعالى يسير، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدي والأبصار[٢].

يقول الشيخ الطوسي(ت٤٦٠هـ) في التبيان (أخبر تعالى بأنه يختم على افواه الكفار يوم القيامة فلا يقدرون على الكلام والنطق ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾، كما قيل: في

---

(١) جوارح الإنسان، عوامل جسده، من يديه ورجليه، الواحدة (جارحة)، واجترح عملاً: أي: اكتسَبَ، قال النابغة الذبياني:

وكُلُّ فتىً بما عمِلت يداهُ   وما اجترحت عوامِلُهُ رهينُ

وفي الاصطلاح: العضو العامل من أعضاء الجسد كاليد والرجل... (يُنظَر) المعجم الوسيط: ١١٥.

(٢) (يُنظَر) التفسير الكبير: ١٠١/٢٦.

معنى شهادة الأيدي قولان:

احدهما ـ إن الله تعالى يخلقها خلقة يمكنها أن تتكلم وتنطق وتعترف بذنوبها.

والثاني ـ إنه يجعل الله فيها كلاماً ونسبه اليها لما ظهر من جهتها.

وقال قوم: انه يظهر فيها من الأمارات ما تدل على ان اصحابها عصوا وجنوا بها أقبح الجنايات فسمى ذلك شهادة)[1].

ففي الوجه الأول من المجازما في الوجه الثاني؛ لأن الأول يقتضي أن اليد والرجل خرجت من كونها يداً ورجلاً إذا بُنيت بنية حيٍّ منفصل، والظاهر إضافة الشاهد الى الجوارح، كما قيل: إن الشهادة وقعت من العاصي نفسه، وأحوج الى أن يشهد بما فعل ويُقَرُّ به، وبنى الله تعالى جوارحه بنية يمكن أن يستعمل في الكلام، ويكون آلة فيه[2].

ويقول الآلوسي (ت١٢٧٩هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾، إن نسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال حتى أنها كثُر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، الى غير ذلك ولا كذلك الأرجل، فكانت الشهادة أنسب بها لما أنها لم تضف إليها الأعمال فكانت كالأجنبية، وكان التكليم أنسب بالأيدي لكثرة مباشرتها الأعمال وإضافتها إليها فكأنها هي العاملة، هذا مع ما في جمع التكليم مع الختم على الأفواه المراد منه المنع من التكلم من الحسن.

وليس في ذلك ما يدلُّ على أن الأيدي والأرجل فقط من يشهد على الإنسان أو على الحصر ونفي شهادة غير ما ذكر من الأعضاء؛ إذ يجوز أن يكون هناك شهادة السمع

---

(١) التبيان في تفسير القرآن: ٨/ ٤٥٧.

(٢) (يُنظَر) الذخيرة في علم الكلام: ٥٣١، وتفسير الشريف المرتضى المسمى ـ نفائس التأويل: ١٣٩/٣.

والأبصار والألسنة والأيدي والأرجل وسائر الأعضاء كما يشعر بهذا ظاهر قوله تعالى والجلود في آية السجدة، لكن لم يذكر بعض من ذلك في بعض من الآيات اكتفاء بذكره في البعض الآخر منها أو دلالته عليه بوجه(١).

ولا منافاة بينهما وبين السمع والأبصار والجلود التي ذُكِرت في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، والتي أشار اليها الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) في تفسيره للآية الكريمة بأنها أنزِلَت في قومٍ يُعرَض عليهم أعمالهم فينكرونها، فيقولون ما عملنا منها شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم، فيقولون لله يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئاً، وهو قول الله سبحانه: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، فعند ذلك يختم الله سبحانه على السنتهم وينطق جوارحهم(٢).

وهذا مما لا يعجز عنه تعالى لقدرته المطلقة وما وعد به عباده من عدله، ليميز الخبيث من الطيب، ويميز صادق الايمان من المنافق، حيث يختم الله تعالى على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم وجميع جوارحهم بما كانوا يعملون، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢١، ٢٢](٣).

ذلك أن مَن غلب على طبعه المحاججة والجدال والإصرار على المعصية حتى في ذلك الموقف يستمر في مجادلته وإنكاره، ويدلُّ عليه أيضاً ما رواه أبو سعيد الخدري أن رسول الله

---

(١) روح المعاني: ٤٢/١٢.

(٢) (يُنظر) تفسير القمي: ٢٦٤/٢، والعقائد الحقة: ١٣١٩هـ - ١٩٩٩م: ٤٣٧.

(٣) الإعتقادات في دين الإمامية: ٧٥.

ﷺ قال: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُيِّرَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَجَحَدَ وَخَاصَمَ، فَيُقَالُ لَهُ: جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: أَهْلُكُ، وَعَشِيرَتُكَ؟ فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: احْلِفُوا، فَيَحْلِفُونَ، ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللهُ وَيشْهَدُ عَلَيهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ، فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ)(١).

كما ورد في الحديث ما يشير إلى أن هذا الصنف أيضاً، ونتيجة ما يرونه من مظاهر العدالة المطلقة، يحاولون أن يحتالوا على قلب الحقائق في الدنيا، وخداع الخلق بها، فلذلك تبقى هذه الحجج في أيديهم يوم القيامة، ويتصورون أنهم سيخادعون الله كما خادعوا الخلق،، قال ﷺ في حديث القيامة الطويل: (ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ)(٢).

المقصد الثالث: تكريم الأنبياء عليهم السلام بشهادتهم عامة والنبي ﷺ خاصة

ونستنبط هذا المقصد من خلال ما ورد في شهادته ﷺ وشهادة الانبياء عليهم السلام في ذلك الموقف، فمن تجليات التكريم للأنبياء عليهم السلام، إذ يشهد كلُّ نبي على أمته، ومع علم الله تعالى المُطلَق بكل شيء، إلا إنهم عليهم السلام من أوائل الشهداء بعد الله تعالى؛ تكريماً لهم، وتذكيراً بفضلهم على أممهم، وبيان لمظلوميتهم فيما وقع عليهم من صدود أقوامهم المنكرين لما جاءوا به، كما أن لها من الآثار الكبيرة في الترغيب في الاستجابة لكل ما دعَوا إليه والبعد عما أمروا بالانتهاء عنه.

كما أن هذه الشهادة من الدلائل على أن أصول دعوتهم عليهم السلام واحدة ومستمرة الى يوم

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٦٤٨.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٧٩.

القيامة، ولا يخفى ما فيها من العلم بأن الإنسان سيُذّكّر يومئذٍ بمدى استجابته لما جاء به رسل الله تعالى، من العمل بالأوامر الإلهية والنهي عمَّا نُهيَ عنه.

لأجل ذلك فإن أول من يشهد على الأمم رسلها، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ، يقول الطبري (ت٣١٠هـ): (يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة رسلها بالشهادة بأن الرسل قد بلغتهم رسالات ربهم، وأن الأمم كذّبتهم)(١).

ومما ورد في هذه الشهادة قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ [النحل: ٨٩]، ويبين الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في صفة هؤلاء الشهداء على الأمم بقوله: (وكيف كان فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يدل على بعث واحدٍ في كل امة للشهادة على أعمال غيره، وهو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب، بل بعث بعد البعث، وإنما جُعِلَ من أنفسهم ليكون أتمَّ للحجة وأقطعَ للمعذرة كما يفيده السياق)(٢).

لذلك يكون التكريم الإلهي أيضاً لمن استجاب لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فضلاً عن وقوع الحجةَ على العباد من عامة المكلفين، إذ يقول الرازي (ت٦٠٦هـ) في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ (اعلم أن هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصي، إذا ثبت هذا فنقول في الآية قولان:

الأول: أن المراد أن كل نبي شاهد على أمته.

والثاني: أن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا فلا بد وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيداً عليهم، أما الشهيد على الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ فهو الرسول بدليل قوله تعالى:

---

(١) تفسير جامع البيان: ٢١/ ٤٠٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٣٢٢.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وثبت أيضاً أنه لابد في كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد فحصل من هذا أن عصراً من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، وذلك الشهيد لابد وأن يكون غير جائز الخطأ، وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ويمتد ذلك إلى غير النهاية وذلك باطل)[١]، ومن هذا الباب كان النبي ﷺ شاهداً على أمته.

كذلك فمع شهادة النبي ﷺ على أمته فإنه شهيدٌ على غيره من الشهداء، إذ وردَ أن المراد من قوله تعالى ﴿هؤُلاءِ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾، قولين، ذكرهما العلّامة الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في الميزان، وجعفر السبحاني في مفاهيم القرآن، هما:

الأول: أنه ﷺ شاهد على الشهداء من الأنبياء والشهداء الآخرين دون عامة الناس، فالشهداء شهداء على الناس، والنبي ﷺ شهيدٌ على الشهداء، وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله، فهو ﷺ شهيدٌ على مقامهم لا على أعمالهم؛ ولذلك لم يكن من الواجب أن يعاصرهم ويتحد بهم زماناً.

والثاني: أنهم أمته ﷺ، وهم قاطبة من بُعِث إليه من لدُن عصره الى يوم القيامة ممن حضره ومَن غاب عنه ومَن عاصروه ومن جاء بعده ﷺ من الناس[٢].

والذي يترجح من هذين القولين هو القول الأول بأنه شهيدٌ على الأنبياء والرسل الذين هم شهداء على أممهم، ويدل عليه ما جاء في الخبر عن الامام علي عليه السلام بقوله: (يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق فلا يتكلم أحد الا من أذِن له الرحمن وقال صواباً، فيقام الرسل فيسأل فذلك قوله لمحمد ﷺ: ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بشَهِيدٍ

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٠/ ٢٥٧.

(٢) (يُنظَر) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٣٣٢٢ - ٣٢٤، ومفاهيم القرآن: ٨/ ٢٦٢.

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل عليهم السلام)[١].

وقد وردَ عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: (يُدعى نوحٌ يومَ القيامةِ فيقولُ: لبَّيْكَ وسَعْديك يا ربِّ فيقولُ: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نَعم يا ربِّ فيُقالُ لأمَّتِه: هل بلَّغكم؟ فيقولونَ: ما أتانا مِن نذيرٍ فيقولُ: مَن يشهَدُ لك؟ فيقولُ: محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وأمَّتُه، قال صلى الله عليه وآله: فيشهَدونَ أنَّه قد بلَّغ ويكونُ الرَّسولُ عليهم شهيدًا، فذلك قولُه جلَّ ذكرهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوَسَطُ: العدْل)[٢].

المقصد الرابع: إقامة الحجة على العباد بكثرة الأشهاد وتنوعهم

كما أن عِلم العباد بهذه الشهادة في ذلك اليوم، والتي تنطلق من جميع ما في الكون ابتداءً من شهادته تعالى وجميع ما يحيط بالإنسان حتى جوارحه، فيه من إلقاء الحجة على هذا الإنسان وجعله مراقباً لما يصدر عنه من أعمالٍ وتصرفات، زاجراً عن نفسه المعاصي وأسبابها في جميع الأوقات.

فكما أن الله تعالى أول الشهود، وكذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام شهوداً على أممهم، فإنه تعالى سخَّر الملائكة التي تسجل على الإنسان جميع أفعاله، مما يجعل العبد المؤمن مراقباً لأعماله ونواياه، دقيقها وعظيمها، حيث وكَّلهم تعالى بكتابة أعمال الإنسان، والشهادة عليها في ذلك اليوم، وقد قال تعالى فيهم ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، ويقول الامام علي عليه السلام: (و﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق يسوقها إلى محشرها، وشاهد يشهد عليها بعملها)[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٧/ ٣١٣، وتفسير العياشي: ١/ ٢٥٨.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٦٣٢.

(٣) نهج البلاغة: ١/ ١٣٦.

ويقول السيد محمد الحسيني الطهراني (١٤١٦هـ)(١) في معرفة المعاد: (كلّ نفس معها سائق وشهيد، سائق تتحرّك النفوس إلى ذلك العالم على ضوء حركته وهديه، وشهيد لم يطّلع على جميع أعمالها وأفكارها فحسب، بل دوّن كذلك تلك الأعمال وذلك السلوك، وحفظ في ذاته وكيانه حقيقة العمل وهيئته بصورة كاملة، من أجل أن يأتي في مثل هذا اليوم فيؤدّي شهادته بشأنها)(٢).

كذلك أشار إلى هذه الشهادة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِراماً كاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠ ـ ١٢]، حيث ورد في الآيات الكريمة الصفات التي يحملها الملائكة الشاهدون على أعمال الإنسان، والتي يذكرها محمد الطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) بقوله: (ولحافظين صفة لمحذوف تقديره: لملائكة حافظين، أي محصين غير مضيعين لشيء من أعمالكم، وجمع الملائكة باعتبار التوزيع على الناس: وإنما لكل أحد ملكان)(٣).

كما إن البقاع والأرضين وما فيها تشهد يوم القيامة، بما عملوا فيها، والعقل السليم الصحيح مؤيداً لهذا المُدعى؛ ذلك إن حقيقة هذه المخلوقات ليست جماداً لا يعقِلُ ولا ينطق، فما كان جماداً كيف أخبر تعالى بأنه يعبده ويسبحه، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) السيد محمّد حسين الحسيني الطهراني عارف وفيلسوف وفقيه شيعي، ينحدر من أسرة علميّة عريقة، كان له تأثير كبير في نشر المعارف والعلوم الإسلامية، يعدّ من التلامذة الخاصّين والمقرّبين من العلامة الطباطبائي، ألّف العديد من الكتب التي لم يكن لها نظير، منها [معرفة المعاد]،، و[نور ملكوت القرآن]، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤١٦هـ. (يُنظر) كتابه الشمس الساطعة، وموقع أبجد على الرابط: https://www.abjjad.com/author/.

(٢) معرفة المعاد: ٧/١١٢.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ١٧٩.

فيتبين ذلك في تفسير الآية الكريمة، فـ (لفظ الـ ﴿شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، أي كُلَّما يُطلَق عليه شيء، من أي مرتبةٍ كان فهو يسَبِّح. وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أوضح شاهد على أن هذا التسبيح، هو تسبيح تشريعي تكليفي، وتسبيح خاص، بشعور وإخلاص، ولكن لا يفقهونه)[1].

وغيرها الآيات الكريمة والأخبار الصحيحة في عبادة وشعور ونطق ما نراه من الجمادات على الأرض من الجبال والبحار والنباتات وغيرها، وجميعها ستشهد يوم القيامة، فالأرض التي نراها جماداً لا ينطق لا حياة فيها ستشهد يوم القيامة على هذا الإنسان بما قام به من خيرٍ أو شر، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ـ ٥].

وقد روي أن رسول الله ﷺ قرأ قوله تعالى:﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، ثم قال ﷺ: (أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلْتَ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا)، قَالَ: (فَهُوَ أَخْبَارُهَا)[2].

وفي حديث آخر بيَّن ﷺ شهادة كل ما على هذه الأرض يوم القيامة، إذ يقول ﷺ في فضل الآذان لشهادة كل من يسمعه من شجر وحجر، فقال: (لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ، جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ)[3].

ويقول الدكتور نور الدين أبولحية في هذه الشهادة: (وهذا ينطلق من الرؤية الإسلامية للأرض، بل للكون جميعاً، فليس هناك شيء جامد في الكون، بل كل شيء يحمل نوعاً من

---

(١) شرح اصول العقائد: ٣/ ٣٣٦.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٦١٩.

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٤٣، وبحار الأنوار: ٦٠/ ٢٩٨

الحياة التي تتيح له التعرف على الله في حدود القابلية المتاحة له، ولذلك يسبحه ويحمده ويمجده، بل يستشعره من المشاعر ما يشعر به الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِّ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ [الحشر: ٢١])[١].

فإدراك المؤمن بأن هذه الأرض التي يعيش فيها، والتي لم يسمع حديثها، أو لم يخطر على باله أنها تتحدث، ستتحدث يوما ما لتخبره بكل حركة قام بها على ظهرها، يجعله محتاطا متأدباً متواضعاً، فهو لا يركب جماداً لا يعقل، بل هو يمتطي كائنا حياً له وعيه ومشاعره[٢].

المقصد الخامس: تكريم أمة النبي محمد ﷺ بالوسطية وعرض أعمالها عليه

ومما يُستَنبَط من مقاصد الشهادة يوم القيامة تكريم أمة نبينا محمد ﷺ، بشهادتهم للأمم كافة، وهم عدولها، يقول محمد رشيد رضا (ت١٢٨٢هـ) في الشهداء على الأمم من الأنبياء (فكما ثبت أن كل رسول يشهد على أمته وثبت أن أمة محمد ﷺ شهداء على جملة من الأمم بعده ـ ثبت أيضاً أن في الأمم شهداء غير الأنبياء. وهؤلاء الشهداء هم حجة الله على الناس في كل زمان بفضائلهم واستقامتهم على الحق، والتزامهم للخير وأعمال البر ولولاهم لفقدت القدوة الصالحة)[٣].

فضلاً عن هذه الشهادة لعدول الأمة فقد وصفها تعالى بالوسط بين الأمم، وقد رُوي قوله ﷺ: (يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُدْعَى وَأُمَّتُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٣٣٩.

(٢) أكوان الله: ٣١.

(٣) تفسير المنار: ٨/ ٣٨٥.

بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نعم، فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جاءنا نبينا، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: (يَقُولُ: عَدْلًا)، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

فهذه الشهادة ليست عامة لجميع أفراد الأمة بل إنها تُتاح لمن ارتضى لهم الله تعالى ذلك، ويقول فيها الإمام الصادق عليه السلام: (فإن ظننت انّ الله عنىٰ بهذه الآية جميعَ أهل القبلة من الموحدين، أفَترىٰ أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا علىٰ صاع من تمر، يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأُمم الماضية؟! كلا لم يعنِ الله مثل هذا في خلقه، يعني الامة التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهم الامة الوسطى وهم خير امة أخرجت للناس)[2].

أي إن هذه الشهادة لا تنالها جميع الأمة؛ إذ إنها ليست على مستو واحد جامع للكمال الروحاني والجسماني، فهي ليست إلا كرامة خاصة للأولياء الطاهرين منهم، والمؤمنين المخلصين، أما مَن دونهم من المتوسطين في السعادة والعدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك، فضلاً عن الأجلاف الجافية والفراعين الطاغية من الامة[3].

كما أنَّ من وجوه التكريم لأمة النبي صلى الله عليه وآله شهادته عليهم يوم القيامة وعلمه بأحوالهم وأعمالهم، يقول العلّامة السبحاني في ذلك: (والمراد شهادته على أعمال أُمّته من خير وشر وصلاح وفساد، وأداء الشهادة فرع تحمّلها، ولا يتحمله إنسان إلاّ بعد العلم بظواهر أعمالهم وبواطنها، وخير نياتهم وشرّها، وهذا يدل على سعة علم النبي صلى الله عليه وآله بالظواهر والبواطن، والحقائق والدقائق)[4].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٥٨.

(٢) بحار الأنوار، ح٥٨: ٢٣/ ٣٥٠، البرهان في تفسير القرآن: ١/ ٣٤٦.

(٣) (يُنظَر) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٣١٧، والإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل: ٢٥٨.

(٤) مفاهيم القرآن: ٨/ ٢٦٣.

وتدل هذه الشهادة على علاقة رسول الله ﷺ بأمته، ومعرفته بها، وتواصله معها، واطلاعه على أعمالها، لأنه لا يمكن أن يكون شهيداً عليها من دون أن يتاح له ذلك الاطلاع، وقد ورد في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ)، قلت يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال (فإِنِّي أُحِبُّ أنْ أسْمعهُ مِن غيرِي)، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكيفَ إذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قالﷺ: (كُفَّ أو أَمْسِك)، فرأيتُ عينيه تذرفان[١].

أما سبب بكاؤه ﷺ عند سماعه للآية الكريمة فـ (لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته ﷺ لأمته بتصديقه والإيمان به، وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن)[٢].

فبكاؤه عليه ﷺ رحمة لأمته؛ لأنه علم أنه لا بدّ أن يشهد عليهم بعملهم، وقد علِم ﷺ أنّ عملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلى تعذيبهم[٣].

ولعل مما يدلُّ على علمه ﷺ بأعمال أمته بعد موته، لقوله ﷺ: (إِنَّ للهَّ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ)[٤]، وقال ﷺ: (حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَيُحَدَّثُ لَكُمْ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ يُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْ خَيْرٍ حَمِدْتُ اللهَّ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ اللهَّ لَكُمْ)[٥].

ويؤكد هذا الفهم ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، من تفسير العرض بذلك، فقد قال عليه السلام: (تعرض الأعمال على رسول الله ﷺ، أعمال العباد كل صباح، أبرارها وفجّارها،

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٩٢٧.

(٢) شرح صحيح البخارى: ١٠/ ٢٨١.

(٣) (يُنظَر) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ٧/ ٤٨٥.

(٤) مسند الإمام أحمد: ١/ ٣٨٧.

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار: ١/ ٣٩٥.

فاحذروها، وهو قول الله عزوجل ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥][1].

كما أن في هذا المقصد من وجوب استمرار الدعوة الى الإسلام وكافة قيمه العليا؛ ليقوم ذلك مقامَ استمرار دعوة الرسول الكريم ﷺ إياهم، كي تقِرَ عينه بهذه الدعوة من جهة، وكي تتم الحجةَ والشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين، وهو جزء من الأمانة المنوطة بالمسلمين كافة، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣. الموازين

بعد أن ينقضي عَرض الأعمال، ويُعطى العباد كتبهم في أيمانهم أو شمائلهم، ويحضر الشهود لينظر العصاة ما عملوه بأنفسهم، يأذن الله تعالى بإقامة الموازين التي من خلالها يعرف الخلق درجات أعمالهم، والجزاء الذي يستحقونه عليها.

قال القرطبي (ت٦٧١هـ): (إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها)[2]، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وبناء على هذا، كان الميزان من العقائد المتفق عليها بين جميع المسلمين، ولم يختلفوا إلا في بعض الفروع البسيطة التي سنعرض لأسبابها في تمهيد هذا المطلب، ومن خلال استقرائنا لما ورد في النصوص الكريمة، وكلام العلماء حول هذا الميزان، رأينا أنه يمكن تصنيف مقاصده وحكمه إلى فروعٍ أربعة، هي:

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٣٢٤، و(يُنظَر) عمدة القاري: ٢٠/ ٦٠

(٢) التذكرة: ٧١٥، ولوامع الانوار البهية: ٢/١٨٤.

المقصد الأول: دور الموازين المتجسدة في بيان دقة العدالة الإلهية.

المقصد الثاني: دور الميزان في بيان حقائق الأعمال ومنزلتها.

المقصد الثالث: دور الميزان في بيان حقيقة العامل ومنزلته.

المقصد الرابع: إقامة الحجة على الخلق برؤية أعمالهم وموازينها.

وقد قدمنا لذلك بتمهيد في مفهوم الميزان لغة واصطلاحاً، والأقوال فيه.

تمهيد: مفهوم الميزان وصفته

مفهوم الميزان

يعرَّف الميزان في اللغة: من (الوَزْن)، والوزن معروف: وهو ثقل شيء بشيء مثله كأوزان الدراهم، ويُقال وَزَنَ الشيء إذا قدَّرَهُ، ووزنتُ الشيء فاتَّزن، وَزَنَ يَزِنُ وَزْناً، والميزان: ما وزنتُ بهِ.

ويقال للآلة التي يوزن بها الأشياء ميزان أيضاً؛ قال الجوهري: أصله (مِوْزانٌ)، انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها وجمعه (موازين) وجائز أن نقول للميزان الواحد بأوزانه موازين[1].

واصطلاحاً، الميزان: هو موازنة الحسنات والسيئات بعلامات يراها الناس يوم القيامة[2].

ويذهب المفيد (ت٤١٣هـ) الى (أن الميزان هو التعديل بين الأعمال والمستحق عليها)[3].

وقال الطوسي(ت٤٦٠هـ): (الميزان آلة التعديل في النقصان والرجحان، والوزن يعدل في ذلك، ولولا الميزان لتعذر الوصول إلى كثير من الحقوق، فلذلك نبه على النعمة فيه والهداية اليه)[4].

---

(١) (يُنظَر) العين: ٤/٣٦٨، ولسان العرب: ١٣/٤٤٦، وأقرب الموارد في فصح العربية والشوارد: ٢/١٤٤٩.

(٢) (يُنظَر) النكت والعيون: ٢/٢٠١، والتبيان في تفسير القرآن: ٤ / ٣٥٢.

(٣) اوائل المقالات في المذاهب والمختارات: ٨٩، وبحار الانوار: ٧/٢٥٢.

(٤) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٤٥٢.

ويقول التفتازاني (ت٧٩١هـ): (ذهب أكثر المفسرين إلى أنه ميزانٌ له كفتان ولسان وساقان، عملاً بالحقيقة لإمكانها، وقد وردَ في الحديث تفسيره بذلك)[١].

ويقول عبد الله شبر (١٢٤٢هـ) في حق اليقين: (أصل الميزان مما لا شكَّ فيه ولا شبهة تعتريه، وإنكاره كفر، وإنما الخلاف في معناها، فالذي عليه أكثر المفسرين والمتكلمين من العامة والخاصة الحمل على ظاهرها، وأنَّ الله تعالى في القيامة ينصب ميزاناً له لسان وكفتان فتوزَن به أعمال العباد الحسنات والسيئات)[٢].

ومن خلال هذه الأقوال وغيرها نجد ذهاب العلماء إلى صفتين في ميزان يوم القيامة، فمنهم من قال إنه ميزاناً حقيقياً له لسان وكفتان، والقول الثاني في التعديل بين الحسنات والسيئات والجزاء عليها، وما يؤدي إليه من العدل والتسوية، كما سنبين ذلك في ذكر صفته ومقاصد كل رأي فيهما.

كما اختلف القائلون بالميزان فيما يُوزَن، فقيل إن الله تعالى يجعل الأعمال والأقوال كالأعيان موزونة أو توزن صحفها[٣]، و(منهم من قال: يجعل الله تعالى في احدى الكفتين نوراً علامة للطاعات، وفي الاخرى ظلمة علامة للمعاصي فأيهما رجح على الاخر حكم لصاحبه به[٤]، وقال آخرون: إنما يوزن صحف الاعمال فما فيها الطاعات تُجعل في كفة، وما فيها المعاصي في كفة أخرى، فأيهما رجح حكم لصاحبه به)[٥].

---

(١) (يُنظَر) شرح المقاصد للتفتازاني: ٥/١٢٠، وعون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٨٣.

(٢) حق اليقين في معرفة اصول الدين: ٤٢٢.

(٣) (يُنظَر) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٨٣.

(٤) (يُنظَر) شرح الأصول الخمسة: ٧٣٥.

(٥) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٣٨١، و(يُنظَر) النكت والعيون: ٢/ ٢٠١، والدر الثمين: ٧٠.

صفة الميزان

برغم اختلاف أقوال العلماء في موازين الآخرة؛ إلا إنها تعود بحقيقتها الى الصفة الحسية لهذه الموازين في الآخرة، إذ قال بعض الامامية بأن الميزان هو العدل والتسوية والتعديل بين الأعمال، كما أنكر هذه الصفة للميزان الجهم بن صفوان[١] وبعض المعتزلة والإباضية والمرجئة والخوارج، وقالوا إنه هو العدل؛ لأن الأعمال أعراض، والأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تقوم بنفسها، ولا تُوصَف بالخفة والثقل[٢].

ويُرَد عليهم (أن جسم الإنسان وغيره من الجواهر على الأرض له وزن معين؛ وذلك بتأثير الجاذبية الأرضية، ولكن حين ينفصل عن جاذبية الأرض ـ كأن يكون في القمر ـ ينعدم وزنه كما هو معروف، فالجسم في القمر مثلاً ليس له وزن، كذلك الأعمال وهي أعراض في الدنيا لا وزن لها، لكن لا مانع من أن تُقلَب في الحياة الآخرة أجساماً فتُوزَن)[٣].

وبناءً على ذلك ينقسم الكلام في صفة الميزان الى قولين، هما:

القول الأول: كون الميزان ميزاناً حقيقياً.

أي أن المراد بالميزان ما كان مستعملاً قديماً، وهو الميزان الذي له لسان وكفتان فتوزَن به أعمال العباد الحسنات والسيئات[٤]، وقد قال بهذا الرأي كبار العلماء من المدارس الإسلامية المختلفة، ومنهم:

١ـ أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، حيث نصَّ عليه بقوله: (له لسان وكفتان توزَن

---

(١) وهو من الجبرية الخالصة الذي وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء، منها إثباته علوماً حادثة للباري تعالى لا في محل، ومنها ان الجنة والنار تفنيان بعد دخول اهلهما فيهما. (يُنظَر) الملل والنحل للشهرستاني: ٧٣/١.

(٢) (يُنظَر) المواقف: ٥٢٤/٣، شرح المقاصد للتفتازاني: ٥/ ١٢١، مقالات الإسلاميين: ١١٥/١.

(٣) أصول الدين الإسلامي: ٤٧٣.

(٤) شرح الباب الحادي عشر: ٢١٢، و(يُنظَر) عون المريد: ١٠٨٣، والتبيان في تفسير القرآن: ٣٨١/١٠، لوامع الانوار البهية: ٢/ ١٨٤، وحق اليقين في معرفة اصول الدين: ٤٢٢، والعقيدة الإسلامية ومذاهبها: ٦٦٨.

في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأُخرى السيئات، فمن رجحت حسناته دخلَ الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته تفضَّل الله عليه فأدخله الجنة)[1].

٢ـ القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت٤١٥هـ) في شرح الأصول الخمسة، إذ يقول فيه: (لم يُرِد الله تعالى بالميزان إلا المعقول منه المتعارَف فيما بيننا دون العدل وغيره على ما يقوله بعض الناس؛ لأن الميزان وإن وردَ بمعنى العدل في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، الى غير ذلك من الآيات التي تتضمن هذا المعنى. وكلام الله تعالى مهما أمكن حمله على الحقيقة لا يجوز أن يُعدَل به عنه الى المجاز)[2].

٣ـ العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ) بقوله: (هو في المشهور ميزان له كفتان ولسان وشاهين يُوزَن به الأعمال)[3].

القول الثاني: أن الميزان هو العدل والتسوية

إي إن المراد بالميزان ما يمكن استعماله للعدل والتسوية، وليس بالضرورة كونه ميزاناً حسياً حقيقياً، أي ان الميزان هو العدل والقضاء في تقدير ما به يكون الجزاء والاعمال؛ لأن حمل الوزن على هذا المعنى شائع في اللغة، وهو قول مجاهد[4] فالوزن عبارة عن العدل في الاخرة وانه لا ظلم فيها على أحد، وعزى الشيخ الطوسي(ت٤٦٠هـ) في التبيان هذا القول الى البلخي أيضاً[5]، وممن قال به:

---

(١) مقالات الإسلاميين: ١٦٤/٢، و(يُنظَر) شرح الباب الحادي عشر: ٢١٢، والتبيان في تفسير القرآن: ٤٠٠/١٠، ولوامع الانوار البهية: ٢/ ١٨٤.

(٢) شرح الأصول الخمسة: ٧٣٥.

(٣) شرح الباب الحادي عشر: ٢١٢.

(٤) (يُنظَر) النكت والعيون:٢٠١/٢، التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٥٢، واصول الدين الإسلامي: ٤٧٣.

(٥) (يُنظَر) التبيان في تفسير القرآن: ٤ / ٣٥٢.

١ـ الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) فيقول: وهو عبارة عن العدل والتسوية الصحيحة والقسمة المنصفة، كما يقولون: (أفعال فلانٌ موزونةٌ)، و(كلامه موزونٌ)[1].

٢ـ محمد بن الحسن الطوسي(ت٤٦٠هـ): (المراد بالميزان العدل لان المعادلة موازنة الاسباب، والطغيان الافراط في مجاوزة الحد في العدل)[2]، إذ ذكرَ القولين في الميزان ولم يرجح أحدهما، ولعله لأنه من باب الغيبيات التي يجب التسليم إليها من دون الجزم بإحداها.

٣ـ جار الله الزمخشري (٥٣٨هـ) في الكشاف، وهو كذلك ذكر القولين فيه من خلال تفسيره للموازين في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ﴾، بقوله: (فإن قلتَ: ما المراد بوضع الموازين؟ قلتُ: فيه قولان، أحدهما: إرصاد الحساب السويّ، والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. والثاني: أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال)[3].

ونرى من خلال هذين القولين أن كلاهما صحيح، إذ يدل على صحة القول الأول ما ورد في السنة النبوية من الأحاديث الشريفة في كونه ميزاناً حقيقياً، وإن لم يشبه الموازين المستخدمة في الحياة الدنيا على اختلاف أنواعها وكثرتها، وما يدل ويؤكد على كونه العدل والتسوية، إذ لا يخرج حساب الله تعالى عن عدله بين عباده في حسابهم مهما اختلفت مظاهر هذا الحساب، ويتبين لنا ذلك أكثر من خلال عرض مقاصد الاعتقاد بالقولين، مما سنذكره فيما يأتي.

---

(١) الذخيرة في علم الكلام: ٥٣١، ٥٣٢، و(يُنظَر) الإقتصاد فيما يتعلق بالإعتقاد: ٢٢٢.

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٥٢٠.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٣/ ١٢٠.

المقصد الأول: دور الموازين المتجسدة في بيان دقة العدالة الإلهية

العدالة الإلهية من أهم مقاصد تثبيت عقيدة الموازين والإيمان بها، حيث اتفق اكثرُ العلماء من المدارس الإسلامية المختلفة على أن الله تعالى ينصب ميزاناً توزَن به الأعمال أو صحائف الأعمال، وهذا يعني أنَّ الأعمال وموازينها جميعاً تتحول إلى صورة حسية يراها الناس، ليكون ذلك دليلاً على العدالة في أجلى صورها في محاسبة العباد.

ومما ورد من هذه الاقوال في الميزان وغيرها، نجد أن أهم مقاصدها تندرج في دقة العدالة الإلهية في وزن الاعمال والجزاء عليها، ولا تتوقف هذه المقاصد على كون الميزان حسياً ذو لسان وكفتين أو كونه العدل والتسوية؛ إذ لا تكون هذه الموازين إلا بالعدل والقسط.

قال الراغب (ت٥٠٢هـ): (في قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ إشارة إلى العدل في محاسبة الناس، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧])(١).

وقال الرازي (ت٦٠٦هـ): (ثم بين سبحانه وتعالى أن جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلا عدلاً، فهم وإنْ ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يُظلموا في الآخرة، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾، وصفها الله تعالى بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيماً وقد يكون بخلافه، فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾(٢).

وبناءً على هذه الأقوال وغيرها، نستطيع أن نذكر أهم تجليات مقصد العدالة الإلهية في الموازين فيما يأتي:

١ـ إن ما ورد في القرآن الكريم من وصف الميزان بكونه يخضع لمعايير الحق والعدل، وأنه على أساسها يكون التمييز في الثقل والخفة، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢/ ٥١٢.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٤٧.

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢].

وبخلافه من خفت موازينه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

كما إن مصطلح الميزان قد يراد به ما هو أعمق بكثير مما يتعلق بالثقل والخفة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، فقد اعتبر القرآن الكريم الميزان مقصداً من مقاصد التنزل القرآني، ويعني بذلك أنه يضع المعايير والقيم التي تنظم حياة البشر[١].

وذكر محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ): (أن حكمة وزن الأعمال بعد الحساب: أنه يكون أعظم مظهر لعدل الرب تبارك وتعالى، أي ولعلمه وحكمته وعظمته في ذلك اليوم العظيم، إذ يرى فيه عباده ـ أفراداً وشعوباً وأمماً ـ ذلك بأعينهم، ويعرفونه معرفة إدراك ووجدان في أنفسهم، فإن أعمالهم تتجلى لهم فيها أولاً، ثم تتجلى لهم ولسائر الخلق في خارجها ثانياً، فياله من منظر مهيب، ويا له من مظهر رهيب، وما أشد غفلة من قال: إنه لا حاجة إليه للاستغناء بعلم الله عنه)[٢].

وبذلك فإن الوزن لأعمال العباد إنما يتم بالقسط والعدل، فلا ظلم على احد يومئذ لأن الحاكم فيه هو العدل الحكيم الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله على عباده محرماً فلا يهضم احد من حسناته ولا يؤخذ عبد بسوى ما عمله[٣].

٢ـ الارتباط الكبير بين مقصدي عدل الله تعالى ورحمته للعباد في هذه الموازين، إذ يخبرنا

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٣٧٣.

(٢) تفسير المنار: ٨/ ٣٢٥.

(٣) (يُنظَر) معارج القبول: ٢/٨٤٤.

القرآن الكريم عن هذا الارتباط الوثيق بين العدل والرحمة في جميع أنواع الجزاء، فلذلك تضاعف الحسنات من باب الرحمة الإلهية، ولا تجازى السيئات إلا بمثلها من باب العدل الإلهي، قال تعالى عن جزاء الحسنات: ﴿إِنَّ اللهَّ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠]، وقال عن جزاء السيئات: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى جامعاً بينهما: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠][١].

كذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩]، فدلالة العدالة والرحمة الإلهية في الآية الكريمة أمرٌ ظاهر، ذلك أن من ثقل ميزانه فقد أفلح وعاش عيشة راضية، برحمة الله تعالى له، ومن خفَّ ميزانه فقد خسر وهوى إلى جهنم بعدله تعالى من غير مظلمةٍ على أحد، وإذا كان الأمر كذلك؛ فليستكثر العبد الصالح إذا أراد ثقل موازينه، وليطمئن إلى أنه لا يفوته مما قدم من أعمال الخير شيء[٢].

كما نستنبط هذا المقصد من العديد من الأحاديث الشريفة، منها قوله ﷺ: (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا)[٣].

وكذلك قوله ﷺ: (إِنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا وَعَمِلَهَا كَتبَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣٩١.

(٢) (يُنظَر) الحياة الآخرة: ٢/١٠٨٩.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٢٤.

عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)[١].

٣ـ إن الأصل الذي عليه الأمة في الإيمان بعالم الغيب أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، نؤمن به، ولا نحكم رأينا في صفته وكيفيته، فنؤمن إذاً بأن في الأخرة وزناً للأعمال قطعاً، ونرجع أنه بميزان يليق بذلك العالم، ويوزن به الإيمان، والأخلاق، والأعمال، ولا نبحث عن صورته وكيفيته[٢].

ولسعد الدين التفتازاني (ت٧٩١هـ) رأي في التوقف في كيفيته في شرحه للعقائد النسفية بقوله (والميزان عبارة عمَّا تُعرَف به مقادير الأعمال، والعقلُ قاصرٌ عن إدراك كيفيته)[٣].

٤ـ إن قدرة الله تعالى لن تعجز عن خلق ميزان حسي له لسان وكفتان، وقد جاء في السنة بعض الأحاديث التى تدل على وزن العمل ووزن العامل، وتتجلى في جميعها صور العدالة الإلهية بوضوح، كما ورد في قوله ﷺ: (يؤتي بالرجل فيوضع في كفة) وكقوله أيضاً: (فطاشت السجلات وثقلت البطاقة) وغيرها من الأحاديث التي فيها إشارة إلى إثبات أن ميزان الأعمال له كفتان[٤].

لكن مع ذلك، فإنه لا يصح الجزم بهيئتها من الباب الذي تعرضه النصوص الكريمة نفسها، والتي لم تضع الصورة المثبتة للميزان، وإنما اكتسبتها من هذه الأحاديث، والتي بدورها قد يكون المقصود منها أما الصورة نفسها أو تقريب الصورة، أو يكون الراوي قد رواها بالمعنى[٥].

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٨٠.

(٢) تفسير المنار: ٨/ ٣٢٣.

(٣) شرح العقائد النسفية: ١٣٢.

(٤) الحياة الآخرة: ٢/ ١١١٩

(٥) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣٧٠.

٥ـ ذكر الشيخ جعفر السبحاني ما ذهب إليه الجمهور من أنّه ينصب يوم القيامة ميزان كموازين الدنيا، وتوضع الأعمال الصالحة في كفة والطالحة في كفة أُخرى، فيوزن، ثم علق عليه بقوله: (إن للكلام ظهورين: ظهور تصوّري أولي، وظهور تصديقي. والمراد من الأوّل هو ما يفهمه الإنسان عند سماع اللفظ دون تدبّر في القرائن الحافة به، والمراد من الثاني هو ما يذعن به الإنسان بعد الإحاطة بالقرائن الحافة بالكلام، فربما يكون المتبادر عندئذ من الكلام غير ما هو المتبادر من الظهور الابتدائي)(١).

وانطلاقاً من هذا المعنى راح ينكر أيضاً على من ينكر الميزان، ويتصور أنه ليس سوى (العدل الثابت في كلّ شيء) وأنه سبحانه يتعامل مع عباده بالعدل والقسط ويقضي به، وأن هذا هو المراد من نصب الموازين؛ ذلك أن هذه الرؤية (تتعرض إلى نتيجة الميزان من دون أن تشير إلى واقعه، وأنّه بعدما تم التوزين يتعامل سبحانه في قضائه بالعدل والقسط، فلابدَّ قبل القضاء والتعامل من أداة تبيّن حال العباد من حيث الطاعة والعصيان، حتى تصل النوبة إلى قضائه سبحانه، فما هي تلك الأداة التي تكون معياراً لكثرة الطاعات أو قلتها؟)(٢).

المقصد الثاني: إقامة الحجة على الخلق برؤية أعمالهم وموازينها

وهي من المقاصد المهمة من موازين يوم القيامة، ذلك أن الله تعالى قادر على أن يدخل عباده الجنة أو النار من غير أن يقيم عليهم الحجة وبناء على علمه فيهم، لكنه بمقتضى عدالته لم يفعل ذلك، وإنما تركهم يحاسبون أنفسَهم بأنفسِهم على أعمالهم من خلال الموازين التي يرونها.

يقول الطبري في رده على من ينكر الميزان والحكمة منه: (فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه وجهته، وقال أو بالله حاجة إلى وزن الأشياء

---

(١) (يُنظَر) مفاهيم القرآن: ٨/ ٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٢٥٣.

وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه، وبعده، وفي كل حال؟ أو قال: وكيف توزن الأعمال والأعمال ليس بأجسام توصف بالثقل والخفة؟ وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة والكثرة والقلة، قيل له: أما وجه وزن الله الأعمال وهو العالم بمقاديرها قبل كونها: وزن نظير إثباته إياه في أم الكتاب واستنساخه ذلك في الكتاب من غير حاجة إليه ومن غير نسيانه، ليكون ذلك حجة على خلقه كما قال جل ثناؤه في تنزيله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، فكذلك وزنه تعالى خلقه بالميزان: حجة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته وإما بالتكميل والتتميم)[١].

فالغرض من تلك الموازين ـ كما تدل على ذلك الآيات الكريمة ـ هو نفس غرض تلك الدرجات التي تعطى للطلبة في الدنيا بعد مرورهم بالامتحانات المختلفة، والتي من خلالها يحدد مصيرهم، إما النجاح، والانتقال إلى المرحلة التي تلي ذلك النجاح، أو الرسوب، والعودة من جديد للتكوين.

وهكذا الأمر في موازين الآخرة، فهي التي تحدد ـ عبر النماذج الموضوعة في الميزان ـ أهل الجنة، كما تحدد أهل النار. وهي أيضاً من يحدد الدرجة التي يستحقها من نجح في الدخول إلى الجنة، كما تحدد المحل الذي يدخل إليه من رسب في الامتحان، واحتاج إلى المزيد من التربية والدروس، والتي جعلها الله تعالى في المرور على الصراط أو في جهنم، والتي تحوي الوسائل المختلفة للتطهير، وتتجلى فيها العدالة الإلهية بأكمل صورها[٢].

لذلك وإذ وجبت معرفة الميزان لا تجب معرفة انها ميزان معنوية أو لها كفتان[٣]؛ لأنها

---

(١) تفسير جامع البيان: ٨/ ١٢٤.

(٢) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣٦٨.

(٣) كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ١/٦٠.

إنما جعلها تعالى مظهراً لعدالته ورحمته للعباد، (كما بينا ذلك في المقصد الأول)، كما أنها تمثل وجهاً من وجوه إقامة الحجة عليهم كي يزنوا كل ما يقدموه ويفعلوه في حياتهم من عمل خير أو شر، قلَّ أو كثُر، ويمكننا تلخيص مقاصد الحكمة من ذلك في أُمور عدة، منها:

١ـ تعريف الله تعالى لعباده ماهم عنده من الجزاء من خيرٍ أو شر، يقول الغزالي (ت٥٠٥هـ): (فإن قيل: ما فائدة وزن الأعمال؟ فالجواب: لا نطلب لفعل الله تعالى فائدة؛ لأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما الفائدة بالنسبة للعبد هي: أن يشاهد مقدار أعماله ويعلم أنه مجزيٌ بها بالعدل، أو يتجاوز الله تعالى عنه باللطف)[(١)]، وبهذه الحكمة يبين تعالى لعبده ما يستحقه من العذاب وما يكون فيه من درجات الجنة.

٢ـ وكذلك فإن من وجوه إقامة الحجة على العباد في هذه الموازين وبيان فضلها، إنه يزن مثاقيل الذر من خير أو شر ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

فلله تعالى حكمة عظيمة في إظهار أقصى كمال عدله بين عباده، حتى لا يساوي المحسن بالمسيء، وليظهر التفاوت بين البشر جلياً واضحاً، يقتنع كل مخلوق بذلك كما يقتنعون بما يرجحه الميزان في الدنيا، ولو شاء الله ألا يقيم ميزاناً ويأخذ العباد بما يعلمه سبحانه من أعمالهم الطيبة أو الخبيثة؛ لما كان في ذلك أي نقص على العباد ولا هضم لحق أي مخلوق: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، لكنه تعالى لم يشأ ذلك، بل أراد أن يُعلم العباد بأعمالهم بما يقتنعون به هم أنفسهم، وحتى لا يبقي حجة ولا اعتراض لمعترض، ولله الحجة البالغة.

٣ـ إن العلم بإقامة الموازين يوم القيامة مما يدعو العباد الى الطاعة وأداء الواجبات لما يثقل كفة الحسنات، واجتناب المعاصي والمنكرات، يقول القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ):

---

(١) الاقتصاد في الإعتقاد: ١٥٨، و(يُنظَر) لوامع الأنوار البهية: ٢/١٨٨، عون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٨٩.

(وأما فائدته: فهو تعجيل مسرة المؤمن وغم الكافر، هذا في القيامة، وفيه فائدة أخرى تتعلق بالتكليف: وهي أن المرء مع علمه أن أعماله توزن على الملأ؛ كان عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وهذه فائدة عظيمة)[١].

٤ـ وذكر علي بن أحمد العدوي[٢] (ت١١٨٩هـ) في حاشيته على كتاب كفاية الطالب الرباني (حكمة الوزن وإن كان الله تعالى عالماً بكل شيء امتحان الله عباده بالإيمان في الدنيا وجعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى، قال أبو بكر الصديق: (إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الباطل)[٣].

٥ـ ومن وجوه إقامة الحجة على العباد في الموازين إخباره تعالى أن أعمال الكافرين ليس لها وزن، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، (وقد يُرَد أن وزن أعمال المؤمنين ظاهر؛ لتقابل الحسنات والسيئات، أما وزن سيئات الكفار فغير ظاهر؛ لانعدام الحسنات المقابلة للسيئات، فيُجاب بأنه قد يكون منهم صلة رحم ومواساة ونحوها من الأعمال التي لاتتوقف صحتها على نية، فتجعل هذه الأمور ـ إن صدرت منهم ـ في مقابلة سيئاتهم، ما خلا الكفر، أمَّا الكفر فلا فائدة في وزنه؛ لأن عذابه دائم)[٤].

---

(١) شرح الأصول الخمسة: ٧٣٦.

(٢) علي بن أحمد بن مكرّم الصعيدي العدوي، فقيه مالكي مصري، من كتبه: [حاشية على شرح زيد القيراني]، و[حاشية على شرح العزية للزرقاني]، و[حاشية على شرح الجوهرة لعبد السلام]، و[حاشية على شرح السلم للأخضري]، توفي في القاهرة سنة ١١٨٩هـ. (يُنظر) الأعلام للزركلي: ٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٣) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني: ١/ ٩٣.

(٤) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٨٦.

المقصد الثالث: دور الميزان في بيان حقائق الأعمال

وهو من مهمات مقاصد الميزان في مواقف اليوم الآخر، وخاصة ما يرتبط بالأعمال، لأن من خلاله تظهر حقائقها ومنزلتها عند الله تعالى، والتي قد لا يعرفها العباد من دون ذلك البيان، ولذلك ورد في الأحاديث الشريفة التنبيه الى حقائق أجر الكثير من الأذكار أو الأعمال برغم سهولتها أو قلتها، كما جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: (كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، سُبْحَانَ اللهِّ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِّ الْعَظِيمِ)[1].

فيُفهَم من هذا الحديث الشريف أنه يمكن للمؤمن عبر كلمات قليلة يقولها أن ينال الأجور العظيمة، لأن لتلك الكلمات تأثيرها في نفسه وفي حياته جميعاً، فضلاً عن ثقلها في ميزان يوم القيامة، يقول ابن حجر(ت٨٥٢هـ) في الحديث الشريف (وقوله ﷺ حبيبتان أي محبوبتان، والمعنى محبوب قائلهما.

وخُصَّ لفظ الرحمن بالذكر لأن المقصود من الحديث بيان سعة رحمة الله تعالى على عباده حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الكثير، وقوله ﷺ (خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ) وصفهما بالخفة والثقل لبيان قلة العمل وكثرة الثواب وفي هذه الألفاظ الثلاثة سجعٌ مستعذَب، وفيه إشارة إلى أن سائر التكاليف صعبة شاقة على النفس ثقيلة وهذه سهلة عليها مع أنها تثقل الميزان كثقل الشاق من التكاليف، وقد سُئل بعض السلف عن سبب ثقل الحسنة وخفة السيئة، فقال: لأن الحسنة حضرت مرارتها وغابت حلاوتها فثقلت، فلا يحملنك ثقلها على تركها، والسيئة حضرت حلاوتها وغابت مرارتها فلذلك خفت فلا يحملنك خفتها على ارتكابها)[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٥/٢٣٥٢.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٥٤٠.

ومن ذلك قوله ﷺ: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ (أَوْ تَمْلَأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[1] فهذه الألفاظ التي ذكرها الرسول ﷺ تفضل عظيم من الله تعالى على عباده، حيث جعل جزاء هذه الكلمات اليسيرة ذلك الأجر العظيم، لكن؛ حينما يتقبل الله قولها من العبد، إذ أن ذلك شرط لابد منه، فليس كل من قالها يحصل له هذا الفضل العظيم بمجرد القول وإن لم تتحقق فيه أهلية قبولها، والله تعالى كما أخبر في كتابه الكريم أنه لا يقبل إلا من المتقين الصادقين لا سواهم.

ورُوِيَ عن جرير النهدي عن رجل من بني سليم قال: (عَدَّهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي يَدِي أَوْ فِي يَدِهِ، التَّسْبِيحُ نِصْفُ الْمِيزَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ يَمْلَؤُهُ، وَالتَّكْبِيرُ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ، وَالطُّهُورُ نِصْفُ الْإِيمَانِ)[2].

وعن مولىً لرسول الله ﷺ أنه قال: (بَخٍ بَخٍ، لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ، وَالِدُهُ) الحديث[3].

وجزاء هذه الأحاديث الشريفة ظاهر في فضائل تلك الأمور التي ذكرت فيها.

وكذلك في قوله ﷺ: (خَصْلَتَانِ ـ أَوْ خَلَّتَانِ ـ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، تُسَبِّحُ اللهَ عَشْرًا، وَتَحْمَدُ اللهَ عَشْرًا، وَتُكَبِّرُ اللهَ عَشْرًا فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، فَذَلِكَ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَتُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ـ عَطَاءٌ لَا يَدْرِي أَيَّتُهُنَّ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ ـ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَ مِائَةِ سَيِّئَةٍ؟)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟ قَالَ ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٢٠٣.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٦٣، وسنن الترمذي: ٥/ ٥٣٦.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٣٧.

يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ إِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُومُ وَلَا يَقُولُهَا، فَإِذَا اضْطَجَعَ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا)[1].

وما دامت الحسنة بعشر أمثالها، فإن الحسنات ستكون كثيرة جداً أكثر من السيئات، إذ إن الشخص لا يمكن أن يفعل في اليوم ألفين وخمسمائة سيئة، كما أشار الحديث، وإن دلَّ هذا على شيء فإنه يدلُ على عظيم رحمة الله تعالى لعباده، وتيسيره لهم كافة سبل الطاعة وزيادة الحسنات.

وهكذا دلَّت الأحاديث الشريفة على العديد من الأعمال التي تثقل ميزان الحسنات يوم القيامة، كالجهاد في سبيل الله تعالى أو احتباس فرساً في سبيله تعالى، كما ورد في ما رواه معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا شَحَبَ وَجْهٌ، وَلَا اغْبَرَّتْ قَدَمٌ فِي عَمَلٍ تُبْتَغَى فِيهِ دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ كَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا ثَقُلَ مِيزَانُ عَبْدٍ كَدَابَّةٍ تَنْفُقُ لَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ يَحْمِلُ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ)[2].

وكذلك قوله ﷺ: (مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، إِيمَانًا بِاللهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ حَسَنَاتٍ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[3]، ومنها قوله ﷺ في فضل الصدقة: (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)[4].

ومن تلك الأعمال قوله ﷺ في فضل اتباع الجنازة حتى يفرغ من دفنها قال: (مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، وَيُفْرَغَ مِنْهَا، فَلَهُ قِيرَاطَانِ، وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، فَلَهُ

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ٥/ ٢٤٦.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٠٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٥١١.

قِيرَاطٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِهِ مِنْ أُحُدٍ)[١].

المقصد الرابع: دور الميزان في بيان حقيقة العامل ومنزلته:

وهو من المقاصد المهمة للميزان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، فالميزان هو الذي يوضح منزلة العبد من التقوى والصلاح، وحظه من الصبر والشكر، وغيرها من الأعمال، وهي بذلك تشبه الدرجات التي ينالها الطالب، والتي تحدد مستواه العلمي.

ولهذا أخبرنا رسول الله ﷺ عن أن الوزن لا يرتبط فقط بالأعمال، وإنما يرتبط أيضا بالجوارح التي قامت بالعمل، بدلالة ما رواه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، بقوله: (أمر النبيﷺ ابن مسعود فصعد على شجرةٍ وأمره أن يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه الى ساقَي عبد الله بن مسعود حين صعد الشجرة، فضحكوا من حموشتها (أي دقتها)، فقالﷺ: (مِمَ تضحكون؟ لَرِجْلُ عبد الله أثقلُ في الميزان يوم القيامة من أُحُد)[٢].

فرسول الله ﷺ يشير في هذا الحديث إلا أن تينك الساقين الدقيقتين قامتا بأعمال كثيرة، هي أثقل من جبل أحد.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يُرغب المؤمنين في كثرة ذكر الله، بذكر تلك الأجور العظيمة التي أعدها الله لمن يذكره، بناء على تأثيراتها الكبيرة في إصلاح النفس وتربيتها.

ومن ذلك تأكيده ﷺ على ثواب وأجر من قال (لا اله إلا الله) مخلصاً وثقل الميزان بها، فإن كان البيان لأجل ثواب الحسنات فإن ثواب الثبات في الاعتقاد الحق سيكون له أثره العظيم في اليوم الآخر وفي جميع مواقفه، كما في حديث البطاقة بقوله ﷺ: (إِنَّ اللهَّ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ،

---

(١) مسند الامام أحمد: ٥/ ١٣١.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ١١٤

فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: (إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ)، قَالَ: (فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ)(١).

وهكذا أخبر رسول الله ﷺ عن القيمة العظمى التي يحتلها حسن الخلق في تلك الموازين، ومنها قوله ﷺ: (مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَّ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ)(٢)، وعن أبي الدرداء عن النبيﷺ: (ما من شيءٍ أثقلُ فِي الْمِيزان من خُلُقٍ حسنٍ)(٣).

ومنها أيضاً ما جاء في مداد العلماء ووزنه يوم القيامة، وهو ما رُويَ عن النبي ﷺ من قوله: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ووُضِعَتِ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ مَعَ مِدَادِ الْعُلَمَاءِ فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ)(٤).

وبناء على هذا يمكننا فهم كل تلك الأحاديث التي تذكر الأجور العظيمة لما نراه من

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٢٤، ٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٣٦٢

(٣) مسند الإمام أحمد: ٦/ ٤٤٦.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٩٨، وجزء ابن عمشليق، ح ١٤: ٤٤، وقال محقق الكتاب خالد الأنصاري: إنه حديث ضعيف، وذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب تفضيل العلماء على الشهداء، ح ١٥٤: ١/ ١٥١، وقال في التعليق على الحديث (وبعضهم يقول في ذلك الحديث لم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة واحدة في الجنة وروي أيضا مرفوعا من حديث ابن عباس وقد ذكرنا هذا الحديث بإسناده في كتابنا هذا في باب استدامة الطلب، وفي باب جامع فضل العلم، وفي إسناده اضطراب؛ لأن منهم من يجعله، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس، ومنهم من يجعله عن سعيد، عن أبي هريرة وأبي ذر، ومنهم من يرسله عن سعيد، والفضائل تروى عن كل أحد، والحجة من جهة الإسناد، إنما تتقصى في الأحكام وفي الحلال والحرام).

الأعمال الصغيرة، ذلك أن لتلك الأعمال آثارها الكبيرة في النفس وتطهيرها، لتتجسد في شخصية العامل وتزيد من حقيقته التي تطبع بها، ولهذا كان لهذه الموازين آثارها في المجتمع، بعد تأثيرها في أفراده، بتحويله إلى مجتمع رباني مؤمن، ولذلك يكون لتلك الأفعال والأخلاق التي تصدر عنهم أوزاناً وقيماً تتجسد في شخصية عامليها لا نستطيع تقديرها.

ففي هذه الأحاديث الشريفة إخبار من رسول الله ﷺ عن سعة فضل الله في هذه الموازين، وأن الحسنات التي اكتسبها الإنسان في الدنيا، يمكنها أن ترفع الكثير من السيئات عنه ما لم تكن متعدية، أو لها جذور في النفس. كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، حيث يتبين أن السيئات التي عملها الإنسان بجهالة، ومن غير أن يكون لها آثار كبيرة في نفسه، يمكنها أن تُرفع عنه إما بالتوبة في الدنيا، أو بما يرفعها من الحسنات التي تزيل آثارها السيئة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤][1].

ومهما قيل في الحكمة فإن الأمر لا يزال يتطلب الإيمان الكامل بأن وزن الأعمال هو عين الحكمة، وأن هذه مجرد استنباطات للعلماء، وتبقى حقيقة علم ذلك إلى الله تعالى وحده[2].

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٣٨٢.

(٢) الحياة الآخرة: ٣/ ١١٥٧.

٤. الصراط

بعد أن يرى الخَلق مقادير أعمالهم واوزانها، والتي يعلمون من خلالها درجاتهم والجزاء الذي يستحقونه عليها، ينصب تعالى لهم الصراط على متن جهنم، والذي يختلف سيرهم عليه حسب ما رأوه من أعمال، فالذي يمر عليه كالبرق، والذي يزحف زحفاً، فضلاً عن الساقط في جهنم في أول مروره عليه كما سيأتي بيانه.

وبناء على هذا، ومن خلال استقرائنا لما ورد في الصراط من النصوص الكريمة، وكلام العلماء حوله، رأينا أنه يمكن تصنيف المقاصد العقدية فيه إلى أربعة مقاصد، هي:

المقصد الأول: التمييز بين مراتب الناس بحسب العدالة الإلهية

المقصد الثاني: الرحمة الإلهية في إكرام النبي ﷺ وأمته على الصراط وتجسيد استقامتهم

المقصد الثالث: توافق الصراط مع القدرة الإلهية والتكليف في الآخرة وتطهير المؤمنين لدخولهم الجنة

المقصد الرابع: تربية المؤمنين على صالح الأعمال في الحياة الدنيا .

إذ خصصنا كل مقصد منها بفرع خاص، وقدمنا لها بتمهيد في مفهوم الصراط وصفته.

تمهيد: مفهوم الصراط وصفته

مفهوم الصراط

قال ابن منظور(٧١١هـ) في (الصِراط): قُرِئَ قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] بالصاد، وقد تُقرأ بالسين، على أن أصل صاده سينٌ قُلِبت مع الطاء صاداً لقرب مخرجها، ويقول الجواهري، الصِراط، والسراط والزراط: الطريق(١).

وقال الفراهيدي: سَرْطَ ومنه الاسترِاط، وهو سرعة الابتلاع من غير مضغ(٢)، وأشار

---

(١) (يُنظَر) لسان العرب: ٧/ ٣١٣، و٣٤٠.

(٢) العين: ٢/٢٣٨، و(يُنظَر) لسان العرب: ٣١٣/٧.

ابن منظور (ت٧١١هـ) الى أنها بالصاد لغة قريش الأَوّلين التي جاء بها الكتاب، وعامة العرب تجعلها سيناً، وقيل إِنما قيل للطريق الواضح صراط لأَنه كأَنه يَسْتَرِطُ المارة لكثرة سلوكهم لأحبه[١].

والصراط اصطلاحاً من السبيل ما لا إلتواء ولا إعوجاج فيه[٢].

وقد ورد في الاصطلاح الشرعي وحسب تعريف العلماء للصراط فيما يرتبط بمباحث دراستنا انه جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف الى الظلمة التي دون الصراط[٣].

وقد عرفه المفيد (ت٤١٣هـ) بأنه: (جسر بين الجنة والنار تثبت عليه أقدام المؤمنين وتزل عنه أقدام الكفار إلى النار)[٤].

وعرفه التفتازاني (ت٧٩١هـ) بأنه: (جسرٌ ممدودٌ على متن جهنم، ادق من الشعر وأحدّ من السيف، يعبره أهل الجنّة وتزل به أقدام أهل النار)[٥].

ويتبين لنا من تعريفات العلماء للصراط بأنه جسر يرده جميع الخلق من الأولين والآخرين، وإذا توافوا اليه قيل للملائكة: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ولكن يختلف سيرهم عليه، فيصل المؤمنون منه الى الجنة بينما تزل أقدام الكافرين عنه الى جهنم، ويختلف سير ما بينهما من أصحاب الذنوب من الموحدين، وله من الصفات ما لا يُقدَر على استيعابها إلا الخضوع لحقيقة القدرة والقاهرية الالهية.

---

(١) (يُنظَر) لسان العرب: ٣١٣/٧.

(٢) الكليات: ٥١٣.

(٣) معجم ألفاظ العقيدة: ٢٤٢، و(يُنظَر) اقرب الموارد: ٦٤٣/١، وعون المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٩٠.

(٤) أوائل المقالات: ٤/ ٧٨.

(٥) شرح العقائد النسفية: ٢٤٨، لوامع الأنوار البهية: ١٨٩/٢٠، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: ٢٩٢.

صفة الصراط

ومما ورد في صفات الصراط الذي يكون على متن جهنم ما جاء في قوله ﷺ: (دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلاَلِيبُ، وَحَسَكٌ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ[1] مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ[2]، فِي نَارِ جَهَنَّمَ)[3]، وهي:

١ـ فالصراط زلق، وقوله ﷺ (دَحْضٌ مَزِلَّةٌ): أي زلق تزل به الأقدام، ومدحضة من دحضت رجله دحضاً زلقت، ودحضت الشمس عند كبد السماء: زالت، ودحضت حجته بطلت، أما مزلة: من زلت الأقدام سقطت، بكسر الزاي وفتحها، ودحَض الرجلُ: زلق[4]، فالصراط زلق، أي أن كل من يمر عليه يمكن أن يزلق ليسقط في جهنم بناء على هذه الأوصاف الموجودة فيه.

٢ـ وله جنبتان أو حافتان: كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ)، قَالَ: (فَيُنْجِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)[5].

قال ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)[6] في (النهاية): (قوله ﷺ: (فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ) أي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض، وتقادع القوم: إذا مات

---

(١) مخدوش: من الخدش وهو الأثر، (يُنظَر) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري: ١/ ٧٨.

(٢) المكدوس أو المكردس: الذي جمعت يداه ورجلاه وألقي إلى موضع، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ١٦٢.

(٣) صحيح مسلم ١٨٣: ١/ ١٦٧.

(٤) (يُنظَر) غريب الحديث: ١/ ٣٢٦، عمدة القاري: ٢٠/ ٣٢٠، والمصباح المنير: ١٩٠.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٤٣.

(٦) أبو السعادات، المبارك بنُ أبي الكرم، محمدُ بنُ محمدِ المعروفُ بابن الأثير الجزريُّ، له المصنفاتُ والرسائل الوسيعة، منها:[جامع الأصول في أحاديث الرسول]، و[النهاية في غريب الحديث]، و[المصطفى المختار في الأدعية والأذكار]، وتوفي سنة ست وست مئة. (يُنظر) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: ٨٨.

بعضهم إثر بعض)[1]، إذ وُصفت هذه الحافتان بإمكانها أن تسترط وتُوقع من يمر عليها.

٣ـ ولحافتي الصراط كلاليب وخطاطيف وحسك وأشواك السعدان.

وذلك مما وردَ في حديثه ﷺ: (وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ)[2]، ومن حديثه ﷺ: (وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟) قالوا: نعم يا رسول الله، قَالَ ﷺ: (فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ)[3].

كما يصف ﷺ هاتين الحافتين وما عليها بقوله: (قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: (دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ، فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ).

والكلاليب: جمع كَلوب بفتح الكاف، وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم، وقيل: الكَلوب الذي يتناول به الحداد الحديد من النار.

وقوله ﷺ: (وخَطَاطِيفُ): جمع خُطاف بالضم، وهو الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء.

وقوله ﷺ: (حَسَكٌ)[4]: بفتحات وهي شوكة صلبة معروفة، والحسك نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم، وربما اتخذ مثله من حديد وهو من آلات الحرب.

ثم يقول فيه ﷺ (فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ)، أي له ثمر مستدير مشوك الوجه إذا وطئه الإنسان عفر رجله، أما تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها، مع التحرز والتصون، تمثيلاً لهم بما عرفوه في الدنيا وأَلِفوه بالمباشرة.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٤٣.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٦٧.

(٤) واحدها حسكة وهي شوكة حديدة صلبة، وتطلق الحسكة على الرجل إذا كان خشناً إنه لحَسَكة. (يُنظَر) تفسير غريب ما في الصحيحين: ٢٣١، وعمدة القاري: ٢٠/ ٣٢٠.

أما قوله ﷺ: (لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ) فقال الجوهري: (عظم الشيء عظماً: أي كبر فتقديره لا يعلم قدر كبرها إلا الله وعظم الشيء أكثره[1].

٤ـ والصراط مثل حد الموسى أو حد السيف:

حيث زاد مسلم بعد روايته للحديث الشريف في صفة الصراط، قال أبو سعيد: (بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ)[2].

وكل هذه الأوصاف تبين خطورته، وأنه لا يمكن أن ينجو منه إلا من هذب نفسه، وخلصها من كل الأمراض التي تحول بينها وبين التحقق بفطرته السلمية النقية، فمن مظاهر القدرة الإلهية في ذلك الموقف ثبات المؤمنين الصادقين عليه برغم صفاته هذه، بناءً على ما تجسد في نفوسهم من الطاعة والاستقامة في دينهم فترة حياتهم الدنيا، بينما لا يستطيع ذلك الكافرون ومن انحرفوا عن سبيل الهداية الإلهية، فوصفه بأنه (أدق من الشعر وأحدّ من السيف، يتسع للمطيع ويضيق على العاصي)[3].

المقصد الأول: التمييز بين مراتب الناس بحسب العدالة الإلهية

لا تخلو مسألة من مسائل اليوم الآخر والثواب والعقاب عن مقاصد العدالة الإلهية فضلاً عن رحمته تعالى العظيمة بعباده، ومنها الصراط، إذ لا تكون النجاة منه لجميع الخلق بدرجة واحدة، فمنهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، ومنهم من خلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً الى غير ذلك من أصناف الخلق، مما يجعل هذا المقصد مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمقصدَي الترغيب والترهيب كما سنرى ذلك واضحاً في مراتب الناس عليه.

وبما إن الحكمة من المرور على الصراط هي ظهور النجاة من النار، وتحسر الكفار من فوز المؤمنين بعد اشتراكهم معهم في المرور، فعندما يذهب بالكفرة الملحدين، والمشركين

---

(١) (يُنظَر) عمدة القاري: ٢٣/ ١٣٤، وغريب الحديث: ١/٤٨٠، وفتح الباري: ١١/ ٤٥٣.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٧

(٣) ارشاد الطالبين: ٢٠٥، تصحيح الاعتقادات: ١٠٩، و(يُنظَر) بحار الأنوار: ٨ /٧١، وعقائد الامامية: ٢/٢٧٠.

الضالين إلى دار البوار: جهنم يصلونها، وبئس القرار، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، وتلقى عليهم الظلمة قبل الجسر، فيفترق المنافقون عن المؤمنين، وتختلف سرعة الناس في المرور على الصراط باختلاف قوة إيمانهم ويقينهم، ويقول في ذلك السيد الشيرازي (ت١٠٥٠هـ): (هذا الصراط يظهر يوم القيامة للأبصار على قدر نور اليقين للمارين عليه الى الآخرة، وبحسب شدة نور يقينهم يكون قوة سلوكهم وسرعة مشيهم عليه، فتتفاوت درجات السعداء بتفاوت نور معرفتهم وقوة يقينهم وإيمانهم؛ لأن التقرب الى الله تعالى لا يمكن إلا بالمعرفة واليقين، والمعارف أنوار، ولا يسعى المؤمنون الى لقاء الله تعالى إلا بقوة أنوارهم وأنظارهم)[١].

ويدل على هذا التمايز حديث ابن مسعود الطويل الذي يقول فيه النبي ﷺ: (فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، قَالَ: فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً، وَيُطْفِئُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمُهُ، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضٌ مَزِلَّةٍ، فَيُقَالُ: انْجُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، وَيَرْمُلُ رَمَلا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، قَالَ: يَجُرُّ يَدًا وَيُعَلِّقُ يَدًا وَيَجُرُّ رِجْلا وَيُعَلِّقُ رِجْلا وَتَضْرِبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، قَالَ: فَيَخْلَصُوا، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكِ بَعْدَ الَّذِي أَرَانَاكِ لَقَدْ أَعْطَانَا اللهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا)[٢].

---

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ٩/ ٢٨٦.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٤٠٨.

وفي رواية أخرى تبين أن الناس يردون النار كلهم ثم يخرجون منها بأعمالهم مع اختلاف في سرعتهم، كما قال السدي: (سألت مرة الهمداني عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فحدثني أن عبد الله بن مسعود حدثهم عن رسول الله ﷺ قال: (يَرِدُ الناسُ النارَ ثم يَصْدُرُونَ عنها بأعمالِهم فأَوَّلُهُم كَلَمْحِ البَرْقِ ثم كالرِّيحِ ثم كحُضْرِ الفَرَسِ ثم كالراكِبِ في رَحْلِهِ ثم كَشَدِّ الرَّجُلِ ثم كمَشْيِهِم)[1].

فالمارُّون عليه مختلفون، فمنهم سالم بعمله ناجٍ من الوقوع في نار جهنم، وهم أقسام، فمنهم من يجوزه كلمح البصر، ومنهم من هو دون ذلك، ومنهم من تخدشه كلاليبه فيسقط ولكن يتعلق بها فيعتدل ويمر ويجاوزه بعد أعوام.

ومنهم غير السالم بل يسقط في نار جهنم، والساقطون متفاوتون أيضاً بقدر جرائمهم، ثم منهم من يخلد بالنار كالكفار، ومنهم من يخرج منها بعد مدة على حسب ما شاء الله تعالى، وهم عصاة المؤمنين بشفاعة النبي محمد ﷺ أو غيره من الشفعاء، وهو من الممكنات التي أخبر بها الصادقُ سبحانه وتعالى، وكل ما كان كذلك فيجب الإيمان به، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ [يس: ٦٦][2].

فيؤخذ من ذلك أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف كما أخبر النبي ﷺ في أقواله هي: (فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَجْدُوحٌ بِهِ ثُمَّ نَاجٍ، وَمُحْتَبَسٌ بِهِ مَنْكُوسٌ فِيهَا)[3]، أما توافق هذه الأصناف بمقاصد العدالة الإلهية فإنما هو لتصنيفهم بحسب أعمالهم، وتفصيل ذلك بما يأتي:

١ـ الصنف الأول: الناجِ بلا خدش.

حيث يتجلى في هذا الصنف من مقاصد البشارة بالعدالة والرحمة الإلهية بأنوار المؤمنين على الصراط، وقد ذكرهم ﷺ في أحاديث كثيرة بلفظ (فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ) كما في الأحاديث

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٤٠٧.

(٢) (يُنظَر) شرح الخريدة البهية: ١٣٣.

(٣) مسند الامام أحمد: ٣/ ١١.

السابقة، والناس من هذا الصنف هم الذين يعطون نوراً عظيماً على الصراط على قدر أعمالهم، فينطلقون عليه بسرعة عظيمة، وإنما هو تجسيد لمقصد العدالة والرحمة الإلهية التي وعد تعالى بها عباده، فقد حدثنا تبارك وتعالى عن مشهد مرور هؤلاء المؤمنين الفائزين الى جنات الله تعالى على الصراط، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

إذ يبين الواحدي والطبري في تفسيرهما للآية الكريمة إن الحق تعالى يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا، وعاشوا في ضوئه، يعطون في يوم القيامة نوراً بين أيديهم وبأيمانهم، يكشف لهم الطريق الموصلة إلى جنات النعيم، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة، إذ يُبشرون بما أعدَّه تعالى لهم، فتقول لهم الملائكة ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

فهذه الآيات الكريمة تصور الأنوار التي يسعد بها المؤمنون بسبب الصفاء والطهارة التي اكتسبوها في الدنيا، بينما تخمد تلك الأنوار المزيفة للمنافقين والمحتالين ومرضى القلوب، والذين يكتشفون حينها أنهم لا يملكون أي ملكات تؤهلهم لدخول الجنة، حيث وصف تعالى هذا الموقف للنبيﷺ وأتباعه من المؤمنين مقابل انطفاء نور المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، فقد ذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره قول الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[٢].

---

(١) (يُنظَر) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢/ ١٠٧٦، وتفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٠٠، والقيامة الكبرى: ٢٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ١٠١.

وقد ذكر رسول الله ﷺ في حديث جابر موقف المؤمنين والمنافقين حينذاك، حيث تجد أن الذعر والخوف قد استحوذ على الناس، كلهم يريد النجاة بحشاشة نفسه من الكلاليب، والخطاطيف، فإذا نور المنافقين يطفأ، ونجاة المؤمنين الصادقين من كل هذا العذاب، فيكون مرورهم بنورهم الذي وهبه تعالى إليهم كالبرق الخاطف الذي يوصلهم الى جنات النعيم، قال ﷺ: (. ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَإِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ)[1].

٢.الصنف الثاني: الهالك من أول وهلة.

ويتجلى في هذا الصنف مقصد العدالة الإلهية أيضاً، ففي معصيتهم لله تعالى ظلمهم لأنفسهم بالانحراف والكفر والجحود والنفاق، وقد ذكره النبي ﷺ بألفاظ مختلفة كقوله في الأحاديث السابقة: (منكوس فيها)، أي مقلوب فيها على رأسه، وقوله ﷺ: (وَمِنْهُمْ مُكَرْدَسٌ[2] فِي النَّارِ)، و(وَمِنْهُمْ مَكْدُوسٌ فِي النَّار) (أي مدفوع، وتكدس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط، ويروى بالشين المعجمة، من الكدش، وهو السَوق الشديد، وقوله ﷺ: (الموبق بقي بعمله) والموبق: من وبق: أي هلك، وأوبقته ذنوبه: أهلكته)[3].

فالناس في هذا الصنف هم المنافقون ممن كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين وأنهم منهم، لكنهم في الحقيقة مفارِقون لهم، لا يهتدون بهداهم، ولا يسلكون سبيلهم من النور، كما حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم، وهناك يخدعون، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا، ويقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وبذلك يعود المنافقون إلى الوراء، ويتقدم المؤمنون إلى

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٧٧.

(٢) المكدوس أو المكردس: الذي جمعت يداه ورجلاه وألقي إلى موضع، النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٦٢/٤.

(٣) (يُنظَر) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ١٥٥، وعمدة القاري: ٢٠/ ٣١٦.

الأمام، فإذا تمايز الفريقان، ضرب الله بينهم بسور له باب[1] باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وهو النار، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة، ومصير المنافقين والمنافقات النار، فيهلكوا فيها[2].

فهؤلاء يكون لهم الصراط كحد الموس كما جاء في صفاته، والتي لا يستطيعون معها الثبات عليه، يقول الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ): (إن المُراد لا يثبُت لكافرٍ قدم على الصِراط من شدة ما يلحقهم من أهوال يوم القيامة ومخاوفها، فهم يمشون عليه كالذي يمشي على الشيء الذي هو أدق من الشعرة وأحَد من السيف، وهذا مَثَلٌ مضروب لما يلحق الكافر من الشِدة في عبوره)[3].

٣ـ الصنف الثالث: المتوسط بينهما يُصاب ثم ينجو.

ويتجلى في هذا الصنف مقصد العدالة الإلهية أيضاً، فضلاً عن مقاصد التربية والتطهير حتى تناله الرحمة الإلهية مما يجده في سلوكه الصراط كي يكون أهلاً لدخوله الجنة، فقد ذكره النبي ﷺ بألفاظ مختلفة كقوله ﷺ: (مخدوش مكلَّم) و(مخدوج به) وقوله ﷺ: (فمنهُمْ مَنْ يُوبَقُ بعملِهِ، ومنهمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنجُو)[4]، و: (ومنهم المُجازى حتى يُنجَّى).

فالناس من هذا الصنف هم الذين اجترحوا السيئات واكتسبوا الخطايا، فتخطفهم الكلاليب، فتجرح أجسادهم، ثم ينجون بفضل رحمة الله تعالى، ثم بما قدموه من طاعات في الحياة الدنيا.

وقوله ﷺ: (مخدوش مكلم) فمخدوش: أي مخموش ممزوق، وهو من الخمش وهو تمزيق الوجه بالأظافير، وخدش الجلد: قشره بعود أو نحوه، وقوله (مكلم) من الكلم وهو

---

(١) قيل إنه سور الأعراف، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٠٦٨، و(يُنظَر) الأسماء والصفات: ٢/ ٤٣٧.

(٢) (يُنظَر) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٠٦٨، وتفسير مجمع البيان: ٩/ ٣٠٠، والقيامة الكبرى: ٢٧٢.

(٣) تصحيح الإعتقادات: ١٠٩، ١١٠.

(٤) صحيح البخاري ٧٧٣: ١/ ٢٧٧.

الجرح، (مخدوج به) من الخداج وهو النقصان، والمعنى أن كلاليب الصراط تجرحه فتنقص من جسده، وقوله ﷺ: (ومنهم المخردل ثم ينجو)، فهو المرمي المصروع، وقيل: المقطع، تقطعه كلاليب الصراط، يقال: خردلت اللحم: أي فصلت أعضاءه وقطعته.

أما قوله ﷺ: (المجازي حتى ينجى) فالمجازى: من الجزاء، والمعنى والله أعلم أن ما يحدث له على الصراط من تقطيع وترويع عظيمين إنما هو جزاء له على أعماله الفاسدة، وعلى تقصيره في حق ربه في حياته الدنيا(١).

كما أوضح ﷺ أن هنالك من يزحف على الصراط زحفاً كما في حديثه ﷺ قال: (تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا)(٢).

أما آخر الناس مروراً على الصراط فهو المسحوب كما في حديثه ﷺ المتقدم، بقوله: (فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، قَالَ: يَخِرُّ يَدًا وَيُعَلِّقُ يَدًا وَيَخِرُّ رِجْلا وَيُعَلِّقُ رِجْلا وَتَضْرِبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، فَيَخْلَصُوا)، وقوله ﷺ: (حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا)(٣).

المقصد الثاني: الرحمة الإلهية في إكرام النبي ﷺ وأمته، وتجسيد استقامتهم

ورد في الروايات الصحيحة إن النبي ﷺ وأمته أول من يجوز على هذا الصراط، وبناءً على اختلاف مراتب الناس في هذا الجواز، فقد قسمنا هذا المقصد الى فرعين، الأول في التكريم الإلهي للنبي ﷺ وأمته في جواز الصراط، والثاني في تجسيد الاستقامة في الحياة الدنيا لأثرها في هذا الجواز وبيان دقتها.

---

(١) (يُظَر) االنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ١٤، و ٣/ ٢٠، وعمدة القاري: ٢٠/ ٣٢٠.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٨٦.

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٠٦.

١ـ التكريم الإلهي للنبي ﷺ وأمته وبيان فضلهم

وكما في جميع المواقف يوم القيامة وما يظهره تعالى لنبينا محمد ﷺ من الفضل والتكريم على كافة الخَلق، فكذلك في الصراط، إذ يكون ﷺ هو وأمته أول من يجيزه برحمة الله تعالى وتفضله، إذ قال ﷺ: (وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ)[1] الحديث.

فقوله ﷺ: (فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ)، ظاهراً بكونه ﷺ أول من يمضي عليه ويقطعه، ويظهر من قوله أيضاً أن أول أتباع الأنبياء مروراً هم أمة محمد ﷺ، وهو إكراماً لهم من الله تعالى، إذ إنهم أول من يجوز الصراط من الأمم، وهو ما يتوضح من الروايات المتقدمة وغيرها، منها ما ورد من قول النبي ﷺ: (يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فأكُونُ أوَّلَ مَن يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بأُمَّتِهِ، ولَا يَتَكَلَّمُ يومَئذٍ أحَدٌ إلَّا الرُّسُلُ، وكَلَامُ الرُّسُلِ يَومَئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ)[2].

كما يتبين من الروايات الشريفة مكانه ﷺ في ذلك الموقف العصيب إلى أن تمر أمته كلها ـ وهو على الصراط، وذلك لقوله ﷺ: (ونَبِيُّكُمْ قائِمٌ علَى الصِّراطِ يقولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ)[3].

وكذلك الأنبياء والملائكة عليهم السلام على الصراط وهم يدعون سلامة المؤمنين من الهلاك، كما في قوله ﷺ قال: (ثُمَّ يُوضَعُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، وَالْأَنْبِيَاءُ بِنَاحِيَتَيْهِ قَوْلُهُمْ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ)[4]، وقوله ﷺ: (يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ) فذكر الصراط، قال ﷺ: (بِجَنْبَتَيْهِ مَلَائِكَةٌ يَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ)[5].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٦٥.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢٧٧.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١٨٦.

(٤) مسند الامام أحمد: ٣/ ١٦.

(٥) المصدر نفسه: ٣/ ٢٦.

بل وحتى المسلمين إنما يكون شعارهم على الصراط ودعاءهم السلامة من هذا الموقف، كما في قوله ﷺ: (شِعَارُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّم)[١].

وكل من يقف على جنبتي الصراط إنما ليدعو لمن يجوزونه من المؤمنين بالسلامة من هول الموقف ومن الوقوع في جهنم، فيشاركون المسلمين في هذا الدعاء والنداء (اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّم)، وكما ثبُت من الروايات أن الملائكة والأنبياء، يكونون بناحيتيه، ونبينا ﷺ قائمٌ عليه يدعو لأمته ليكون أول من يجوز بها الى جنات النعيم بإذنه تعالى.

٢ـ تجسيد الاستقامة في الحياة الدنيا وتأثيرها في جواز الصراط

من المقاصد التي نستنبطها مما ورد في الصراط وصفاته أنه لا يتوقف فقط على الجسر الممدود على متن جهنم وصعوبة اجتيازه الى الجنة، بل إنَّ له مقصداً مهماً في تجسيد استقامة الخَلق على الطريق الحَق الذي يرتضيه الله تعالى لعباده في الدنيا قبل الآخرة.

ذلك لأن نجاة أمته ﷺ لن تكون شاملةً للجميع من أول الأمر، بل إنها تكون بحسب ما تجسدَ في العباد من الاستقامة والدين الحق في الحياة الدنيا فتكون سرعة مرورهم تكريماً لهم من الله تعالى، لأن هذا الصراط إنما هو تجسيد لمعنى الصراط الذي ألزم به عباده في الدنيا، فمن عبد الله حق عبادته وإن تضايق عليه العيش والحياة فلا يخرج عن صراط الله تعالى ومنهجه الذي أمر باتباعه، اتسع أمامه الصراط الممتد على متن جهنم، ليكون من الذين أكرمهم تعالى ويجوزونه مع نبيهم ﷺ، ومن أضر بنفسه وأهلكها بالمعاصي والذنوب، فتجاوز حدود الله تعالى وأحكامه ضاق عليه ذلك الصراط غداً[٢].

وقد ورد عن العسكري عليه السلام في الصراط قوله: (الصراط المستقيم صراطان، صراطٌ في الدنيا وصراطٌ في الآخرة، فأما الطريق المستقيم في الدنيا فهو ما قصُر من الغلو وارتفع

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢/٤٤٣.

(٢) (يُنظَر) كبرى اليقينيات الكونية: ٣٥٤.

عن التقصير، واستقام، فلم يعدل الى شيء من الباطل، والطريق الآخر فهو طريق المؤمنين الى الجنة، الذي هو مستقيم، لا يعدلون عن الجنة الى النار، ولا الى غير النار سوى الجنة)[1].

لذلك عبَّر المحققون من العلماء بمثل هذه التعبيرات، ومنهم السيد الشيرازي في كتابه المظاهر الإلهية بقوله: (الصراط طريق الحق ودين التوحيد، الذي لجميع الأنبياء والرسل ومتابعيهم، والصراط المستقيم الذي إذا سلكتَ أوصلك الى الجنة، هو صورة الهدى الذي أنشأته لنفسك ما دمت في عالم الطبيعة من الأعمال القلبية، فهو في هذه الدار كسائر المعاني الغائبة عن الحواس، لا يُشاهَد له صورةً حسية، فإذا انكشف غطاء الطبيعة بالموت، يُمَد لك يوم القيامة جسراً محسوساً على متن جهنم، أوله في الموقف، وآخره على باب الجنة)[2].

كما يصف هذا الصراط الشيخ الالوسي حيث يقول في تفسيره: (إن الصراط المستقيم يتنوع إلى عام للناس وخاص بخواصهم، والكل منهما صراط المنعم عليهم على اختلاف درجاتهم فالأول جسر بين العبد وبين الله سبحانه ممدود على متن جهنم الكفر والفسق والجهل والبدع والأهواء، وهو الاستقامة على ما ورد به الشرع الشريف القويم علماً وعملاً وخلقاً وحالاً، وهو الذي يظهر في الآخرة على متن جهنم الجزاء ممثلاً مصوراً بالتمثيل الرباني والتصوير الإلهي على حسب ما عليه العبد اليوم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد دون ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[3].

وكذلك الحال بالنسبة لجميع المسلمين، فإنهم بقدر إيمانهم واستقامتهم في الحياة الدنيا يكون سيرهم على هذا الصراط وتجاوزهم له، ويبين السيد كمال الحيدري معنى الصراط في القرآن الكريم بقوله (ويوضح القرآن الكريم المعنى الحقيقي للصراط المستقيم، حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٤.

(٢) المظاهر الإلهية: ٤/ ١٥٢.

(٣) روح المعاني: ١/٩٢، ٩٣.

الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، فالصراط المستقيم وفقاً لهذه الآية هو التوحيد والدين الابراهيمي، والحنيفية الابراهيمية، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، وبهذا يتضح إن القرآن الكريم لا يريد من الصراط المستقيم قطعة من المكان أو مسافة مكانية ننتقل عبرها من نقطة الى أخرى بقطع مسافة معينة)[١]، إنما ذكره تعالى تذكيراً للعباد لما يجازيهم بهم إن ابتعدوا عن هذه القيم الدينية، وترغيباً لهم للقيام بها ينجيهم من الوقوع عنه.

وقد ربط الدكتور نورالدين أبولحية بين الانحراف في صراط الدنيا متمثلاً في الدين والقيم الإسلامية وعلاقته بالانحراف عن صراط الآخرة بقوله: (إن أي انحراف عن الدين، والقيم النبيلة التي جاء بها ستكون سبباً في منع المار على الصراط من الاستمرار في سيره، الذي يرحل به إلى الجنة، ذلك أن الجنة لا يكفي لدخولها مجرد حصول الشخص على حسنات كثيرة، بل تقتضي كذلك الطهارة والطيبة، ولهذا ورد في النصوص الكريمة الإخبار بأن الجنة لا يدخلها، بل لا يشم ريحها من لم تتوفر فيه الطيبة الكافية، والفطرة الأصيلة، كما قال تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣])[٢].

لذلك كان بيان شمولية الورود على جهنم في الآية الكريمة وفي الإخبار عنه ﷺ مدعاةً لتذكير الإنسان نفسه بحرصه الدائم للحصول على تمام الاستقامة التي تنجيهم من هذا الورود، والذي لطالما قد تفكر عباد الله الصالحين فيها وحافظوا عليها.

المقصد الثالث: توافق الصراط مع القدرة والتكليف، وتطهير المؤمنين لدخولهم الجنة

الصراط حق، وهو ممر جميع الخلق، فهو طريق أهل الجنة وأهل النار، وأنه يتسع لأهل الجنة ويتسهل سلوكه لهم، ويضيق على أهل النار ويشق سلوكه حتى يتعثروا، ولا يكون

---

(١) المعاد ـ رؤية قرآنية: ١/ ٣٢١.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٣٩٤.

شاقاً على الجميع[1]، إلا أنه نظراً لما ورد من صفاته وما فيه من عقبات، فقد أُشكل عليه في كونه قد لا يتوافق مع التكليف في الآخرة، أو أن ما ورد فيه من الصعوبات في اجتيازه قد يخلو من الهدف والحكمة، وبناءً على ذلك فقد قسَّمنا هذا المقصد الى فرعين، الأول في توافقه مع عدالة الله تعالى والتكليف في الآخرة، والثاني في دوره في تطهير المؤمنين لتأهيلهم لدخول الجنان، وكما سيأتي بيانه.

١ـ توافق الصراط مع القدرة الإلهية والتكليف في الآخرة

قال أبو الصلاح الحلبي (ت٤٤٧هـ)[2] فيمن يعترض على وجود الصراط لعدم وجود التكليف في الآخرة بقوله: (وإن قيل ما معنى الصراط وأنتم لا تجيزون التكليف في الآخرة؟ قيل: يحتمل أحد أمرين: أحدهما أن يكون المراد به طريق الجنة والنار، فأما أهل الجنة فيتسع لهم مسلكه مقترناً بتعظيم الملائكة وتبشيرهم بالثواب فيكون ذلك قسطاً من ثوابهم، وأما أهل النار فيضيق عليهم مسلكه ويصعب عليهم قطعه مقترناً بإهانة الزبانية واستحقاقهم وسحبهم على وجوههم إلى النار فيكون ذلك قسطاً من عذابهم.

والذي يقتضيه الظاهر كونه طريقاً لأهل الجنة خاصة؛ لأن كل موضوع ذكر سبحانه فيه الصراط وصفه بالاستقامة ومدح سالكه، فمنه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، وأمثال ذلك، وهذا الظاهر مانع من كونه، وقد سمى الله تعالى برهان الحق صراطاً، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

---

(١) (ينظر) الذخيرة في علم الكلام: ٥٣٢، أوائل المقالات: ٨٩، الإقتصاد فيما يتعلق بالإعتقاد: ٢٢٢.

(٢) أبو الصلاح تقي الدين بن نجم التقي الحلبي، نُعِت بخليفة المرتضى في علومه، كونه أحد تلاميذه المبرزين، عالم فقيه متكلم ومحدث، له المصنفات الكثيرة، منها: [البرهان على ثبوت الإيمان]، و[دفع شبه الملاحدة]، و[الكافي]، وغيرها، توفي رحمه الله سنة (٤٤٧هـ). (يُنظَر) رياض العلماء وحياض الفضلاء: ١/ ٩٩، ومعجم طبقات المتكلمين: ٢/ ١٩٧.

سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، فذكر الصراط هاهنا لا يحتمل الا برهان الحق الذي يُعبَد به سبحانه)[١].

أما توافقه مع القدرة الإلهية، فإنه يتبين من خلال مناقشة ثبوت الصراط عند جميع المسلمين، حيث أنكرَ المعتزلةُ صفته من انه ادق من الشعرة وأَحدُّ من السيف[٢]، وقد استدلوا على ذلك بأدلة عقلية، ذكرها وردودها علماء عدة، كالغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد، والجويني في الارشاد والقرطبي في التذكرة وغيرهم، ومنها:

آ ـ قالوا: من أثبته انه ادق من الشعر وأحد من السيف وعلى تقدير كونه كذلك لا يمكن عقلاً العبور عليه وإن أمكن العبور لا يمكن إلا مع مشقة عظيمة، ففيه تعذيب للمؤمنين، ولا عذاب عليهم يوم القيامة، فعبر عنه بالطريق، قالوا: وإنما قلنا بذلك لأن تلك الدار ليست هي بدار تكليف، حتى يصح إيلام المؤمن وتكليفه المرور على ما هذا سبيله في الدقة والحدة ايضاً، فقد ذكرنا ان الصراط هو الطريق، وما وصفوه ليس من الطريق بسبيل[٣].

أما جواب العلماء على ذلك: فإن كان هذا السؤال صادراً ممن ينكر قدرة الله تعالى، فإن الكلام حول إثبات قدرته تعالى المُطلقة قد فُرِغ منه في إثبات صفات الله تعالى والأدلة عليها.

وان كان هذا السؤال صادراً من معترف بقدرة الله، فإن الجواب يكون: بأن المشي على الصراط ليس بأعجب من المشي في الهواء أو على الماء، والله تعالى قادر على خلق قدرة للإنسان على اجتياز الصراط، أو المشي على الماء والهواء، ولا يخلق في ذات الإنسان هوياً أو

---

(١) الكافي في الفقه: ٤٥٣.

(٢) مع إنهم أثبتوا كونه طريقاً بين الجنة والنار، يتسع على أهل الجنة ويضيق على أهل النار إذا راموا المرور إليه، إلا إنهم خالفوا في صفته كونه أدق من الشعر وأحدُّ من السيف (يُنظَر) شرح الأصول الخمسة: ٧٣٧.

(٣) (يُنظَر) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: ٢٠٥، وشرح الاصول الخمسة: ٧٣٧، ٧٣٨، والمواقف: ٥٢٣/٣.

سقوطاً الى الاسفل، ولا يخلق في الهواء اعرافاً وخللاً فإذا أمكن هذا في الهواء، فالصراط أثبت من الهواء بكل حال.

ثم ان الله تعالى قادر على ان يُمكن من العبور عليه، ويسهله على المؤمنين بحيث لا يلحقهم تعب ولا نصب، حتى أن منهم من يجوزه كالبرق، ومنهم كالريح الهابة، ومنهم كالجواد، ومنهم من تجوزه رجلاه وتعلق يداه الى غير ذلك[1].

٢ـ ذكر القاضي عبد الجبار المعتزلي قول مشايخه من (ان الصراط إنما هو الأدلة الدالة على هذه الطاعات التي من تمسك بها نجا وأفضى الى الجنة، والأدلة الدالة على المعاصي التي من ركبها هلك واستحق من الله تعالى النار)، وقد ردَّ على ذلك بقوله: (وذلك مما لا وجه له؛ لأن فيه حملاً لكلام الله تعالى على ما ليس يقتضيه ظاهره، وقد كررنا القول في أنَّ كلام الله تعالى مهما أمكن حمله على حقيقته، فذلك هو الواجب دون أن يُصرَف عنه الى المجاز)[2]، وكل ما ورد من النصوص في الصراط، فإن ظاهرها يؤيد أنه طريق على متن جهنم يصل به المؤمنون الى الجنّة وتزل به أقدام أهل النار.

٢ـ تطهير المؤمنين لدخولهم الجنة

ويتمثل هذا المقصد في حتمية مرور جميع الخَلق على الصراط الذي ورد في القرآن الكريم حسب رأي أكثر العلماء[3] في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

فيقول الطوسي (ت٤٦٠هـ): (يقول الله تعالى للمكلفين انه ليس منكم أحد إلا وهو يرد جهنم، فان الكناية في قوله تعالى ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ راجعة إلى جهنم بلا خلاف. لقوله

---

(١) قواعد العقائد: ٢٢٤، و(يُنظَر) الإرشاد: ٣٨٠، الإقتصاد في الإعتقاد: ١٥٩، والتذكرة: ٧٥٨.

(٢) شرح الاصول الخمسة: ٧٣٨، و(يُنظَر) هداية المريد لشرح جوهرة التوحيد: ١٠٩٦/٢.

(٣) الإنصاف: ٤٩، و(يُنظَر) التبيان في تفسير القرآن: ٧/ ١٤٢، مجمع البيان: ٦/ ٣٣٨، والمحرر الوجيز: ٤/ ٢٧.

تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، يعني في جهنم)[1].

وقال الطبرسي (أن ورودها هو الوصول إليها والإشراف عليها لا الدخول فيها، والحجة القاطعة في ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١])، ثم يقول: (فلم يقل تعالى وندخل الظالمين، وإنما قال (نَذَرُ) ونترك للشيء الذي قد حصل في مكانه، ثم اختلف هؤلاء فقال بعضهم إنه للمشركين خاصة ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ المراد به منهم (المشركين فقط). وقال الأكثرون إنه خطاب لجميع المكلفين فلا يبقى بر ولا فاجر إلا ويدخلها فيكون برداً وسلاماً على المؤمنين، وعذاباً لازماً للكافرين)[2].

وقد ذكر الرازي (ت٦٠٦هـ) إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار[3]، لأن ابعادهم المذكور في الآية يدل على عدم دخولهم فيها[4]، كما قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ) إنَّ (ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها)[5].

واستندَ أكثرهم في قولهم هذا على ما قاله عبدالله بن مسعود: إن ورودهم هو جوازهم على الصراط، لما رواه عن رسول الله ﷺ في الآية الكريمة قوله: (يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْعِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرِّحَالِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِمْ)[6]، كما روى عن الحسن وقتادة نحو ذلك[7].

ويدل عليه أيضاً ما رُوي عن النبي ﷺ قال: (ثمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ

---

(١) (ينظَر) التبيان في تفسير القرآن: ١٤١/٧، والاعتقادات في دين الإمامية: ٧٠.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٦/ ٣٣٨، ٣٣٩، و(يُنظَر) تفسير مفاتيح الغيب: ٢١/ ٥٥٧.

(٣) (يُنظَر) مفاتيح الغيب: ٥٥٧/٢١.

(٤) (يُنظَر) اضواء البيان في ايضاح القرآن: ٤٧٨/٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢٥٦/٥.

(٦) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٤٠٧.

(٧) (يُنظَر) اضواء البيان: ٤٨١/٣، تفسير مجمع البيان: ٦/ ٣٣٨، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢٧/٤.

الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ)، قِيلَ: يا رسول الله، وما الجسر؟ قَالَ ﷺ: (دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)[1].

ومسالك الناس على الصراط في سرعة الجريان والمرور على حسب مقاماتهم وعلى قدر أعمالهم، فمنهم من يمر (كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ) في بيان السرعة، (وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ): هي جمع أجواد، وهو جمع جواد، وهو الفارس السابق الجيد، فجواد نعت من جاد إذا أسرع في السير، و(الرِّكَابِ) بكسر الراء عطف على الخيل، والمراد بها الإبل، ولا واحد له من لفظه، (نَاجٍ): الفاء للتفريغ أو التفضيل، وقد قسم المارة على الصراط بطريق الإجمال على ثلاث فرق، بحسب مراتبهم في العقيدة والعمل والمعرفة، والمعنى: فمنهم ناج (مُسَلَّمٌ): بتشديد اللام المفتوحة أي: ينجو من العذاب ولا يناله مكروه من ذلك الباب، (وَمَخْدُوشٌ) أي: ومنهم مجروح (مُرْسَلٌ)، (وَمَكْدُوسٌ)، أي مدفوع (فِي نَارِ جَهَنَّمَ): يقال: كدس إذا دفع من ورائه فسقط، وهم الذين لا منجا ولا ملجأ لهم، المقضي بالخلود عليهم[2].

ذلك إن أي انحراف عن الدين إنما يكون بسبب المعاصي التي يُقدم عليها الإنسان في حياته، فلذلك تكون الصعوبة في سير الإنسان على الصراط سبباً في تطهير الله تعالى له من هذه المعاصي وتربيته له، وتزكيةً لنفسه، كي يكون أهلاً لتطييبه ودخوله الجنة، ولذلك فقد هيأ تعالى لعباده بعظيم لطفه وقدرته المرور عليه وبسرع متفاوتة كلٌ حسب يقينه وإيمانه ونوره وما قدمه من أعمال خلال حياته، فقال ﷺ: (فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ

---

(١) صحيح مسلم: ١/١٦٧.

(٢) (يُنظَر) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨/٣٥٥١.

فِي نَارِ جَهَنَّمَ).

المقصد الرابع: تربية المؤمنين على صالح الأعمال في الحياة الدنيا

مع كون الصراط وما ورد فيه من العقبات من المواقف الصعبة والكرب الشديدة التي يمر بها الناس يوم القيامة، إلا إنه قد ورَدَ عن النبيﷺ أيضاً التنبيه الى العديد من الأعمال التي من شأنها أن تنفس أو تقلل من شدائد هذه الكرب والأهوال على من قام بها بنفس طيبة مبتغياً رضا الله تعالى ليكون سبباً في نجاته والمرور عليه، ومن هذه الأعمال:

١ـ الإيمان الخالص بالله تعالى، مع كونه من العبادات الواجبة، إلا إننا نستنبط أهميته العظمى من حديثه ﷺ بعد ذكره لأصناف الناس على الصراط في قوله: (... فَمِنْهُمْ مَن يُوبَقُ بعَمَلِهِ، ومِنْهُمْ مَن يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حتَّى إذَا أرَادَ اللَّهُ رَحْمَةَ مَن أرَادَ مِن أهْلِ النَّارِ، أمَرَ اللَّهُ المَلَائِكَةَ: أنْ يُخْرِجُوا مَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فيُخْرِجُونَهُمْ ويَعْرِفُونَهُمْ بآثَارِ السُّجُودِ، وحَرَّمَ اللَّهُ علَى النَّارِ أنْ تَأْكُلَ أثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إلَّا أثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدِ امْتَحَشُوا فيُصَبُّ عليهم مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بيْنَ العِبَادِ)[1].

وكذلك ما رُويَ من قولهﷺ: (فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ)، قَالَ: (فَيُخْرَجُونَ) قَالَﷺ: (ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ قِيرَاطٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ)، قَالَﷺ: (فَيُخْرَجُونَ)، قَالَﷺ: (ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ)، قَالَ: (فَيُخْرَجُونَ)[2].

٢ـ أداء الواجبات والفرائض، حيث جاء في العديد من الروايات والآثار ما يدل على سؤال الإنسان عن أدائه لصلاته وللأمانة وصلته للرحم وغيرها من الواجبات، وأن هذه

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٢٧٧

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٦.

الأمور ستكون بشكل عقبات تعترضه على الصراط، فإن كان مؤدياً لها وحافظاً لحقوقها سلك صراطه مستقيماً ونال رضاه تعالى عليه.

ففي قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، ومما رواه الشيخ الصدوق عن الإمام الباقر، قوله عليه السلام: (لَمَّا نزلت هذه الآية سُئِلَ عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: (أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ أَنَّ اللهَّ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا وَقَفَ الْخَلَائِقَ وجَمَعَ الْأَوَّلِينَ والْآخِرِينَ أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ أَخَذَ بِكُلِّ زِمَامٍ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مِنَ الْغِلَاظِ الشِّدَادِ ولَهَا هَدَّةٌ وتَحَطُّمٌ وزَفِيرٌ وشَهِيقٌ وإِنَّهَا لَتَزْفِرُ الزَّفْرَةَ فَلَوْلَا أَنَّ اللهَّ عَزَّ وجَلَّ أَخَّرَهَا إِلَى الْحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الْجَمِيعَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ يُحِيطُ بِالْخَلَائِقِ الْبَرِّ مِنْهُمْ والْفَاجِرِ فَمَا خَلَقَ اللهُّ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ مَلَكٍ ولَا نَبِيٍّ إِلَّا ويُنَادِي يَا رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي وأَنْتَ تَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ثُمَّ يُوضَعُ عَلَيْهَا صِرَاطٌ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ عَلَيْهِ ثَلَاثُ قَنَاطِرَ الْأُولَى عَلَيْهَا الْأَمَانَةُ والرَّحْمَةُ والثَّانِيَةُ عَلَيْهَا الصَّلَاةُ والثَّالِثَةُ عَلَيْهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَيُكَلَّفُونَ الْمَمَرَّ عَلَيْهَا فَتَحْبِسُهُمُ الرَّحْمَةُ والْأَمَانَةُ فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا حَبَسَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا كَانَ الْمُنْتَهَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ ذِكْرُهُ وهُو قَوْلُ اللهَّ تَبَارَكَ وتَعَالَى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾)[1] الحديث، حيث يذكر الشيخ الصدوق إن المرصاد هو اسم عقبة من عقبات الصراط[2].

ومما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أبو ذر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (حَافَتَا الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّحِمُ والْأَمَانَةُ فَإِذَا مَرَّ الْوَصُولُ لِلرَّحِمِ الْمُؤَدِّي لِلْأَمَانَةِ نَفَذَ إِلَى الْجَنَّةِ وإِذَا مَرَّ الْخَائِنُ لِلْأَمَانَةِ الْقَطُوعُ لِلرَّحِمِ لَمْ يَنْفَعْهُ مَعَهُمَا عَمَلٌ وتَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ فِي النَّارِ)[3].

ويدل عليه أيضاً حديث أبي هريرة وحذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله عندما ذكرا ذهاب الناس إلى آدم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد عليهم السلام، ثم يقول صلى الله عليه وآله: (وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ

---

(١) روضة الكافي: ٧/٢٤.

(٢) الاعتقادات: ٧٢.

(٣) الكافي للكليني: ٢/ ١٥٢.

وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا)[1].

وهذه الروايات وغيرها مما يبين ويؤكد أهميتهما، والظاهر والراجح أنهما تقومان كشيئين، ولا يعلم حقيقتهما إلا الله عز وجل، وذكر ابن حجر(ت٨٥٢هـ) المعنى بأن الأمانة والرحم لعظم شأنهما وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن، والمواصل والقاطع، فيحاجان عن المحق، ويشهدان على المبطل[2].

٣ـ الابتعاد عن ظلم العباد، وقد أخرج الإمام أحمد (عن جابر بن عبد الله عن رجل: قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ـ أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ ـ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا) قَالَ: قلنا: وما بُهما؟ قَالَ: (لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ [بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ] قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ) قَالَ: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله عزَّ وجل عُراةً غرلاً بُهماً؟ قَالَ ﷺ: (بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)[3].

وجاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام قوله: (ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوت اخذه وهوله بالمرصاد على مجاز طريقه، وبموضع الشجا من مساغ ريقه)[4].

كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (المرصاد قنطرةٌ على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد)، وقال عطاء: (يعني يجازي كل واحدٍ، وينتصف من الظالم للمظلوم)[5].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٨٦.

(٢) (يُنظَر) فتح الباري: ١١/ ٤٥٣.

(٣) مسند الامام أحمد: ٣/ ٤٩٥،.

(٤) مجاز طريقه أي مسلكه وموضع جوازه، والشجا: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه، ومساغ ريقه: ممره، نهج البلاغة: ١/ ١٦٨.

(٥) الاعتقادات: ٧٢، وتفسير مجمع البيان: ١٠/٢٧١، و(ينظَر) عقود المرجان في تفسير القرآن: ٥/٤١٧.

٤ـ الملكات الطيبة والطاعات، فمما وردَ أن للملكات الطيبة التي امتلكها الإنسان في الدنيا أثرها في تخفيف العقوبات عنه، أو في نجاته منها، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ورأيتُ رجلًا من أمَّتي قائمًا على الصِّراطِ يرعَدُ كما ترعَدُ السَّعْفةُ في ريحٍ عاصفٍ فجاءه حُسنُ ظنِّه بالله عزَّ وجلَّ فسكَّن رَعدتَه ومضَى ورأيتُ رجلًا من أمَّتي يزحَفُ على الصِّراطِ ويحبو أحيانًا ويتعلَّقُ أحيانًا فجاءته صلاتُه عليَّ فأنقذته وأقامته على قدمَيْه)[1].

ومنها الذهاب الى المساجد، لما رواه الطبراني عن أبي الدرداء، وهو يقول لابنه: يا بني، ليكن المسجد بيتك، فإن المساجد بيوت المتقين، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ يَكُنِ الْمَسْجِدُ بَيْتَهُ ضَمِنَ اللهُ لَهُ الرَّوْحَ، وَالرَّحْمَةَ، وَالْجَوَازَ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى الْجَنَّةِ)[2].

٥ ـ قضاء حاجات المؤمنين وسلوك طريق العلم ـ حيث ورد عنه ﷺ: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)[3]، وقوله: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ)[4].

ومن ذلك تيسير الإنسان ما عسر على غيره، مما رُويَ عن النبي ﷺ قوله: (مَنْ كَانَ وُصْلَةً لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ فِي مَبْلَغِ بِرٍّ أَوْ تَيْسِيرِ عُسْرٍ أَجَازَهُ اللهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةَ عِنْدَ دَحْضِ الْأَقْدَامِ)[5].

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٠١.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني: ٧/ ١٥٨.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣/ ١١٩٦.

(٥) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: ٢/ ٢٨٧.

ويتبين لنا بعد دراستنا للمقاصد والمعاني من الايمان بالصراط يوم القيامة بأن أولها تجليات العدالة الإلهية في جميع مواقف القيامة، فضلاً عن تكريم النبي ﷺ وأمته، كذلك من مقاصده ما يتعلق بتثبيت عقيدة هذه المسألة في النفس المسلمة وتأثيرها عليها في ترقي السلوك الإنساني بالتقرب الى الله تعالى بصالح الأعمال وسلوك طريق الاستقامة والتقوى لأجل تطهير الإنسان من الذنوب، فضلاً عن تربيته وترقيته لأجل الحصول على أعلى مراتب النجاة من ذلك الموقف.

فشتان الأمر بين التكريم بالمرور كالبرق والأنوار التي تسعى بين الأيدي، وبين المرور زحفاً أو الوقوع في دركات الجحيم والعياذ بالله تعالى، وقد رسم هذه الصورة الغزالي (ت٥٠٥هـ) في الإحياء بقوله (فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أول قدم من الصراط وتردى، فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كُلِّفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعتَ عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية، والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتنازلهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون،. فكيف بك لو زلَّت قدمك ولم ينفعك ندمك، فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه ف﴿يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢]، و﴿يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧])[١]

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٢٥.

ثالثاً: البشارات والتكريم الإلهي في الحوض والشفاعة

سأتناول في هذا القسم المعاني والمقاصد التي تتعلق بالكرامات الإلهية في الموقف، وما يميز به تعالى أنبياءه وأولياءه الصالحين يوم القيامة، ومن خلال ما ورد في ذلك من النصوص الكريمة وتفاسيرها وشروح الحديث الشريف، فقد وجدنا أنَّ الأنسبَ تقسيمها الى فرعين، هما: ١ـ الحوض.

٢ـ الشفاعة.

وقدمتُ في كل فرعٍ منهما بتمهيد عام في المفهوم، ثم أذكر ما ورد في النصوص الكريمة من المقاصد.

١. الحوض

من موارد الكرامات الإلهية في يوم القيامة، أنَّ العباد وبعدما يروا أعمالهم وعواقبها من خيرٍ أو شَر، وهم يومئذٍ فزِعون، يؤمِّن تعالى أولياءه المؤمنين ويكرمهم ليروي ظمأهم من حوض نبيه ﷺ.

وقد رأينا من خلال استقرائنا لما ورد في النصوص الكريمة، وكلام العلماء حول مسألة الإيمان بالحوض، أنه يمكن تصنيفها إلى مقاصدَ أربعة، هي:

المقصد الأول: تكريم الله تعالى للنبي ﷺ بالكوثر والحوض

المقصد الثاني: تكريم الله تعالى للمؤمنين الصادقين

المقصد الثالث: إذلال الله تعالى المغيرين والمبدلين للدين

المقصد الرابع: مكان الحوض نسبةً للصراط إنما هو لري المؤمنين بعدما يرَوه من الأهوال

وقد خصصنا كل مقصد منها بفرع خاص، وقدمنا لذلك بتمهيد في مفهوم الحوض وصفته.

تمهيد: مفهوم الحوض وصفته

مفهوم الحوض

الحوضُ في اللغة معروفٌ، والجمعُ حياضٌ وأحواض، وأصل حياض الواو لكن قلبت ياء لكسر ما قبلها.

وأصل اشتقاقه من حِضْت المَاء أحوضه حوضاً إِذا جمعته، والحَوْضُ مُجْتمعُ الماء معروف، وحَوْضُ الرسول ﷺ الذي يَسْقي منه أُمَّته يوم القيامة[1].

أما اصطلاحاً، فالحوض جسم مخصوص كبير متسع الجوانب يكون على الأرض المبدلة وهي الأرض البيضاء كالفضة، مَن شرِب منه لا يظمأ أبداً، ترده هذه الأمة، وهو الحوض الذي أخبر به الرسول ﷺ والذي تفضل الله به عليه ﷺ وجعله غياثاً لأمته[2].

وهو مورد كريم، يصله الماء من نهر الكوثر، الذى هو أحد أنهار الجنة، وماؤُه اشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب من المسك. والحوض متسع جداً، عرضه وطوله سواء، وكيزانه أكثر من نجوم السماء، ويشرب منه المؤمنون، ويكون سيدنا محمد ﷺ هو الساقي لهم.

وبناء على هذا كان الايمان بالحوض من العقائد المتفق عليها بين جميع المسلمين، وهوحق واجب، يُفَسَّق جاحده، لكثرة الأحاديث الواردة فيه والتي بلغت مبلغ التواتر.

أما عن طريق ثبوته فلم يثبت في القرآن إلا احتمالاً، وهو قوله تعالى:﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وفيه خلاف والمراد الأكثر منه انه الخير الكثير، وثبُت في السنة النبوية ومنه قوله ﷺ: (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ)[3]، وقوله ﷺ: (إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ

---

(١) (يُنظَر) العين: ١/ ٣٧٣، لسان العرب: ٧/ ١٤١، والمصباح المنير: ١٥٦/١.

(٢) (يُنظَر) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: ٣٠٢، وعون المريد: ١١١٩/٢.الايمان اركانه، حقيقته، نواقضه: ٦٧.

(٣) صحيح البخاري: ٢٤٠٤/٥، وصحيح مسلم: ١٧٩٢/٤.

لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَإِنِّي وَاللهِّ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا)[1]

فقوله (إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ) والفرط بفتح الراء وهو الذي يتقدم الواردة ليصلح لهم الحياض والدلاء، ومعنى فرطكم على الحوض أني سابقكم إليه، وقوله ﷺ: (وَإِنِّي وَاللهِّ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ) والمراد بالنظر هنا أي نظراً حقيقياً او بطريق الكشف، ففي الحديث دلالة على إثبات الحوض وأنه حوض حقيقي مخلوق موجود اليوم[2].

قال أبو الحسن الأشعري: (وأجمعوا، على أن لرسول الله ﷺ حوضاً يوم القيامة ترده أمته لا يظمأ من شرب منه)[3].

وقال الشيخ الصدوق: (حوض النبي محمد ﷺ حَق، عرضه ما بين أَيلة[4] وصنعاء، فيه من الأباريق عدد نجوم السماء، من شرِب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً)[5].

والإيمان بالحوض كالإيمان بالصحف والميزان والصراط، وكل هذه الأمور من مجوزات العقل، إذ ليس في شيء منها استحالة والسمع قد ورد بجميع ذلك فقد وردت الأخبار عن رسول الله ﷺ بصفة الصراط وبالحوض وصفته فوجب الإيمان بجميعه[6].

صفة الحوض

يتجلى مقصد القدرة الإلهية وعظمتها واضحاً في جميع أهوال الموقف، وكذلك حين استقرائنا لما ورد في حوضه ﷺ بما اتصف به ماءه، وسعته، وآنيته، فهو من خصائص

---

(١) صحيح البخاري: ١٣١٧/٣.

(٢) (يُنظر) إرشاد الساري: ٤٤٠/٢، والكواكب الدراري: ١٢٣/٧، والمنهاج: ٥٣/١٥، وعمدة القاري: ٢٣/ ٤٠.

(٣) رسالة إلى أهل الثغر: ٢٨٩.

(٤) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، معجم البلدان: ٢٩٢/١.

(٥) (يُنظَر) الإعتقادات في دين الإمامية: ٦٥، الدر الثمين: ٧٣، ٧٤، والعقائد الحقة: ٤٤٨.

(٦) الغنية في أصول الدين: ١٦٦.

النبيﷺ يوم القيامة التي اختصه بها الله تعالى أن أعطاه حوضاً واسع الأطراف، ماء هذا الحوض أبيض من اللبن وأحلى من العسل وريحه أطيب من المسك، وأكوابه كنجوم السماء؛ لما صحَّ عن النبي ﷺ من أقوالٍ في وصفه؛ حيث يدعو التفكر في هذه الأوصاف الى ما وسعته قدرة الله تعالى في خلقِه، ونِعَمه على أهل الموقف، وكذلك ترغيباً للأمة في بذل الأسباب الموجبة لوروده والشرب منه.

وقد تحدث ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر في سعته الفاظاً مختلفة مخاطباً لكل فئة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها، فيقول لأهل الشام إنه ما بين أذرخ وجربا، ولأهل اليمن: من صنعاء الى عدن، وهكذا، وتارة يقدر بالزمان فيقول ﷺ: مسيرة شهر، والمعنى المقصود إنه حوضٌ كبير متسع الجوانب والزوايا، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات، فخاطب ﷺ كل قوم بالجهة التي يعرفونها[1].

ومن هذه الروايات ما رُويَ أنَّ رسول الله ﷺ قال (إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ)، قالوا يا رسولَ الله أتعرفنا يومئذٍ! قالﷺ: (نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ)[2].

ومما ذكره محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه للحديث (إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ) أي بُعد ما بين طَرفي حوضي أزيد من بُعد أيلة من عدن، وهما بلدان ساحليان في بحر القلزم أحدهما وهو أيلة في شمال بلاد العرب والآخر وهو عدن في جنوبها هو آخر بلاد اليمن مما يلي بحر الهند، (وأحلى من العسل باللبن) أي المخلوط به.

---

(١) التذكرة: ٧٠٦، و(يُنظَر) طرح التثريب في شرح التقريب: ٣/ ٢٩٦.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٢١٧.

وماء حوض نبيا ﷺ يشخب (يصبُّ) فيه ميزابان من الجنة كما ورد في قوله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ)[1].

ومما ورد فيه قوله ﷺ: (إنَّ قَدْرَ حَوْضِي كما بيْنَ أَيْلَةَ وصَنْعاءَ مِنَ اليَمَنِ، وإنَّ فيه مِنَ الأبارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ)[2]، وقوله في حجة الوداع في مسجد الخيف: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَإِنَّكُمْ وَارِدُونَ [عَلَيَّ] الْحَوْضَ، حَوْضِي عَرْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَبُصْرَى، وَفِيهِ عَدَدُ النُّجُومِ قِدْحَانٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ)[3]، ومما رأيناه من الأحاديث الشريفة في الحوض وصفاته وغيرها، نستخلص مقاصدَ ومعاني عدة، نجمعها في الفروع التالية، هي:

المقصد الأول: تكريم الله تعالى النبي ﷺ بالكوثر والحوض

ويتجلى هذا المقصد في تخصيص الله تعالى له ﷺ بحوضه في ذلك الموقف، ورَي المؤمنين منه بيده الكريمة، وقد ورد كثيراً في السنة النبوية، أما في القرآن الكريم فقد جاء في بعض التفاسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، أنه هو حوضه ﷺ ؛كما ذهب بعض المفسرين إلى أنه نهر في الجنة أعطاه تعالى لنبيه الكريم إكراماً له، وعلى القولين في التفسير للآية الكريمة فإن مقصدهما إنما هو التكريم للنبي محمد ﷺ، وكما سيأتي بيانه.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٩٨.

(٢) صحيح البخاري: ٢٤٠٥/٥، الإبانة: ٢٤٦، والإنصاف: ٥٠.

(٣) الخصال: ٦٦/١، وبحار الأنوار، باب اللواء، ح٧: ١٩/٨، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١٠/ ٣٦٣.

القول الأول: الكوثر نهرٌ في الجنة وتكريم النبي ﷺ فيه

الكوثر على المشهور والمستفيض أَنه نهر في الجنة، وذكر الشيخ الطبرسي (٤٥٨هـ) في تفسيره بقوله: (اختلفوا في تفسير الكوثر، فقيل: هو نهرٌ في الجنة)[١].

كما ورد عن النَّبيِّ ﷺ قال: (بينما أنا أسيرُ في الجنَّةِ إِذ أنا بنهر حافَّتاهُ قِبابُ الدرِّ المجوَّف، قلت ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّكَ، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر شك هُدْبَة)[٢].

وذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره أغلب الروايات التي تضمنت أن الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله تعالى رسوله محمد ﷺ ومن طرق كثيرة متواترة تفيد القطع عند كثير من المحدثين بذلك.

وحسب هذا القول فإن هذا النهر هو غير الحوض المورود، لأن الحوض المورود يكون قبل حوض الكوثر في مكان آخر[٣].

كما يدلُّ على ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ: (دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ، قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللهُ)[٤].

قال المباركفوري[٥] والذي يدل على أن الكوثر غير الحوض قوله ﷺ: (قُلْتُ مَا هَذَا؟)، أي ما هذا النهر(قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ)، وهذا نص صريح في أن المراد بالكوثر في قوله تعالى

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/٣٥٣، و(يُنظَر) العقائد الحقة: ٤٤٨.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٦، وقد ورد في شرح الحديث (أذفر: شديد الرائحة الذكية).

(٣) (يُنظَر) تفسير القرآن العظيم: ٨/٤٩٨، وما بعدها، وجواهر الكلام في عقائد أهل الإسلام: ٢٥٢.

(٤) مسند الامام احمد: ٣/ ١٠٣.

(٥) عبد الرحمن المباركفوري، عالم مشارك في انواع من العلوم، وقرأ العلوم العربية والمنطق والفلسفة والهيئة والفقه واصول الفقه على علماء كثيرين. من مؤلفاته [السنن]، و[تحفة الأحوذي]. (يُنظر) معجم المؤلفين: ٥/ ١٦٦.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، هذا هو النهر المذكور في الحديث، وهو غير الحوض المورود[1].

ويقول في ذلك ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَب فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر، وأن عليه آنية عددَ نجوم السماء)[2].

وقد اختص تعالى النبي ﷺ بهذا النهر إكراماً له، وتمييزاً لفضله ومكانته، ويبين الرازي (ت٦٠٦هـ) سبب تسمية هذا النهر كوثراً، وهو إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً، أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة، كما روي أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهرٍ جارٍ، أو لكثرة الذين يشربون منها، أو لكثرة ما فيها من المنافع على ما قال ﷺ: (فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ)[3].

فدلَّ ما سقناه في هذا القول على أن الكوثر هو نهرٌ في الجنة وهو يختلف عن حوضه ﷺ إلا أنه فيه من التكريم العظيم للنبي ﷺ لأنه مما وعده تعالى به، فضلاً عمَّا بشره تعالى فيه من الخير الكثير له ولأمته.

القول الثاني: الكوثر هو الحوض

كما وردَ في بعض الأقوال أن الكوثر هو حوض النبي ﷺ وفيه من مقاصد التكريم ما لا يخفى، وهو قول عطاء من المفسرين وبعض المتكلمين من اشاعرة وماتريدية[4]، واستدلوا على ذلك بما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين اظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما اضحكك يا رسول الله قال ﷺ: (أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ)، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، ثم قال أتدرون ما الكوثر فقلنا الله ورسوله أعلم قال: (فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ

---

(١) (يُنظَر) تحفة الأحوذي: ٢٠٥/٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤٩٨/٨.

(٣) (يُنظَر) تفسير مفاتيح الغيب: ٣٢/ ٣١٣، وسيأتي ذكر الحديث كاملاً.

(٤) (يُنظَر) زاد المسير في علم التفسير: ٤٩٧/٤، ٤٩٨، والغنية في اصول الدين: ١٦٦/١، والمواقف: ٥٢٤/٣.

خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ[(١)] الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ)[(٢)].

كما ورد عنه ﷺ أن الكوثر هو الحوض الذي أعطاه الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ، قال ابن عباس فيه: (هو الخير الذي أعطاه الله إياه)[(٣)]، وذهب الى ذلك الإيجي(ت٧٥٦هـ) في المواقف، كما ذهب بن الهمام (ت٨٦١هـ) على أنه حوض عائد الى النهر والظاهر أنه خبر عن الخير الكثير، وان ذلك الخير الكثير هو الحوض[(٤)].

ويقول في ذلك الرازي(ت٦٠٦هـ): (إنه حوض والأخبار فيه مشهورة، ووجه التوفيق بين هذا القول، والقول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض، أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع)[(٥)].

ولعلَّ ما وُصِف به ماء الكوثر ما يؤيد بأن حوضه ﷺ يرد من مائه لاحتوائهما الصفات

---

(١) (يختلج: يُنتزَع ويُقتطع) المنهاج: ٤/ ١١٣.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٣٠٠، و(يُنظَر) تفسير مجمع البيان: ٣٥٣/١٠، والعقائد الحقة: ٤٤٨.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٩٠٠.

(٤) (يُنظَر) شرح المسامرة بشرح المسايرة: ٢٤٢.

(٥) وكذلك بقية الوجوه التي أوردها المفسرون في تفسيرهم للكوثر المذكور في السورة الكريمة، فجميعها تعود لذلك التكريم الإلهي الذي إختص به تعالى نبيه الكريم، حيث يذكرها الامام الرازي وعدد من المفسرين، ما روي بأن الكوثر أولاده ﷺ، لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد، فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم، أو علماء أمته، لأنهم كأنبياء بني إسرائيل، وهم يحبون ذكر رسول الله ﷺ وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين في الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه، لكنهم مختلفون في فروع الشريعة رحمة على الخلق، وقول أن الخير الكثير هو النبوة، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التي هي ثانية الربوبية، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وهو شطر الإيمان بل هي كالغصن في معرفة الله تعالى... ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم، ثم هو مبعوث إلى الثقلين، وهو الذي يحشر قبل كل الأنبياء.. (يُنظَر) تفسير مفاتيح الغيب: ٣١٤/٣٢.

ذاتها.

وقد وردَ في الحديث عنه ﷺ: (فَإِذَا هو بنَهَرٍ آخَرَ عليه قَصْرٌ مِن لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ فَإِذَا هو مِسْكٌ أذْفَرُ، قالَ: ما هذا يا جِبْرِيلُ؟ قالَ: هذا الكَوْثَرُ الذي خَبَأَ لكَ رَبُّكَ)[١].

لذلك فقد ذهب الكثير من العلماء الى هذا، ومنهم: الطبري (ت٣١٠هـ)، حيث قال ـ بعد أن ذكر أقوال العلماء في معنى الكوثر بأنه نهرٌ في الجنة أو الحوض: (أولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هو اسم النهر الذي أُعطيه رسول الله ﷺ في الجنة؛ وصفه الله بالكثرة لعظم قدره)[٢].

ومنهم الشوكاني(ت١٢٥٠هـ)، فبعد أن أورد بعض الأحاديث التي تثبت الكوثر بأنه نهر في الجنة قال: (فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة فيتعين المصير إليها وعدم التعويل على غيرها)[٣].

وبناءً على هذين القولين كليهما يتجسد فيهما ظاهراً التكريم والتشريف الذي خصَّ به تعالى النبي محمداً ﷺ في كلِّ موقف من مواقف القيامة، حتى فتحه باب الجنة ﷺ لأمته.

المقصد الثاني: تكريم الله تعالى للمؤمنين الصادقين

ومن المقاصد التي نستنبطها من النصوص الكريمة في الحوض، أنَّ الشرب منه يُعَد من بشارات المؤمنين الصالحين المحافظين على دينهم غير المبدلين، وهو أحد وجوه تكريمهم من الله تعالى ونبيه ﷺ، ومما يدل على ذلك ما ذكره الحاكم أنه ﷺ ذكر صالح صفات المؤمنين ثم أعقبه بذكر من يَرِد حوضه ﷺ، وذلك في قوله ﷺ: (مَوْعِدُكُمْ حَوْضِي عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، وَهُوَ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى مَكَّةَ، وَذَلِكَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ، فِيهِ أَمْثَالُ الْكَوَاكِبِ

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٣٠.

(٢) تفسير جامع البيان: ٢٤/ ٦٤٩.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٥٠٣.

أَبَارِيقُ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الْفِضَّةِ مَنْ وَرَدَهُ، وَشَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا)[١].

وكذلك ما ذكره المجلسي (ت١١١١هـ) في بحار الأنوار ما رُوي عنه ﷺ حين سُئِل عن الحوض فقال ﷺ: (أما إذا سألتموني عن الحوض فإني سأخبركم عنه: إن الله تعالى أكرمني به دون الانبياء، وإنه ما بين أيلة إلى صنعاء، يسيل فيه خليجان من الماء، ماؤهما أبيض من اللبن وأحلى من العسل، بطحاؤهما مسك أذفر، حصباؤهما الدر والياقوت، شرط مشروط من ربي لا يردهما إلا الصحيحة نياتهم، النقية قلوبهم، الذين يعطون ما عليهم في يسر، ولا يأخذون ماهم في عسر)[٢].

وقد ورد في الأحاديث الكريمة ما يشير إلى أنواع من المُنح التي تتاح في ذلك الموقف لأتباع الأنبياء الصادقين، وهو ذلك الشراب العظيم الذي يتلقونه من أيدي أنبيائهم وورثتهم جزاء لهم على إخلاصهم وصدق اتباعهم، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً)[٣].

كما يذكر ﷺ السبيل ليرِد المسلمون حوضه في ذلك الموقف، ومنها ما وردَ عن زيد بن أرقم من قوله ﷺ: (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا)[٤].

كذلك ما رُويَ عنه ﷺ، قال: (إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعِتْرَتِي، كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي: أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ أَخْبَرَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُونِي بِمَ

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ١/ ١٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٨.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٦٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ٦٦٣/٥.

تَخْلُفُونِي فِيهِمَا)[1].

ذلك أن المنجى من أهوال القيامة والآخرة هو التمسك بما أمر به الله تعالى، وقد أوضح ذلك المباركفوري في تحفة الأحوذي بأن المُراد بالأخذ بهم التمسك بمحبتهم ومحافظة حرمتهم والعمل بروايتهم والاعتماد على مقالتهم، وهو لا ينافي أخذ السنة من غيرهم لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فالتمسك بالكتاب هو العمل بما فيه، وهو الائتمار بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه، ومعنى التمسك بالعترة محبتهم والاهتداء بهديهم وسيرتهم[2].

كما يقول أن في قوله ﷺ: (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ) إشارة إلى أنهما بمنزلة التوأمين الخلفين عن رسول الله ﷺ، وأنه يوصي الأمة بحسن المخالقة معهما وإيثار حقهما على أنفسهم، كما يوصي الأب المشفق الناس في حق أولاده حرصاً عليهم، ويعضده ما في حديث الامام مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال: (قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيباً، بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ)، فحثَّ على كتاب الله تعالى ورغَّبَ فيه، ثم قال ﷺ: (وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي)[3][4].

وفي قوله ﷺ (لَنْ يَفْتَرِقَا) أي كتاب الله وعترتي في مواقف القيامة (حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ) أي الكوثر يعني فيشكرانكم صنيعكم عندي (فَانْظُرُوا بِمَ تَخْلُفُونِي)، أي كيف

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٧.

(٢) (يُنظَر) تحفة الأحوذي: ١٠/ ١٩٦.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٨٧٣.

(٤) (يُنظَر) تحفة الأحوذي: ١٠/ ١٩٦.

تكونون بعدي خلفاء، أي عاملين متمسكين بها[1].

كما يدل على هذا التكريم للمؤمن الصادق ما روي في الكافي عن الامام الباقر عليه السلام قوله صلى الله عليه وآله: (أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَعْرُوفُ وَ أَهْلُهُ، وَ أَوَّلُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ)[2].

فقد بشرَّ النبي صلى الله عليه وآله من عمل المعروف وعُرِفَ به أنه من أهله، وبأنه أول من يرِد عليه الحوض، كما ذكر صلى الله عليه وآله في بعض أحاديثه تسمية أول من يرويهم من حوضه ويدافع عنهم، منها انه صلى الله عليه وآله: قال: (إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ، أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ) فسُئِل عن عرضه، فقال صلى الله عليه وآله: (مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ)، وسُئِلَ عن شرابه، فقال صلى الله عليه وآله: (أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ)[3]، فهم مثال لأهل المعروف حيث بشرهم وكرَّمهم صلى الله عليه وآله بهذا الورود لحسن صنيعهم في الإسلام، كما ذكر ذلك النووي (٦٧٦هـ) في شرحه للحديث الشريف بقوله: (معناه أطرد الناس عنه، غير أهل اليمن ليرفض على أهل اليمن، وهذه كرامة لأهل اليمن في تقديمهم في الشرب منه مجازاة لهم بحسن صنيعهم وتقدمهم في الإسلام، والأنصار من اليمن فيدفع غيرهم حتى يشربوا كما دفعوا في الدنيا عن النبي صلى الله عليه وآله أعداءه والمكروهات ومعنى (يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ) أي يسيل عليهم)[4].

كذلك وردَت البشارة لفقراء المهاجرين تكريماً لهم كما روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: (حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ البَلْقَاءِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الشُّعْثُ رُءُوسًا، الدُّنْسُ ثِيَابًا الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابُ

---

(١) (يُنظَر) تحفة الأحوذي: ١٠/ ١٩٦.

(٢) الكافي: ٤/ ٢٨.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٩٩.

(٤) المنهاج: ١٥/ ٦٢.

السُّدَدِ)[1].

فالمهاجرين هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة والنبيﷺ سيدهم، أما (الشعث) أي المتفرقوا الشعر، و(الدنس) هو الوسخ (الذين لا ينكحون) بفتح الياء وكسر الكاف أي الذين لا يتزوجون، و(المتنعمات) أي لو خطبوا المتنعمات من النساء لم يُجابوا، (ولا يفتح لهم أبواب السدد)، جمع سدة وهي باب الدار سمي بذلك لأن المدخل يسد به، أي: لو دقوا الأبواب واستأذنوا الدخول لم يفتح لهم ولم يؤذن[2]، فبشرهم بأسبقيتهم بورود حوضه ﷺ فلا يظمئوا بعده، وهو بداية النَعيم والجزاء الأوفر الذي وعدهم به تعالى.

كذلك ما رُويَ في قصة قسم غنائم حنين، وفي آخره قوله ﷺ للأنصار: (إنَّكم ستَلقَون بَعْدِي أثرةً، فَاصبرُوا حتَّى تلْقَوْنِي على الحَوضِ)[3].

ففي هذه الأحاديث يتبين إكرام الله تعالى للمؤمنين المخلصين، حيثُ (أخبر ﷺ أن هذا الحوض يشمل جميع الصادقين من أمته، وفي جميع الأزمنة، وهو ما يؤكد أن معية رسول الله ﷺ مستمرة في الأمة، وليست خاصة بزمان معين، ففي الحديث أن رسول ﷺ أتى المقبرة فقال: (السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ لاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا)، قالوا: أَوَلَسْنَا بِإِخْوَانِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: (بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، إِخْوَانِي الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدُ)، قالوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدَ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ،

---

(١) سنن الترمذي: ٤/٦٢٩,

(٢) تحفة الأحوذي: ٧/ ١١٥.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٨١.

فَأَقُولُ: فَسُحْقًا فَسُحْقًا)[1].

وقد كان الأصل في هذه الأحاديث، وما تحمله من التحذير عن مخالفة هدي رسول الله ﷺ، مدعاة للتقوى والورع والحرص على الاتباع الصحيح لرسول الله ﷺ، والحرص على وحدة الأمة)[2].

المقصد الثالث: إذلال الله تعالى للمغيرين والمبدلين للدين والامراء الظالمين

من المُسَلَّم به أنَّ كل أُمةٍ تَدَّعي أنها على الصواب من أمرها، وأنها مَن يمثل الامة الصالحة، وكلٌ يدعي التمسك بالسنة النبوية الصحيحة، لكن، عند ذلك اليوم تتميز الامة الصالحة والمؤمنة عن غيرها بالحق، فكما ورد في الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ في أسبقية من يرِدون الحوض، فقد ذكر ﷺ كذلك من يطرده من حوضه يومئذٍ بسبب التبديل والتغيير، وهذا يدل على أن من خواص هذا الحوض أنه لا يمكن أن يشرب منه إلا الصادقون من أتباع الأنبياء، ولذلك يُمنع المحرفون والمبدلون لسنن أنبيائهم عن الاقتراب والشرب منه، ومن هذه الأحاديث:

١ـ ما رُويَ عن النبي ﷺ قوله: (لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحَبَنِي، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَرُفِعُوا إِلَيَّ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَلَأَقُولَنَّ: أَيْ رَبِّ أُصَيْحَابِي، أُصَيْحَابِي، فَلَيُقَالَنَّ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)[3].

وقريب من لفظه ما ورد عنه في قوله ﷺ: (يَرِدُ عَلَيَّ يَومَ القِيَامَةِ رَهطٌ مِن أَصحَابِي، فَيُجلونَ عَن الحَوضِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصحَابِي! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا عِلمَ لَكَ بِمَا أَحدَثُوا بَعدَكَ، إِنَّهُمُ ارتَدُّوا عَلَى أَدبَارِهِمُ القَهقَرَي)[4].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٢١٨.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٢٦٤.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٨٠٠.

(٤) صحيح البخاري: ٥/٢٤٠٧.

٢ـ ما رُويَ عن النبي ﷺ قال: (بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَي، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، قُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ، وَاللهِ قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَي، فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ)(١).

٣ـ عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال النبي ﷺ: (إِنِّي عَلَى الحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَاللهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ)، فكان ابن أبي مليكة يقول (اللهم انا نعوذ بك ان نرجع على أعقابنا أو نُفتَن عن ديننا)(٢).

٤ـ وما وردَ في قوله ﷺ: (أَنَا فَرَطُكُمْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، فَإِذَا لَمْ تَرَوْنِي، فَأَنَا عَلَى الحَوْضِ، قَدْرَ مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى مَكَّةَ، وَسَيَأْتِي رِجَالٌ وَنِسَاءٌ بِقِرَبٍ وَآنِيَةٍ، فَلَا يَطْعَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا)(٣).

ومثله قوله ﷺ: (أَنَا فَرَطُكُمْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُونِي، فَأَنَا عَلَى الحَوْضِ، وَالحَوْضُ قَدْرُ مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى مَكَّةَ، وَسَيَأْتِي رِجَالٌ، وَنِسَاءٌ فَلَا يَذُوقُونَ مِنْهُ شَيْئًا)(٤).

فلو تدبرنا الأحاديث الشريفة بكل ألفاظها الواردة فيها، وعلى اختلافها، استفدنا من مقاصدها في خطورة التبديل والتغيير في أصول العقائد الدينية وما بينه ﷺ من أمور الدين، وخطورة النفاق فيه، وما يؤدي إليه من الخسران العظيم في الدنيا والآخرة، ولأجل بيان ذلك نورِد بعض ما ذكره العلماء في شروحهم لهذه الأحاديث .

حيث يقول النووي (٦٧٦هـ) في شرحه (أما اختلجوا فمعناه اقتطعوا وأما أصيحابي

---

(١) المصدر نفسه: ٢٤٠٧/٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٠٩/٥.

(٣) مسند الامام احمد: ٣/ ٣٤٥.

(٤) المصدر نفسه: ٣/ ٣٨٤.

فوقع في الروايات مصغراً مكرراً وفي بعض النسخ أصحابي أصحابي مكبراً مكرراً، قال القاضي هذا دليل لصحة تأويل من تأول انهم أهل الردة، ولهذا قال فيهم سحقاً سحقاً، ولا يقول ذلك في مذنبي الامة بل يشفع لهم ويهتم لأمرهم، قال: وقيل هؤلاء صنفان أحدهما عصاة مرتدون عن الاستقامة لا عن الاسلام وهؤلاء مبدلون للأعمال الصالحة بالسيئة، والثاني مرتدون إلى الكفر حقيقة ناكصون على أعقابهم، واسم التبديل يشمل الصنفين)[1].

ويذكر ابن حجر(ت٨٥٢هـ) في فتح الباري: (قيل يحتمل أن يكونوا منافقين أو من مرتكبي الكبائر، وقيل هم قوم من جفاة الأعراب دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة، وقال الداودي لا يمتنع دخول أصحاب الكبائر والبدع في ذلك، وقال النووي (٦٧٦هـ) قيل هم المنافقون والمرتدون فيجوز ان يحشروا بالغرة والتحجيل لكونهم من جملة الأمة، فيناديهم من اجل السيما التي عليهم فيقال انهم بدلوا بعدك، أي لم يموتوا على ظاهر ما فارقتهم عليه)[2].

كذلك من المطرودين عن الحوض يوم القيامة الامراء الظالمون، وقد نبه ﷺ الامة إلى كيفية التعامل مع هؤلاء الأمراء المستبدين، فقال ﷺ: (اسْمَعُوا، هَلْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ؟ فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الحَوْضَ)[3].

فتبين هذه الاحاديث ان الذين بدلوا وغيروا في العقائد وما أمروا به من اصولها سيمنعون من ورود الحوض، وكذلك الامراء الظالمين ومَن أعانهم على ظلمهم، وهذا يدل على أن من خواص هذا الحوض أنه لا يمكن أن يشربه إلا الصادقون من أتباع الأنبياء،

---

(١) المنهاج: ١٥/ ٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ١١/ ٣٨٥.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٥٢٥.

ولذلك يُمنع المحرفون والمبدلون لسنن أنبيائهم عن الاقتراب والشرب منه[1].

إنما يكون سبب هذا التغيير والتبديل واتباع الامراء الظالمين، وجميع ما يُحرم من ورود حوضه إنما هو بسبب حب الدنيا والتنافس عليها، ولخطورة هذا الأمر فقد قرنه ﷺ بالشرك بالله تعالى، بل لا يخاف على المسلمين من الشرك بالله قدر خوفه عليهم من حب الدنيا لأنه سبب كل مهلكة.

وقد روي في الحدبث الشريف عن عقبة بن نافع قال: (صلَّى النبي ﷺ على قتلى أُحُدٍ، ثم صعد المنبر كالمودِّع للأحياء والأموات فقال: (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ، إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتَتِلُوا، فَتَهْلِكُوا، كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[2]، قال عقبة: وكانت آخر ما رأيت رسولَ الله ﷺ على المنبر)[3].

كما ورد الحديث بألفاظ مقاربة، منها قوله ﷺ: (إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ ـ أَوْ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ ـ وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا)[4].

ويقول مصطفى ديب البغا في قوله ﷺ (أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ) إخبار عما سيفتح لأمته من بعده من الخزائن والملك، و(تَنَافَسُوا فِيهَا) أن تتنازعوا وتختصموا على الدنيا وما فيها من ملك وخزائن من المنافسة وهي الرغبة في الشيء والانفراد بها[5].

كما قد أورد القرطبي (ت٧٥١هـ) في التذكرة بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال:

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٢٦٢.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٤٩٨، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٩٦.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٩٦.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٤٥١.

(٥) صحيح البخاري: ١/ ٤٥١.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه.

ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا التقرير يكون نور الوضوء يُعرفون به، ثم يقال لهم: سحقاً، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم: سحقاً سحقاً[(١)].

أما عصاة المؤمنين من أمة محمد ﷺ ممن خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً فإنهم سيُعرفون من علاماتِ يوم القيامة تكون حاجزاً لهم عن الخلود في النار، ويبعد حجبهم عن الحوض لاسيما وعليهم سيما الوضوء، وقد قال ﷺ: (إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثَارِ الْوُضُوء)[(٢)].

فهذا المنع عن الحوض بكل ما ورد فيمن يُمنَعون منه إنما هو إذلالاً لهم على مرأى الجميع، ومع أنه قد أُختُلِف في موضعه وهل هو قبل الصراط أم بعده، إلا أنه يمكن ان يكون في كلا المحلين حسب رأي بعض العلماء، ليتم الاذلال لهم في كل المواقف.

المقصد الرابع: ري المؤمنين بعدَ ما يرَوه من الفزع والأهوال

اختلف العلماء في مكان هذا الحوض، فقال بعضهم أنه قبل الصراط، وهو قول اكثر العلماء، بينما قال البعض الآخر كالغزالي (ت٥٠٥هـ) والقرطبي (ت٧٥١هـ) إنه يكون بعد الصراط، ولكلٍ من هذين القولين المقصد ذاته في رأيهم، وهو ما سنبينه فيما يأتي:

القول الأول: الحوض قبل الصراط لري المؤمنين بعد خروجهم من قبورهم عطشى

وهذا قول أكثر العلماء والمفسرين، وصححه بعضهم لأن الناس يخرجون من قبورهم

---

(١) التذكرة: ٧١١، و (يُنظَر) القيامة الكبرى: ٢٦٢.

(٢) صحيح مسلم: ٢١٦/١.

عطاشى فيردون الحوض للشرب منه[1]، وقد ذهبوا الى قولهم هذا لعدة أدلة من السنة النبوية، منها:

١ـ ما رُوي من أن النبي ﷺ قال: (يَرِدُ عَلَيَّ يومَ القِيَامَةِ رَهطٌ مِن أَصحَابِي، فَيُجلونَ عَن الحَوضِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصحَابِي! فيَقُولُ: إِنَّكَ لَا عِلمَ لَكَ بِمَا أَحدَثُوا بَعدَكَ، إِنَّهُمُ ارتَدُّوا عَلَى أَدبَارِهِمُ القَهقَرَي)[2].

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (والحوض في العرصات، قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ومثل هؤلاء لا يجازون الصراط[3].

٢ـ قال ﷺ: (بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَي، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، قُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ، وَاللهِ، قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَي، فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ)[4].

قال القرطبي (ت٧٥١هـ) : (هذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط، لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود يُجاز عليه، فمن جازه سلم من النار على ما يأتي، وكذا حياض الأنبياء ﷺ تكون أيضاً في الموقف)[5].

٣ـ قال النبي ﷺ: (لَأَذُودَنَّ عَنْ حَوْضِي رِجَالًا كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الْإِبِلِ)[6].

---

(١) (يُنظَر) التذكرة: ٢٩٠، ولوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٩٥، وعون المريد في شرح جوهرة التوحيد: ١١٢١.

(٢) صحيح البخاري: ٢٤٠٧/٥.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم: ٣٧٧/١، و(يُنظَر) شرح العقيدة الطحاوية: ٢٢٧/١.

(٤) صحيح البخاري: ٢٤٠٧/٥.

(٥) التذكرة: ٧٠٣.

(٦) صحيح مسلم،: ١٨٠٠/٤.

ويستدل ابن حجر(ت٨٥٢هـ) بهذا الحديث بأن الحوض قبل الصراط، بقوله: (إن الذي يمر على الصراط إلى ان يصل إلى الحوض يكون قد نجا من النار فكيف يرد إليها)[١].

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (إن ظاهر ما تقدم من الأحاديث يقتضي كونه قبل الصراط؛ لأنه يُذاد عنه أقوامٌ يقال عنهم إنهم لم يزالوا يرتدون على أعقابهم منذ فارقتهم، فإن كان هؤلاء كفاراً فالكافر لا يجاوز الصراط، بل يكب على وجهه في النار قبل أن يجاوزه، وإن كانوا عصاة فهم من المسلمين فيبعد حجبهم عن الحوض لاسيما وعليهم سيما الوضوء، وقد قال ﷺ: (إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثَارِ الْوُضُوء)[٢]، ثم من جاوز لا يكون إلا ناجياً مسلماً، فمثل هذا لا يحجب عن الحوض فالأشبه والله أعلم أن الحوض قبل الصراط)[٣].

القول الثاني: الحوض بعد الصراط لري المؤمنين بعد أهوال الموقف والحساب

وهو قول القاضي عياض، وابن حجر، وغيرهم، واستدلوا على قولهم هذا بما يأتي:

١ـ ما روي عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ)[٤].

وقال القاضي عياض إن قوله ﷺ (مَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا) يدل على أن الشرب منه يكون بعد الحساب والنجاة من النار[٥].

ويقول ابن حجر(ت٨٥٢هـ): (إيراد البخاري لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط إشارة منه إلى ان الورود على الحوض يكون بعد نصب

---

(١) وردَ عن ابن حجر القولين، الأول في كون الحوض قبل الصراط، وآخر أنه بعده. (يُنظَر) فتح الباري: ٤٦٦/١١.

(٢) صحيح مسلم: ٢١٦/١.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم: ٤١٣/١.

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٦، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٩٣.

(٥) (يُنظَر) اكمال المعلم بفوائد مسلم: ٢٥٧/٧.

الصراط والمرور عليه)[1].

٢ـ عن أنس ابن مال قال: (سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: (أَنَا فَاعِلٌ)، قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال ﷺ: (اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ)، قال قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قالﷺ: (فَاطْلُبْنِي عِنْدَ المِيزَانِ) قال: قلت: فأن لم القك عند الميزان قال ﷺ: (فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الحَوْض فَإِنِّي لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَوَاطِن)[2].

وقال فيه المباركفوري: (والمعنى أني لا أتجاوز هذه المواطن الثلاثة، ولا أحد يفقدني فيهن جميعهن، فلا بد أن تلقاني في موضع منهن، والحديث يدل على أن الحوض بعد الصراط)[3].

٣ـ قال ﷺ: (إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ)، فسئل عن عرضه فقالﷺ: (مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ)، وسئل عن شرابه فقالﷺ: (أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ)[4].

قال ابن حجر (ت٨٥٢هـ): (وظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها، فلو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر فيه، قال: وأما ما أورد عليه من أن جماعة يدفعون عن الحوض بعد أن يروه ويذهب بهم إلى النار فجوابه أنهم يقربون من الحوض بحيث يرونه ويرون الجنة فيدفعون في النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط[5].

ويذكر السفاريني تصريحات العلماء بأن الحوض بعد الصراط ويردُ على مَن يقول: إذا خلصوا من الموقف دخلوا الجنة، فلم يحتاجوا إلى الشرب منه، ليجيبهم: بل يحتاجون إلى

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٦٦.

(٢) سنن الترمذي: ٤/٦٢١.

(٣) تحفة الأحوذي: ٧/١٠٢.

(٤) صحيح مسلم: ٤/١٧٩٩.

(٥) فتح الباري: ١١/٤٦٦، ولوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٩٥.

ذلك لأنهم محبوسون هناك لأجل المظالم، فكان الشرب في موقف القصاص، ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم وتأخيره بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار حتى يهذبوا منها على الصراط[1].

كما أن هنالك قولاً آخر بوجود حوضين خاصين للنبيﷺ على ما ذهب إليه بعض العلماء؛ كما أشار لذلك الالوسي في تفسيره روح المعاني: (هو حوض له ﷺ في المحشر، وهو قبل الميزان والصراط عند بعض وبعدهما قريباً من باب الجنة حيث يحبس أهلها من أمته ﷺ ليتحللوا من المظالم التي بينهم عند آخرين، ويكون على هذا في الأرض المبدلة، وقيل له ﷺ حوضان حوض قبل الصراط وحوض بعده ويسمى كل منهما على ما حكاه القاضي زكريا كوثراً وصحح رحمه الله تعالى أنه بعد الصراط، وأن الكوثر في الجنة وأن ماءه ينصب فيه ولذا يسمى كوثراً)[2].

وما يترجح لدينا هو كونه قبل الصراط، قال ابن القيم (ت٧٥١هـ) في ذلك: (وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض، ولا اختلاف وحديثه كله يصدق بعضه بعضاً، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يُرى ولا يوصل اليه إلا بعد قطع الصراط، فحديث أبي هريرة[3] هذا وغيره يرد قولهم، وإن أرادوا ان المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه، فهذا يدل عليه حديث لقيطٍ، هذا وهو لا يناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله طوله شهر وعرضه شهر فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده الى وراء الجسر فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده، فهذا في حيز الإمكان ووقوعه موقوف على خبر الصادق والله أعلم)[4].

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٩٥.

(٢) روح المعاني: ١٥/٤٧٩.

(٣) صحيح البخاري: ٥/٢٤٠٧.

(٤) زاد المعاد في هدى خير العباد: ٣/٥٩٦.

٢. الشفاعة

وردت مادة الشفاعة في القرآن الكريم بصورها المتنوعة ثلاثين مرة[١] في سور شتى، ووقعت فيها مورداً للنفي تارةً وللإثبات تارةً أخرى، وهي بأنواعها وأقسامها وشروطها قد ذُكِرت في مصادرها الأصلية بتعلق موضوعها باتجاهين، هما:

الأول: الاتجاه الذي يحدد الشفعاء.

الثاني: الاتجاه الذي يحدد الأفراد والمجموعات الذين تنالهم الشفاعة من جهة، والذين لا تنالهم الشفاعة من جهة اخرى.

والقرآن الكريم إذ يحدد ذلك فإنه يحددهم موضوعياً من خلال طبيعة السلوك العام للأفراد في الحياة الدنيا، وهناك من يرى أن في الآيات القرآنية اتجاهاً ثالثاً رئيسياً، وهو اتجاه نفي مطلق الشفاعة[٢].

وخلال تناولنا للمقاصد العقدية في مسألة الشفاعة، وبناءً على ما استقرئناه من النصوص الكريمة فيها، فقد رأينا التأكيد فيها على مقاصدَ أربعة، فضلاً عن مقاصد أخرى قد نتجاوزها لتجنب التوسع المفرط، وهذه المقاصد هي:

المقصد الأول: شروط الشفاعة وتوافقها مع العدالة الإلهية.

المقصد الثاني: تكريم الله تعالى للشافعين.

المقصد الثالث: العدل الإلهي في الشفاعة لأصحاب الذنوب وقبول توبتهم.

المقصد الرابع: الرحمة الإلهية في الشفاعة لأصحاب الذنوب من الموحدين

وقد مهدتُ لهذه المقاصد بتمهيد في مفهوم الشفاعة وما يتعلق بأنواعها وأقسامها باختصار.

---

(١) الشفاعة في الكتاب والسنة: ٢٥.

(٢) الشفاعة حقيقة إسلامية: ١٠.

تمهيد: مفهوم الشفاعة وأقسامها

مفهوم الشفاعة

يُرجع علماء اللغة كلمة الشفاعة الى (الشفع): وهي الزيادة، و(شفع) خلاف الوَتْر وهو الزوج تقول كانَ وَتْراً فَشَفَعْتُه شَفْعاً وشَفَعَ الوَتْرَ من العَدَدِ شَفْعاً صيَّره زَوْجاً.

والشفعة: الزيادة، وهو أن يشفعك فيما تطلب حتى تضمه إلى ما عندك فتزيده وتشفعه بها، أي تزيده بها، أي إنه كان وتراً واحداً فضم إليه ما زاده وشفعه به.

وشفع لي يشفع شفاعةً، وتَشَفَّعَ طَلَبَ والشفيع الشافع، والجمع شُفعاء. وفي التنزيل: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ قالوا: الشفاعة: الدعاء هاهنا، وهي: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره[1].

والشفاعة اصطلاحاً هي (السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه)[2]، وقال القاضي عبد الجبار في تعريفها (هي مسألة الغير أن ينفع غيره أو أن يدفع عنه مضرة، ولا بدَّ من شافعٍ ومشفوعٍ له، ومشفوعٍ فيه ومشفوعٍ إليه)[3].

وعرَّفها الطباطبائي (ت١٤٠٩هـ) في الميزان والسيد كمال الحيدري بأنها (هي القريحة المكتسبة من الاجتماع والتعاون، وهي من الامور التي نستعملها لإنجاح المقاصد، ونستعين بها على حوائج الحياة، وجل الموارد التي نستعملها فيها: أما مورد يقصد فيها جلب المنفعة والخير، وإما مورد يطلَب فيها دفع المضرة والشر)[4]، وهذه هي الشفاعة التي تدور حول التكاليف والتشريعات وعصيان العباد ومخالفتهم لها، ثم توسيط الشفعاء لغفران ذنوبهم

---

(١) (يُنظَر) تهذيب اللغة: ٢٧٨/١، لسان العرب: ١٨٣/٨، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢٩٥.

(٢) التعريفات: ٥٦، و(يُنظَر) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٨٥/٢، و تفسير الكاشف لمغنية: ٣٩٠/١.

(٣) شرح الاصول الخمسة: ٦٨٨.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٦٠/١، الشفاعة ـ بحوث في حقيقتها وأقسامها ومعطياتها: ١٩.

وحط سيئاتهم[1].

وقد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث الشريف فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، والمُشَفِّعُ الذي يَقْبَل الشفاعة والمُشَفَّعُ الذي تُقْبَلُ شَفاعَتُه[2].

أقسام الشفاعة

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى إن الشفاعة تنقسم إلى أقسامٍ خمسة، هي:

١ـ الشفاعة العظمى: وهي لجميع الخلائق، بإراحتهم من هول الموقف، وتعجيل الحساب، ونحو ذلك.

٢ـ الشفاعة في إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بغير حساب.

وهذا القسمان من أقسام الشفاعة خاصّان بنبينا محمد ﷺ.

٣ـ الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لبعض أهلها.

٤ـ الشفاعة في قومٍ استوجبوا النار بذنوبهم، وهم من أهل الإيمان، فإذا قبل الله تعالى الشفاعة فيهم عفا عنهم فلا يدخلونها.

٥ـ الشفاعة في إخراج بعض المذنبين من النار، وهم من أهل الإيمان، وذلك قبل استيفائهم عذابهم المقرر عليهم بموجب قانون العدل الإلهي[3].

ولا يخلوا قبول الشفاعة أو رفضها من حكمةٍ ومقصد قد يخفى علينا إلا إنه يعلمه الله تعالى، تدخل في واسع فضله أو قانون عدله تبارك وتعالى، وسأتناول البعض منها مما يُستنبط من ظاهر الروايات فيها ما يأتي:

---

(١) الشفاعة، كمال الحيدري: ٢٤.

(٢) (يُنظَر) لسان العرب : ١٨٣/٨، وتاج العروس: ٢٨٥/٢١.

(٣) العقيدة الإسلامية واسسها : ٥٧٠.

المقصد الأول: توافق شروط الشفاعة مع العدالة الإلهية

ونستنبط هذا المقصد من خلال قراءتنا لشروط الشفاعة، التي تتعلق بالشافع والمشفوع له كي تكون مقبولةً منجيةً من العذاب، من خلال توافقها التام مع العدالة الإلهية، إذ إن الشفاعة هبة من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده، لا ينالها كل إنسان، وهذه الموافقة للعدالة الإلهية نجدها في كل شرطٍ من شروطها، وكما سنبينه فيما يأتي:

الشرط الأول: إذن الله تعالى للشافع أن يشفع

أثبت الشفاعةَ اللهُ تعالى في كتابه، وأثبتها رسوله ﷺ ولا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص؛ فالشفاعة التي أثبتها القرآن الكريم خاصّة بالمؤمنين، وأنّها تعني عدم خلودهم يوم القيامة في نار جهنّم، بشرط أن يأتوا ربّهم بإيمان مرضيّ ودين حقّ، وهي لا تتحقق إلا بإذن من الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالشفاعة لغير الله تعالى مشروطة بإذنه سبحانه وتمليكه[1].

يقول الشيخ جعفر السبحاني: (أنَّ الشفيع إنما يشفع بإذنه تعالى، وفي إطار مشيئته، وتحت الشروط التي يرتضيها؛ إذ هو يبعث الشفيع على أن يشفع حق المشفوع له، وعند ذلك فلا تستلزم شفاعة الشافعين خروج الأمر عن يده وتحدد سلطته تعالى وملكه)[2].

وبرغم بداهة هذا الشرط إذ إن الأمر كله لله تعالى، إلا إن بعض الباحثين، وخصوصاً المعاصرين منهم، كالدكتور مصطفى محمود وجد حسب رؤيته ما يتعارض مع امكانية تحقق الشفاعة يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، على أنه تعالى يجمع سلطة الشفاعة جمعيةً واحدة ويجعلها له تعالى وحده، كما يقول تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وان السبب طبيعي، فهو تعالى وحده الذي يعلم

---

(١) (يُنظَر) مفاهيم القرآن: ٤/ ٢١٠، ومعرفة المعاد: ٥٧/٩، وتفسير الكاشف: ٩٤/١.

(٢) الشفاعة في الكتاب والسنة: ٥٦.

استحقاقات كل فرد، وماذا فعل في دنياه من خيرٍ أو شر[1].

ويُعَد هذا الرأي شبهة قد ردَّ عليها عدد من العلماء مسبقاً، ومنهم السيد محمد حسين الحسيني الطهراني (ت١٤١٦هـ) في معرفة المعاد، وهو إنما يكون من خلال النظر لنفس الآيات الكريمة في الشفاعة، فهي إنّما تنفيها عن غير الله على نحو الاستقلال؛ أمّا الآيات التي تثبت الشفاعة، فهي إنّما تثبتها للهّ تعالى على نحو الأصالة والاستقلال، وتثبتها لغير الله بتمليكه وإذنه[2].

كما عبر عن هذا الرَد العلَّامة جعفر السبحاني بقوله: (إن مقتضى التوحيد في الأفعال، وأنه لا مؤثر في عالم الكون إلا الله سبحانه، ولا يوجد في الكون مؤثرٌ مستقلٌ سواه، وأنَّ تأثير سائر العلل إنما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه ومشيئته، والاعتراف بمثل العلل التابعة لا ينافي انحصار التأثير الاستقلالي في الله سبحانه وتعالى.

... وعلى ذلك، فإذا كانت الشفاعة عبارة عن سريان الفيض الإلهي (طهارة العباد من الذنوب وتخلصهم عن شوائب المعاصي) على عباده، فهي فعلٌ مختص بالله سبحانه لا يقدر عليه أحد إلا بقدرته وإذنه، وبذلك تصحُّ نسبته الى الله تعالى بالأصالة والى غيره بالتبعية. ونظيرها كتابة أعمال العباد، فالكاتب هو الله سبحانه، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]، وفي الوقت نفسه ينسبها الى رسله وملائكته، فيقول تعالى: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [النساء: ٨٠]، فإذا كانت الملائكة والأنبياء والأولياء مأذونين في الشفاعة؛ فلا مانعَ من أن تُنسَب إليهم كما تُنسَب الى الله سبحانه، غير أنَّ أحدهما يملكُ هذا الحق بالأصالة، والآخر يملكها بالتبعية)[3].

---

(١) (يُنظَر) الشفاعة، محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين: ٢٠.

(٢) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٩/٥٧.

(٣) الشفاعة في الكتاب والسنة: ٣١، و٣٢.

الشرط الثاني: رضا الله تعالى عن الشافع

أما الشرط الثاني الذي يتوافق مع مقصد عدله تعالى فهو الرضى الإلهي عمَّن يريد أن يشفع وعمَّن يُراد أن يُشفَع له، واعتبار ذلك الرضى قيداً لازماً لا تؤتي الشفاعة ثمارها بدونه، فالشفيع يجب أن يرضى الله شفاعته لتكون في محلها، والمشفوع له يجب أن يكون مرضياً عنده سبحانه وتعالى ليقبل شفاعة الشافعين[1].

ومما يدل على رضا الله تعالى عن الشافع قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، حيث يقول في هذا الشرط العلَّامة جعفر السبحاني (يُشترط في الشفيع أن يكون ممن يشهد بالحق، اي يشهد بالله سبحانه ووحدانيته وسائر صفاته، وان لا يظهر الشفيع كلاماً يبعث غضب الرب سبحانه، بل يقول قولاً مرضياً عنده، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]، فالآية الشريفة صريحةٌ في شفاعة يوم القيامة، بكلا تفاسيرها، وهما أنه لا يملك ولا يقدر على الشفاعة إلا هؤلاء الذين لهم عند الله تعالى عهدٌ وموثق وأمرٌ بالشفاعة، وأذِن لهم بها، أو بتفسيرها أنه لا يملك الشفاعة ولا ينالها إلا من كان له عهدٌ عند الرحمن، والعهد هو استظهار الايمان والعمل به، إذ إن الكفار لا يُشفَع لهم[3].

الشرط الثالث: رضا الله تعالى عن المشفوع له

ويُعَد هذا الشرط من أهم ما يتوافق مع مقاصد العدالة الإلهية في شروط الشفاعة، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقد

---

(١) الشفاعة حقيقة اسلامية: ٥٥.

(٢) (يُنظَر) الشفاعة في الكتاب والسنة: ٣٠.

(٣) (يُنظَر) تفسير التبيان: ٧/١٥٠، تفسير الكشاف للزمخشري: ٤/١٢٠، دروس في الشفاعة والاستشفاع: ٦٨.

جاء في بحار الأنوار للعلّامة المجلسي عن الإمام الرضا عليه السلام في معنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، قال عليه السلام: (لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه)[1].

كما جاء في «الكافي» للكليني (ت٣٢٩هـ)[2] عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه كتب إلى أصحابه كتاباً يقول فيه: (اعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك، فمن سّره أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب الى الله أن يرضى عنه)[3].

ويبين محمد حسين الحسيني الطهراني (ت١٤١٦هـ) ان رضا الله تعالى عن العبد أي عدم كون المشمول بالشفاعة مشركاً ولا كافراً ولا جاحداً ولا مستكبراً، فينبغي أن يكون المشفوع له مسلماً مؤمناً ذا عقيدة حسنة، وذلك يعني كون ذاته ووجدانه ـ أو عقيدته ودينه ـ منزّهين، إلّا أنّ الذنوب قد دنّست ظاهرهما[4].

فإنَّ من باب عدله تعالى أن يكون هذا المشفوع له عاملاً لآخرته قبل أن يتكل على الشفاعة، وذلك بدلالة عدة روايات لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله، ومنها نصّ حديثه في حديث المرأة المخزومية التي سرقت فدفعت قريش بأسامة بن زيد لأنهم يعلمون مكانته عند الرسول ليشفع لها عنده فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله؟)[5]، إذ يدل الحديث الشريف إن الشفاعة لها شروطها في المشفوع له، ولا تتجاوزها كي تشمل الذي يتعدى على حدود الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٣٤. (يُنظَر) أحوال البرزخ والآخرة: ١٦٠.

(٢) من كبار فقهاء الامامية، اتفقت طائفة على أنه أوثق المحمدين الثلاثة أصحاب الكتب الأربعة، ولجلالة قدره عدَّه الكثير من العلماء من المجددين لمذهب الإمامية على رأس المائة الثالثة، له ما يزيد عن الأربعمئة مصنف، منها [الكافي]، [الرجال]، [رسائل الأئمة]، وغيرها كثير، توفي في بغداد سنة (٣٢٩هـ). (يُنظر) روضات الجنات: ٦/ ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) الكافي: ٨/ ٣٥٠.

(٤) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٢٠٧/٩.

(٥) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٨٣، وصحيح مسلم: ٣/ ١٣١٥.

المقصد الثاني: تكريم الله تعالى للشفعاء

ويتجسد هذا المقصد من خلال ما جاء في ذلك الموقف والأهوال حين يرى الناس كلَّ ما قدَّمت أيديهم أمامهم من خيرٍ أو شر، إذ يأذن تعالى بالشفاعة للشافعين، فإنما يظهر عظيم مكانتهم عند الله تعالى، فإكراماً لهم يقبل الله تعالى شفاعتهم في أهل التوحيد ممن قلَّت حسناتهم على سيئاتهم أن يخرجوا من النار لينتقلوا الى الجنة برحمة الله تعالى وعفوه.

فيجب أن يُعتَقد أن النبي ﷺ وغيره من سائر الرسل والأنبياء والملائكة وآل البيت عليهم السلام والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون، وبقدر جاههم ووجاهتهم عند الله تعالى يتوجهون(١).

والمشفوع اليه، وهو الله تعالى إذا أجاب الشفيع سواءٌ كان نبياً أو ملكاً أو إماما أو شهيداً أو ولياً من الصالحين فإنما كان سبحانه بقبول هذه الشفاعة مكرِّماً له؛ لأنه قد قصد بالإجابة إكرامَه، وبيان فضله وتقديره، وإلا لم يكن إيصاله تلك المنفعة الى الغير ودفعه ذلك الضرر بشفاعته(٢).

وبناءً على أنواع الشفاعة والشافعين، فقد رأيتُ تقسيم المقاصد والغايات في هذا التكريم الى فرعين، الأول في تكريم النبي ﷺ كونه صاحب الشفاعة العامة والخاصة في فتح أبواب الجنة ودخول المؤمنين إليها بعد طول الموقف وأهواله، وكذلك لاشتراكه مع كافة الشفعاء في الشفاعات الخاصة في أصحاب الذنوب من أمته، والمقصد الثاني في تكريم الشافعين من الأنبياء عليهم السلام جميعاً وأولهم نبينا ﷺ وغيرهم من الملائكة والقرآن الكريم والرحم وصالح المؤمنين ممن يأذن له الله تعالى ويرضى.

---

(١) (يُنظَر) اسرار الأقدار: ٣٢٧.

(٢) (يُنظَر) شرح الاصول الخمسة: ٦٨٨.

أولاً: تكريم النبي محمد ﷺ في مقام شفاعته الخاصة والعظمى

لم يكن اصطفاء الله تعالى لأنبيائه ورسله أمراً عشوائياً، بل كان لحكمةٍ فيمن يكون قادراً على تحمل أعباء هذه الأمانة العظيمة التي وُكِّل بإيصالها الى الناس، ونبينا ﷺ واصطفاء الله تعالى له بهذه المنزلة العظيمة، بإرساله الى امم العالم كافه وخاتماً للنبيين قد زاد في فضله من الله تعالى.

ولم يكن هذا التكريم والتفضيل له ﷺ مقتصراً على الحياة الدنيا الزائلة، بل أنه يمتد الى اليوم الآخر واصطفاءه وتكريمه بالمقام المحمود الذي وعده به تعالى.

فقد ورد أن النبي ﷺ: تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام: (﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال ﷺ: (اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي)، وبكى، فقال الله عز وجل: (يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟) فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله تعالى: (يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤكَ)[1].

وأحد صور هذا الوعد والتكريم الإلهي له ﷺ في مبدأ شفاعته الخاصة في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فإنهم إذا عبروا الصراط أوقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فتمحص قلوب بعضهم من بعض حتى يُهذبوا وينقوا، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة فتفتح أبواب الجنة بشفاعة النبي ﷺ[2]، فيكون ﷺ أول من يفتح باب الجنة بإذنه تعالى، وقد رُوى قوله ﷺ: (آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ)[3].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٩١.

(٢) (يُنظر) نور الأفهام في علم الكلام:٢/٢٨٣، ومعرفة المعاد: ٩/٢٠٧ وما بعدها.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١٨٨.

وكذلك في تكريمه ﷺ بشفاعته العظمى، فمع هول الموقف وخشوع الأبصار لأمر الله تعالى، إذ يتم وعده تعالى لنبيه في المقام المحمود ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ولا ريب، فإنَّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جدّاً يستثير الحمد، والرّوايات الإسلامية تشير إلى أنَّ هذا المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى(١)، إذ ينقل الطبري (قول رسول الله ﷺ ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ سئل عنها، قالﷺ: (هِيَ الشَّفاعَةُ)، وفي رواية أخرى يقول فيه ﷺ: (هُوَ المقامُ الَّذي أشفَعُ فيهِ لأمَّتي)(٢).

ثم ان الشفاعة من حيث هي وإن شاركه فيها ﷺ غيره من الملائكة والأنبياء وبعض المؤمنين إلا أن الشفاعة الكاملة والأنواع الفاضلة لا تثبت لغيره ﷺ، ووصف المقام بأنه محمود على ما ذُكر باعتبار أن النبي ﷺ يحمد فيه على أنعامه الواصل إلى الخاص والعام من أصناف الأنام(٣).

وقد روى في ذلك ابن عمر: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً كل أمة تتبع نبيها، يقولون يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود(٤).

فالنّبيﷺ هو أكبر الشفعاء في ذلك اليوم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها، إذ يُظِهر تعالى فضله ذلك اليوم وإكرامه له ﷺ بإجابته لسؤاله لأجل أمته، وفي ذلك قوله ﷺ: (خُيِّرتُ بَين الشَّفَاعَة وَبَين أَن يدْخل شطر أمتِي الْجنَّة فاخترتُ الشَّفَاعَة لِأَنَّهَا أَعَم وأكفى،

---

(١) (ينظر) تفسير الأمثل: ٩/٨٨.

(٢) مسند الامام أحمد: ٢/ ٤٤١.

(٣) (ينظَر) تفسير جامع البيان: ١٧/ ٥٢٩، والكشاف للزمخشري: ٣/ ٤٥٢، وروح المعاني: ٨/١٣٥.

(٤) صحيح البخاري: ٤/١٧٤٨.

أترَونَها للْمُؤْمنِين الْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلكنهَا للمذنبين المتلوثين الْخَطَّائِينَ)[1].

وفي هذه الشفاعة أيضاً معرفة الناس بعدم استغنائهم عنه ﷺ وعن دعواته يوم القيامة، كما أنهم لم يستغنوا عنه ﷺ في الدنيا ؛ لدوام حاجتهم إلى دعائه وبركات وجوده في حياتهم، وإلى شريعته وأحكامه في نظام مدنيتهم، وفي كل ذلك تحريض على الطاعة له، والتقرب إليه[2].

كما تتجسد فيها أسمى معاني الرحمة الإلهية من إرساله ﷺ الى المسلمين، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فقد كان ﷺ طيلة حياته رحمةً للعالمين؛ إذ أخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة الى نور الإيمان، ولم تنتهي رحمته في حياته وحسب، بل انه يتلقاها المؤمن ممن تلوث بالمعاصي لينقذه ثانية من النار ودركاتها، وفي جميع هذه المواقف يناله ﷺ تكريم الله تعالى له على سائر الخلق.

ثانياً: تكريم الله تعالى للشافعين عامة

وهذا المقصد في عامة الشافعين، تكريماً لمن هو بعده ﷺ، من سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والملائكة المقربين، ومن هو دونه من خلفائه الطاهرين، والشهداء والصديقين، والعلماء العاملين، والسادة الميامين من ذراري آل طه وياسين ﷺ، وسائر الصلحاء من المؤمنين المتقين، بل ولكثير من الأزمنة والأمكنة ا المعدة لطاعة العابدين، كشهر الصيام والمساجد وأمثالها مما ثبت له ذلك في الدين، واستفاضت به أحاديث الفريقين[3]

وقد وردت هذه الشفاعة وثبوتها في الكثير من الروايات، ومنها قوله ﷺ عن الله تعالى: (فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ

---

(١) روضة الواعظين: ٥٣٣/٢، وأربعون حديثاً من الصحاح العوالي: ٧٤، ، وذكره الكتاني في نظم المتناثر: ٢٤٦.

(٢) (يُنظَر) نور الأفهام في علم الكلام: ٢/ ٢٨٤.

(٣) (يُنظَر) نور الأفهام في علم الكلام: ٢/ ٢٨٤.

السَّيْلِ[1])[2].

فهؤلاء الشفعاء هم الشهود يوم القيامة، وذلك لشهادتهم بالحق، فكل شهيد هو شفيع يملك الشهادة ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣]، فمن يشهد بالحقّ، ويمتلك علماً واطّلاعاً ملكوتيّاً على بواطن الأعمال، سيكون يوم القيامة في طائفة الشفعاء، وتبعاً للنفي والإثبات في قوله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِ﴾، فينبغي للشفعاء أن يكونوا من الشهداء، وكلّ ما هنالك أنّ بإمكان كلّ امرئ أن يشهد بقدر سعة اطّلاعه الملكوتيّ على بواطن الأعمال، كما بإمكانه أن يشفع لمن اطّلع على بواطن أعمالهم وحقائقها[3].

ومما ورد في تكريم هؤلاء الشافعين النصوص الكثيرة، تبعاً لكثرة الذين ينالهم هذا الكرم الإلهي، وبعدَ قراءتي لهذه النصوص، أذكر هنا أصناف معدودة من هؤلاء الشفعاء ومواطن تكريمهم الإلهي في الشفاعة، وهم:

١ـ الأنبياء عليهم السلام.

إن الشفاعة بإذن الله تعالى ورضاه باب كرمه تعالى وتقديره للشافعين، وهو تعالى قادرٌ على أن يغفر للمشفوع له ويدخله الجنة دون شفاعة، ولكن الله حكيم عليم، يظهر في ذلك الموقف كرامتهم ورفعتهم ما لا يخفى، فقد جاء الوعد الحق من الله تعالى ليبين تمام فضلهم للعالمين، ومن هؤلاء الشافعين الأنبياء عليهم السلام إذ أرسلهم في حياتهم دعاةً للحق والإيمان، فتبعهم المؤمنون، وتمسك بدعوتهم المهتدون، وصدَّقهم المصَّدقون، فكان فضلهم عليهم في الحياة الدنيا أن أخرجوهم من ظلمات الكفر الى نور الإيمان ورضا الرحمن، فنالوا بذلك

---

(١) هو ما يجيء به السيل من طينٍ وغيره. فتح الباري: ١/ ١٠٨

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٧، وبلفظ مقارب في صحيح البخاري،: ٦/ ٢٧٠٦

(٣) معرفة المعاد: ٩/١٣٠، و(يُنظَر) عالم الآخرة: ٢٧.

فضل الكريم المنان.

فيظهر في ذلك الموقف تكريمهم عليهم السلام على الخلْق، بقبول شفاعتهم فيمن يشفعون له ممن سبقت لهم الرحمة، فيتقدمون بطلب شفاعتهم الى ربهم في إخراج أقوامٍ من النار دخلوها بذنوبهم ليخرجوهم منها، فهم الشفعاء للمذنبين من أهل التوحيد(١).

والمسلم ممن عرف بمقام هذه الشفاعة زاده الشوق والولاء للشافعين؛ لبيان فضلهم وتحصيل القربى منهم في الدنيا ولأجل نجاة الآخرة، وبكلّ تأكيد أنّ مقام رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله في الفناء في الله والبقاء بالحقّ سبحانه وتعالى هو مقام رفيع شامخ ذو سعة وعموميّة يجعل جميع الأنبياء والمرسلين يلوذون به ويحتاجون شفاعته، وليس هذا المقام درجة اعتباريّة، بل هو واقع ووجود موهوب ومكتسب منَّ الله تعالى به على نبيّه، وهو ما يمثّل رحمة الحقّ الواسعة والنَّفَس الرحمانيّ والحجاب الأقرب الذي هو المحمود المطلق(٢).

٢. الملائكة

من الشفعاء يوم القيامة ملائكة السماوات والأرضين، التي تستغفر للمؤمنين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى:﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

فأما موقف الملائكة عليهم السلام من البشر وهذا الاستغفار اليهم وشفاعتهم في ذلك الموقف فقد قال فيه الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) في مفاتيح الغيب (قال أهل التحقيق: إن هذه

(١) (يُنظَر) الحياة الآخرة: ١/ ٤٧٠.

(٢) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٨٦/٩.

الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري مجرى اعتذار عن زلة سبقت، وذلك لأنهم قالوا في أول تخليق البشر ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا في آخر الأمر بأن قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره، فالأولى أن يجبر ذلك الإيذاء بإيصال نفع عليه)[1].

ومن هذه الآثار والمقاصد في الشفاعة العامة موقف الشافعين من الملائكة في قوله تبارك وتعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وجاء في تفسير ابن عاشور(ت١٣٩٣هـ)، التقدير: لمن ارتضاه، أي ارتضى الشفاعة له بأن يأذن الملائكة أن يشفعوا له؛ إظهاراً لكرامتهم عند الله أو استجابةً لاستغفارهم لمن في الأرض، ثم زاد تعظيمهم ربهم تقريراً بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، أي هم يعظمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره[2].

٣ . القرآن الكريم

ومن بين الشفعاء: القرآن الكريم، فمن عمل به أعانه وشفع له في التقرّب إلى الله تعالى، وقاده إلى الخيرات، ووضعه في الصراط المستقيم ضمن قافلة الباحثين عن الله سبحانه، وأنجاه من الظلمات[3].

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٦) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ويُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ويَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥، ١٦].

ورسول الله ﷺ وهو صاحب الشفاعة العظمى والخاصة وهو الذي يقول لأمته بأن

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٤٩٠.

(٢) (ينظر) التحرير والتنوير: ٥١/١٧.

(٣) معرفة المعاد: ٧٦/٩.

هذا القرآن سيشفع لأمته يوم القيامة، قال ﷺ: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)(١)، فالقرآن هو الهداية الكبرى التي لا يأتيها الباطل وهو المعجز الخالد الذي ينير الطريق للأجيال كلها، فهو الشفيع في طريق الهداية، وقال الامام علي عليه السلام: (اعلموا أنّ القرآن شافع ومشفّع، وقائل ومصدّق، وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه)(٢)، فإن كان هذا في من قرأ القرآن وعمِل به، على أن من قرأه ولم يعمل به لم يكن من أهل القرآن ولا يكون شفيعاً لهم، بل يكون القرآن حجة عليهم تتقدم أهله(٣).

٤. الرحم

أمّا عن تكريم الله تعالى للرحم في قبول شفاعتها يوم القيامة، فقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، ولَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٥].

ويذكر السيد محمد الحسيني الطهراني (ت١٤١٦هـ) في معرفة المعاد إن هذه الآيات تتحدّث عمّن يُعطَون كتابهم بشمالهم، كنايةً عن جانب الشقاء، حيث يتطرّق من خلال عدّة آيات إلى ذكر أحوالهم وتأسّفهم على ما فرط منهم، ثمّ يصل إلى هذه الآيات التي تخاطب ملائكة العذاب.

والحَميم عبارة عن الرَّحِم القريب، كالأب والامّ والأخ وأمثالهم، ومن هنا يُفهم من

---

(١) صحيح مسلم: ١/٥٥٣.

(٢) نهج البلاغة: ٢/٢٢٦.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٤/١٤١٦.

هذه الآية أن ليس من حميم ولا رَحم قريب لغير المؤمن والمتعدّي على الحقوق، ولا من معين يشفع له في فكّ أغلاله وسلاسله؛ ولوكان مؤمناً وغير معتد، لأغاثه الحميم وشفع له بكلّ تأكيد(١).

وقد مررنا بالصراط في أهوال الموقف وكيف يتمثل عقبةً أمام الإنسان، إن لم يكن وَصولاً له وكذلك الأمانة، فإن كان وصولاً للرحم ومؤدياً للأمانة فقد شفعا له ونجا من هذه العقبات.

٥ . شفاعة أهل البيت عليهم السلام وشفاعة المؤمنين لبعضهم

ومن الشافعين يوم القيامة ممن ينالهم هذا التكريم من الله تعالى آل بيت النبي عليهم السلام، قال صلى الله عليه وآله: (إنّي لأشفع يوم القيامة وأُشفّع، ويشفع عليٌّ فيُشفّع، ويشفع أهل بيتي فيشفّعون)(٢)، وقال صلى الله عليه وآله: (الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيكم، وأهل بيت نبيكم)(٣).

كذلك يقول في هذه الشفاعة الامام الصادق عليه السلام: (والله لنشفعن، والله لنشفعن، والله لنشفعن، ولتشفعن شيعتنا [ثلاثاً]، حتى يقول عدونا : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١])(٤).

فضلاً عن شفاعة المؤمنين الذين يستغفرون لأنفسهم ولإخوانهم في الإيمان، فيؤدّي ذلك إلى غفران تلك الذنوب، فقد شفعوا في حقيقة الأمر، وقد ذكر الله تعالى كلامهم في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا أنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٩/١٣٧.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ١٥/ ٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٥/ ٢.

(٤) تفسير البرهان: ٥/ ٥٠١.

فأهل البيت عليهم السلام والصالحون من المؤمنين كما أنهم في تلك الأهوال يشهدون لإخوانهم من الموحدين، فإنهم يشفعون فيهم ممن استحق العذاب في النار، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ فكان دخولهم النار تطهيراً لهم من ذنوبهم، وقد ورد في الأحاديث الشريفة قوله صلى الله عليه وآله: (فَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ الْبَرْقِ، وَمِثْلَ الرِّيحِ، وَمِثْلَ أَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُكَلَّمٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا قَطَعُوهُ ـ أَوْ فَإِذَا جَاوَزُوهُ ـ فَمَا أَحَدُكُمْ فِي حَقٍّ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ لَهُ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً مِنْهُمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ سَقَطُوا فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: أَيْ رَبِّ كُنَّا نَغْزُو جَمِيعًا، وَنَحُجُّ جَمِيعًا، وَنَعْتَمِرُ جَمِيعًا، فِيمَ نَجَوْنَا الْيَوْمَ وَهَلَكُوا؟) قَالَ صلى الله عليه وآله: (فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ)، قَالَ: (فَيُخْرَجُونَ) قَالَ صلى الله عليه وآله: (ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ قِيرَاطٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ)، قَالَ صلى الله عليه وآله: (فَيُخْرَجُونَ)، قَالَ صلى الله عليه وآله: (ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ)، قَالَ: (فَيُخْرَجُونَ). الحديث

ويستنتج من هذا الحديث أنّ صالح المؤمنين هم من الشفعاء، لأنّ الله تعالى قد أخبر عن لحوقهم بالشهداء في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿والَّذِينَ ءَامَنُوا بِالله ورُسُلِهِ اولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ والشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ونُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩].

وفي هذه الشفاعة من مقاصد تكريم المؤمنين الصالحين والشهداء في ذلك الموقف وهم يناشدون الله تعالى في إنقاذ إخوانهم من الذين أوقعتهم معاصيهم وذنوبهم في النار، وهي منحة الله تعالى لعباده الصالحين وملائكته المقرّبين المتمسّكين برحمته بأن يستفيدوا من صفاته العليا من خلال العفو والمغفرة والمسامحة، ليشملوا بإذن الله تعالى ورضاه عبداً من عباده قد ساءت حاله بمعصيته، وإنقاذه من بلاء العقوبة، وإخراجه من مصداق حكم العقاب الذي يشمل المجرمين.

المقصد الثالث: العدل الإلهي في الشفاعة بقبول توبة المذنبين

كما يثبت مقصد العدل الإلهي في الشفاعة من خلال الرد على شبهةٍ مهمةٍ فيها، تظهر من كلام بعض الذين لا يرون إطلاقها للجميع، بتساؤل منهم، لماذا لم يتب هذا المذنب وكانت فرصة التوبة ممتدة أمامه طوال عمره! وأي عدالةٍ في أن يستقدم رسوله ليجد له مخرجاً من إثمه، وكان المخرج أمامه طول الوقت!(1).

ويعود هذا الرأي وغيره من قِبل المعرضين عن إمكان هذه العقيدة في الشفاعة الى التفسير الخاطئ لبعض الآيات الكريمة الواردة فيها من خلال بيان رحمة الله تعالى وسعة لطفه بعباده من دون الاشارة الى حقيقة مرتبة العبودية التي يجب أن يتصف بها المؤمن، أو الأحاديث الشريفة التي نُقِلت باعتبارها مما يتعلق بالفضائل والتي لا يُنظَر معها الى التأكيد من صحة نقلها أو مضامينها، فأدى ذلك الى التهاون في هذه العقيدة الى الدرجة التي تكاد تهدد القيم جميعاً(2).

أما العدالة في ذلك فإن هذه الشفاعة ليست مطلقة للجميع، بل هي مختصة لمذنبي الموحدين؛ لإيمانهم، إذ من الممكن أن تكون النجاة مكتوبة لجميع المؤمنين، ثمَّ توضع الأحكام وما لمخالفتها من أنواع العقاب، ليهلك الكافرون بكفرهم، أمّا المؤمنون فيرتفع بالطاعة درجات المحسنين منهم، ويبقى المسيئون فينالون بالشفاعة تلك النجاة الغائيّة والسعادة النهائيّة ولو بالنسبة إلى بعض أنواع العذاب، مع مقاساة عذاب البعض الآخر، كأحوال البرزخ وأهوال يوم القيامة، فيكون بذلك أصل وضع الحكم وعقابه أوّلًا عدلًا، ورفع عقابه ثانياً عدلًا(3).

ويقول في ذلك الرازي (ت٦٠٦هـ): (إنه تعالى أمر نبينا محمداً ﷺ بالاستغفار

(1) (يُنظَر) الشفاعة، مصطفى محمود: ٦٤ وما بعدها.

(2) (يُنظَر) أوهام وحقائق: ٧٣.

(3) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٢٠٩/٩.

للمذنبين، فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، والفاسق مؤمن بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات: ٩]، فسماه مؤمناً حال كونه باغياً، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فسماه تعالى مؤمناً حال قتل النفس بغير الحق(١).

فثبُت بهذا: أن الله تعالى أمر النبي محمد ﷺ بأن يستغفر للفاسق، فإذا طلب محمدﷺ المغفرة للفاسق، فلا بد أنه ﷺ يريد أن لا يرده الله عن مطلوبه، بل يقبل شفاعته، وإذا ثبت أن محمداً ﷺ يريد ذلك، فإن الله تعالى يقبله أيضاً؛ لقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، ويلزم من ذلك: أن الله تعالى يقبل شفاعة محمد ﷺ في حق الفُسَّاق(٢).

والعلم بهذا الأمر يدفع الكثير من العصاة الى طمعهم في الحصول على غفران ذنوبهم واستحصال الشفاعة من الشافعين مما يدفعهم الى سلوك طريق التوبة عن الذنوب، لتكون شافعةً لهم بإنقاذهم من الهَلَكة، إذ إن كلّ ما يستوجب الغفران للإنسان في الدنيا ويستلزم قربه من الحقّ تعالى، فهو شفيع يتوسّط بين العبد وربه، ويوجب غفران ذنوبه، فالتوحيد إذاً من شفعاء الإنسان، أما الكافر، فهو غير مستحقٍ لهذه الشفاعة يوم القيامة إلا بتوبته عن الشرك، عندئذٍ يكون توحيد الله تعالى شافعاً له موجب لغفران شركه.

فالتوبة من الذنوب دعتنا اليها الكثير من الآيات القرآنيّة الكريمة: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، كذلك ومن بين أنواع التوبة: التوبة من الشرك، فمن صار موحّداً

---

(١) الأربعين في اصول الدين: ٢/ ٢٤٥.

(٢) (يُنظَر) الأربعين في اصول الدين: ٢/ ٢٤٥.

مؤمناً بالله تعالى غُفر له ذنبه في الإشراك، وكان نفس توحيده توبةً له[1].

ويقول ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في هذه التوبة أنه لا تعني الآية المباركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، أنّه لا تُقبل توبة المشرك منه مهما كانت، وأنّ الله لن يغفر للمشرك شركه، بل تعني أن المشرك المصرّ على شركه حتّى يموت، سوف لن ينال المغفرة لأن الله تعالى يغفر ما دون الإشراك فيه [2].

فيدخل التائب في دائرة الايمان المؤدي الى غفران ذنب الكفر: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

فكانت توبته من الشرك شافعة له يوم القيامة بإنقاذه من الشقاء والهلاك في الجحيم الى رضوان الله تعالى، وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: (لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى ولا معقل أحصن من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة)[3].

أما العصاة وأصحاب المعاصي من الموحدين فهم أولى بهذه الشفاعة، وقوله صلى الله عليه وآله: (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي)[4]، خير دليلٍ على ذلك، وكذلك قوله صلى الله عليه وآله: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَاهَا لِأُمَّتِهِ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[5]، ومع ذلك فهذه التوبة ليست مُطلَقة بل لها من الشروط التي تصدق عليها، وإلا لكانت كما قال المُطلقين للشبهات فيها أنها ستكون سبباً في الإصرار على المعاصي والذنوب.

---

(١) (يُنظَر) عالم الآخرة (الطباطبائي): ٢٧، ومعرفة المعاد: ٧٥/٩.

(٢) (يُنظَر) التحرير والتنوير: ٨٠/٥، ٨١، ومعرفة المعاد: ٧٥/٩.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٠: ٤٥٧/٤.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ٣٨٣/٣، والمستدرك على الصحيحين: ٣٩٩/١.

(٥) صحيح مسلم: ١/ ١٩٠.

المقصد الرابع: الرحمة الإلهية في الشفاعة لأصحاب الذنوب من الموحدين

من المقاصد التي يستشعرها المسلم عند تصوره لذلك الموقف العصيب، يوم جمع الخلائق وحضوره بين يدَي رب العالمين ببضاعته المزجاة التي أحصاها الله تعالى وجهلها الإنسان نفسه، إلا أن تداركه موارد هذه الرحمة العظيمة من قبول الشفاعة فيه وإنقاذه مما كسبته يداه، ففيها من رحمة الله تعالى بالمشفوع له ما هو ظاهر بيِّن حيث وجد سبباً تحصل له به المغفرة ودخول الجنة.

وتتجلى الرحمة الإلهية بصور مختلفة، منها ان يغفر الله سبحانه لمن شاء من عباده العصاة، ومنها تكريم رسوله ﷺ بالشفاعة في امته، وهي تتمثل في شفاعات كثيرة اعظمها شفاعته ﷺ لأهل المحشر عامة لراحتهم من طول الموقف واهواله ومنها ادخاله لطائفة من امته الجنة من غير حساب، ومنها شفاعته فيمن استحق دخول النار ان لا يدخلها، ومنها شفاعته في اخراج المؤمنين والموحدين منها بعد دخولهم فيها، ويشاركه فيها ﷺ اخوانه من الأنبياء عليهم السلام وأهل بيته والملائكة والمقربون من المؤمنين وسائر الشافعين[1].

فعندما يعلم الإنسان بطريق الشفاعة ويؤمن بها بمعناها الصحيح يدفعه ذلك الى الطمأنينة بخلاصه من العذاب المؤبد والتي تدفعه نحو العمل الصالح ومنشأ هذه الطمأنينة إنما هو حسن ظنه بالله تبارك وتعالى.

ذلك أن مرتكبي الجرائم الكبيرة يعانون من وخز الضمير، كما يشعرون باليأس من عفو الله تعالى، ولذلك هم لا يفكرون بالعودة الى طريق الهداية ورضا الله تعالى، ولا بإعادة النظر في طريقة حياتهم الآثمة، وقد يدفعهم المستقبل المظلم الى التعنت والطغيان، وإلى التحلل من كل قيد تماماً، كالمريض اليائس من الشفاء الذي يتحلل من أي نظام غذائي، لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام[2].

---

(١) كبرى اليقينات الكونية: ٣٥٥. ٣٥٦

(٢) (يُنظَر) أسرار الاقدار: ٣٨٢.

يقول السيد كمال الحيدري (إن إعتقاد هؤلاء المذنبين بالشفاعة المقيدة بشروطها يبعث الأمل في نفوسهم وأفئدتهم، فيدفعهم الى العَودة عن سلوكهم السلبي وإعادة النظر في منهج حياتهم ويمسكهم عن الاستمرار والتمادي في ما هم عليه من التمرد والعصيان؛ وذلك أنهم لو علِموا أن الرجوع عن منتصف الطريق الباطل الى الطريق الصواب والحق سينقذهم مما يترتب على أفعالهم السيئة التي ارتكبوها مدة عمرهم، فيغتنموا الفرصة بتغيير وضعهم وتعديل سلوكهم)[1].

لكن هذه السماحة قد لا تتواجد في نفوسٍ اعتادت المعاصي وابتعدت عن الله تعالى، وعن طريق الهداية والحق، كما أن قلق الضمير الناتج عن هذه المعاصي قد يؤدي الى اختلالات نفسية، وإلى تحفيز الشعور بالانتقام من المجتمع الباعث على تلوثه، وبذلك يتبدل المذنب الى عنصر خطر، وإلى مصدر قلق اجتماعي، ولكن، الإيمان بالشفاعة يفتح أمام الإنسان نافذة نحو النور، ويبعث فيه الامل بالعفو والصفح، وهذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، ويعيد النظر في مسيرة حياته، بل ويشجعه على تلافي سيئات الماضي، لذلك فإن الإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسي والروحي للمذنب، ويفسح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح[2].

وبناءً على ذلك فإن ما ورد من النصوص الكريمة والروايات الشريفة في الشفاعة بحد ذاتها تطمئن من تلوث بالذنوب أنه قد ينال شفاعته ﷺ ويتخلص من العذاب الدائم فيكون حافزاً له للتوبة من ذنوبه، وذلك لأن العذاب الدائم إنما يكون للكافرين.

ويضيف الشيخ محمد حسين الحسيني الطهراني (ت١٤١٦هـ) في هذه الشفاعة (لربّما أوجب الرجاء في الشفاعة إقلاع الشخص العاصي عن معاصيه، وركوبه صراط التقوى،

---

(١) الشفاعة (كمال الحيدري): ١٧٥.

(٢) (يُنظَر) تفسير الأمثل: ١/ ٢٠٩، ٢١٠، وأسرار الأقدار: ٣٢٧.

وصيرورته من المحسنين، بينما قد يقول إذا انعدمت في وجوده أيّة نافذة للرجاء: لقد قُضي الأمر، وبلغ السيل الزُّبى؛ وإذا طغى الماء، فما الفرق أن يغمر شخصاً واحداً أو مائة؟ وما دمنا من أصحاب النار، فلماذا نفعل أعمال الخير؟، أمّا إذا لاحت أمام أعينه نافذة رجاء العفو وطلائع الرحمة، ورجى شموله بالشفاعة، فلربّما أقلع عن غيّه وانزجر عن معاصيه، وانساق إلى الطاعات والعبادات، و﴿ذَلِكَ هُو الْفَضْلُ الْعَظِيم﴾[1].

فتجيء الشفاعة لإزالة ذلك اللوث والدنس ولجلاء صدأ الذنوب عنهما لتطلع من جديد تلكما النفس السليمة والعقيدة الحسنة، فتقود ذلك الشخص إلى مرفأ الأمان وساحل النجاة[2].

وبذلك يتجسد مقصد مهم من مقاصد الشفاعة، إذ لا يخفى على المسلمين سعة رحمة الله تعالى، وحتى العاصين منا فإنه تعالى قد جعل لنا أبواباً كي يتجاوز عن خطايانا، فكما أن الخطأ ملازم للإنسان غير المعصوم، فكذلك رحمة الله تعالى أيضاً ملازمة لهذا الإنسان، ولكن، إن سعى إليها سعيها.

خلاصة الفصل الثاني

وبعد هذه الدراسة في المقاصد والعبر من الايمان بالمعاد والموقف والحساب، نخلص منها بفوائدٍ عدة، منها:

١ـ من كبرى المقاصد من مظاهر وأهوال القيامة والحشر وابتداءً من النفخ في الصور وبعث الأموات تجليات ربوبية الله تعالى وملكه ومالكيته وحاكميته، فمع كون الله تعالى مالكاً وملِكاً في كل الأوقات، وعلى كل الأكوان، إلا أن ذلك يتجلى بوضوح عند النفخ في الصور، وعند النشأة الثانية إذا حشر المخلوقات جميعاً وعرضهم لحسابهم.

---

(١) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٩/٢١٥، ٢١٦

(٢) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٩/٢٠٧.

فكما كان مبدأ الخلق ذا مقاصد ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة، حيث بعث المخلوقات والناس جميعاً، ويكون الحكم والملك لله تعالى وحده بالحق، بقوته وقدرته في تبدل السموات والأرض وتهيأتها للجمع وحشر العباد وحسابهم وجزاءهم.

٢ـ من مقاصد مقدمات القيامة من النفخ في الصور سواءٌ كانت نفختين أو ثلاثٍ أو أربع تجليات الأسماء والصفات الإلهية من إرادة الله تعالى ومشيئته وعظمته وقدرته على البعث والاحياء بعد فناء الخلق وصعقهم، فهو المبدئ والمعيد، وهو المحيي والمميت، فضلاً عن فزَع الخلْق الشديد وانقيادهم التام لهذه المشيئة والإرادة الإلهية.

٣ـ يتضح من الإيمان بنفخَتَي الصور الدور التكويني للنشآت الإنسانية، أي أن النفخة الأولى تكون سبباً في نهاية النشأة التكوينية الأولى المتمثلة بالحياة الدنيا، والنفخة الثانية تكون سبباً في نهاية النشأة التكوينية الثانية المتمثلة بالحياة البرزخية، ومثلها المقاصد التي تظهر في قولهم من كونها ثلاث أو أربع نفخات، في تجليات الإرادة والقدرة الإلهية فيما ينتاب الخَلْق من فزع يومئذٍ، فضلاً عن الدور التكويني للنشآت الإنسانية.

٤ـ من مقاصد الإيمان بالمحكمة الإلهية، وحساب العباد على جميع أعمالهم، إقامة الحجة على العباد بإعطائهم صحف أعمالهم قبل المحاسبة، ومظاهر عدالة الجزاء الإلهي في تمييز المؤمنين عن الكافرين، فضلاً عن مقاصد التكريم الإلهي في من لا يُحاسبون، وعدالته تعالى وإكرامه لمن يحاسبون، وعدم ضياع الحقوق والمظالم فيما بينهم، فيوفي الحق عز وجل عباده أجورهم كاملة غير منقوصة ولا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل.

٥ـ كذلك من مقاصد المحاكمة والحساب الإلهي يوم القيامة حضور الأشهاد على الإنسان، إذ لم تخلُ من اللطف الإلهي بالعباد، ونجاة المؤمنين بناءً على اكتفائهم بشهادة الله تعالى على أعمالهم، كما أن من هذه المقاصد تجليات العدالة الإلهية في الاشهاد وإقامة الحجة على العباد، فضلاً عن تجليات القدرة الإلهية في شهادة الإنسان على نفسه ونطق جوارحه،

وما في حضور الأشهاد من تكريم الأنبياء عليهم السلام بشهادتهم عامة والنبي صلى الله عليه وآله خاصة، وبالذات تكريم أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله بالوسطية وعرض أعمالها عليه صلى الله عليه وآله.

٦ـ وبعد عَرض الأعمال، يأذن الله تعالى بإقامة الموازين التي من خلالها يعرف الخلق درجات أعمالهم، والجزاء الذي يستحقونه عليها، ولم تخلُ هذه المرحلة من مقاصد عقدية مهمة، منها دور هذه الموازين في تجليات دقة العدالة الإلهية، وإقامة الحجة على الخلق برؤية أعمالهم وآثارها، ذلك أن الله تعالى قادر على أن يدخل عباده الجنة أو النار من غير أن يقيم عليهم الحجة بناء على علمه فيهم، لكنه بمقتضى عدالته لم يفعل ذلك، وإنما تركهم يعرفون بأنفسهم نتائج أعمالهم من خلال موازين القيامة، وذلك لدورها في بيان حقائق الأعمال، فضلاً عن بيان حقيقة العامل ومنزلته.

٧ـ تُعَد تجليات عدالته تعالى من المقاصد العقدية التي ترتبط بالايمان بالصراط، لما يظهر عليه من التمييز بين مراتب الناس بحسب اعتقادهم وتصديقهم، إذ يسيرون عليه، فمنهم الناجِ بلا خدش، ومنهم الهالك من أول وهلة، ومنهم المتوسط بينهما فيُصاب ثم ينجو، حيث يتجلى في هذه الأصناف مقصد العدالة الإلهية، فضلاً عن مقاصد التربية والتطهير حتى تناله الرحمة الإلهية مما يجده في سلوكه الصراط كي يكون أهلاً لدخوله الجنة إن كان من أهلها.

٨ـ كذلك من مقاصد الصراط حكم وجوده الرحمة الإلهية في إكرام النبي صلى الله عليه وآله وأمته على الصراط وتجسيد استقامتهم، فضلاً عن تجسيد الاستقامة في الحياة الدنيا لأثرها في هذا الجواز وبيان دقتها، وتوافق هذا الموقف مع القدرة الإلهية والتكليف في الآخرة وتطهير المؤمنين لدخولهم الجنة، وتربيتهم وإرشادهم الى تقديم صالح الأعمال في حياتهم الدنيا.

٩ـ ومن موارد الكرامات الإلهية في يوم القيامة، أنَّ العباد وبعدما يروا أعمالهم وعواقبها من خيرٍ أو شَر، وهم يومئذٍ فزِعون، يؤمِّن تعالى أولياءه المؤمنين ويكرمهم ليروي ظمأهم

من حوض نبيه ﷺ، فكان من مقاصد هذا الحوض تكريم الله تعالى للنبي ﷺ به، فضلاً عن تكريمه للمؤمنين الصادقين، وإذلاله للمغيرين والمبدلين للدين، كما إن مكانه بالنسبة للصراط إنما هو لري المؤمنين بعدما يرَوه من الفزع والأهوال في مواقف القيامة وأهوالها.

١٠ـ لا يخلوا قبول الشفاعة يوم القيامة أو رفضها من حكمةٍ ومقصد قد يخفى علينا إلا إنه يعلمه الله تعالى، لتدخل في واسع فضله أو قانون عدله تبارك وتعالى، ومن هذه المقاصد توافق شروط الشفاعة مع العدالة الإلهية، ومقصد تكريم الله تعالى للشافعين، فضلاً عن مقصد تجليات العدل الإلهي في الشفاعة لأصحاب الذنوب وقبول توبتهم، وتجليات الرحمة الإلهية فيها لأصحاب الذنوب من الموحدين، إذ تتجلى الرحمة الإلهية بصور مختلفة، منها ان يغفر الله سبحانه لمن شاء من عباده العصاة، ومنها تكريم رسوله ﷺ بالشفاعة في امته، ومنها ادخاله لطائفة من امته الجنة من غير حساب، ومنها شفاعته فيمن استحق دخول النار ان لا يدخلها، ومنها شفاعته في اخراج المؤمنين والموحدين منها بعد دخولهم فيها، ويشاركه فيها ﷺ اخوانه من الأنبياء عليهم السلام وأهل بيته والملائكة والمقربون من المؤمنين وسائر الشافعين.

الفصل الثالث: نعيم الجنة وعذاب النار ومراتبهما

من خلال النتائج التي تمحضت عن محاسبة الخلْق، يخرج الناس بعد ذلك بأصناف مختلفة، أما المعاني والمقاصد فيما تشتمل عليه كل فئة من هذه الأصناف، وما يلاقوه من جزاء النعيم أوالعذاب، فقد كان مما قدَّمناه في القسم الأول من هذا الفصل، وهو يندرج تحت تجليات مقصد العدالة والحكمة الإلهية، ثم بينا فيما بعده في نوعَي الجزاء الحسي والمعنوي، من نعيمٍ وعذاب، والتي تتجلى فيها مقاصد القدرة والحكمة الإلهية فضلاً عن مقاصد العدالة والرحمة الإلهية وتحقيق ما وعد به تعالى من الترغيب والترهيب، ولذلك كان القسم الثاني في الجزاء الحسي للنعيم والعذاب، والقسم الثالث من الفصل في الجزاء المعنوي للنعيم والعذاب.

وقد سبق هذه الأقسام تمهيد في مفهوم الجنة والنار؛ باعتبارهما الوجه الأول والحقيقي لهذا الجزاء من نعيمٍ وعذاب.

تمهيد: مفهوم الجنة والنار

أولاً: مفهوم الجنة

الجنة في اللغة: وتعود الى مادة (جنن)، والجَنَّة: هي بستان ذات شجر ونُزهة، وهو ذاك لأن الشجر بورقه يستر، كما تُعرَّف بأنها الحديقة ذَات الشّجر وَالنَّخْل، إذ لا تكون الجَنَّة في كلام العرب إلا وفيها نخيل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجَنَّة.

والجنة من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، وهي الستر والتستر، وهي دار النعيم في الآخرة، وما يصير إليه المسلمون، وهو ثواب مستور عنهم اليوم، وجمعها جناتٌ وجنان[1].

أما في الاصطلاح: فمرة يقال: جَنَّة، ومرة يقال: جنات عدن، وجنة عدن، لأن المعدن: الإقامة، وكلها دار الإقامة، كما أن كلها مأوى المؤمنين، وكذلك دار الخلد ودار السلام لأن جميعها للخلود والسلامة من كل خوف محزن.

وكذلك جنات النعيم، وجنة نعيم، لأن جميعها مشحونة بأصناف النعيم؛ لأن الله عز وجل أن كان سمى شيئاً من هذه الأسماء جنة في موضع فقد سمى الجنان كلها بذلك في موضع آخر، فعلمنا أن هذه الأسماء لتمييز جنة من جنة ولكنها للجنان أجمع لا سيما وقد أتى الكتاب بذكر العدد ولم يثبت إلا أربعاً.

وقد ورد وصف الجنة في كتاب الله تعالى ما يقرب من ثلاثمائة آية، وذكرها مطرد في جميع سور القرآن إلَّا عشرين سورة، هي: سورتا الممتحنة والمنافقين، وثماني عشرة سورة من السور القصار[2].

---

(١) (يُنظَر) العين: ١/ ٢٦٨، معجم مقاييس اللغة: ١/ ٤٢١، لسان العرب: ١٣/١٠٠.

(٢) (يُنظَر) المنهاج في شعب الإيمان: ١/٤٧٤، والإنسان والعقيدة: ١٨٢.

يقول الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ): (الجنة دار النعيم، لا يلحق من دخلها نصب ولا يلحقهم فيها لغوب، وجعلها الله سبحانه داراً لمن عرفه وعبده، ونعيمها دائم، لا انقطاع له، والساكنون فيها على أضرب: فمنهم من أخلص لله تعالى، فذلك الذي يدخلها على أمان من عذاب الله تعالى.

ومنهم: من خلط عمله الصالح بأعماله السيئة كأن يسوّف منها التوبة، فاخترمته المنية قبل ذلك، فلحقه خوفٌ من العقاب في عاجله وآجله، أو في عاجله دون آجله، ثم سكن الجنةَ بعد عفو الله تعالى أو عقابه.

ومنهم من يتفضل عليه تعالى بغير عملٍ سلف منهم في الدنيا، وهم الولدان المخلدون الذين جعل الله تعالى تصرُّفهم لحوائج أهل الجنة ثواباً للعاملين، وليس في تصرفهم مشاق ولا كُلفة؛ لأنهم مطبوعون إذ ذاك على المسار بتصرفهم في حوائج المؤمنين)[1].

ثانياً: مفهوم النار

النار في اللغة من (النور) وهو الضياء، والفعل نارَ وأنارَ ونَوراً وإنارةً، واستنار، أي أضاء[2]، والنار مُؤَنَّثَة، وهي من الواو لأَنَّ تَصْغيرها نُوَيرة وجَمْعُها نُورٌ وأَنْورٌ ونِيران انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها[3].

وفي الإصطلاح: هي جوهر لطيف محرق، وكلُّ ما في القرآن من أصحاب النار، فالمراد أهلها، اما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]، فالمراد خزنتها[4].

---

(١) تصحيح الاعتقادات: ١١٧.

(٢) العين: ٤/٢٧٦.

(٣) الصحاح تاج اللغة: ٢/٨٣٩، مختار الصحاح: ٦٨٨.

(٤) (يُنظَر) التعريفات: ١٠٥، الكليات: ١٢٢.

وللنار دركاتٍ ومنازلٍ سبعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقوله تعالى [الدَّرْك]، جمعه دركاتٍ وأدراك وليس درجات لاستعمال العرب لكل ما تسافل درك، ولما تعالى درج، فيُقال للجنة درج وللنار درك، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار وهي الهاوية لغلظ كفرهم وكثرة غوائلهم وتمكنهم من أذى المؤمنين(١).

وقد صورت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الكثير من مشاهد الجنة والنار، بما يقطع أن لهما كياناً مادياً محسوساً؛ فالجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله تعالى لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، ووصفها يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه، أما النار فهي دار الهوان، وهي صورة العذاب الإلهي الكبرى، ودار الانتقام من أهل الكفر والعصيان، ولا يخلد فيها إلا أهل الكفر والشرك، أما المذنبون من أهل التوحيد، فإنهم يخرجون منها بالرحمة التي تدركهم، والشفاعة التي تنالهم(٢).

ولذا كانت صورة جزاء النعيم في دخول الجنة والنجاة من النار هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَناتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَناتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

---

(١) التذكرة: ٨٣٨.

(٢) (يُنظَر) الإعتقادات في دين الإمامية: ٧٧، الدر الثمين: ٧٢، والعقيدة الإسلامية للسبحاني: ٢٥٣.

أولاً: مراتب الثواب والعقاب

بناءً على ما ذكره تعالى من مراتب الخلق بعد ما يروا مواقف الحساب إذ يتميزون الى أصنافٍ ثلاثة، هي:

الأول: المؤمنون الفائزون، والذين وصفهم تعالى بالسابقين، وهم الذين بشرهم تعالى بالتكريم الإلهي، ووصفهم بالمقربين، ويمثلون القسم الأول من أصحاب اليمين.

والصنف الثاني: عامة الناجين من النار، وأيضاً يُعدّون من الفائزين بالجنة لكن مرتبتهم تختلف عن مرتبة السابقين، والذين يمثلون القسم الثاني من أصحاب اليمين.

الصنف الثالث: المنحرفون عن الصراط الى النار، وهم أصحاب الشمال، ويشتمل هذا الصنف المغضوب عليهم من الهالكين في جهنم، والمعذبين مدةً ثم المُخرَجين بعفو الله تعالى، أو الشفاعة، أو انتهاء فترة استحقاقهم العذاب.

وقد ذكر تعالى هذه الأصناف في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٨ ـ ١٢].

وبناءً على هذا التقسيم، يندرج هذا الجزء من الفصل تحت مقصد العدالة والكرم الإلهي، حيث نرى من خلال ما ورد من النصوص في الأصناف الثلاثة وما ذكره تعالى فيهم من استحقاقهم لمرتبتهم التي جعلهم تعالى من ضمنها لعلمه بأحوالهم، وخبرته بظواهرهم وبواطنهم، وحكمته في عدالة جزائهم لما قدموه لأنفسهم، لأجل ذلك، نحاول في هنا إثبات المراتب المرتبطة بهذه الأصناف، وما دل عليها، وقد آثرنا تقسيميه الى ثلاثة أقسامٍ، وكما يأتي:

١ـ مراتب جزاء السابقين المقربين.

٢ـ مراتب جزاء الناجين من أصحاب اليمين.

٣ـ مراتب جزاء أصحاب الشمال.

١. مراتب جزاء السابقين المقربين

تمهيد: السابقون المقربون وأصنافهم

وصف تعالى أهل الجنة في كتابه الكريم بوصفين، أحدهما السابقون المقربون، والآخر أصحاب اليمين، أما السابقون فمن (السبق)، وهو ما يدلُّ على التقديم، يُقال سبقَ يسبقُ سبقاً، ويرادفه الفائزون من الفَوز، وهو الظفر بالخير مع حصول السلامة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، ﴿فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١])[١]

وهؤلاء السابقون هم أصحاب اليمين الذين فازوا بجنات النعيم، إلا إنهم تختلف منزلتهم عن أصحاب اليمين عامة، فهم المقربون الذين كرَّمهم تعالى بالقرب من الحضرة الإلهية والذين وصفهم بالسبق في سورة الواقعة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وغيرها من النصوص الكريمة التي تذكر حقيقتهم والدَور المناط بهم في الآخرة، أما صفاتهم؛ فقد ذكر القرآن الكريم الكثير منها، لتكون معياراً للقيم التي أراد الله تعالى من عباده التحقق بها[٢].

وقد أُفردوا في الآية الكريمة مع أنهم من أصحاب اليمين، إما تشريفاً لهم، فالمراد أن أصحاب الميمنة منهم قوم جاوزوا الأسبقية، فانفردوا بها عن سائرهم، وإما إشارة إلى السابقين منهم الأولون لا تقسيم فيهم، ومَن عداهم من الخلق يُقسمون إلى أصحاب ميمنة، وأصحاب مشأمة.

كما وردَ في عدد من التفاسير أن السابقين هم الأنبياء، وأصحاب الميمنة مَن دونهم مِن الأولياء والمقربين، ورُدَّ على هذا القول بأن الظاهر في السابقين أعم من ذلك وهم متقاربون فيما بينهم، بدليل قوله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ﴾، فالخطاب للجميع[٣].

---

(١) (يُنظَر) معجم مقاييس اللغة: ٣/ ١٢٩، ومفردات الفاظ القرآن الكريم: ٢/ ٢٠٨.

(٢) (يُنظَر) اسرار ما بعد الموت: ٥٧٦.

(٣) (يُنظَر) تفسير ابن عرفة: ٤/ ١٣٦.

لذلك فإن ما يرجح في السابقين ما ذهب اليه العلماء من كونهم السابقين بالخيرات، يقول العلَّامة الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) في الميزان: (فالمراد بـ ـ السابقين ـ السابقون بالخيرات من الأعمال، وإذا سبقوا بالخيرات سبقوا الى المغفرة والرحمة التي بأزائها، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١]، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة، وهو قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾) [١].

ويمثل السابقون المقربون، وهم الخلاصة النورانية لكل الواقعين في دائرة التكليف الإلهي، ولذلك هم المحققون لغايات الكون والحياة، وهم لذلك أيضاً الفائزون الذين كان لنفوسهم من الصفاء والطهارة ما جعلهم يتشربون الهداية الإلهية بكل كيانهم، ولذلك انصبغت حقائقهم بالصبغة الإلهية، ولم تتمكن لمة الشيطان من التأثير فيهم، وكانوا من المخلَصين[٢].

وبناءً على ذلك سنذكر من مقاصد العدالة والرحمة الإلهية والكرم الإلهي في هؤلاء المقربين من كونهم الأنبياء عليهم السلام أو كونهم الشهداء، أو في كونهم الصديقين والصالحين المسارعين في الخيرات ممن ذكر تعالى حسنى صفاتهم في القرآن الكريم.

المقصد الأول: الرحمة والتكريم الإلهي المرتبطة بجزاء الأنبياء عليهم السلام

من الجَلي الظاهر أن الأنبياء عليهم السلام لهم مكانتهم بين الخَلق جميعاً، فضلاً عن منزلتهم المكرمة عند الله تعالى، نتيجة لما قدموه من خلال نشرهم رسالتهم، وانقيادهم لأمر الله تعالى، مع ما تعرضوا له من الابتلاءات والمحن في سبيل ذلك.

وبناءً على التكريم والعدالة الإلهية فلا شكَّ بأن يعطيهم الله تعالى يوم القيامة ما وعدهم وبشرهم به من الجزاء الخاص عنده في جنات النعيم، ذلك أنَّ أعلى منازل الجنة للأنبياء

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ١٢١.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٧٣.

عليهم السلام، وأعلى هذه المنازل منزلة الوسيلة، وهي أقرب الدرجات إلى الله تعالى، فخصَّ تعالى بها خليله محمداً ﷺ، وقد روي عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ)[1].

وكذلك كافة الأنبياء عليهم السلام الذين أرسلهم الله تعالى دعاةً للبشرية، فإن لهم مراتب السابقين والمسارعين في الخيرات، ولمَّا كانوا قدر ما حمَّلهم تعالى من تبليغ رسالته، فقد نالوا شريف المنزلة في الدنيا والآخرة، بدلالة النصوص الكثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومما ورد فيهم عليهم السلام من حديث الإسراء الذي شاهد فيه النبي ﷺ منازلهم في السماوات، حيث جاء فيه قوله ﷺ: (ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدِ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٢٨٨.

عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى)[١]الحديث.

فيدل هذا الحديث الشريف على كرامتهم وعظيم منزلتهم عليهم السلام عند الله تعالى، ولمَّا كانَ هذا في فترة حياة النبي ﷺ، أي في فترة حياتهم البرزخية، فلا شكَّ فيما أعدَّه تعالى لهم بعلو منازلهم في الجنة يوم القيامة، فهم أولى الخلق بمنزلة السابقين المقربين، ولا يعني هذا التغاير في مراتبهم في السموات أن تقصيراً نتج عنهم، بل إن فيها من الحكم الإلهية التي تجعل كلاً منهم في مظهرٍ من مظاهر نعيم الله تعالى وتكريمه إياهم.

وينقل ابن حجر (ت٨٥٢هـ) لطيفة في مراتبهم هذه عن ابن ابي جمرة قوله (الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء وهو أصل فكان اولاً في الأولى، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة، وعيسى في الثانية لأنه أقرب الأنبياء عهداً من محمد، ويليه يوسف لأن امة محمد تدخل الجنة على صورته، وإدريس في الرابعة لقوله ﴿ورفعناه مكانا علياً﴾ والرابعة من السبع وسط معتدل، وهارون لقربه من أخيه موسى، وموسى ارفع منه لفضل كلام الله تعالى، وإبراهيم لأنه الأب الأخير فناسب ان يتجدد للنبي ﷺ بلقيه أنس

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٤٥.

لتوجهه بعده إلى عالم اخر، وأيضا فمنزلة الخليل تقتضي ان تكون ارفع المنازل، ومنزلة الحبيب ارفع من منزلته، فلذلك ارتفع النبي ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى)[1].

كذلك فإنهم اتسموا بالصبر على محنهم في مواجهة اقوامهم فمَكَّنهم تعالى من نشر رسالتهم، فاستحقوا بذلك عظيم الجزاء، وينقل الغزالي(ت٥٠٥هـ) قول الشيخ محمد بن ادريس الشافعي (٢٠٤هـ)[2] في الإحياء حين سُئِل: (أيهما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي: (التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا أُمتحن صبر وإذا صبر مُكن، ألا ترى إن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات قال الله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة)[3]، ولا يخفى ما تعرض له الأنبياء عليهم السلام من خلال نشر رسالتهم الى الناس كافة.

كذلك فإن (أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة؛ فالله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، ومراضيه ومساخطه، وثوابه وعقابه، وخصهم بوحيه، واختصهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢١١.

(٢) محمد بن ادريس بن العباس الشافعي المولود بغزة سنة ١٥٠ هـ والمتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ، كان آية في الفهم والحفظ، ومذهبه ثالث المذاهب الأربعة في القدم، وهو ممن أخذ عن الإمام مالك، ثم استقل بمذهب خاص. (يُنظر) طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ١٩٢، ونظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة: ٧٠.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٦.

العالمين نفوساً، وأشرفهم أخلاقاً، وأكملهم علوماً وأعمالاً، وأحسنهم خلقة، وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس، وبرأهم من كل وصم وكل عيب وكل خلق دنيء)[1].

ولا تخرج هذه المقاصد عن مقصد العدالة الإلهية حيث اختارهم تعالى من عامة الناس، وقد تعرضوا لأكثر ما يتعرض له جميع العباد من الابتلاءات والاختبارات، فظهر مدى قوة ايمانهم ونشرهم لما وُكِلوا فيه من أسباب الهداية الى الدين الحق، ويذكر الدكتور نور الدين أبو لحية (إن هذه الهبة الإلهية التي تحققت لهذا الصنف، لم تكن هبة مجردة، وإلا لخالف ذلك العدالة الإلهية، وإنما كانت لما فيهم من الاستعدادات والقابليات المبنية على المجاهدات، ولهذا فهم مثل غيرهم من البشر يتعرضون للفتن، لكن الفرق بينهم وبين غيرهم هو في مراقبتهم لله، ومجاهدتهم لأنفسهم)[2].

ومن هذه النصوص وغيرها في فضائل الأنبياء عليهم السلام وتكريمهم في الآخرة يتضح لنا مقصد الرحمة والتكريم الإلهي لهم عليهم السلام؛ لأنهم قد خصَّهم تعالى بالقرب منه في الحياة الدنيا، وقد اصطفاهم على خلقه، ففي الآخرة يكونون أولى بهذا التكريم، نسبةً للجزاء والعطاء الإلهي العظيم الذي وعده تعالى للأنبياء عليهم السلام كافة، ولنبينا محمد صلى الله عليه وآله خاصة.

المقصد الثاني: الرحمة والتكريم الإلهي المرتبطة بجزاء الشهداء

وكون الشهداء رحمهم الله من ضمن من اختصهم تعالى بالفوز يوم القيامة وكونهم من المقربين لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فالشهداء الذين جاهدوا في سبيل الله ثم ماتوا على ذلك، وكما مررنا بالمقاصد والعِبر في حياتهم البرزخية بكونهم أحياءٌ عند ربهم منعمين منذ لحظة مفارقتهم الحياة الدنيا بما تفضل تعالى به عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٧٨.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٧٣.

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١]، إذ سُئِل ﷺ عن جزائهم في الآية الكريمة، فقال ﷺ: (أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ تعالى: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا)[١]

وإن ذلك الفوز الكبير والرضوان إنما هو ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ تعالى وعطائه؛ لأنه لو حاسبهم على أقل نعمة من نعمهِ لم تفِ جميع أعمالهم بها؛ لأن أعمالهم إنما هي من نعمه، فأعلمنا سبحانه وتعالى بهذا تسلية وحسن تعزية أن لم يفت منهم إلا حياة الكدر التي لا مطمع لأحد في بقائها وإن طال المدى، وبقيت لهم حياة الصفاء التي لا انفكاك لها ولا آخر لنعيمها بغم يلحقهم ولا فتنة تنالهم ولا حزن يعتريهم ولا دهش يلم بهم في وقت الحشر ولا غيره، فلا غفلة لهم، فكان ذلك مُذهباً لحزن من خلفوه ومُرغباً لهم في الأسباب الموصلة إلى مثل حالهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، فقد بيَّن أنَّ ذلك التفضيل للمجاهدين في سبيله من رحمة الله تعالى عليهم ومغفرته، فإنهم حين يُبعثون يكون لهم البشارة العظمى، فوعَدَهم بالجزاء الأوفى وجعلهم من السابقين الفائزين في جنات النعيم مع ما أكرمهم تعالى به من المراتب العظيمة، قال ﷺ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٥٠٢.

(٢) (يُنظَر) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/ ١٢٢.

لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض)[1].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يُعزي أُسر الشهداء بهذا الجزاء العظيم الذي نالوه، وما احتواه من مقاصد لصور وتجليات الرحمة والإكرام الإلهي إليهم.

ومنها ما رُوي أنهُ لما أُصيب الصحابي حارثة بن سراقة الأنصاري يوم بدر وهو غلام، إذ جاءت أمه الى النبي ﷺ فقالت: (يا رسول الله، قد عرِفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكُ الأخرى ترى ما أصنع، فقال ﷺ: (ويْحَكِ، أوَهَبِلْتِ، أوَ جَنَّةٌ واحِدَةٌ هي؟ إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّه لَفِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ)[2].

وبذلك يظهر لنا المقاصد التي تتعلق بمصير الشهداء وما ينالوه من النعيم المقيم، فضلاً عن تسلية ذويهم وطمأنتهم لما يلاقيه مَن فقدوهم مِن ذلك الفضل الإلهي العظيم الذي أعده تعالى لهم في جزائهم، فهو تعالى المعطي وهو المانع، وهؤلاء قد آثروا دينهم على دنياهم، وقد بذلوا أرواحهم في سبيل دينه، فأبدلهم تعالى بحياة جديدة منذ لحظة وفاتهم حتى الصعقة الأولى وبعثهم من جديد لينالوا ما أعده تعالى لهم من العطاء والجزاء العظيم الذي يتمنون عند رؤيته أن يعودوا الى الحياة الدنيا ليموتوا شهداءً مرةً أخرى في سبيل الله تعالى.

المقصد الثالث: الرحمة والتكريم الإلهي المرتبطة بجزاء الصديقين والصالحين

كما يدخل في منزلة المقربين كل من آمن بالله تعالى وصدَّق بما جاء به رسله، فلم يُلبِس إيمانه بما يشوبه من اتباع الشيطان والهوى، ويدل على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من خلال دعوته للعباد كافة بلزوم الطاعة لله ورسوله ليفوزوا برفقة مَن أنعَم تعالى عليهم في الآخرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٠٠.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٤٦٢.

وقد أورد الطبري(ت٣١٠هـ) في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما رُويَ عن سعيد بن جبير قال: (جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: يا فلان، مالي أراكَ محزونًا؟ قال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه! فقال ﷺ: ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، غدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك! فلم يردّ النبي ﷺ شيئًا، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ قال: فبعث إليه النبي ﷺ فبشره)[1].

فدلَّت الآية الكريمة على أن مكانة المذكورين فيها تختلف عن غيرهم، إذ يبشر الذين أطاعوا الله ورسوله من المؤمنين بأنهم معهم، (﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ يريد وحسن أولئك رفقاء في الجنة يستمتعون برؤيتهم والحضور في مجالسهم، لأنهم ينزلون إليهم، ثم يعودون إلى منازلهم العالية ودرجاتهم الرفيعة، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾ يريد أن ذلك الالتقاء مع من ذكرتم لهم بفضل الله تعالى، لا بطاعتهم. ولذلك يتم الجزاء عادلاً رحيماً)[2].

كما يدلُّ على ذلك ما رُوي عن النبيﷺ قوله: (إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُم) قالوا: يا رسول الله، منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ: (بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)[3]، أي: نعم هي منازل الأنبياء بإيجاب الله تعالى لهم ذلك، ولكن قد يتفضل الله تعالى على غيرهم بالوصول إلى تلك الدرجة[4].

وإنما هذه الرفعة لدرجة هؤلاء المقربين لكنهم ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم

---

(١) تفسير جامع البيان: ٨/ ٥٣٤.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: ١/ ٥٠٥.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١١٨٨.

(٤) فتح الباري: ٦/ ٣٢٨.

القائمون بما بُعِثوا به علماً وعملاً، حيث استمروا بدعوة الخلق إلى الله تعالى على طرقهم ومنهاجهم وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الولاية الحقة والصديقية ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء عليهم السلام.

كما بين تعالى صفات هؤلاء المقربين في أنهم يسارعون في الخيرات، ترغيباً في بيانه تعالى لما أعدَّه لهم من جزاء جراء ما قاموا به من أعمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (٦٠) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

فالمسارعة في الخير هي فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي، واولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند اللهَّ ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم(١).

وقال تعالى في آية أخرى تصف المؤمنين بحقيقة إيمانهم وقوة يقينهم فيما أنزله تعالى عليهم من الحق، فتحققت فيهم حسنى الصفات من وفائهم لنذورهم والعهود الإلهية، فضلاً عن صلتهم ما أمر الله تعالى به أن يُوصَل وصبرهم لوجه الله تعالى، الى غير ذلك من الصفات التي تجسدت في شخصيتهم، فكانوا أهلاً لهذا الفوز والتكريم بعقبى الدار، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهَّ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيْثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهَّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٠ـ ٢٢].

ومن تلك الآيات ما وصفتهم بالمتقين والمحسنين، لتبشرهم بجزائهم، كما قال تعالى:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/ ٤٠٣.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

ومن تلك الآيات ما ورد في وصفهم بالمخبتين[١]، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

ومنها ما ورد في وصفهم بعباد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٧].

ومن تلك الآيات ما ورد في وصف عباد الله الذين ممن جمعوا كل مقامات الخير ليبشرهم بعدها بعاقبة إيمانهم الحق، كما قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وما وصفهم به تعالى وما أعدَّه لهم من المغفرة والجزاء العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ

---

(١) المخبتين: قيل المتواضعين، وقيل: يعني المطمئنين إلى ذكر ربهم. واشتقاق المخبت من الخبت، وهو المكان المطمئن.(يُنظَر) التبيان في تفسير القرآن: ٧/ ٣٠٩.

مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وغيرها من الآيات الكريمة التي تصف الصالحين المقربين، إما بذكر أعمالهم، أو مواقفهم، أو بذكر بعض الأحداث المرتبطة بهم، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولهذا نرى في القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بتصنيف الناس وفق القيم التي يؤمنون بها، ذلك أن منازل الآخرة مرتبطة بتلك التصنيفات(١).

لذلك فقد كان من المقاصد التي تكمن وراء ذكر هذه الصفات الحسنى للمؤمنين ترغيبهم بالاتصاف بها والوصول بتطبيقها الى مرحلة العبادة الحقة التي خلق تعالى الناس لأجلها فيرقوا بها الى الفلاح الحقيقي الذي يورثهم جنان الفردوس الأعلى مما وعد بها تعالى عباده الصديقين منهم والمخلصين، وترغيباً للمسلمين كافة للتحلي بها، وتبشيرهم بالفلاح الحقيقي، إذ يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: ١ـ ١١].

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥٧٦ ـ ٥٧٨.

٢. مراتب جزاء الناجين من أصحاب اليمين

تمهيد: الناجون من أصحاب اليمين واصنافهم

الناجون من النار هم الصنف الثاني من أصحاب اليمين الذين يكون مصيرهم الى جنات النعيم، والذين تلي مرتبتهم مرتبة المقربين السابقين، وقد قال فيهم الرازي (ت٦٠٦هـ): (أصحاب الميمنة هم أصحاب الجنة، وتسميتهم بأصحاب الميمنة إما لكونهم من جملة مَن كتبهم بأيمانهم، وإما لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، وإما لكون اليمين يراد به الدليل على الخير)[١].

كما يقول العلَّامة الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ): (إنما سمي هؤلاء بأصحاب اليمين في مقابل أصحاب الشمال، وربما سُموا أصحاب الميمنة في مقابل أصحاب المشأمة، وهو من الألفاظ التي اصطلح عليه القرآن مأخوذ من إيتاء الإنسان يوم القيامة كتابه بيمينه أو بشماله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الحديد: ١٢])[٢].

أما منزلتهم فتشير إلى الرتبة التالية لرتبة الفائزين المقربين، والتي يعبر عنها بعض العلماء برتبة الناجين، ولهذا وصف القرآن الكريم جزاءها بكونه سلاماً، مقابل جزاء المقربين الذي وصفه تعالى بكونه روحاً وريحاناً وجنة نعيم[٣].

أما ما استحقوا به هذه المنزلة فيشير اليها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤٨]،

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣٨٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٧١.

(٣) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ١٢٦.

فبرغم أن أعمالهم لم تصل بهم الى مرتبة المقربين ومنزلتهم العالية عند الله تعالى، إلا إنهم بالوقت ذاته ابتعدوا عن الصفات التي تنهدم بها العقيدة الحقة، وإن ذنوبهم لم تصل الى الكفر بالله تعالى وتكذيب ما جاء به المُرسلون.

يقول الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) في تفسير الآية الكريمة: (وفي الآيات تعريف أصحاب اليمين بانتفاء الأوصاف المذكورة عنهم، بيان ذلك: أن الآيات واقعة في سورة المدثر وهي من السور النازلة بمكة في بدء البعثة كما ترشد إليه مضامين الآيات الواقعة فيها، ولم يشرع يومئذ الصلاة والزكاة بالكيفية الموجودة اليوم، فالمراد بالصلاة في قوله ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ التوجه إلى الله تعالى بالخضوع العبودي، و﴿لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ مطلق الإنفاق على المحتاج في سبيل الله، دون الصلاة والزكاة المعهودتين في الشريعة الإسلامية، والخوض هو الغور في ملاهي الحياة وزخارف الدنيا الصارفة للإنسان عن الإقبال على الآخرة وذكر الحساب يوم الدين، أو التعمق في الطعن في آيات الله المذكرة ليوم الحساب المبشرة المنذرة)(1).

ويكون هذا الصنف أكثر أهل الجنة، إذ إن تقديمه على القسمين السابقين باعتبار الكثرة، إما في نفس الأمر، أو في الخطاب، لأن المخاطَبين بالآية أصحاب الميمنة منهم أكثر من السابقين، وتقديمهم على أصحاب المشأمة بالشرف، وتقديم أصحاب المشأمة على السابقين بالكثرة(2).

ومن خلال اطلاعنا على أقوال علماء المدارس الكلامية في تصنيفها لأصحاب اليمين وجزائهم، وجدنا تجلي مقاصدها وأعلى معانيها وحكمها في الرحمة والعدالة الإلهية أيضاً، بحيث تسع جميع العباد من المكلفين وغير المكلفين ممن لم تبلغهم الدعوة الإسلامية، فكان بالإمكان تصنيفهم الى صنفين، هما:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٧٠.

(٢) تفسير ابن عرفة: ٤/ ١٣٦.

١ ـ المكلفون الذين بلغتهم الدعوة، وماتوا بعد سن التكليف، لكنهم قصَّروا في الطاعات، أو ارتكبوا بعض المعاصي، التي طُهروا منها في البرزخ والموقف، وذلك ما حال بينهم وبين بلوغ مراتب السابقين.

٢ ـ غير المكلفين ممن لم تبلغهم الدعوة، أو الصبيان والمجانين وغيرهم ممن رفع عنهم القلم، والذين وقع الخلاف في شأنهم؛ فهناك من يذكر أنهم يدخلون الجنة، وهناك من يرى غير ذلك.

وسنتحدث عن كلا الصنفين من خلال المقاصد والحِكَم التي تتعلق بنجاتهم وكونهم من أصحاب اليمين فيما يأتي:

المقصد الأول: العدالة والرحمة الإلهية في نجاة المكلفين الذين بلغتهم الدعوة:

تتفاوت منازل المكلفين الذين بلغتهم الدعوة الى الدين الحق بحسب أعمالهم وجزائهم الذي يستحقونه، وهم الذين لهم من الأعمال الصالحة ما ينقذهم من النار، فيجتازوا الصراط الى الجنة، إلا إن أعمالهم لا تبلغ بهم درجة المقربين من الفائزين بها، حيث قال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، فقدَّمهم تعالى على أصحاب المشأمة والسابقين من المقربين.

أما الحكمة في الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال إلى أصحاب الشمال ثم إلى السابقين مع أنه في البيان بين حال السابقين ثم أصحاب الشمال على الترتيب، فيقليها المفسرين إنَّ ذكر الواقعة وما يكون عند وقوعها من الأمور الهائلة إنما يكون لمن لا يكون عنده من محبة الله تعالى ما يكفه مانعاً عن المعصية، أما الذين سِرهم مشغول بربهم فلا يُجزون بالعذاب، فلما ذكر تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ وكان فيه من التخويف مالا يخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب أولى، ذَكر ما ذكره لقطع العذر لا نفع الخبر، وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب، فقدم سبحانه أصحاب اليمين الذين

يسمعون ويرغبون، ثم ذكر السابقين ليجتهد أصحاب اليمين ويقربوا من درجتهم[1].

لهذا أخبر ﷺ أن دخول الجنة متوقف على طاعته، فإن أطاعه فقد ارتضى تعالى دينه، وفي الحديث قال ﷺ: (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَى)، فقالوا: يا رسول الله من يأبى؟ قال: (مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فقَدْ أَبَى)[2].

كما ورد في الاحاديث الشريفة كثرة أهل الجنة نسبةً الى بقية الأمم، منها ما جاء في قوله ﷺ لبعض أصحابه يوماً: (أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إِلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ)[3]، ثم أكمل لنا ﷺ هذه البشارة في الحديث الصحيح الآخر الذي قال فيه: (أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ)[4].

لذلك فقد كان من مقاصد تقديمهم بيان كثرتهم بين سائر الأمم من جهة، ومن جهةٍ أخرى بيان فضلهم عليها، فضلاً عن فتح الله تعالى لأبواب المسارعة والمسابقة كي يرقوا بعبادتهم الى درجات المقربين السابقين.

وإذ قد علمنا إن أصحاب الجنة جميعاً من أصحاب اليمين، يتميز عنهم المقربون السابقون، ومن خلال ما بين أيدينا من النصوص الكريمة، كان بإمكاننا أن نستخلص أصناف العباد ممن يدخلون في أصحاب اليمين، بعد منزلة المقربين السابقين، ومنهم:

---

(١) (يُنظَرُ) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣٨٨.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ٥/ ٢٣٩٢.

(٤) سنن الترمذي: ٤/ .

١ـ المعتدلون من المسلمين الذين عبدوا الله تعالى خوفاً وطمعاً، إلا إن بعضهم قد وقعوا في المعاصي، فتطهروا من أدرانها في المواقف السابقة للجزاء، فاستحقوا الجنة برحمة الله تعالى، وإنما عقابهم الذي تعرضوا له فهو بعدالة الله تعالى، وله الحكمة في تهذيبهم وبحسب ما ران على قلوبهم من سيئات، لكي يكونوا أهلاً للمنزلة العظيمة التي سيحلون فيها، فإن من صفات أهل الجنة طيب القلوب وطهارتها وصفائها وبساطتها، وعدة خصائص أخرى لهم ميزتهم ونالوا بها فضله بإكرامه ونعيمه تعالى.

من هذه النصوص ما يشير إليها قوله ﷺ: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ، أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ)[١]، و((مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ) قيل مثلها في رقتها وضعفها كالحديث الآخر أهل اليمن أرق قلوباً وأضعف أفئدة، وقيل في الخوف والهيبة، والطير أكثر الحيوان خوفاً وفزعاً، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وكأن المراد قوم غلب عليهم الخوف)[٢] والخشية من الله تعالى.

وقد ذكر الدكتور نورالدين أبو لحية هذا التهذيب لهم بقوله: (وتبدأ تلك الدروس التربوية والتصحيحية من لحظات الموت نفسها، فشعور هؤلاء بالموت يختلف عن شعور السابقين المقربين الذين رأينا شوقهم له، ومسارعتهم إليه، وهوانه عليهم، وسبب ذلك هو عدم طمأنينتهم الكاملة، بسبب المعاصي والتقصير الذي وقعوا فيه)[٣].

٢ـ الذين نجوا من العذاب بشفاعة الشافعين لهم، ويقول العلّامة الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) في الميزان: (فأصحاب اليمين هم الفائزون بالشفاعة، وهم المرضيون ديناً واعتقاداً سواء كانت أعمالهم مرضية غير محتاجة إلى شفاعة يوم القيامة أو لم تكن، وهم المعنيون بالشفاعة، فالشفاعة للمذنبين من أصحاب اليمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٨٣.

(٢) المنهاج: ١٧/ ١٧٧.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ١٢٧.

كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فمن كان له ذنب باق إلى يوم القيامة فهو لا محالة من أهل الكبائر، إذ لو كان الذنب من الصغائر فقط لكان مكَفَراً عنه، فقد بان أن الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين)[١].

فأصحاب الذنوب من المؤمنين والذين يغفر تعالى لهم ذنوبهم بالشفاعة إنما يترقون الى منزلة أصحاب اليمين من الفائزين يوم القيامة، وإنها استحقاقهم ذلك لارتضاء دينهم عند الله تعالى، وهو باب من أبواب تفضل الله عليهم ورحمته، بخلاف المجرمين من الظالمين الكافرين الذين بقوا مرهونين بأعمالهم فلم يوجد من يَشفع لهم يومئذٍ لعموم النفي في قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

٣ـ العوام من الملتزمين، كفقراء المسلمين ومساكينهم ممن ليس لهم اهتمام السابقين في النوافل وتقديم الأعمال الصالحة على كل شيء، فهؤلاء يدخلون الجنة بعد حسابهم من غير عقاب، وقد ورد في العديد من الروايات أن الفقراء هم أكثر أهل الجنة، لما لهم من التواضع لله سبحانه وتعالى فضلاً عن رضاهم بما قُدِّر عليهم، فنالوا بذلك أفضل الجزاء الإلهي بكونهم من الفائزين بالجنة في مرتبة المقربين إن كانوا ممن نال بعمله وطاعته إتباع منزلة الصديقين والشهداء، أو عامة أصحاب اليمين الذين يُنقون من ذنوبهم ليكونوا أهلاً لها، ويدلُّ على ذلك ما وردَ عن النبي ﷺ قال: (قُمْتُ عَلَى بابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عامَّةُ مَنْ دخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وأَصْحَابُ الجَدِّ محْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحاب النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ)[٢]

وأصحاب الجد هم الأغنياء من المسلمين، وقد وقع في الحديث الشريف أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفاً، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا)[٣]، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام، لما ذكره

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٧٠.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٧.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٨٥.

الإمام أحمد قوله ﷺ: (يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسمِائَةِ عَامٍ)[1][2].

المقصد الثاني: اللطف الإلهي في نجاة غير المكلفين والذين لم تبلغهم الدعوة:

ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات الدالة على ارتباط الجزاء بالتكليف وبلوغ الدعوة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، فلم نعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما تحتمل الآية الكريمة: إن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده، وهذا الوجه الثاني هو الذي يبين علاقة العدالة بالجزاء في هذا الصنف من الخلق[3].

وهو ما دلت عليه النصوص الكثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وقوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

ولهذا كان من جملة الأسئلة التي يواجه بها أهل جهنم تبكيتاً وإظهاراً لعدالة الجزاء ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

ومثل ارتباط التكليف ببلوغ الدعوة يرتبط ببلوغ سن القدرة على التمييز واستعمال

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٩٦.

(٢) ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفوا الحال، وكذلك الأغنياء، فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولاً الجنة وآخر الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولاً الجنة وأول الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة أربعين خريفاً، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء والله أعلم. (يُنظَر) الجنة والنار ـ عمر بن سليمان الأشقر:١٢٦

(٣) أسرار الأقدار: ٢٧٩.

العقل، لأن أحكام الله تعالى مرتبطة بالعقل؛ فهو المدرك لها، وهو النافذة التي يطل منها الإنسان على مراده، لهذا قال ﷺ: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمُصَابِ حَتَّى يُكْشَفَ عَنْهُ)[1]، وهؤلاء الثلاثة رفع عنهم القلم بسبب العقل، فالأول لم يكتمل عقله، والثاني غاب عقله، والثالث غفل عقله.

وبعد هذه الأدلة القطعية على ارتباط التكليف بالعقل وبلوغ الدعوة، مع ارتباط الجزاء بالتكليف وقع الخلاف بين علماء الكلام حول من لم تتحقق فيه شروط التكليف، ولم تبلغه الدعوة على أقوال كثيرة[2]، من أشهرها:

القول الأول: أنهم في الجنة، وقد ذهب إلى هذا القول الكثير من العلماء، ودلت عليه بعض النصوص، ومنها ما رُوي في الحديث الشريف من إن رسول الله ﷺ قال حين يحكي رؤيا رآها: (فأَتَيْنا علَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ، فيها مِن كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وإذا بيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لا أكادُ أرَى رَأْسَهُ طُولًا في السَّماءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ مِن أكْثَرِ وِلْدانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ) ثم قال:(وأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ علَى الفِطْرَةِ) فقال بعض المسلمين:(يا رَسولَ اللَّهِ، وأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ)، فقال رسول الله ﷺ: (وأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ)[3].

كما استدلوا بالأحاديث الدالة على كون الموءودة في الجنة، منها ما ورد في مسند أحمد من قوله ﷺ:(النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْوَئِيدُ فِي الْجَنَّةِ)[4].

وهذا القول يدل على غلبة اللطف والرحمة الإلهية يوم القيامة، ولكنه مع ذلك معارض بالنصوص الدالة على العدل المطلق في الآخرة، كما ذكرت ذلك الأقوال الأخرى.

القول الثاني: هم في النار، واستند القائلون بهذا إلى أحاديث ضعيفة أو موضوعة

---

(١) مسند الإمام أحمد: ١/ ١١٦.

(٢) (يُنظَر) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١٠٨٦ وما بعدها، وأسرار الأقدار: ٢٨٠ وما بعدها.

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٨٣.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٥/ ٥٨.

تخالف الأسس اليقينية التي وردت بها النصوص المحكمة، نذكرها هنا مع الرد عليها:

١ـ قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وذلك بقياس ذرية الكافرين بذرية المؤمنين، وهو قياس غير صحيح، فليست هناك أي علة يمكن الرجوع إليها في هذا، والقياس لا يصح في الغيبيات[١].

كما إننا نرى أن هذا القول فيه ما يتنافى مع الحكمة والعدل والرحمة الإلهية، بل ذكر ابن القيم أن الآية حجة على نقيض ما ادعوه من كونهم في النار من وجهين:

الأول: إخباره أنه لم ينقص الآباء بهذا الإلحاق من أعمالهم شيئاً، فكيف يعذب هذه الذرية بلا ذنب؟!

والثاني: أنه سبحانه نبه على أن هذا الإلحاق مختص بأهل الإيمان وأما الكفار فلا يؤاخذون إلا بكسبهم، لقوله تعالى:﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٢].

٢ـ قوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال:﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧]، وهذا ـ كذلك ـ لا حجة فيه لأنه إنما أراد به كفار أهل زمانه لا عموم الكفار، ثم إن قوله:﴿فَاجِراً كَفَّاراً﴾ حال مقدرة، أي مَن إذا عاش كان فاجراً كفاراً، ولم يرد أنهم حال طفولتهم يكونون فجرةً كفرةً[٣].

٣ـ ما ذكره ابن عبد البر وقد ردَّ عليه في التمهيد عن عائشة قالت: (سألت رسول الله ﷺ عن ولدان المسلمين أين هم؟، فقال ﷺ: (في الجنة يا عائشة)، قالت: وسألته عن أولاد المشركين أين هم يوم القيامة؟، فقال: (في النار)، قالت: فقلت مجيبةً له:(لم يدركوا الأعمال ولم تجرِ عليهم الأقلام) قال ﷺ: (رَبُّكِ أَعلمُ بِما كانوا عامِلِينَ، والَّذي نَفسي بيَدِه لَئنْ شئتُ

---

(١) أسرار الأقدار: ٢٨٣.

(٢) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٠٩، وأسرار الأقدار: ٢٨٤.

(٣) أحكام أهل الذمة: ٢/١١٠٩.

أَسمَعتُك تَضاغيَهُم[1] في النَّار)[2]، فهذا الحديث لضعفه لا يصح أن يستدل به على مثل هذا، زيادة على معارضته النصوص المحكمة والأحاديث الصحيحة.

٤ـ ما يروى عن سلمة بن يزيد الجعفي، قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ، قال: قلنا: يا رسول الله، إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل وتفعل، هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئا؟ قال ﷺ: (لا)، قال: قلنا: فإنها كانت وأدت أختا لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئا؟:(الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ، إِلَّا أَنْ تُدْرِكَ الْوَائِدَةُ الْإِسْلَامَ، فَيَعْفُوَ اللهُ عَنْهَا)[3].

فهذا الحديث زيادة على تناقضه مع عدالة الله المطلقة والتي تدرك بالعقل، يتناقض مع القرآن الكريم الذي نص على أن الموءودة تسأل عن أي ذنب قُتلتْ ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم!، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

فضلاً عن ذلك تصريح الحديث الشريف بأنها في الجنة، وقد يكون ذلك رحمة خاصةً بها، ولذلك قرنت بالشهيد لما رُوي عن حسناء، (امرأة من بني صريم)، عن عمها، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: (النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، الْوَئِيدُ فِي الْجَنَّةِ).

فالقول الأول يتجلى فيها نور العدالة والرحمة الالهية، أما عدالته تعالى، فإن الأذى الشديد الذي تعرضتْ له يشبه الشهادة، فلذلك قرنها ﷺ في الحديث السابق بالشهيد، أما رحمته، فبأن تدخل الجنة من غير تعرضها للامتحان[4].

---

(١) أي صياحهم وبكاءهم. يقال ضغا يضغو ضغوا وضغاء إذا صاح وضج، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٩٢/٣.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ١٨/ ١٢٢، وقال ابن عبد البر فيه: هذا الحديث لو صح أيضا احتمل من الخصوص ما احتمل غيره في هذا الباب ومما يدل على أنه خصوص لقوم من المشركين قوله لو شئت أسمعتك تضاغيهم في النار وهذا لا يكون إلا فيمن قد مات وصار في النار وقد عارض هذا الحديث ما هو أقوى منه من الآثار.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٤٧٨.

(٤) أسرار الأقدار: ٢٨٢.

القول الثالث: وهو يرى أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة، فلا يُفردون عنهم بحكم في الدارين، فكما أنهم منهم في الدنيا فهم منهم في الآخرة.

واستدل القائلون بهذا القول بالإضافة لما سبق في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن الذراري من المشركين يبيتون فيصيرون من نسائهم وذراريهم فقال ﷺ:(هُمْ مِنْهُمْ)[1]، فالمراد من هذا الحديث ما يتعلق بالأحكام الدنيوية، لأن ذلك هو محل السؤال، قال النووي (ت٦٧٦هـ): (هم من آبائهم أي لا بأس بذلك، لأن أحكام آبائهم جارية عليهم في الميراث وفي النكاح وفي القصاص والديات وغير ذلك، والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة)[2].

ومن القياس استدلوا بأن إتباع ذرية المؤمنين بآبائهم كان إكراماً لهم وزيادة في ثوابهم، وأن الإتباع إنما استحق بإيمان الآباء، فكذلك إذا انتفى إيمان الآباء انتفى الإتباع الذي تحصل به النجاة، وهذا قياس لا يُلجأ لمثله في احكام الدنيا الفانية من أجل حظوظ بسيطة، فكيف يُلجأ إليه في أحكام الآخرة، والله تعالى يقول:﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

القول الرابع: وهو القول بأنهم خدم أهل الجنة[3]، واستدلوا بجواب النبيﷺ عن السؤال فيهم فقال ﷺ: (لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ فَيُعَاقَبُوا بِهَا فَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَيُجَاوَزُوا بِهَا؟ فَيَكُونُوا مِنْ مُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، هُمْ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ)[4].

وكذلك الاستدلال بحديث ضعيف رُوي عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال:(سَأَلْتُ رَبِّي اللَّاهِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْبَشَرِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ، فَأَعْطَانِيهِمْ) يعني الصبيان)[5].

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٦٤.

(٢) المنهاج: ١٢/ ٤٩.

(٣) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٣١، وأسرار الأقدار: ٢٩١.

(٤) الجامع لشعب الإيمان: ٣٥٥.

(٥) الجامع لشعب الإيمان: ٣٥٥.

فهذا القول مع ضعف أدلته، فإنه يتنافى مع ما نصت عليه النصوص المحكمة من أن أمر الخلق بيد الله تعالى وحده، لا بيد أحد من خلقه[1].

القول الخامس: أنهم مردودون إلى محض مشيئة الله بلا سبب ولا عمل، أي أنه يجوز أن يعمهم الله تعالى جميعاً برحمته، ويجوز أن يدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار، فكلها جائزة بالنسبة إلى الله تعالى وإنما يترجح بعضها على بعض بمجرد المشيئة[2].

وهو بذلك يرى التوقف في أمرهم، (وهو ترك الكلام في المسألة نفياً وإثباتاً بالكلية، وجعلها مما استأثر الله بعلمه، وطوى معرفته عن الخلق فلا يحكم لهم بجنة ولا نار)[3]، وقد يعبر عن هذا القول بمذهب الوقف، وقد يعبر عنه بمذهب المشيئة، وأنهم تحت مشيئة الله يحكم فيهم بما يشاء، ولا يُدرى حكمه فيهم ما هو.

ومما أُستُدل به على هذا القول عدة روايات منها ما جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ (مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تَنْتِجُونَ الْإِبِلَ، فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)، قالوا يا رسول الله أفرأيتَ من يموت صغيراً؟ قال ﷺ: (اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ)[4].

ومنشأ هذا القول هو الفهم الخاطئ لجوابه ﷺ حين سئل عنهم، فقال ﷺ: (اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ)، حيث يقول ابن القيم (ت٧٥١هـ) فيه: (وهذا الفهم غلط على رسول الله ﷺ وجوابه لا يدل على ذلك أصلاً، بل هو حجة عليهم، فإنه لم يقل هم في مشيئة الله يفعل فيهم ما يشاء بلا سبب ولا عمل، بل أخبر أن الله يعلم أعمالهم التي يستحقون بها الثواب، أو العقاب لو عاشوا)[5].

---

(١) (يُنظَر) أسرار الأقدار: ٢٩٢.

(٢) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٣٦.

(٣) أسرار الأقدار: ٢٨٣.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٩.

(٥) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٢٦.

القول السادس: أن هؤلاء الذين لم تتح لهم فرصة التكليف في الدنيا تتاح لهم هذه الفرصة في الآخرة؛ فيرسل إليهم الله تعالى رسولاً، وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وبناء على ذلك يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار[1].

وقد وردت بعض النصوص تدل على هذا القول، منها ما رُوي أن النبي ﷺ قال:(أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا)[2].

ومنها قوله ﷺ: (إذا كان يومُ القيامةِ جاء أهلُ الجاهليةِ يحملون أوثانَهم على ظُهورِهم، فيسألُهم ربُّهم عزَّ وجلَّ، فيقولون ربَّنا لم ترسلْ إلينا رسولًا، ولم يأتنا لك أمرٌ، ولو أَرسلتَ إلينا رسولًا لكنا أطوعَ عبادِك، فيقولُ لهم ربُّهم: أرأيتم إن أمرتُكم بأمرٍ فتطيعونَه؟ فيقولون: نعم، فيأمرُهم أن يعمُروا جهنمَ، فيدخلونها، فينطلقون، حتى إذا دنوا منها سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، فيرجعون إلى ربِّهم، فيقولون ربَّنا أخرِجنا منها، أو أجرنا منها، فيقولُ: ألم تزعموا أنِّي إن أمرتُكم بأمرٍ تطيعوني؟ فيأخذُ على ذلك مواثيقَهم، فيقولُ: اعمدوا لها فينطلقون، حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا، فقالوا: ربَّنا فرَقْنا منها، ولا نستطيعُ أن ندخُلَها، فيقولُ: ادخلوها داخرين. وقال رسولُ الله ﷺ: لو دخلوها أولَ مرةٍ كانت عليهم بردًا وسلامًا)[3].

---

(١) أحكام أهل الذمة: ٢/ ١١٣٧، وأسرار الأقدار: ٢٩٣.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٤.

(٣) جامع المسانيد والسنن لابن كثير: ١/ ٢٨٠.

وقد تكلم العلماء بالإنكار على هذه الأحاديث واعتبارها من الضعف بحيث لا تنهض للاستدلال بها، منها ما ذكره ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره بجوابه على الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري بعد ذكره أحاديث الامتحان، وقوله: (وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلف نفساً إلا وسعها؟.

[والجواب] عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها)[١].

وأيدها ابن القيم (ت٧٥١هـ) بجملة وجوه، منها:

منها أن هذه الأحاديث كثرت بحيث يشد بعضها بعضاً، وقد صحح الحفاظ بعضها.

ومنها أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

ومنها أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضاً فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله ﷺ، زيادة على أنه قد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

ومنها أنه وإن أنكرها بعض المحدثين، فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين أنكروها وأعلم بالسنة والحديث، وقد حكى الأشعري اتفاق أهل السنة والحديث على القول بها[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/٥٨.

(٢) أحكام أهل الذمة: ٢/١١٤٧.

ويضاف إلى هذا التأييد الروائي، ما يدل على توافقها مع العدالة والرحمة الإلهية، وما يجمع على أساسه كل النصوص السابقة، وكل الأقوال المبنية عليها.

أما اتفاقها مع العدالة، فحتى لا يتأسف العاقل على أنه لم يكن مجنوناً، أو يتأسف البالغ على انه لم يمت صبياً، وهذا ما نطق به القرآن الكريم ودلت عليه قواعد الشرع، قال ابن القيم : (فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقام فيه الحجة يوم يقوم الأشهاد وتُسمع الدعاوى وتقام البينات ويختصم الناس بين يدي الرب وينطق كل أحد بحجته ومعذرته فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم)[1].

أما اتفاقها مع الرحمة، فإن الله تعالى يكلف هؤلاء بعد معاينتهم لأمر الآخرة، ويكون التكليف حينها مع شدته هيناً، أما اجتماع النصوص على أساسها، فلأن من هؤلاء من يطيع الله فيدخل الجنة، ومنهم من يعصيه، فيدخل النار، وبذلك كله وردت النصوص، قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة، الشاهد بعضها لبعض)[2].

وإنما توسعنا في بيان هذه الأصناف لأجل بيان مدى اللطف والتفضل الإلهي في الخَلْق عامة، إذ لم يقتصر لطفه تعالى وتفضله عليهم لمن بلغته الدعوة وآمن به، بل إنه يشمل من لم تبلغه الدعوة على أرجح الأقوال وبها لا يتناقض مع العدالة الإلهية المطلقة، ذلك أنَّ الله تعالى لا يحاكم عباده إلا على أعمالهم، بل ويضيف إلى ذلك الشهود إقامةً للحجة عليهم؛ فكيف يقبل العقل أن يعامل الله أناساً بنوعٍ خاص من المعاملة، ويعامل غيرهم معاملة أخرى، مع أن عدالة الله تسوي بين الخلق جميعاً[3].

---

(١) أحكام أهل الذمة: ١١٤٩/٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٣/٥.

(٣) أسرار الأقدار: ٣٦٧.

٣. مراتب جزاء أصحاب الشمال

تمهيد: أصحاب الشمال وأصنافهم

أما أصحاب الشمال فهم الذين يؤتَون كتبهم بشمالهم، كما أن أصحاب اليمين الذين آتوها بأيمانهم، فأصحاب الشمال هم عامة أهل النار، ذلك أن الله تعالى هو المنتقم، وهو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال[١].

فقد توعد الله تعالى أصحاب الشمال ممن كفر به وانحرف عن الاستقامة في دينه بخلوده بالنار والعذاب الأليم، يقول الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) في الاعتقادات: (النار هي دار الهوان ودار الانتقام من أهل الكفر والعصيان، ولا يخلد فيها إلا أهل الكفر والشرك، فأما المذنبون من أهل التوحيد فيخرجون منها بالرحمة التي تدركهم، والشفاعة التي تنالهم)[٢].

وتبعاً لذلك يكون المنحرفون عن الصراط المستقيم من أصحاب الشمال، الساقطون في جهنم بحسب استحقاقهم، صنفين، هما:

الأول: الخالدون في النار من المغضوب عليهم، وهم الماكثون فيها الخالدون خلوداً مؤبداً.

وهم الذين حذَّرهم تعالى بعذابهم المخلد في النار، وعدم خروجهم منها ما داموا مستمرين على عنادهم وتضليلهم الناس في حياتهم حتى مماتهم، وبالإضافة لهذا الخلود فقد توعدهم تعالى بالغضب عليهم في ذلك اليوم.

ذلك أن المغضوب عليهم، يضمون إلى الضلال المرتبط بهم تضليل غيرهم، وهي

---

(١) (يُنظَر) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ١٣٩.

(٢) الاعتقادات في دين الامامية: ٥٤.

جريمة لا يمكن تصور مدى فداعتها، إذ إن صاحبها لا يتحمل وزره فقط، وإنما يتحمل جميع أوزار من أضلهم.

ثانياً: الضالون، وهم الماكثون في النار مؤقتاً.

وهؤلاء مرتبتهم دون مرتبة المغضوب عليهم، وإن كان كلاهما يشتركان في أصل الضلال، لكن المغضوب عليه، يضيف إلى ضلاله الكِبر والظلم والجريمة ومواجهة الهداة، ولذلك تكون جرائمه أعظم، بخلاف الضال الذي قد يهتدي إلى الحق، ويذعن له بسهولة، إذا ما أقيمت عليه الحجة، أو توضح له البرهان(1).

أما ما جاء في بيان بعض مصاديق المغضوب عليهم والضالين لما ورد في قوله ﷺ: (إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وإنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى)(2)، فقد توجه له البعض بالتشكيك متوهماً خلافه للقرآن الكريم، وذلك ليس صحيحاً، فهو يوافق قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢]، ثم عللَ تعالى سر كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣](3).

يقول الطوسي والطبرسي في تفسيريهما: ((الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) هم اليهود عند جميع المفسرين الخاص والعام لأنه تعالى قد أخبر انه غضب عليهم وجعل فيهم القردة والخنازير و(الضَّالِّينَ) هم النصارى لأنه تعالى قال: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧])(4).

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥٦٠، ٥٦١.

(٢) مسند الامام أحمد: ٣٢/ ١٢٤.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ٥٦١.

(٤) التبيان في تفسير القرآن: ١/ ٤٤، وتفسير مجمع البيان: ١/ ٣٨.

ويذكر الطبرسي قول الحسن البصري فيهم بقوله (إن الله تعالى لم يبرء اليهود من الضلالة بإضافة الضلالة إلى النصارى، ولم يبرء النصارى من الغضب بإضافة الغضب إلى اليهود، بل كل واحدة من الطائفتين مغضوب عليهم، وهم ضالون، إلا أن الله تعالى يخص كل فريق بسمة يُعرف بها ويُميز بينه وبين غيره بها، وإن كانوا مشتركين في صفات كثيرة، وقيل المراد بالمغضوب عليهم والضالين جميع الكفار وإنما ذكروا بالصفتين لاختلاف الفائدتين)[١].

لذلك يدخل ضمن المغضوب عليهم مَن غضِب تعالى عليهم وتوعدهم بالعذاب الدائم من أئمة الكفر بخلاف الضالين الذين قد يكونون من الأتباع البسطاء، الذين اشتبهت عليهم الأمور، ولهذا يسهل عليهم الرجوع للحق حال تبينه،. لذلك لم يقتصر إنذاره تعالى وتحذيره على الكفر والتغيير والتبديل، بل حذر الأتباع من الوقوع في المهالك التي وقع بها مرؤوسيهم، أن يقعوا بمثلها فيستحقوا الخلود الدائم في العذاب، قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

وبناء على هذا كله؛ فإن الضالين يختلف جزاؤهم اختلافاً كبيراً عن المغضوب عليهم، أو الضالين ضلالاً بعيداً. وبتعبير آخر يختلف جزاء الهالكين والماكثين في العذاب مكوثاً مؤبداً عن عذاب المُخرَجين منها، فضلاً عن تمايز مراتبهم في العقاب التي تختلف باختلاف قربهم من الحق أو بعدهم عنه، لذلك كانت المقاصد والحكم فيهما من قسمين، بيناها بحسب جزائيهما، هما:

آ ـ جزاء الماكثين في النار مكوثاً مؤبداً.

ب ـ جزاء الماكثين في النار مكوثاً مؤقتا.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١/ ٣٨.

آ . جزاء الماكثين في النار مكوثاً مؤبداً:

بعد قراءتنا للنصوص الكريمة فيمن أعدَّ تعالى لهم عذابه وخلودهم الدائم في النار، نجد إن مقصدها الأهم هو انقاذ الناس من الضلالة؛ لكونها السبب الأول المؤدي لغضب الله تعالى، عن طريق الإنذار والتحذير مما وقعوا فيه، فضلاً عن التحذير في الأفعال التي تقودهم لنيل هذا العذاب، مما أدى بهم الى أن يكونوا من المنحرفين عن الصراط الحق في الدنيا فأتبعه سقوطهم عنه في الآخرة الى دركات الجحيم.

كذلك نجد مقصد العدالة الإلهية متوافقاً تماماً مع خلودهم هذا في جهنم، ولا تتنافى معه من أوجهٍ عدة، منها: تحمل الأوزار المتعدية للذين أضلوهم، أو أجرموا في حقهم. والثاني، هو تلك الملكات التي عجنت بها نفوسهم، والتي قد لا يطيقون الانفكاك عنها مع طول العذاب. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فالآية الكريمة تدل على غاية عتوهم وإصرارهم وعدم قبول الخير فيهم، فلا تصلح نفوسهم الشريرة الخبيثة إلا للعذاب، ولو صلحت لصلحت على طول العذاب، فحيث لم يؤثر عذابهم تلك الأحقاب الطويلة في نفوسهم ولم يطيبها، علم أنه لا قابلية فيهم للخير أصلاً.

وبذلك فإن العدالة الإلهية متناسبة مع جرائمهم، لأنه لا يمكن أن يخرج وفي نفسه تلك الملكات الظالمة التي لم يستطع الانفكاك عنها. ذلك إن الخلود مرتبط بالأعمال والملكات[1].

وبناءً على ذلك كان هذان المقصدان من أهم المقاصد التي نستنبطها من القول بالخلود الدائم للكافرين، أما تفاصيلها من أقوال العلماء ففيما يأتي:

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥٤٨.

المقصد الأول: التحذير والانذار لما يؤدي للخلود في العذاب

المقصد الأول والغاية العظمى لخلق العالمين هو عبادته عزَّ وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومما ورد في العبادة هنا بمعنى التوحيد، قال الآلوسي(١٢٧٠هـ) (قيل: العبادة بمعنى التوحيد، بناء على ما رُوي عن ابن عباس أن كل عبادة في القرآن فهو توحيد)[١].

لذلك فقد حذَّر تعالى مَن كفروا به وأنكروا وحدانيته فيما تلى هذه الآية من قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠]؛ لما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة وما ينالهم فيه من عذاب النار، كما جاء موضَحاً في آيات كثيرة، وإن كلمة ﴿فَوَيْلٌ﴾، معناه الهلاك الشديد، وقيل: هو واد في جهنم تستعيذ من حره[٢].

ذلك إن هذا التهديد والوعيد لأهل النار الخالدين فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون، وهم الكفرة والمشركون، الذين خالفوا بإنكارهم الغاية الأولى والمقصد الأهم الذي خلقهم تعالى من أجله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤].

فالمجرمون بانحرافهم وآثامهم خالدون في عذاب جهنم، ولن يخفف عنهم قط وسيكونون يائسين من النجاة منه، ولسوف يستغيثون بمالك كبير خزنة النار ليتوسط لهم عند الله في الموت والخلاص به من العذاب، فيجيبهم بأن لا سبيل إلى ذلك وبأنهم ماكثون حيث هم إلى الأبد، فقد جاءهم الحق من الله بلسان رسوله فاستكبروا وكرهوا الحقّ

---

(١) تفسير روح المعاني: ١٤/ ٢١.

(٢) (يُنظَر) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٧/ ٤٥١.

وانصرفوا عنه فاستحقوا هذا المصير، ولم يظلمهم الله به ولم يجر عليهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وجنوا عليها.

كذلك ما ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم في التوعد بالهلاك والخلود في جهنم لأصناف عدة اشتركت مع هؤلاء بكفرهم وصدهم عن سبيل الله، لتشمل كل من اتخذ إلهاً من دون الله تعالى أو كذَّب به، ومن بينهم وأولهم أولئك الذين عبدوا العجل في عهد موسى عليه السلام، وبحضور أخيه نبي الله هارون عليه السلام، ومع ذلك تمردوا عليه، وعلى الهداية التي جاء بها، على الرغم من معاينتهم للمعجزات، فلم تؤثر فيهم، بل راحوا يحطمون كل الحقائق الوجودية، فعدلوا عن عبادة الله تعالى إلى عبادة العجل، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة [١].

ويقول الطبرسي (ت٥٤٨هـ) بأن الذين اتخذوا العجل إلها أو معبوداً من دون الله سيلحقهم على عبادتهم إياه عقوبة من ربهم، وإنما ذكر الغضب مع الوعيد بالنار؛ لأنه أبلغ في الزجر عن القبيح. ومثل هذا الوعيد والعذاب والغضب نجزي الكاذبين والمتخرصين، وإنما سموا مفترين لأنهم عبدوا عجلاً وقالوا أنه إله فكانوا كاذبين[٢].

كما يلحق بهذا الصنف أولئك الذين كانوا يعلمون علم اليقين بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، ودلت عليه كتبهم التي يوقنون بها، لكنهم لم يكتفوا بعدم اتباعه، وإنما راحوا يضللون الناس عنه، بغياً وحسداً وكبراً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة:٨٩، ٩٠].

---

(١) (بينظَر) المحرر الوجيز: ٣/ ١٠٢، وأسرار ما بعد الموت: ٥٤٦، والتفسير الحديث: ٤/ ٥٢٥.

(٢) (بينظَر) التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٢٧٠.

إذ تحمل هذه الآيات الكريمة وغيرها الكلام عن أهل الكتاب الذين لم يصدقوا ما جاء به النبي ﷺ برغم موافقته لما عندهم من الكتب، فـ (لقد آتى الله موسى الكتاب لهدايتهم وتعليمهم، ثم أرسل إليهم من بعده رسلاً عديدين، ثم أرسل عيسى مؤيداً بالمعجزات وروح القدس، فكانوا ـ أي بني إسرائيل الغابرين على ما يلهمه فحوى الآيات ـ كلما جاءهم رسول من عند الله لا يجاريهم في أهوائهم استكبروا عليه وخالفوه وكذبوه أو قتلوه.

وكانوا ـ أي ـ بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ على ما يلهمه فحوى الآيات كذلك ـ كلما تلا النبي ﷺ عليهم آيات القرآن ودعاهم إلى التدبر فيها تجاهلوا وتصامموا، وقالوا قلوبنا غير واعية لما تقول، أو مملوءة فلا محل فيها لزيادة، وأصروا على الجحود والكفر، حيث يدل هذا على ضعف إيمانهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً وتاماً بما عندهم لما وقفوا هذا الموقف، لأن ما يتلوه النبي ﷺ عليهم هو متطابق مع ما عندهم، وهكذا كفروا بما أنزل الله متطابقاً مع ما عندهم فاستحقوا لعنة الله التي يستحقها الكافرون[1].

ويضيف الشيخ محمد عزة دروزة[2] بعد بيانه لجزاء أهل الكتاب (أن تعبير أهل الكتاب أوسع من أن يقتصر على اليهود والنصارى وأنه لا مانع من أن يشمل كل ملة تدعي أن في يدها كتاباً منسوباً إلى الله وموحى به إلى أحد رجالها العظماء القدماء وعليه سمة من سمات كتب الله المعروفة، ومن ذلك الكتب المنسوبة إلى عظماء رجال من الهند والصين وغيرهما وفيها شرائع ووصايا وتعاليم وعقائد، ولو كان ما فيها أو بعض ما فيها مخالفاً للقرآن لأن هذا شأن الكتب التي يتداولها اليهود والنصارى اليوم)[3].

---

(١) التفسير الحديث: ٦/ ١٩٣.

(٢) باحث ومؤرخ موسوعي، عمل في السياسة والكتابة والتعليم، ولعمله السياسي اعتُقل غير مرة بدمشق، وكان يُسهم، وهو في بيروت، في تحرير جريدتي "الحقيقة" و"الإخاء العثماني"، ويترجم كذلك المقالات عن اللغة التركية، ثم تمرَّس بالترجمة عن الفرنسية أيضاً. وألَّف كتباً مدرسية عن تاريخ العرب والإسلام. تكملة معجم المؤلفين: ٥٢٣.

(٣) التفسير الحديث: ٤/ ٤٥١.

كما يحذَر تعالى المستكبرين والمكذبين بسبب خضوعهم لأهوائهم، وللكِبر الذي امتلأت به نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِّ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

ومنهم أولئك المبدلين لدين الله تعالى بعد إيمانهم، الذين استراحوا للضلالة، وأعجبوا بها، فلم يبغوا بديلاً عنها، لما أُشربت قلوبهم من حب الضلالة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِّ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِّ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وهذه الآية الكريمة تفرق بين الكفر، وانشراح الصدر له. فالكفر قد يكون ناتجاً عن ضلال، بسبب عدم التعرض للهداية، أو عدم توفر الحجج الكافية للاقتناع، لكن انشراح الصدر للضلال، يعني الإعراض التام عن الهداية مع قيام كل الدلائل التي تدل عليها(١).

كذلك حذَر تعالى وأنذر من الهلاك الذي يؤدي اليه الإدمان على السيئات والإصرار عليها، ومن تلك النصوص التي تذكر هذا الصنف من الخالدين في العذاب، قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِّ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

وهي تشير إلى تجوهر المكثرين من الذنوب والمدمنين عليها بجوهرها، حيث تستحيل صورهم النفسية إلى تلك الجرائم. ذلك أن الإنسان يعجن بسلوكه في الدنيا الصبغة التي يرتضيها لنفسه، ولهذا عبر الله تعالى عن ذلك الإدمان بكونه محيطاً بالإنسان، ومستغرقاً فيه، بحيث لا يستطيع الانفكاك عنه(٢).

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٥٥٧.

كذلك يحذر تعالى من ارتكاب الجرائم بين العباد لما تؤديه من الهلاك في العذاب الدائم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤]، وقوله تعالى في جريمة قتل النفس: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

كما ورد في الأحاديث الشريفة هذا الإنذار؛ إذ يُبَلِّغ هؤلاء بعاقبة كفرهم وتكذيبهم منذ أول لحظات خروج أرواحهم، لقوله ﷺ: (وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ). قَالَ ﷺ: (فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ)، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا)، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١])(١).

أما مراتب الناس في هذا الخلود فهي مختلفة، (وبناء على ما ورد في النصوص الكريمة، فإن هؤلاء الذين قدر عليهم الخلود في العذاب بسبب جرائمهم، ينزلون في الدركات بحسب ضخامة الجرم، ثم قد يترقون، إن كانت لديهم القابلية لذلك.

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٤/٢٨٧.

وقد ذكر تعالى أن النفاق هو الجريمة الكبرى التي يستحق صاحبها الدرك الأسفل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥]، وسر ذلك يرجع إلى أن نفوسهم المرنة المتحولة يصعب عليها أن تنتقل من حالة الانحراف إلى حالة الاستقامة إلا بعد تطهير طويل عميق، وقد لا تستطيع فعل ذلك أبداً)[١].

كذلك وردت الأحاديث الشريفة لأجل ردع المؤمنين عن الكفر وسبُله المؤدية إليه، فقد نهى ﷺ عن الجرائم والاقتتال بين المسلمين، بل قد ورد في الحديث ما يدل على الخلود المرتبط بجريمة القتل، حتى لو فعلها الشخص بنفسه؛ إذ قال ﷺ: (مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ بِيَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ، فَسُمُّهُ بِيَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا)[٢]، وكذلك ما جاء في قوله ﷺ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)[٣].

وفي رواية: (الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ وَالَّذِي يَطْعُنُها يَطْعُنُهَا فِي النَّارِ)[٤].

وهذه النصوص الكريمة مطلقة تشمل الموحدين وغيرهم، ولذلك فالقول بمغفرة الله تعالى لمن ارتكب هذه المعاصي والجرائم بلا توبة نصوح ما يؤدي الى التساهل فيها، فضلاً عن الخوض في عدالته تعالى المطلقة والتي يندرج عنها استباحة المظالم بين الناس، إلا إنه قد ورد أنه للموحدين يختلف خلودهم عن سواهم؛ لأصل الإيمان فيهم؛ وهو ما يتعلق بالماكثين في النار مكوثاً مؤقتاً.

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥٦٠.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٢/ ٤١٦..

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٥.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٤٥٩.

المقصد الثاني: العدالة الإلهية في خلود الكافرين في جهنم

يستبطن المعاد ناحية تربوية بارزة، وهي الارتباط الوثيق بين الحياتين الدنيا والآخرة، وقد عُبِر عنها في الحديث الشريف (الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ)[1]، وكل أحاديث المعاد صدرت بهذه الناحية، ومفادها أن كل ما نفعله في دار الدنيا سنجده في تلك الدار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ١٨٣][2].

فالله تعالى حين يعذب الكافرين ومن شاكلهم بالإنكار والتكذيب والكِبر ليس لحاجةٍ منه لهذا الانتقام، تعالى عن ذلك، ولا إنَّ فيه زيادةً على استحقاقهم، يقول الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) عند عرضه ردود بعض الإشكالات المترتبة على القول بالخلود في العذاب، ومنها رده على الإشكال (أن العذاب للعاصي انتقام، ولا يجوز الانتقام على الله تعالى، لأنه لا يكون إلّا لجبر النقص، والله تعالى هو الغني المطلق، فكيف يجوز منه العذاب المخلد؟).

إذ أجاب عنه بقوله: (إن العذاب الدائم مستند إلى صورة الشقاء الذي في الإنسان، وإلى الله سبحانه بالمعنى الذي يقال في كل موجود إنه مستند اليه تعالى، لا بمعنى الانتقام وتشفي الصدر المستحيل عليه تعالى، نعم الانتقام بمعنى الجزاء الشاق والأثر السيء الذي يجزي به المولى عبده لتمرده عليه مما يصدق فيه تعالى، ولكن لا يستلزم كون العذاب انتقاماً بهذا المعنى إشكالاً البتة، على أن هذا الإشكال لو تم لورد في مورد العذاب المؤقت المنقطع في الآخرة، بل في الدنيا أيضاً)[3].

وكذلك فإنهم مع جميع الإنذار والتحذير الذي علِموه فقد استكبروا عن الانقياد

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٢٥.

(٢) (يُنظَر) دراسات عقائدية: ٣٥٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٣٩.

للحق، حتى أن كفرهم وضلالهم انما تلبَسَّ مع نيتهم؛ لأن العذاب يدوم بدوام سببه بلا شك ولا ريب، وهو قصد الكفر وبقاء العزم عليه، ولا شك أنهم لو عاشوا أبد الآباد لاستمروا على كفرهم[1]، لذلك فهم يُعذبون عذابًا أبديًا لنيتهم البقاء على الكفر مدة حياتهم لو عاشوا حياة أبدية.

ويقول في ذلك الشيخ فاضل الصفار في عدالة الجزاء الإلهي للكافرين والمنكرين: (فالجزاء الإلهي في الثواب يمكن أن يكون مكافئاً للعمل، ويمكن أن يكون أكثر؛ لأن الأول مقتضى العدل، والثاني مقتضى الرحمة، ولا يمكن أن يكون أقل؛ لأنه ظلم ناشئ من الانتقام أو البخل أو الفقر، والكل منافٍ لكمال الخالق وحكمته.

أما العقاب، فيمكن أن يكون أقل من العمل إذا اقتضته الحكمة؛ لأن ذلك مقتضى الرحمة، ولا يمكن أن يكون أكثر من العمل؛ لأنه ظلم، ومقتضى العدل أن يكون مكافئاً للعمل ووفقاً له، وفي القرآن الكريم وصفه تعالى بالجزاء الوفاق، إذ قال سبحانه ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، أي جارياً على مقدار الأعمال في الاستحقاق، فيعذب سبحانه المشركين والكفار في النار؛ لأنها وفقه إذ لا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار)[2].

فمن موارد عدالة الله تعالى في مسائل الآخرة هذا الخلود الذي يلاقيه من كفروا بالله تعالى وجحدوا الإيمان به، فلا ذنب في الوجود أعظم من الكفر بالله تعالى، فعظُم لذلك عذابهم، وكتب عليهم الخلود الأبدي في النار؛ ذلك إن كفرهم قد تلبس في كيانهم، وقد علِم تعالى تمسكَهم به، وملازمتهم له، بحيث حتى لو أُعيدوا الى الحياة لعادوا لكفرهم وما نهاهم عنه، وهو الذي يعلم المعدوم لو وُجد كيف يكون، وقد علم في سابق علمه أن كفرهم قد تأصل في نفوسهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ

---

(١) دفع شبه من شبه وتمرد: ٥٩.

(٢) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية: ٨/ ٣٠٠.

رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

فقد كان لنيتهم في البقاء بكفرهم ودوام آثار أعمالهم الأثر الكبير في خلودهم هذا، كما يذكر الصفَّار: (إن الحكم على بقاء الأعمال وانقطاعها يخضع لاعتبارات عديدة، عمدتها:

الاعتبار الأول: شكل العمل وصورته، وهو ما يُعبَر عنه بظاهر العمل.

الاعتبار الثاني: نية العمل وجوهره، فإن النية هي التي تلون العمل وتعطيه جوهره وحقيقته. ويمكن للنية أن تبقى وإن انقضى العمل وانتهى أمده؛ فلذا يمكن للإنسان أن يعقد نيته على أداء العمل في المستقبل، ويُحسَب له خيراً، ويُكافأ عليها، بل في الأخبار الشريفة (نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ وَنِيَّةُ الْكَافِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ وَكُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَلَى نِيَّتِهِ)[١]، مع إن العمل قد لا يتحقق بسبب وجود المانع منه، أو يتحقق في المستقبل.

وكذا الأمر في المعصية، فإن الذي ينوي المعصية تُحسَب له خطيئة وإن لم يرتكب المعصية بعد، لكن لا تُحسَب عليه عقوبة ذات المعصية، بل عقوبة نية المعصية؛ لأن نية المعصية في نفسها تتضمن معنى التجرؤ والتمرد على المولى[٢].

الاعتبار الثالث: تأثير العمل، بمعنى أن لا يُنظَر الى ظاهر العمل ولا نيته، بل الى مستوى تأثيره.

ومن الواضح أن الأعمال قد تكون منتهية بحسب ظاهرها، وربما تكون منقطعة بحسب نيتها، إلا أن أثرها يبقى أمداً طويلاً[٣]، إذ إن الأعمال تُلحَظ بحسب مظاهرها، وقد تُلحَظ باعتبار دوافعها، وقد تُلحَظ باعتبار آثارها، والجزاء الذي يترتب على كل عمل لا يأخذ بنظر الاعتبار ظاهر العمل وحده، بل يلحظ نيته وأثره أيضاً.

وقريب منه ما أجاب به بديع الزمان النورسي (ت١٣٧٩هـ) في تعليل سر كون الكفر

(١) الكافي: ٢/ ٨٤.

(٢) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية: ٨/ ٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ٨/ ٣٠٣.

علة للخلود في العذاب، وهو نفسه ما ينطبق على غيره من العلل التي وردت بها النصوص الكريمة، فقال في ذلك: (أيها الإنسان! إن فيك جهتين: الأولى: جهة الإيجاد والوجودِ والخير والإيجابية والفعل. والأخرى: جهةُ التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال. فعلى اعتبار الجهة الأولى (جهة الإيجاد) فإنك أقلُّ شأناً من النحلةِ والعصفور وأضعفُ من الذبابة والعنكبوت، أما على اعتبار الجهة الثانية (جهة التخريب) فباستطاعتك أن تتجاوز الأرضَ والجبالَ والسماوات، وبوسعِكَ أن تحمل على عاتقك ما أشفقنَ منه فتكسبَ دائرةً أوسعَ ومجالاً أفسحَ؛ لأنك عندما تقوم بالخير والإيجاد فإنك تعمل على سعةِ طاقتك وبقدْر جهدك وبمدى قوتك، أما إذا قمتَ بالإساءةِ والتخريب، فإن إساءتكَ تتجاوز وتستشري، وإن تخريبَك يعمّ وينتشر)[1].

ويضرب المثل على ذلك من الواقع بأن الإنسان يستطيع هدمَ بيتٍ في يوم واحد الاّ أنه لا يستطيع أن يشيّده في مائة يوم، ومثل ذلك الكفر، فهو سيئة واحدة، ولكنها (تُفضي إلى تحقير جميع الكائنات وازدرائها واستهجانها، وتتضمن أيضاً تزييف جميع الأسماء الإلهية الحسنى وإنكارها، وتتمخّض كذلك عن إهانة الإنسانية وترذيلها؛ ذلك لأن لهذه الموجودات مقاماً عالياً رفيعاً، ووظيفةً ذات مغزى، حيث إنها مكاتيب ربانية، ومرايا سبحانية، وموظفات مأمورات إلهية، فالكفرُ فضلاً عن إسقاطهِ تلك الموجودات من مرتبة التوظيف ومنزلة التسخير ومهمة العبودية، فإنه كذلك يُرديها إلى درك العَبَث والمصادفة ولا يرى لها قيمةً ووزناً بما يعتريها من زوالٍ وفراق يبدّلان ويفسّخان بتخريبهما وأضرارهما الموجودات إلى مواد فانية تافهة عقيمة لا أهمية لها ولا جدوى منها)[2].

وعلى هذا الأساس يكون الخلود في النار جزاءً للأعمال الطالحة؛ لأن تلك الأعمال وإن كانت منقطعة بحسب ظاهرها إلا إنها باقية بحسب النوايا والآثار؛ وذلك لأن النوايا ترجع

---

(١) الكلمات: ٣٦١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٦٢.

في جوهرها الى الملكات النفسية، وهي من الصفات الملازمة لنفس الإنسان، وتكون معها في جميع الأحوال ولا تفارقها، وأما الآثار فهي أيضاً تبقى نتائجها في الخارج، كما تنعكس على نفس الإنسان وقلبه، فترسخ فيها الملكات والصفات، ومن هنا يؤكد علماء الأخلاق على أن تقوية المَلَكات الفاضلة يتم بمواصلة عمل الخير، وتقوية المَلَكات السيئة بخلافها.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، فإن وصف الخطيئة بأنها محيطة بصاحبها يشير الى أن العصيان يكون كالسور الذي يطوَق به صاحبه، بحيث يحدق به من كل جانب، فتتحول حياته برمتها الى معاصٍ وخطايا فلا يوجد فيها خير أبداً[(١)].

وبناءً على ذلك كان عذاب المكذبين والمستكبرين هذا التوعد بخلودهم في النار، لتكبرهم عن قبول الحق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وهي تذكر صفة الكبر، والمرتبط بتكذيب آيات الله، ذلك أن الكبر يتنافى تماماً مع العبودية، ويستحيل على المستكبر أن يتحقق له السير التصاعدي المعرفي والسلوكي، ذلك أن كليهما يتطلب نفساً لينة هينة سهلة يمكن ترويضها وإصلاحها.

ولهذا يخبر الله تعالى عن استحالة فتح أبواب سماء الحقائق للمتكبرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠][(٢)].

ب . جزاء الماكثين في النار مكوثاً مؤقتاً.

من جملة أصحاب الشمال الموحدين ممَن ارتكبوا الذنوب التي دون الكفر والاستكبار عن عبادته تعالى، ودون التكذيب والجحود، ويكون مرتكبها ممن استحقوا

---

(١) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية: ٨/ ٣٠٤.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٥٧.

العذاب في النار، لكنه إن تخلص من تبعات سيئات أعماله، خلال المدة التي مكثها في جهنم، وقد تخلص معها من كل تلك الملكات التي كانت سبباً في عقابه؛ فإنه لا يستمر عليه الحكم المؤبد.

فيتفق مع عدالته تعالى وحكمته وما أنذر به العباد هذا العقاب لأجل تطهيرهم قبل دخولهم الجنة ليكونوا أهلاً لها، كما أنه يتفق مع الرحمة والعفو الإلهي في قبول الله تعالى لتوبة العباد، وبناءً على ذلك سنتناول هنا المقاصد العقدية من جزاء المعذبين في النار مؤقتاً من الموحدين لما يتعلق بحكمة الله تعالى بتطهيرهم من تبعات الذنوب في المقصد الأول، وما يتعلق بفضله تعالى ورحمته بقبول توبتهم عنها فترة حياتهم في المقصد الثاني.

المقصد الأول: الحكمة الإلهية في عذاب أصحاب المعاصي من الموحدين

من بين تجليات المقاصد العقدية في جزاء هؤلاء تبرز العدالة والحكمة الإلهية كذلك، ذلك أنَّ الله تعالى حين يُعذِّب لم يكن إلا بعدله، وإنما جزاءه لكلِّ من آمن به واستقام، يقول ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوبا غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤]

وعن النبي ﷺ في الحديث القدسي عن الله تعالى: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ) الى أن قال ﷺ في آخره (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)[١])[٢].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٣٦.

وهذه الأمور قد ذكرها الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام في دعائه بقوله: (وقد علمت يا إلهي أنْ ليس في حكمك ظلم، ولا في نقمتك عجلة، وإنّما يعجل من يخاف الفَوْت، وإنّما يحتاج إلى الظّلم الضعيف، وقد تعاليتَ يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً)[1].

ويشير إلى هذا المقصد العديد من الأحاديث التي تذكر عدم دخول نفر كثيرين إلى الجنة، مع اتفاق العلماء على أن ذلك الدخول في النار ليس أبدياً، وإنما هو مؤقت، وإن توقيته متوقف على التطهر من تلك الذنوب التي كانت سبباً في دخولهم النار[2].

وما يدلُّ على ذلك من خلال بحثنا في الأحاديث الصحيحة التي يتبين من ظاهرها أن هؤلاء إنما لا يدخلون الجنة مباشرةً وقبل عقوبتهم على معاصيهم، ومن الأمثلة على ذلك قوله صلى الله عليه وآله: (ثَلاَثَة لاَ يَدْخُلُوْن الْجَنَّة: الْعَاق لِوَالِدَيْه، وَالْدَّيُّوث[3]، وَرَجُلَة الْنِّسَاء)[4].

وما ورد من قوله صلى الله عليه وآله: (ثَلَاثٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ بِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ - المتشبهة بالرجال-، وَالدَّيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ بِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ الْخَمْرَ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى)[5].

ومثله في قوله صلى الله عليه وآله: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ)[6]، وقوله صلى الله عليه وآله: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ)[7].

وقوله صلى الله عليه وآله: (إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ)، فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إِ(نَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ)[8].

---

(١) الصحيفة السجادية: ٣٧٤.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٤٩.

(٣) الديوث: هو الذي يُقِر الخبث في أهله. فتح الباري: ١٠/ ٤٠٦.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ١/ ١٤٤.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٢/ ١٣٤.

(٦) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٥٠.

(٧) صحيح مسلم: ١/ ١٠١.

(٨) المصدر نفسه: ٤/ ٢٢١٣.

وقال النووي (ت٦٧٦هـ): (كونه فى النار معناه مستحق لها وقد يجازى بذلك وقد يعفو الله تعالى عنه. وفيه دلالة للمذهب الصحيح الذي عليه الجمهور: أن من نوى المعصية، وأصر على النية يكون آثمًا، وإن لم يفعلها)[١].

وبناء على مبدأ العدالة والحكمة الإلهية، ولما ورد في النصوص الكريمة، فإن هؤلاء الموحدين الذين قُدِّر عليهم دخول النار وكونهم من أصحاب الشمال بسبب جرائمهم، ينزلون في الدركات بحسب ضخامة جرمهم الذي استحقوا به العذاب، ثم قد يترقون، إن كانت لديهم القابلية لذلك، ولذا؛ فإنا نرى أن كل النصوص الدالة على الدخول في جهنم باقية على معناها في حق الموحدين أو غيرهم، ولكن ليس على معنى الخلود والانتقام، إنما لأجل تأديبهم وتطهيرهم التام من عواقب الأعمال، والآثار المشكلة لها في الهيئة النفسانية.

ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا الطاهرون من المعاصي الطيبون، وبما إن للإسلام دوراً كبيراً للمسلم في نجاته من الشرك، وتعرفه على حقائق الوجود، ولكن قد لا يكون إسلامه كافياً في تطهيره من الآثار التي اكتسبتها نفسه من الجرائم، ولذلك يحتاج إلى التطهر منها في الدنيا، فإن لم تكفه الدنيا، ولا البرزخ بقيت تبعاتها عليه إلى أن يتخلص منها، بغض النظر عن المدة المرتبطة بذلك[٢].

ولذلك فقد قال أغلب العلماء أن لفظ التأبيد في العذاب على المعاصي التي يقوم بها العصاة من الموحدين يختلف عنه التأبيد والخلود للكافرين والجاحدين؛ لوجود أصل الإيمان فيهم، وللأخبار الصحيحة في إن الإيمان سبب دخول الجنة، وإن كان بعد جزائهم بالعذاب في النار، بدلالة العديد من الأحاديث والآثار، منها قوله ﷺ عن دور السجود في الحماية من العذاب، فقال ﷺ: (إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ

---

(١) المنهاج: ١٨/ ١١، ١٢.

(٢) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥٥٠.

تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ)[١].

ذلك أن من الضلال والغضب ما قد يراد منه الضلال والغضب المحدود والمؤقت، فإن كل منحرف عن الدين الأقوم مع إيمانه ضالٌ وعاصٍ في ذلك الجزء الذي انحرف فيه، وبذلك يكون قد نال حظاً من الغضب بسبب ذلك الضلال، كما يشير إلى ذلك الخروج من الايمان عند مباشرة العبد لما نهى تعالى عنه من المعاصي، إذ يقول ﷺ: (لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[٢].

كما أن العذاب الإلهي للعصاة من فُسَّاق المسلمين نابع من الرحمة الإلهية، ذلك أن القصد منه هو التطهير والتربية والترقي، وليس العذاب المجرد الذي يُقصَد منه الانتقام والتشفي، فالله أعظم من أن يتشفى بأحد من خلقه[٣].

وبناء على ذلك؛ فإن من لم يتم تطهيره في الدنيا، إما بالتوبة النصوح، أو بالمكفرات المختلفة التي تستأصل ما في نفسه من الهوى، سيتعرض لا محالة للتطهير بمختلف درجاته وأساليبه في الدار الأخرى، ذلك أنه يستحيل أن يدخل الجنة من لم تكتمل طهارته؛ فحكمة الله تعالى اقتضت تطهير من يسكن الجنة تطهيراً متناسباً مع الجرائم التي عملها.

ذلك أن رحمة الله تعالى بعباده دائمة منذ يوم خلقهم، وإذ خلق تعالى الرحمة بينهم فإنه تعالى قد ادخر لعباده ما يفوق ذلك، بأضعاف مضاعفة، ويدل على هذا المعنى فضلاً عن الآيات الكريمة في سعة رحمته تعالى بعباده ما ورد في حديث للنبي ﷺ بقوله: (إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً؛ فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ

(١) صحيح البخاري: ١/ ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ٦/ ٢٤٨٧.

(٣) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥٦٥.

بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ)[1]، وكذلك قوله ﷺ: (جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا؛ فَمِنْ ذلِكَ الجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الخَلائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[2].

فإذا كانت جميع صور الرحمة الإلهية في الأرض هي جزء واحد من هذه الرحمة، فلا شكَّ أن ما هيأه لعباده يوم القيامة أعظم، إذ ورد عنه ﷺ قوله فيها: (إنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[3].

المقصد الثاني: تفضل الله تعالى على عصاة الموحدين بقبول توبتهم

من أبواب رحمته تعالى على عباده أن يجعل التوحيد وحده كافٍ لرفع تأبيد العقوبة عن العصاة من الموحدين، هذا إن لم يتب عنها، أما إن تاب عنها فترة حياته كانت توبته مكفرةً عن معاصيه ليغفرها تعالى له ويعفو عنه، بدلالة ما رُويَ (أن رجلاً جاء إلى النبيﷺ، فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها فلم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها فهل لذلك من توبة؟ قال ﷺ: (فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟) قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك رسول الله، قالﷺ: (نَعَمْ) (تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ)، قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال ﷺ: (نَعَمْ) قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى)[4].

فالتوبة من الذنوب دعتنا اليها الكثير من الآيات القرآنيّة الكريمة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٧٤.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٣٦، وصحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٨.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٨.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/ ٣٢.

الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ومن بين أنواع التوبة: التوبة من الشرك، فمن صار موحّداً مؤمناً بالله تعالى غُفر له ذنبه في الإشراك، وكان نفس توحيده توبةً له[1].

بناءً على ذلك، فلا تعني الآية المباركة: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، و١١٦]، أنّه لا تُقبل توبة المشرك منه مهما كانت، وأنّ الله لن يغفر للمشرك شركه، بل تعني أن المشرك المصرّ على شركه حتّى يموت، سوف لن ينال المغفرة لأن الله تعالى يغفر ما دون الإشراك فيه[2]، لذلك يدخل التائب في دائرة الايمان الموجب غفران ذنب الكفر، إذ تُعرَّف التوبة في الشرع: الرجوع عن الأفعال المذمومة الى الممدوحة، ومما لا شك فيه إن الكفر والخروج من الإسلام أكبرها، والتوبة عنها واجبة على الفور عند عامة العلماء، أما الوجوب؛ فلقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهَّ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، أما الفورية؛ فلِما في تأخيرها من الإصرار المحرم.

وقيل التوبة: الاعتراف والندم والإقلاع، وهي على ثلاث معانٍ: أولها الندم، والثاني العزم على ترك العود لما نهى الله عنه، والثالث السعي في أداء المظالم[3].

ويقول الطوسي (ت٤٦٠هـ) في اقسام التوبة انها اما ان تكون توبة عن ذنب في حق الله تعالى، أو في حق انسان، ويختلف حكمها تبعاً لهذا المفهوم، ويتبين ذلك بقوله: (والذنب إن كان في حقه تعالى من فعل قبيح، كفى عنه الندم والعزم، وفي الإخلال بالواجب اختلف حكمه في بقائه، وقضائه وعدمها، وإن كان في حق آدمي استتبع إيصاله إن كان ظلماً، أو العزم عليه مع التعذر أو الإرشاد إن كان ضلالاً، وليس ذلك جزاءاً)[4]، وعلّق عليه الحلي (ت٧٢٦هـ): (فالتوبة أما أن تكون من ذنب يتعلق به حقه تعالى خاصةً أو يتعلق به حق

---

(١) (يُنظَر) معرفة المعاد: ٩/٧٥.

(٢) (يُنظَر) التحرير والتنوير: ٥/٨٠، ٨١، ومعرفة المعاد: ٩/٧٥.

(٣) (ينظَر) التعريفات: ٣٢.

(٤) تجريد العقائد: ١٥٧.

الآدمي، والأول إما ان يكون من فعل قبيح، كشرب الخمر والزنا، أو إخلال بواجب كترك الزكاة والصلاة، (فالأول) يكفي في التوبة منه الندم عليه والعزم على ترك العود اليه، أما (الثاني) فيختلف أحكامه بحسب القوانين الشرعية، فمنه ما لا بد مع التوبة منه أدائه، كالزكاة، ومنه ما يجب معه القضاء كالصلاة، ومنه ما يسقطان عنه كالعيدين)[(١)].

وقد أشار تعالى الى ارتباط التوبة والمغفرة بالمغضوب عليهم وقبولها منهم ان تراجعوا عن شركهم وغيهم فآمنوا به تعالى، وهو ما أخبر به تعالى في سورة طه بقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨١، ٨٢]، حيث بين تعالى أن من يحلل عليه غضبه تعالى قد وقع في الهاوية والبعد عن رحمته تعالى، إلا إنه من تاب واستغفر عن ذنوبه قد تحول مسيره الى الصراط الحق بتوبته هذه.

يقول مكارم الشيرازي في تفسيره للآيات الكريمة من قوله تعالى: (﴿هَوَى﴾ في الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، والذي تكون نتيجته الهلاك عادةً، إضافة إلى أنّه هنا إشارة إلى السقوط الرتبي والبعد عن قرب الله، والطرد من رحمته، ولمّا كان من الضروري أن يقترن التحذير والتهديد بالترغيب والبشارة دائماً، لتتساوى كفّتا الخوف والرجاء، حيث تشكّلان العامل الأساسي في تكامل الإنسان، ولتفتح أبواب التوبة والرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾. فكلمة (غَفَّارٌ)، صيغة مبالغة، وتوحي أنّ الله سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمّهم عفوه ومغفرته مرّات ومرّات.

وممّا يستحقّ الانتباه أنّ أوّل شرط للتوبة هو ترك المعصية، وبعد أن تتطهّر روح الإنسان من هذا التلوّث، فإنّ الشرط الثّاني هو أن يغمرها نور الإيمان بالله والتوحيد، وفي

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٣٩٩.

المرحلة الثّالثة يجب أن تظهر براعم الإيمان والتوحيد ـ والتي هي الأعمال الصالحة والمناسبة ـ على أغصان وجود الإنسان)[1].

فالتوبة مقبولة من كل عاصٍ ما لم ييأس من الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، وقال ﷺ في الحديث القدسي، قال تعالى: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)[2].

أما أركان التوبة فثلاثة، هي:

أولها: الندم على ما وقع من المخالفات لمراعاة حق الله تعالى؛ لقوله ﷺ: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ)[3].

الثاني: العزم على أن لا يعود لمثله، وهذان لا بد منهما في كل توبة.

الثالث: الإقلاع عن الذنب في الحال، وهذا إنما يتأتى في ذنب لم ينقضِ، فيجب الكف عن استتمام الزنا وشرب الخمر، وعن أذية أحد، ورَد المظالم الى أهلها، واستسماح المظلوم إن أمكن، وإلا استغفر له وتصدق له بما يمكنه، فإن الله تعالى إذا علِم صدق العبد أرضى الله عنه خصماءه[4].

وقد قال فيها النبي ﷺ: (للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً،

---

(١) تفسير الأمثل: ١٠/ ٤٨.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٥٤٨.

(٣) مسند احمد: ٣٧/٦، و ١١٣/٧، ورواه ابن ماجة،: ٢/ ٢٤٠.

(٤) (يُنظَر) شرح الخريدة البهية: ١٨٥.

فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)[١].

وإنما أوردناها في هذ المقصد لأنها تابعةٌ للنفس الخطاءة التي تقود صاحبها للهلاك العظيم، بينما تتدارك هذه النفس أخطاءها بهذه التوبة ان كانت نصوحاً لتنال الرحمة العظيمة التي ادخرها تعالى لعباده في ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

ولا نقصد بذلك اختصاصها بالمذنبين فقط، فإنما هي لهم باب رحمة الله تعالى ومغفرته ورضاه عليهم ان سلكوا طريقها إليه تعالى، يقول النبي ﷺ في التائبين من الذنوب: (غرسوا أشجار ذنوبهم نصب عيونهم وقلوبهم وسقوها بمياه الندم، فأثمرت لهم السلامة، وأعقبتهم الرضا والكرامة)[٢].

وكذلك ما ورد عن الامام الصادق عليه السلام من قوله: (التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر، وتوبة الأصفياء من التنفس، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب)[٣].

لذلك فهي مطلب جميع المؤمنين لنيل رضا الله تعالى عنهم، يقول الامام السجاد عليه السلام في بعض مناجاته: (واجعلنا من الذين غرسوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها من ماء التوبة، حتى أثمرت لهم ثمر الندامة، فأطلعتهم على ستور خفيات العلى، وأرويتهم المخاوف والأحزان... فأبصروا جسيم الفطنة، ولبسوا ثوب الخدمة)[٤].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٤.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ٣٣٩.

(٣) بحار الأنوار: ٦/ ٣١، و٣٨.

(٤) بحار الأنوار: ٩٤/ ١٢٧.

ثانياً: الجزاء الحسي للنعيم والعذاب

ويشمل هذا القسم المقاصد والمعاني والغايات المتعلقة بالجزاء الحسي المتمثل بالنعيم والعذاب الحقيقي والملموس، والذي يُجازى به أهل الجنة ويُعاقب به أهل النار، وقد زخرت به آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية المطهرة، لذلك فقد ارتأينا في هذا القسم من الفصل ذكر بعض هذه المقاصد بصورةٍ كلية وعامة في الفرع الأول منه بما يتوافق مع النصوص الكريمة والعقل، فضلاً عن توافقه مع تجليات الرحمة والكرم الإلهيين ومع العدالة والحاكمية والقدرة الإلهية، ثم ذكر بعض مقاصد الترغيب والتحذير لبعض النماذج منهما في الفرع الثاني منه.

وبناءً على ما استقرأناه من هذه النصوص الكريمة في هذا الجزاء، قسمناه الى فرعين، هما:

١ـ نعيم الجنة وعذاب النار الحسيين

٢ـ نماذج من الجزاء الحسي من النعيم والعذاب

١. نعيم الجنة وعذاب النار الحسيين

ونذكر في هذا الفرع أهم المقاصد فيه، الأول منها في توافق الجزاء الحسي مع العقل والفطرة السليمة، والمقصد الثاني في توافق الجزاء الحسي مع تجليات الرحمة الإلهية، أما الثالث ففي توافقها مع العدالة الإلهية.

المقصد الأول: توافق الجزاء الحسي مع العقل والفطرة السليمة

ويتناول هذا المقصد تثبيت هذه العقيدة الصحيحة في النفوس من خلال ورود ما يدل عليها في النصوص الكريمة، فضلاً عن اتفاقها مع مذهب العقل السليم كي يترقى بعد هذه المعرفة الى المقاصد التي تليها من الترغيب فيما أعده تعالى من النعيم، والإنذار فيما أعدَّه من

عذاب لمنكريها، وبيان ذلك فيما يأتي:

آ ـ توافق النعيم الحسي مع العقل والفطرة السليمة

بما إن النعيم الحسي قد ورد في العديد من آيات القرآن الكريم، كما وثبُتَ عند المسلمين كافة الجزاء الذي أعدَّه تعالى لعباده، إذ اتفقت عليه جميع الفِطر السليمة والعقول، مع إنه يفوق تصوراتها لكنهه، ولا عبرةَ في بعض الشواذ ممن ينكرون هذا النعيم.

وكذلك فقد أنكره عدد من الطوائف الأخرى من غير المسلمين ممن تلوثت فطرهم السليمة ولا عبرة في مدعاهم، ويرد الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) على من أنكره بقوله: (وقول من يزعم أنَّ في الجنة بشراً يلتذ بالتسبيح والتقديس من دون الأكل والشرب، قول شاذ عن دين الاسلام، وهو مأخوذ من مذهب النصارى الذين زعموا أن المطيعين في الدنيا يصيرون في الجنة ملائكة لا يطعمون ولا يشربون ولا ينكحون...

وقد كذّب الله سبحانه هذا القول في كتابه بما رغَّب العاملين فيه من الأكل والشرب والنكاح، فقال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد:٣٥] الآية، وقال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦] الآية.

فكيف استجاز من أثبت في الجنة طائفة من البشر لا يأكلون ولا يشربون ويتنعمون بما به الخلق من الأعمال يتألمون، وكتاب الله تعالى شاهد بضد ذلك، والاجماع على خلافه، لو لا

أن قلد في ذلك من لا يجوز تقليده أو عمل على حديث موضوع)[1].

كما يتفق ما ورد في النصوص الكريمة من النعيم الحسي مع اثبات العقول للمعاد الجسماني، ويدل عليه ما ذكره شهاب الدين القرافي (ت٦٨٤هـ)[2]، في رده على شبهة المعاد الجسماني ووجود النعيم الحسي في الجنة بقوله: (النعيم الجسماني الذي يثبته المسلمون ليس مفسرًا على ما ذكرتموه من التشنيع، بل على وفق الكرامة الربانية والسعادة الأبدية، وتقريره: أننا نجد في هذه الدار الملاذ الجسمانية تترتب على أسباب عادية، فالملاذ إما علوم خاصة حسية كإدراك الحلاوة وأنواع الطعوم الملائمة، وإدراك الأرايج المناسبة لجواهر النفس البشرية، وإدراك الملامسة للأجسام الموافقة لجواهر الطباع، وإدراك المبصرات من الألوان والأضواء وتفاصيل أنواع الحس والجمال وغيرها من المبصرات السارة للنفس، وكذلك القول في بقية الحواس، وأما إدراك الأحوال النفسية كاستشعار النفس حصول الشراب والغذاء عند حاجتها للاغتذاء والإرواء، ونحو ذلك، فهذه هي الملاذ الجسمانية.

وكذلك يحصل أعظم ما يكون من لذة الشرب عند مباشرة أشرف المشروبات، من غير عطش ولا حاجة سابقة ولا تلويث لاحق ولا شيء يعاب، وإذا كان هذا هو الذي يعتقده المسلمون من الجمع بين النعيم الروحاني المتعلق بالأرواح من إدراك معنى جلال الله تعالى وجماله وتفاصيل صفاته وآلائه المتجددة على ممر الأبد والنعيم الجسماني الذي تقدم تحقيقه؛ كان هو اللائق بالكرم الإلهي والإحسان الرباني)[3].

لذلك نجد فيما ورد من صور النعيم الذي بشَّرت به النصوص الكريمة توافقها الكبير

---

(١) تصحيح الاعتقادات: ١١٨.

(٢) من الأعلام المعروفين. برع في الفقه وأصوله والعلوم العقلية، ولازم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأخذ عنه أكثر فنونه، وألف التصانيف الشهيرة كالذخيرة وشرح المحصول والتنقيح في الأصول وشرحه وغير ذلك. توفي في جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة ودفن بالقرافة. (يُنظر) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: ١/ ٣١٦.

(٣) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة: ٢٢٨، وأسرار ما بعد الموت: ٤٨٧.

للقول في المعاد الروحاني والجسماني، وعند التحقق فيه نجدهُ موافقاً لما تذهب إليه الفطرة السليمة التي تتقبل ما لا يتعارض مع مذهبها، يقول العلامة مقداد عبد الله الفاضل السيوري الحلي (ت٨٢٦هـ)(١): (دلّ العقل على أنّ سعادة النفوس في معرفة الله تعالى ومحبته، وعلى أنّ سعادة الأبدان في إدراك المحسوسات، ودلّ الاستقراء على أنّ الجمع بين هاتين السعادتين في الحياة الدنيا غير ممكن، وذلك انّ الإنسان حال استغراقه في تجلّي أنوار عالم الغيب لا يمكنه الالتفات إلى اللّذات الحسية، وإن أمكن كان على ضعف جداً بحيث لا يعد التذاذاً، وبالعكس، لكن تعذر ذلك سببه ضعف النفوس البشرية هنا، فمع مفارقتها واستمدادها الفيض من عالم القدس تقوى وتشرق، فمع إعادتها إلى أبدانها غير بعيد أن تصير هناك قوية على الجمع بين السعادتين على الوجه التام وهو الغاية القصوى في مراتب السعادة)(٢).

ب ـ توافق العذاب الحسي مع العقل والفطرة السليمة

وكذلك عذاب النار الحسي، وهي الدار التي أعدها تعالى للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

فكما دلنا تعالى على الجنة وبين لنا سبلها، كذلك حذّرنا من النار والسبل المؤدية إليها، كما أنذر عباده المؤمنين بأن يتقوها، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٦، ٧].

---

(١) المقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن السيوري الحلي، حاز مقاماً شامخاً في العلم أصولاً وفروعاً، له العديد من المؤلفات الكلامية وغيرها، منها [اللوامع الإلهية]، و[النافع يوم المحشر في شرح الباب الحادي عشر]، و[إرشاد الطالبين]، وغيرها، توفي سنة ست وعشرين وثمانمائة. (يُنظَر) ترجمته في معجم طقات المتكلمين: ٣/ ٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية: ٣٧٨.

حيث يخاطب تعالى في أول الآية المؤمنين بأن يقوا أنفسهم هذه النار، والمعنى قوا أنفسكم وأهليكم النار بالصبر على طاعة الله وعن معصيته، وعن اتباع الشهوات، وقوا أهليكم النار بدعائهم إلى الطاعة، وتعليمهم الفرائض، ونهيهم عن القبائح وحثهم على أفعال الخير[١].

ذلك أنَّ تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة، فالنار هناك وهو متعرضٌ لها، هو وأهله، وعليه أن يحول نفسه وأهله، دون هذه النار التي تنتظر هناك[٢]، هذا فضلاً عن العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في توالي التحذير من هذه النار التي أعدها تعالى للكافرين والعصاة، وهو متوافق تماماً مع ما يقرَّه العقل البشري ويؤمن به، لثبوت مبدأ العدالة الإلهية في كل شيء، وبه لا يبقى عذر أمام من يكفر به أو يجحده.

أما الادعاء بأن هذا العذاب لا يوافق مبدأ ومقصد الرحمة الإلهية التي ستشمل الجميع من محسنٍ ومسيء، فحسبنا في الرد عليه ما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِّ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وهو تعالى القائل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]، كما أنَّ رسول الله ﷺ وهو أعرف العارفين بالله، وبرحمته الواسعة يقول في الأمور التي ترافق هذا الجزاء: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِّ، وَاللهِّ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِّ)، (لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ)[٣].

فهل كان رسول الله ﷺ غافلاً عن رحمة ربه الواسعة حين نطق بهذه الكلمات؟ أم أنه

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٤٧

(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن: ٢٥٣.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٥٥٦، ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر، قال: (لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ)، حيث يروى عن أبي ذر موقوفاً، وذكره الحاكم في المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٥٥٤.

كان يعرفها، ويعرف أن رحمة الله لا تتناقض مع عدل الله. وإنما هي رحمة خاصة بمن توفرت فيه شروطها، كما قال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦][(١)].

ومع هذا التوافق للجزاء من نعيم وعذاب حسيين مع الفطر النقية السليمة وما تذهب اليه العقول، إلا إن منكريه يزعمون أن هذا الجسد الذي نعيش به في الدنيا هو نفسه الذي نعيش به في الآخرة؛ فهو مبني على تصورات بدائية للإنسان، تجعل منه مختصراً في هذا القالب الطيني، بينما حقيقة الإنسان أكبر من أن تحصر في أي قالب.

وقد أجاب صدر المتألهين الشيرازي (ت١٠٥٠هـ) على هذا الإشكال بذكره أن هذا البدن الذي نعيش به في الدنيا، له حقيقة في ذاته، وليس مرتبطا ارتباطاً ضرورياً بالنفس، ولذلك يعود بعد انتهاء استعمال النفس له إلى وضعه الطبيعي، تراباً مثل سائر التراب[(٢)].

والنتيجة التي يخلص إليها الشيرازي تظهر في قوله: (جوهرية العبد في الدنيا والآخرة وروحه باقية مع تبدل الصور عليه من غير تناسخ، وكل ما ينشأ من العمل الذي كان يعمله بالدنيا يعطي لقالبه جزاء ذلك في الآخرة)[(٣)].

ثم يبين مدى توافق هذا مع ما تقتضيه الحكمة المتعالية من التوافق بين الشريعة والفلسفة والعرفان، فقال: (إنّ هذا هو الاعتقاد الصحيح المطابق للشريعة والملة الموافق للبرهان والحكمة، فمن آمن بهذا فقد آمن بيوم القيامة والجزاء، وقد أصبح مؤمناً حقاً، والنقصان عن هذا خذلان وقصور عن درجة العرفان، وقول بتعطيل أكثر القوى والطبائع عن البلوغ إلى غايتها والوصول إلى كمالاتها ونتائج أشواقها وحركاتها، ويلزم أن يكون ما

---

(١) (يُنظَر) مدارس النفس اللوامة: ٥٥٧.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٤٨٧.

(٣) تفسير القرآن الكريم للشيرازي: ٥/ ٣٤٧.

أودعه الله في غرائز الطبائع الكونية وجبلاّتها من طلب الكمال والتوجه إلى ما فوقها هباءً، وعبثاً، وباطلاً، وهدراً)[1].

وفضلاً عن جميع أقوال المنكرين ودفاع المسلمين عن هذه القضية، فإن الدلائل في ذلك صدرت من خالق الكون، وصورت مشاهدها للنعيم والعذاب في أروع الصور وأبهاها، ولكن حقيقة أمر المنكرين أنهم أغلقوا عقولهم ونظرهم عن الآيات الكثيرة الواردة فيه بهذه الحجج الواهية التي لا يقنعون بها حتى أنفسهم، وكذّبوا فطرهم بمبادئ الثواب والعقاب، فلا يتفكرون فيما ورد من ندمهم وحسرتهم عند رؤيتهم لهذا العذاب، والذي يصفهُ الغزالي (ت٥٠٥هـ) بقوله: (فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً أين فلان بن فلان المسوِّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له:﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها يا مالك قد حق

---

(١) المصدر نفسه: ٥/ ٣٤٨.

علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف.)[١].

وقد ذكر تصوير هذه المشاهد ووصفها السيد قطب (ت١٣٨٦هـ)[٢]بقوله: (لقد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة: البعث والحساب، والنعيم والعذاب، فلم يُعَد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفاً فحسب، بل عادَ مصوراً محسوساً ـ وحيَّاً متحركاً، وبارزاً شاخصاً، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشةً كاملة، رأوا مشاهده، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارةً، واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الاطمئنان أخرى، ولفحهم من النار شواظ، ورفَّ إليهم من الجنة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود)[٣].

المقصد الثاني: توافق الجزاء الحسي مع الرحمة الإلهية

تتجلى من النصوص الكريمة سواءٌ في نعيم أهل الجنة الحسي أو العذاب الذي يلاقيه أهل النار مقاصد وعِبر عدة تتأثر بها عقيدة الفرد المسلم وتجعله أكثر يقيناً بها، إذ نرى في النصوص التي تحتوي النعيم مما أعده تعالى لأصحاب الجنة سعة الرحمة الإلهية والكرم الإلهي العظيم.

أما النصوص التي تحتوي العذاب الإلهي فلا تقتصر على مظاهر التخويف والتحذير

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٥٣٠.

(٢) سيد قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط. انضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣ - ١٩٥٤) وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى ان صدر الأمر بإعدامه، فأعدم. وكتبه كثيرة، منها [العدالة الاجتماعية في الإسلام]، و[التصوير الفني في القرآن]، و[مشاهد القيامة في القرآن]، [. (يُنظر) الأعلام للزركلي: ٣/ ١٤٧.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن: ٤٢.

منه، بل تتعداه لأن تسكن الخشية في قلوب المؤمنين، حيث يتجلى لنا هذا المقصد واضحاً عند استقرائنا لبعض النصوص الواردة في عذاب النار الحسي الحقيقي وخلوده، ذلك أن دور الرهبة والخشية في التزكية من الذنوب أمرٌ ظاهر للعقول المجردة البسيطة التي تتفق على أن تطبيق القوانين لا يمكن أن يتم بصورة سليمة في أغلب الأحيان ما لم يوضع بجانبها قوانين خاصة بالعقوبات المرتبطة بالجرائم المختلفة، مما يقودنا بذلك الى التوافق الكبير بين صور العذاب الحسي والرحمة الإلهية.

وبذلك فقد رأينا تقسيم هذه المقاصد الى قسمين، الأول في توافق النعيم الحسي مع الرحمة والكرم الإلهيين، والقسم الثاني في مقاصد توافق العذاب الحسي معهما.

آ- توافق النعيم الحسي مع الرحمة الإلهية

تتجلى في مظاهر النعيم التي أعدها تعالى لعباده وبشرهم بها جميع الصفات الإلهية، من الرحمة والعدالة والكرم الآلهي والعفو والرأفة والقيومية والمالكية الى غير ذلك من صفاته تعالى وأسمائه الحسنى.

ومنها توافق هذا النعيم مع الرحمة الإلهية؛ وذلك (لأن الله تعالى ضاعف جزاءه للمحسنين، بحيث وفر لهم أضعاف أضعاف ما عملوه، بناء على اسمه الشكور، وفي نفس الوقت لم يجازِ المسيئين إلا بما غرسوه من أعمال، مع إمكانية أن يرفع عنهم البلاء في حال تحسنهم، وارتفاع آثار الأوزار من نفوسهم)(١)

كذلك مما زخرت به آيات القرآن الكريم في بيان سعة هذه الرحمة والتفضل الإلهي على عباده والتسابق في الفوز بها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، حيث يظهر في الآية الكريمة مشهد المساحة

(١) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٢.

العظيمة التي تشغلها الجنة مقارنةً بالحياة الدنيا، وهي مساحة واسعة شاملة تفسح المجال لتصور مشاهد النعيم الحافل في هذا المجال الفسيح.

وتلك وظيفة المشهد هنا، فهو يأتي بعد ذكر متاع الدنيا وقصره، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم يذكر الجنة وعرضها فيفسح المجال للموازنة الشعورية بين ذلك المتاع الضيق القصير، وهذا النعيم الرحيب الوسيع.

كما أن هذا الجزاء الحسي يدل على مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى، إذ يقول تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، إذ يتجلى فيه صورةٍ جديدةٍ للنعيم، فالثمار فيه متشابهة المظهر، مختلفة الطعوم، فكلما رُزِق المؤمنون من هذا الثمر، قالوا: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، ولعل قيمة هذا التشابه والتنوع هي قيمة المفاجأة اللذيذة السارة من حيث لا تُحتَسَب، مع شيء من المداعبة لهؤلاء المُنعَّمين تزيدهم شعوراً بالنعيم، ثم لعله مظهراً من مظاهر القدرة التي تضع الفروق بين المتشابه، وتعدد الأنواع والمظهر متقارب)[1].

فضلاً عن توافقه مع الكرم الإلهي الذي وعد تعالى به عباده، وهذا النعيم العظيم والبشارة به لا يُعَد أمراً خارجاً عمّا تذهب إليه العقول كما يذهب الى ذلك البعض، يقول الدكتور نور الدين أبولحية: (إننا نجد الكثير من الذين يطرحون أمثال هذه الشبه شديدي الإعجاب بالتطور الحضاري المادي للشعوب المختلفة، ولست أدري كيف يعجبون بذلك التطور، وفي نفس الوقت يستغربون أو ينكرون ذلك التطور وتلك الحضارة التي يصف

---

(١) (يُنظَر) مشاهد القيامة في القرآن: ٢٣٤، ٢٤٦.

الله تعالى بها دار الجزاء المعدة لعباده الصالحين.

وهكذا الأمر بالنسبة لدار الجزاء المعدة للمسيئين؛ فإن هؤلاء إن قيل لهم: إنكم في دار الجزاء ستحجبون عن الله، ولن تتذوقوا تلك المعاني النبيلة السامية التي يستشعرها المؤمنون؛ فلا شك أنهم سيسخرون من ذلك، لأنهم أصلاً لا يجدون في نفوسهم أي اهتمام أو رغبة في ذلك)

ثم يبين أن هذا النوع من الجزاء الإلهي متوافقاً مع كل النفوس، ومع جميع الأعمال، باعتبار أنه ليس سوى تجسد لتلك الأعمال التي قام بها صاحبها في الدنيا، ويبين ارتباط الحس بالمعنى إذ يقول (إن الحس دليل المعنى، وبالحس قد يترقى الإنسان ليفهم المعنى، ولذلك لن يكون ذلك النعيم الذي أعده الله لعباده الصالحين حجاباً لهم، بل سيكون مرقاة لهم يتعرفون من خلالها على ربهم، فيذكر ارتباط هذا الجزاء بصفات الله تعالى ذلك أن كل شيء صنعة لله، وحروف تكتبها يد القدرة، ليتعرف العبد من خلالها على الله، كما عبر عن ذلك قوله تعالى ـ وهو يأمرنا بقراءة الرحمة الإلهية من خلال حياة الأرض بعد موتها: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِّ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠][١].

ويأمرنا بالاستبشار تفاؤلاً بفضل الله، وفرحاً بالله، وتنسماً لرحمة الله عند هبوب الرياح التي يرسلها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ويعلمنا أن نقرأ لطف الله وخبرته المحيطة بكل شي من خلال حروف الماء الساقطة على الأرض المخضرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَّ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٣، ٢٧٤.

ويعلمنا أن نقرأ علم الله وقدرته من خلال السطور المبثوثة في تقلب الزمان بأعمارنا، قال: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

ويرينا قوة الله القاهرة، وقدرته الشاملة باستعراض تفاصيل دقيق المكونات وجليلها؛ فالسموات التي ننبهر لضخامتها لا تعدو أن تكون شيئاً حقيراً جداً أمام عظمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] (١).

ب ـ توافق العذاب الحسي مع الرحمة الالهية

كثيراً ما نرى في النصوص الكريمة من الآيات والروايات الشريفة أغلبها تستعمل الإنذار والتحذير مما أعدَّه تعالى من العذاب الذي يصوره أبلغ تصوير، إذ تُعَد هذه النصوص وسيلةً في النهي عن الرذائل صغارها وكبارها؛ وهو ما يدل على دور ذلك في تزكية النفوس من أدرانها عن طريق التطهير والخشية التي تنالها القلوب عما ورد النهي عنه.

لذلك فإن تصوير هذا العذاب يكون باباً من أبواب الرحمة الإلهية لمن لم يُكتَب عليهم الخلود في جهنم، إذ إنهم يُعذبون فيها إن لم تكفِ في تطهيرهم الأهوال والفزع في باقي المواقف التي تسبقها، فيكون عذابهم مدة محدودة لأجل تطهيرهم من أدران ذنوبهم واكتمال تطييبهم ليكونوا أهلاً لعفو الله تعالى ورحمته في دخولهم الجنات مع أصحاب اليمين، وكذلك فإن في ذكر هذا الوعيد من أبواب الرحمة كي يتقيها المؤمن لما يتملك قلبه من الخشية والرهبة من التقرب من الذنوب أو الإكثار منها حين يسمع الآيات في الوعيد والإنذار بالعقاب الإلهي.

ومن الأمثلة في ذلك ما ورد فيه ذكر التحذير من النار، والترهيب من الكفر وعاقبته

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٤.

وجميع المعاصي وما تؤدي إليه، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

إذ يقول الرازي (ت٦٠٦هـ) في هذه النار أنها ليست مختصة فقط بالكافرين، بجوابه على السؤال بأن أعدت للكافرين يقتضي أنها ما أعدت إلا للكافرين، وهذا يقتضي القطع بأن أحداً من المؤمنين لا يدخل النار وهو على خلاف سائر الآيات.

أما جوابه فكان من وجوه:

الأول: أنه لا يبعد أن يكون في النار دركات أعد بعضها للكفار وبعضها للفساق فقوله: ﴿النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى تلك الدركات المخصوصة التي أعدها الله للكافرين، وهذا لا يمنع ثبوت دركات أخرى في النار أعدها الله لغير الكافرين.

الثاني: أن كون النار معدة للكافرين، لا يمنع دخول المؤمنين فيها، لأنه لما كان أكثر أهل النار هم الكفار فلأجل الغلبة لا يبعد أن يقال: إنها معدة لهم، كما أن الرجل يقول لدابة ركبها لحاجة من الحوائج، إنما أعددت هذه الدابة للقاء المشركين، فيكون صادقا في ذلك وإن كان هو قد ركبها في تلك الساعة لغرض آخر فكذا هاهنا.

الوجه الثالث: أن القرآن الكريم كالسورة الواحدة فهذه الآية دلت على أن النار معدة للكافرين، وسائر الآيات دالة أيضاً على أنها معدة لمن سرق وقتل وزنى وقذف، ومثاله قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]وليس لجميع الكفار يقال ذلك.

الوجه الرابع: أن قوله: أعدت للكافرين إثبات كونها معدة لهم ولا يدل على الحصر كما أن قوله في الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] لا يدل على أنه لا يدخلها سواهم من الصبيان والمجانين والحور العين.

الوجه الخامس: أن المقصود من وصف النار بأنها أعدت للكافرين تعظيم الزجر، وذلك

لأن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصي إذا علموا بأنهم متى فارقوا التقوى أدخلوا النار المعدة للكافرين، وقد تقرر في عقولهم عظم عقوبة الكفار، كان انزجارهم عن المعاصي أتم[١].

وكذلك غيرها من الآيات الكريمة الكثيرة التي تحذّر من ارتكاب المعاصي أو التقرب منها، كما ورد في الترهيب من الشرك به تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهَّ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ)[٢].

ومن ذلك ما ورد من الترهيب من التكذيب بالبعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِ بَعِيد سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [الفرقان: ١١]، ويفسر الشيرازي وصفه تعالى لهذه النار بقوله: (ثمّ وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، وتعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهي:

١ ـ إنّه تعالى لا يقول: إنّهم يرون نار جهنم من بعيد، بل يقول: إن النار هي التي تراهم ـ كأن لها عيناً وأُذناً ـ فسمّرت عينها على الطريق بانتظار هؤلاء المجرمين.

٢ ـ إنّها لا تحتاج إلى أن يقترب أولئك المجرمون منها، حتى تهيج، بل إنّها تزفر من مسافة بعيدة.

٣ ـ وصفت هذه النار المحرقة بـ «التغيظ» وذلك عبارة عن الحالة التي يعبّر بها الإنسان عن غضبه بالصراخ والعويل.

٤ ـ إن لجهنم «زفيراً» يعني كما ينفث الإنسان النفس من الصدر بقوة، وهذا عادة في الحالة التي يكون الإنسان مغضباً جداً.

مجموع هذه الحالات يدل على أن نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين

---

(١) مفاتيح الغيب: ٩/ ٣٦٤.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٦٣٦.

كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير بالله منها»)[1].

كما يصور تعالى العذاب الحسي الذي يجده أصحاب النار بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ [الرعد: ٥].

ومن ذلك ما ورد في التحذير والترهيب من التكذيب بآيات الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧٢].

ومن ذلك ما ورد في الترهيب من الإعراض عن طاعة الله تعالى، واتباع أئمة الضلال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَّ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٦].

ومن ذلك ما ورد في الترهيب من الكذب على الله، والافتراء عليه، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِّ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

ومنه أيضاً ما ورد في الترهيب من الاستكبار عن عبادة الله تعالى، والإعراض عن آياته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وغيرها من الآيات الكريمة التي تحذر وتنبه الى عقوبة المعاصي التي تتقدم العباد يوم القيامة وتتمثل أمامهم وما أعده تعالى عليها من جزاء؛ لأجل التحذير من القيام بها،

---

(١) تفسير الأمثل: ١١/ ٢١٠.

فيخشى من كتب عليه تعالى الرحمة من التقرب مما يبعده عنها، أو يحرمه منها، لذلك وصف تعالى الصالحين المسارعين في الخيرات بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

حيث يثني تبارك وتعالى على عباده المؤمنين من أهل الخشية، فقال وقوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي من عذابه خائفون من الوقوف بين يديه فهذه صفة لهم، وآخرى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بحجج الله تعالى التي تضمنتها آياته يؤمنون (أي يوقنون)، وثالثة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي في ذاته ولا صفاته ولا عباداته فيعبدونه بما شرع لهم موحدينه في ذلك، ورابعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، أي يؤتون الزكاة وسائر الحقوق والواجبات وقلوبهم خائفة من ربهم أن يكونوا قد قصروا فيما أوجب عليهم، وخائفة أن لا يقبل منهم عملهم، وذلك ناجم لهم من قوة إيمانهم برجوعهم إلى ربهم ووقوفهم بين يديه ومساءلته لهم: لم قدمت؟ لم أخرت؟ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، وفي هذا بشرى لهم إذ أخبر تعالى أنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم سبق ذلك لهم في الأزل فهنيئاً لهم[(١)].

ذلك أن هذا التحذير والإنذار يورث القلب مهابةً ومخافةً توصله الى مرحلة إنقاذه من النار وارتقائه في درجات الجنة جزاء استماعه للحق وإيمانه به.

كما يصف تعالى الخاشعين الذين يستجيبون لما يسمعوه من آيات ربهم، بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

---

(١) أيسر التفاسير: ٣/ ٥٢٥.

هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

حيث وصفهم تعالى أنهم حين استماعهم لآيات الوعيد والتحذير ترتعد فرائضهم مما سمعوه من الحق، فيزيدهم هذا إيماناً وخشيةً ورهبة، ثم يطمئنون لما سمعوه من آيات الوعد والترغيب والتبشير، وهم قد زادهم الله ايماناً وهدى.

بل إن القرآن الكريم ينفي التذكرة والهداية على من حُرِم الخشية، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٥]، فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الاستفادة من التربية النبوية قاصرة على من تتوفر فيهم الخشية، دون غيرهم من الذين لا يبالون بالوعد والوعيد، أو يسخرون منهما، أو يغفلون عنهما[1].

وغيرها من الآيات الكريمة الكثيرة التي يصف الله تعالى فيها الجزاء الحسي في النار والذي يصدر عنه دوره الكبير في الرهبة والخشية لما يؤول الى التذكر والإنابة والهداية.

وبذلك فإن الحس لن يكون حجاباً عن المعنى، بل سيكون دليلاً عليه، ولهذا كان كل شيء نراه في الكون مرقاة نرقى بها إلى الله، وحروفاً نتعرف من خلالها عليه تعالى.

والأمر في دار الجزاء مثله في دار الفناء، ففي الجنة يعاين المحسنون من مظاهر الكرم الإلهي ما يملؤهم حباً وتعظيماً له، وفي النار يعاين المسيؤون من مظاهر قدرة الله ما يجعلهم يجلونه ويعظمونه، ويندموا عى كل ما قدمته أيديهم وأدى بهم الى الندم والحسرة الدائمة[2].

المقصد الثالث: توافق الجزاء الحسي مع العدالة الإلهية

كما تتجلى مقاصد العدالة الإلهية بصورة خاصة في الدار الآخرة بما أعده تعالى لعباده فيها من الجزاء الحسي المتوافق مع أعمالهم، ليروا بأعينهم الحسية حصاد ما زرعوه.

---

(١) (يُنظَر) تفسير الجلالين: ٦٠٩، ومدارس النفس اللوامة: ٥٦٦.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٤.

وبناءً على هذه العدالة فإن الناس في الجنة أو النار تختلف مراتبهم ومنازلهم فيها؛ ذلك لأن كل إنسان في دار الجزاء لا يرى إلا ثمرة أعماله، وبناءً على ذلك، تختلف مراتب المحسنين والمسيئين اختلافاً شديداً، تبعاً للنتائج التي ظهرت في الموازين الدقيقة، وسُلِّمت نتائجها في الموقف.

وبما أن الإنسان عمل أعماله في الدنيا سواء كانت حسنة أو سيئة بجوارحه الحسية، وهو في نفس الوقت يتنعم تنعماً حسياً، ويتألم ألما حسياً؛ فقد كان من مقتضيات العدالة الإلهية أن يُجازى بهذا النوع من الجزاء المتوافق مع أعماله[1].

ومقاصد العدالة الإلهية تختلف في جزاء المحسنين عن المسيئين، وتبعاً لذلك فقد قسمنا هذه المقاصد الى قسمين، الأول في توافق نعيم الجنة الحسي مع العدالة الإلهية، والثاني في توافق عذاب النار الحسي مع العدالة الإلهية.

آ ـ توافق النعيم الحسي مع العدالة الإلهية

كما ذكرنا في إنَّ جِنان أصحاب اليمين تختلف باختلاف درجاتهم وأعمالهم في الجنة، فمنهم المقربون ومنهم عامة أهل الجنة من الموحدين، وكذلك فإن لكلاً من هذين الصنفين مراتبهم المختلفة بحسب استحقاقاتهم، إذ ورد في النصوص الكريمة الفروق بين الجنان التي أعدَّها تعالى لهم.

وقد ذكر صنفيهما رسول الله ﷺ، إذ وردَ في الحديث الشريف أنهما جنتان ذهبيتان بكل ما اشتملتا عليه، وهما المخصوصتان بالمقربين، وجنتان فضيتان بكل ما اشتملتا عليه وهما لأصحاب اليمين، قال ﷺ: (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ)[2].

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٢.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ١٦٣.

وقد استدل العلماء من هذا الحديث الشريف وكذلك الآيات الكريمة كما سيأتي ذكرها على تباين الجزاء الإلهي المعَد لكلٍ منهما، وبالرغم من رجاحة القول باختلاف جنان المقربين عن جنان أهل اليمين، فإن حقيقة هذا الجزاء لا يمكن تصوره لأنه خارج عن مقدرة العقول إلا أنه قد ورد في سورتَي الواقعة والرحمن الإشارة إلى بعض مجامعه، فضلاً عن آيات عدة في القرآن الكريم، وبيان الفارق بينه وبين نعيم المقربين، قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٦٢].

إذ يصف تعالى جنتي المقربين﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، ثم يذكر جنتي أصحاب اليمين ويدل على هذا أن الله تعالى قال بعد ذكره لهذا النعيم: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، أي تحتهما في الفضل، وهذا يدل على أن الجنتين الأولى هي جنة المقربين، والجنتين الأخيرتين جنتا أصحاب اليمين(١).

كما يذكر ابن القيم (ت٧٥١هـ) في حادي الأرواح قوله في جزاء أصحاب اليمين بالنسبة للمقربين، لما ورد في سورة الرحمن: (ويقال هذا دون هذا، أي أقرب منه والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وفيه قولان، أحدهما: أنه جمع فنن وهو الغصن،

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥٧٩.

والثاني أنه جمع فن، وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ والنضاخة هي الفوارة، والجارية السارحة، وهي أحسن من الفوارة فإنها تضمن الفوران والجريان.

الثالث: أنه قال ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل.

الرابع: أنه تعالى قال ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخريين قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ وفسر الرفرف بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

الخامس: أنه قال ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاؤا ولم يذكر ذلك في الآخرين.

السادس: أنه قال ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصرهن أطرافهن أزواجهن عليهن، فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الآخريين ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

الثامن: أنه قال سبحانه وتعالى في الجنتين الأوليين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ وهذا يقتضي أن أصحابها من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم

بإحسان كامل.

التاسع: أنه تعالى بدأ بوصف الجنتين الأولين وجعلهما جزءاً لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

العاشر: أنه تعالى قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ والسياق يدل على أنه نقيض فوق، كما قال الجوهري، فإن قيل فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه؟ قيل: لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا، كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما)[1].

ويقول ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾: (وقد ذكرت الجنات في القرآن بصيغة الجمع غير مرة، وسيجيئ بعد هذا قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، فالمراد جنسان من الجنات)[2].

كما يذكر الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾أهل الإخلاص الخاضعون لجلاله تعالى العابدون له، لأنه الله عزَّ اسمه، لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سُمُّوا سابقين في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]...

وفي قوله تعالى ﴿مِن دُونِهِمَا﴾ أي أنزلُ درجة وأحطُ فضلاً وشرفاً منهما، إشارةً الى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، وإن كانتا شبيهتين بهما في نعمهما وآلائهما، وقد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين

---

(١) حادي الأرواح: ٧٢ - ٧٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٦٤.

العابدين لله سبحانه خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة وهم أصحاب اليمين.

وقيل معنى ﴿مِن دُونِهِمَا﴾ بالقرب منهما، ويستفاد من السياق حينئذ أن هاتين الجنتين أيضاً لأهل الجنتين المذكورتين قبلاً، بل ادعى بعضهم أن هاتين الجنتين أفضل من السابقتين والصفات المذكورة فيهما أمدح)، ثم يذكر بعدها ترجيحه للوجه الأول بقوله (بالتدبر فيما قدمناه في معنى ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾وما يستفاد من كلامه تعالى أن أهل الجنة صنفان: المقربون أهل الإخلاص وأصحاب اليمين[1]).

وكذلك غيرها من الآيات الكريمة التي نجد عند تدبرها من الفروق بين أنواع النعيم الحسي المرتبطة بأصحاب اليمين، وهؤلاء المقربين، وهي فروق لا ترتبط فقط باللذات الحسية، وإنما بما تختزن من لذات معنوية أشرف وأعظم، وإنما هذا التباين في الصنفين إنما يعود جميعاً للعدالة الإلهية إذ كرَّمهم تعالى ووعدهم وبشرَّهم بهذا التفضيل وإنه لا يخلف الميعاد.

ب ـ توافق العذاب الحسي مع العدالة الإلهية

وبالمقابل من ذلك النعيم العظيم الذي يهنأ به مَن في تلك الجنان الذهبية والفضية حيث يتنعم بها أصحاب اليمين والمقربون من أهل الجنة، نلاحظ في صور العذاب الحسي لأهل النار مقصد العدالة الإلهية بأوضح صوره؛ لأنه من أكبر المقاصد التي تتفق مع العذاب الإلهي الذي أعده تعالى لأصحاب الشمال كافة سواءٌ المخلدون في النار أم المُخرَجون منها؛ فإن هؤلاء إن قيل لهم: إنكم في دار الجزاء ستُحجبون عن الله، ولن تتذوقوا تلك المعاني النبيلة السامية التي يستشعرها المؤمنون؛ فلا شك أنهم سيسخرون من ذلك، لأنهم أصلاً لا يجدون في نفوسهم أي اهتمام أو رغبة فيه.

ولذلك كان هذا النوع من الجزاء الإلهي متوافقاً مع كل النفوس، ومع جميع الأعمال،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ١١٣ ـ ١١٥.

باعتبار أنه ليس سوى تجسد لتلك الأعمال التي قام بها صاحبها في الدنيا[1].

وقد أشارت العديد من النصوص القرآنية في هذه العدالة وآثارها يومئذ، فصورت موقف ندم وحسرة الكافرين لتفريطهم بها في ذلك الموقف، ويبينه تعالى: إذ يعرض مشهداً فريداً للحسرة والألم، مشهد الظالم يعض على يديه من الندم، والأسف والأسى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، ويصمت كل شيء حوله، ويروح يمد في صوته المتحسر ونبراته الأسيفة، حتى ليكاد النظّارة وقد تأثروا بمشهد الندم يشاركونه الندم، وذلك هو الغرض المقصود من إطالة العرض، وبعد آيات تعرَّض تعالى في السورة صورة مَن يُحشَرون في جهنم، يجتمع فيها التحقير المعنوي الى العذاب الحسي: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾، فصورتهم وهم يُسحَبون في النار ووجوههم مكبوبة فيها، صورة حسية بشعة يتقيها المتقون، ويحذر منها المكذبون، وهي كذلك توحي بالمهانة والزراية ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤])[2]

وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، إذ يبين تعالى صورة العدالة الإلهية في عذابهم، أي: ذوقوا عذاب سقر، والسقر: هو اسم النار؛ فيصير كأنه على الإضمار؛ أي يقال لهم: ذوقوا عذاب النار، فقوله تعالى:﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: يقال لهم ذلك، وهو على طريق المجاز، كما يقول القائل لغيره وهو يضربه: ذق وبال أمرك[3].

وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٣.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن: ١١٦.

(٣) (يُنظَر) تفسير الماتريدي: ٩/ ٤٥٧، وتفسير القرآن (تفسير السمعاني): ٥/ ٣١٨.

عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٧].

وهذه الآيات الكريمة تبين سر هذه العقوبات المتشددة، وسر الطعام المُعَد لأهلها، ومنها عدم الحض على إطعام المسكين، أي تركه محروماً جائعاً، دون المسارعة لإغاثته، ولو بدعوة الناس لذلك، فكيف بمن يتسبب في ذلك الجوع، أو يكون غنياً، ثم يمنع الفقراء من طعامه؟

وهو دليل على مدى التجانس بين العقوبة والذنب، ذلك أن العقوبة ليست سوى تجسيد للذنب حتى ينفر منه صاحبه، ويعرف مدى قبح الجريمة التي وقع فيها[1].

إنما هي عدالته تعالى كي يذوقوا ما قدموه لأنفسهم بأنفسهم، وإنما لم يُظلموا بحقيقة هذا العذاب، إنما هو جزاء ما قدمته أيديهم وقد طُلب منهم ما هو أهون منه فلم يؤدوه، لذلك يدرجه تعالى في جملة صفات عذابهم وإحاطة النار بهم من كل مكان، فيقول تعالى في وصف آلامهم وصياحهم وعذابهم: ﴿وَقُلِ الْحَقّ مِن رَّبِّكمْ فَمَن شاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنّا أَعْتَدْنَا لِلظلِمِينَ نَاراً أَحَاط بهِمْ سرَادِقُهَا وَ إِن يَستَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالْمُهْلِ يَشوِى الْوُجُوهَ بِئْس الشرَاب وَ ساءَت مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا الصلِحَتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٢٩ـ ٣٠].

يقول الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) في الميزان: (قوله تعالى: ﴿إِنّا أَعْتَدْنَا لِلظلِمِينَ نَاراً﴾ في مقام التعليل لتخييرهم بين الإيمان والكفر الذي هو تخيير صورة وتهديد معنى، والمعنى أنا إنما نهيناك عن الأسف وأمرناك أن تكتفي بالتبليغ فقط وتقنع بقولك: ﴿الْحَقّ مِن رَّبِّكمْ﴾ فحسب، ولم نتوسل إلى إصرار و إلحاح؛ لأنا هيأنا لهم تبعات هذه الدعوة رداً وقبولاً، وكفى بما هيأناه محرضاً ورادعاً، ولا حاجة إلى أزيد من ذلك وعليهم أن يختاروا لأنفسهم أي

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥٠٧.

المنزلتين شاءوا.

. وفي تبديل الكفر من الظلم في قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّلِمِينَ نَاراً﴾ دون أن يقول: للكافرين دلالة على أن التبعة المذكورة إنما هي للظالمين بما هم ظالمون: وقد عرفهم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥])[1].

كما رُوِيَ قوله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يقولُ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا: لو أَنَّ لكَ ما في الأَرْضِ مِن شيءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: فقَدْ سَأَلْتُكَ ما هو أَهْوَنُ مِن هذا وأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ، أنْ لا تُشْرِكَ بي، فأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْك)[2].

وإنما شركهم وكفرهم هذا نتيجة لعتوهم واستكبارهم فاستحقوا على ذلك ألم العذاب، قال ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟) قالوا: بلى، قال ﷺ: (كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ) ثم قال ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟) قالوا: بلى، قال ﷺ: (كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)[3].

والعتل هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل وقيل الجافي الفظ الغليظ، وأما الجواظ فهو الجموع المنوع، وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل القصير البطين وقيل الفاخر، وأما المستكبر فهو صاحب الكبر وهو بطر الحق وغمط الناس[4].

٢. نماذج في الجزاء الحسي من النعيم والعذاب

وتنعقد هذه المقاصد من خلال ما ورد في النصوص الكريمة من مظاهر ما أعده تعالى

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٥/ ٣٠١.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٩، ولفظ مقارب في صحيح مسلم: ٤/٢١٦٠.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٩٠.

(٤) المنهاج: ١٧/ ١٨٨.

من نعيمٍ لأصحاب اليمين، وما أعدَّه من صور لعذاب أصحاب الشمال، حيث زخرت بها آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة المطهرة والآثار فيها.

وإن هذه النماذج وغيرها مما لا يسعنا المقام لذكره جميعاً إنما تعود للمقاصد العقدية العليا التي تعود للخالق تبارك وتعالى بما يختص بعدالته وقدرته، والتي تندرج تحتها العديد من الأسماء الحسنى والصفات العليا، كالقهار والقوي والمقتدر والمتين، فإن القوة هي تمام القدرة، والمتانة شدتها، والقهر تأثيرها في المقدور بالغلبة.

وبناءً على كثرة ما ورد من هذه النصوص فسنذكر نماذجَ منها، ونبينُ مقاصد العقيدة للخلق فيها ومعانيها من ترغيب أو ترهيب أو عدالةٍ أو رحمة ورأفةٍ إلهية للعباد.

آ . الأجسام والهيئات

ذلك إن الأجسام والصور وهيئات العباد تختلف بحسب الجزاء الذي أعده تعالى لهم، قال تعالى في وصف ما تكون عليه هيئة أهل الجنة وأهل النار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾(١).

ذلك لأن أجسامهم وهيئاتهم يوم القيامة وابتداءً من البعث، تتشكل بحسب الأعمال؛ فلذلك قد لا نرى البشر بهيئة واحدة مثلما نراهم في الدنيا، بل منهم من يكون صغيراً حقيراً مثل النمل، كما ورد في الأحاديث التي تصف هيئة المستكبرين. ومنهم من يكون بهيئة الوحوش نتيجة غلبية سبعيته، ومنهم من قد يكون بهيئة البهائم نتيجة غلبة شهوته، وهكذا تكون الأجسام بحسب الهيئات النفسية التي أدمن عليها أصحابها، واختاروها لأنفسهم(٢).

---

(١) (يُنظَر) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ١٥٨.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٤٧٨.

المقصد الأول: هيبة وجمال هيئات المحسنين من أصحاب الجنة وتنعمهم

على الرغم من اختلاف هيئات المؤمنين في الدار الدنيا، إلا ان النبي ﷺ قد ذكر إن هيئاتهم في تلك الدار ستكون بأشدها حسناً وجمالاً، وهذا يعود الى مجده تعالى وكرمه ولطفه بالعباد، فإن المجيد يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات، والكريم كذلك واللطيف يدل على الرفق في الفعل(١).

وقد وردَ قوله ﷺ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، والذينَ علَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ إضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ علَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لا تَبَاغُضَ بيْنَهُمْ ولَا تَحَاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ العِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِن ورَاءِ العَظْمِ واللَّحْمِ)(٢)، وكذلك ما ورد في قوله ﷺ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ علَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، والذينَ علَى إثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ علَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لا اخْتِلَافَ بيْنَهُمْ ولَا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ منهمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ واحِدَةٍ منهما يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِن ورَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وعَشِيًّا، لا يَسْقَمُونَ، ولَا يَمْتَخِطُونَ، ولَا يَبْصُقُونَ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ والفِضَّةُ، وأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، ووَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الأُلُوَّةُ – قالَ أبو اليمان: يعني العود ـ، ورَشْحُهُمُ المِسْكُ)(٣).

وما ورد في هذه الهيئات في دار الخلود أنها شابة منعمة خاليةً من الهموم والأمراض وجميع ما يغير على الإنسان في هذه الدار الفانية، قالﷺ: (يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ١٥٩.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١١٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ١١٨٦.

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣])[١].

كما يصف تعالى ما أعدَّه للمحسنين من المؤمنين من جمال الأزواج وطهارتها في الجنان، وهو أن يخلق الله تعالى في أهل الجنة كل أنواع اللذة الطاهرة عند نظرهم لزوجاتهم أو للحور العين، ولهذا نرى القرآن الكريم يذكر الأوصاف الكثيرة لهن، ويشبههن بما يراه الناس في الدنيا من أنواع الجمال، ومن الأمثلة على ذلك تشبيههن باللؤلؤ المكنون، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، أي كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، والذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه؛ فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت، فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر ويروق الناظر[٢].

ويشبههن بالياقوت والمرجان، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، أي كأنهن الياقوت في الصفاء، والمرجان في البياض، الصفاء صفاء الياقوتة، والبياض بياض اللؤلؤ[٣].

كما وصفهن تعالى بأنهن قاصرات الطرف عن غير أزواجهن، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩]، أي أنهن ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن، بل قد قُصِرْن على أزواجهن، لا يخرجن من منازلهم، وقَصَرْنَ عليهم فلا يردن سواهم، ووصفهن سبحانه بأنهن(قاصرات الطرف) وهذه الصفة أكمل من الأولى، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٨٢.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٣٣.

(٣) تفسير جامع البيان: ٢٣/ ٦٧.

ورضاها به فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره[1].

ولا يتوقف الحسن والكمال على الهيئة الإنسانية فقط، بل يشمل كل ما في الجنة من المأكل والمشرب وغيرها، كما تشتمل على زيادة هذا الحسن وعدم ثبوته على هيئةٍ واحدة، لما رُويَ من قوله ﷺ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ، وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا)[2].

المقصد الثاني: قبح واسوداد هيئات المسيئين من أصحاب النار وعذابهم

وكما في تشكل الأجسام وهيئات العباد للمؤمنين في الجنة بأبهى الصور وأجملها بحسب أعمالهم، فكذلك أصحاب الشمال من أهل النار، إذ تتكون هيئاتهم بحسب ما استحقوه من ألوان العذاب، والذي يعود لأصناف الأعمال التي أدمن عليها أصحابها.

فكما أن أصحاب الجنة بأجمل هيئاتهم، فحال هؤلاء بأسوئه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧]، حيث يصور تعالى هنا هذه الهيئات، وهو مشهد حسي، ولكنه منبعث من تأثر نفسي، ألقى ظله على هذه الوجوه فابيضت، وعلى تلك الوجوه فاسودت، ومع أنَّ هذه الكفاية للدلالة على ما يجيش في نفوس هؤلاء وهؤلاء، فإنهم لا يُتركون لما يعتلج في نفوسهم من شعور تبدو ظلاله على وجوههم: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وهذا وذلك زيادة في العذاب والنعيم، وفي التحقير

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ٢٤٤.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٧٨.

والتكريم)[1]، وهي صور حسية متناسبة تماماً مع نوع الجزاء المرتبط بكلاً منهم.

كما أخبر تعالى بأنهم يُحشرون في هذه النار عمياً وبكماً وصماً، إذ قالَ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

كما ذكر تعالى بعض صفات جلود المُعَذبين في الآخرة، وفي جهنم خصوصاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وأخبر عن الطاقات التي تحملها تلك الأجساد، ومدى تحملها للعذاب والغضب الإلهي، فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢].

فقوله تعالى: (﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ المراد بالثياب إحاطة النار بهم، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾، والحميم: الماء الحار، قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها، ﴿يُصْهَرُ﴾: يُذاب، أي إذا صُب الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم)[2].

وهكذا أخبر رسول الله ﷺ عن بعض صفات أجسام من يدخلون جهنم، وبين أنها تتنافى مع ما نعرفه من صفات الأجساد وطاقاتها في الدنيا، فقال ﷺ: (مَا بَيْنَ مَنْكِبَيِ الْكَافِرِ

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ٢٣٧.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ١٤/ ٢٣٩.

فِي النَّارِ، مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ)[1]، وفي حديث آخر في قوله ﷺ: (ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ)[2]

وقد ذكر ابن حجر (ت٨٥٢هـ) في الفتح هذه الأحاديث، وعلَّق عليها بقوله: (كأن اختلاف هذه المقادير محمول على اختلاف تعذيب الكفار في النار، وقال القرطبي في المفهم انما عظم خلق الكافر في النار ليعظم عذابه ويضاعف ألمه، ثم قال وهذا انما هو في حق البعض بدليل الحديث الاخر ان المتكبرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يساقون إلى سجن في جهنم)[3].

ب . الطعام وأنواعه

ورد ذكر طعام أهل الجنة في الكثير من المواضع في القرآن الكريم فضلاً عن الأحاديث الشريفة، وأغلب ذكره جاء مقروناً بطعام أهل النار؛ استكمالاً لمقاصد التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب فيما يدعو اليه كلا الجزائين من العمل عند ذلك اليوم.

المقصد الأول: التكريم والترغيب بطعام المحسنين من أصحاب الجنة

وفيها تجليات القدرة الإلهية واللطف الإلهي للعباد، لما ورد في ذلك ذكره تعالى لما أعده لعباده من الفواكه المختلفة، وكون أشجارها متدليةً لمن شاء أن يأكل منها، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وهو ما ذُكِر في جزاء المقربين، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] لعامة أصحاب اليمين كما ذكرنا مقاصد ذلك ، (وضرب الأمثلة على بعض ما في الجنة من الفواكه مما قد يكون له بعض الشبه في الدنيا، وكأنه يشير إلى أن البديع الذي أبدع هذه الفواكه في الدنيا لن يعجز أن يبدع مثلها أو ما هو

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢١٨٩.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٢٣.

خير منها في الدار الآخرة)[1].

كما يقول تعالى في صفات هذه الفاكهة: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، (أي ثمرهما قريب إليهم متى شاؤوا تناولوه على أي صفة كانوا، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُها دانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، أي لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها)[2].

ولا يقتصر وجود هذه الفاكهة في أشجار الجنة، بل إن الولدان المخلدون الذين وصفهم تعالى في سورة الواقعة يطوفون عليهم بما يتخيرون من هذه الثمار، وهو ما ذُكِر في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]، (أي مما يفضلون لنعيمهم، وتخيرهم لأصناف الفاكهة وأنواعها يدل على كثرة الأنواع والأصناف التي تُقَدّم إليهم، ويرون أنه يحقق لهم الأوفر لذةً والأكثر تنعماً)[3].

ويذكر الرازي: (ثم إن في اللفظ لطيفة، وهي أنه تعالى قال: ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ولم يقل: مما يختارون مع قرب أحدهما إلى الآخر في المعنى، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار.

... والحال في الجنة يشبه حال الشبعان في الدنيا؛ فيميل إلى الفاكهة أكثر فقدمها، وهذا الوجه أصح لأن من الفواكه ما لا يؤكل إلا بعد الطعام)[4].

(ومن الفواكه التي ورد ذكرها في الجنة مما له نظير في الدنيا ما عبر عنه قوله تعالى في وصف نعيم أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٢٩]، وهذا يدل على أن هذا النعيم متناسب مع ما كانوا

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٤٦٥.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر : ٨/ ٤٥١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩/ ٣٩٦.

يشتهونه في الدنيا، وقد وصف السدر بكونه مخضودا، تمييزاً له عن سدر الدنيا)[١].

ويبين الشيرازي في تفسيره الأمثل وصف هذا السدر بقوله: (وفي الحقيقة أنّ هذا أنسب وأليق وصف توصف به أشجار الجنّة في دائرة ألفاظنا الدنيوية، لأنّ (السدر) كما يقول أئمّة اللغة: شجر قوي معمّر يصل طوله إلى أربعين متراً أحياناً وعمره يقرب من ألفي سنة، ولها ظلّ ظليل ولطيف، والسلبية الموجودة في هذا الشجر أنّه ذو شوك إلاّ أنّ وصفه بـ (مخضود) من مادّة (خضد) ـ على وزن (مجد) ـ بمعنى (إزالة الشوك) تنهي آثار هذه السلبية في شجر سدر الجنّة)[٢].

ومما ذكره من الفاكهة في قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾، و((الطلح): شجرة خضراء لطيفة اللون والرائحة، وذكر البعض أنّها شجرة الموز التي تتميّز بأوراق عريضة جدّاً وخضراء وجميلة، وفاكهتها حلوة ولذيذة، و(منضود): من مادّة (نضد) بمعنى متراكم.

وممكن أن يشير هذا التعبير إلى تراكم الأوراق أو تراكم الفاكهة أو كليهما، حتّى أنّ البعض قال: إنّ هذه الأشجار مليئة بالفاكهة إلى حدّ أنّها تغطّي سيقان وأوراق الأشجار)[٣].

أما هذا التباين في ذكر الأصناف في الفاكهة والأشجار فـ(إن البليغ يذكر طرفي أمرين، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما. ولا خفاء في أن تزين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال به، وتارة يقصد إلى ثمارها، وتارة يجمع بينهما، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، ويجمعها نوعان: أوراق صغار، وأوراق كبار، والسدر في غاية الصغر، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر. فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرا إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار. فإن

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥١٢.

(٢) تفسير الأمثل: ١٧/ ٤٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ١٧/ ٤٦٠.

النخل من أعظم الأشجار المثمرة، والكرم من أصغر الأشجار المثمرة، وبينهما أشجار فوقعت الإشارة إليهما جامعة لسائر الأشجار)[1].

وكذلك من أطعمة أهل الجنة التي ذُكِرَت في النصوص الكريمة اللحوم، قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]، (وهو يشير طبعاً إلى غيره من أنواع الأطعمة، لأن العبرة فيها بما يشتهيه أهل الجنة.

وكذلك الأمر في اللحم، فاشتهاء ذلك الطير كاف لجعله أمام صاحبه ليأكل منه، من دون أن يرمي شيئاً. وفي نفس الوقت يعود ذلك الطير إلى طيرانه مثلما تعود الفاكهة إلى محلها)[2].

فكما أن الولدان المخلدون يطوفون عليهم بالفاكهة التي يتخيرونها، فكذلك يقدمون لهم لحم طيرٍ مما يشتهون من أنواعها وأصنافها، فيتخيرون مما يرونه أكثر لذة.

وتقديم الفاكهة على لحم الطير في ترتيب الجمل، يُشعر بأن تقديم أكل الفاكهة على أكل اللحوم هو الأفضل للصحة والهضم[3].

المقصد الثاني: الترويع والترهيب في طعام المسيئين من أصحاب النار

مع ما تذكره النصوص الكريمة من النعيم والتكريم الذي يلاقيه أهل الجنة واختلاف الأصناف التي يطوف حولهم بها الولدان المخلدون وما يتخيرونه منها، كذلك تذكر هذه النصوص الكريمة ما يلاقيه المسيئين وما أعدَّه تعالى لهم من الجزاء.

لذلك كان من جزاء هؤلاء وغيرهم يوم القيامة أن يذوقوا ألوان العذاب المرتبطة بذلك الطعام والشراب الذي ضيعوا حياتهم ودينهم في سبيله.

فقد ذكر القرآن الكريم بالنسبة لجزائهم هذا ثلاثة أنواع من الأطعمة، كنماذج لأنواع

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٤٠٤، و(يُنظَر) تفسير الأمثل: ١٧/ ٤٦١.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥١٣.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨/ ٤٥١.

الطعام الذي يتناوله أهل النار، وقد نرى اكتفاءنا بذكرها على معرفة أسمائها ومعانيها لدى المخاطبين، ولكونها أيضاً وافية بتحقيق الغرض من الترهيب، ولذلك لا معنى لذكر غيرها.

أما أولها: فهو الضريع، كما قال تعالى في وصفه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، وقد تعددت الآراء في معنى (الضريع)، فقيل فيه: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسمّيه قريش (الشبرق) إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو (الضريع)، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه على هذا عامة المفسرين[(١)].

وقال ابن عباس: (هو الشبرق، نبتٌ يكون بطريق مكة إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة)[(٢)].

كما قيل إنه شجر من نار، وقيل: هو الزقوم. وقيل: إنها الحجارة، وقيل إنه شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض، وكل هذه الأوصاف يمكن أن تقرب من حقيقته، لأن الغرض منه كما ذكرنا ليس وصفه بدقة، فذلك مستحيل، وإنما تقريبه لتحقيق التنفير.

وقد وصف الله تعالى هذا الطعام الشديد القاسي، بكونه ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾، أي أنه تعذيب مجرد لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور[(٣)].

أما الطعام الثاني: فهو الغسلين، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧].

قال الطوسي (ت٤٦٩هـ) في التبيان: (يعنى من صديد أهل النار وما يجري منهم، فالطعام هو ما هيئ للاكل، فلذلك لايسمى التراب طعاماً للانسان، والخشب طعام

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٩، وتفسير الأمثل: ٢٠/ ١٥٠، وأسرار ما بعد الموت: ٥٠٧.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ٥٠٩، و(يُنظَر) العين، باب الضاد، مادة (ضرع): ٣/ ١٥.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ٥٠٧.

الارضة، وليس من طعام أكثر الحيوان، فلما هيئ الصديد لاكل أهل النار كان ذلك طعاماً لهم، والغسلين هو الصديد الذى يتغسل بسيلانه من ابدان أهل النار، ووزنه (فعلين) من الغسل)[1].

فيظهر من اسم هذا الطعام أنه مشتق من (الغسل)، ولذلك كان من الأقوال الواردة في تفسيره أنه الغسالة الناتجة من غسل أبدان أهل جهنم، ويذكر آخرون أنه دم يشبه الماء يخرج من أبدان أصحاب النار. وغيرها من الأقوال التي تشير إلى مدى بشاعة ذلك الطعام الذي لا يقصد منه إلا العقوبة؛ ذلك أنه لا يسمن ولا يغني من جوع[2].

وأما الطعام الثالث: فهو الزقوم، وقد ورد في مواضع من القرآن الكريم، ووصف بأوصاف كثيرة تنفر منه، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٨]، ويبين تعالى سر العقوبة المرتبطة بهذا الطعام، وما تسبب بها، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

كما ذكرها النبي ﷺ في الحديث الشريف، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال رسول الله ﷺ: (لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟)[3].

---

(١) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ١٠٢.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٠٧.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٧٠٦.

وقال ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): (وقد سماها القرآن بهذه الإضافة كأنها مشتقة من الزقمة بضم الزاء وسكون القاف وهو اسم الطاعون)[١].

ويقول ابن كثير (ت٧٧٤هـ): يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء، أم شجرة الزقوم التي في جهنم! وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥٠، ٥١].

والزقوم تخرج في أصل الجحيم أي أصل منبتها في قرار النار طلعها كأنه رؤوس الشياطين تبشيع لها وتكريه لذكرها، وإنما شبهها تعالى برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر، وقيل جنس من النبات طلعه في غاية الفحاشة، وذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها[٢].

وقال مكارم الشيرازي: (شجرة الزقوم ـ بدون شك ـ لا تشبه أشجار الدنيا أبداً، ولهذا السبب فإنها تنمو في النار، وقد استهزأ المشركون بهذه التعابير والأوصاف القرآنية بسبب

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٢٣.

(٢) (يُنظَر) تفسير ابن كثير: ٧/ ١٧.

جهلهم وعدم معرفتهم وعنادهم، فأبو جهل ـ مثلاً ـ كان يقول: إن محمداً يهددكم بنار تحرق الأحجار، ثم يقول بعد ذلك بأن في النار أشجاراً تنمو، وينقل عن أبي جهل ـ أيضا ـ أنه كان يهيء التمر والسمن ويأكل منه ثم يقول لأصحابه: كلوا من هذا فإنه الزقوم. لهذا السبب فإن القرآن يعتبر الشجرة الملعونة، وسيلة لإختبار الناس، إذ كان المشركون يستهزئون بها، بينما استيقنها المؤمنون الحقيقيون الذين كانوا يؤمنون بها)[1].

وهذا يدل على أن من الاختبارات الإلهية لعباده في هذه الدار طرح مثل هذه المسائل، والتي تختلف العقول في التعامل معها، أما الصادقون، فينظرون إلى قدرة الله تعالى المطلقة، فيسلمون لها، ويؤمنون بها، وتحدث آثارها في نفوسهم، بينما تكون في نفوس غيرهم حجاباً يحول بينهم وبين التعرف على الحق، بسبب عنتهم وكبريائهم.

ج. الشراب وأنواعه

إن الشراب بأنواعه المختلفة يشكل جزءاً مهماً من النعيم الحسي الذي نراه في الدنيا، وهو كذلك جزء من الجزاء الحسي الذي يراه المحسنون والمسيؤون في الآخرة.

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج عن كلا الجزائين ليرغب في التقوى التي توفر لأصحابها كل ألوان الشراب اللذيذ الذي رأوا مثله في الدنيا، أو الذي لم يروا مثله أبداً، وفي نفس الوقت تنفر من كل ألوان الشراب القبيح والمؤلم، والذي أُعِد لمن تجاوز حدوده، وحدود القيم التي أَمر الله تعالى بمراعاتها[2].

المقصد الأول: التنوع واللذات بشراب المحسنين من أهل الجنة

يُعَد الشراب الذي يُسقى منه المؤمنون في الجنة من أنواع الجزاء الحسي الذي هيأه تعالى لهم، ولقد علِمنا في إن حوض النبيﷺ هو أول شراب يتناوله أصحاب الجنة والذي لا

---

(١) تفسير الأمثل: ٩/ ٤٢.

(٢) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥١٤.

يظمأون بعده، فضلاً عن ماء الكوثر وهو نهر في الجنة الذي وصفه النبي ﷺ بقوله: (الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ)[1].

فضلاً عن ذلك، فقد زخرت آيات القرآن الكريم بوصف طبيعة الشراب المهيأ لأصحاب الجنة، والتي تصور تلك المجالس التي يجتمع فيها المؤمنون الذين تورعوا عمّا حُرِّم عليهم في الدنيا، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٥ ـ ١٨].

كما ذكر القرآن الكريم باهتمام شديد منابع ذلك الشراب، مبيناً قيمته، فقد قال تعالى عند ذكره لجزاء أصحاب المراتب العالية: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وقال عند ذكره لأصحاب المراتب الدنيا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦][2].

وقد ورد في آيات أخرى تسمية تلك العيون والمنابع، ومنها قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨]، و((سلسبيلاً): هو الشراب الهنيء واللذيذ جدّاً الذي ينحدر بسهولة في الحلق ويرى الكثير أنّه مأخوذ من مادة (سلاسة) المأخوذ من السيلان ولهذا يقال للكلام الجذّاب والممتع (سليس)، وقيل أخذ من مادة (تسلسل) وهي الحركة المستمرة التي يتداعى منها السيولة والاتصال، وعلى هذا فإنّ المعنّيين متقاربان)[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وتسنيم: علمٌ لعين بعينها في الجنة، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، وإما لأنها تأتيهم من فوق، على ما رُويَ أنها تجري في الهواء

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٤٤٩.

(٢) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥١٦.

(٣) تفسير الأمثل: ١٩/ ٢٦٧.

مسنمة فتنصب في أوانيهم، وإما لأنها لأجل كثرة ملئها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه، أو لأنه عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض، فهو التسنيم أيضاً، ورُويَ عن ابن عباس أنه سُئِل عن تسنيم، فقال: (هذا مما يقول الله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وهو أنه أمر أخفاه الله تعالى لأهل الجنة.وأنه تعالى ذكر أن تسنيم عين يشرب بها المقربون، قال ابن عباس: (أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم، لأنه يشربه المقربون صرفاً، ويمزج لأصحاب اليمين[١].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، إذ يقول ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): (الأبرار: هم الشاكرون، عبر عنهم بالأبرار زيادة في الثناء عليهم، وابتدئ في وصف نعيمهم بنعيم لذة الشرب من خمر الجنة لما للذة الخمر من الاشتهار بين الناس، وكانوا يتنافسون في تحصيلها، والكأس: بالهمزة الإناء المجعول للخمر فلا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر، وقد تسمى الخمر كأساً على وجه المجاز المرسل بهذا الاعتبار)[٢].

وقال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في هذا الشراب: (يتحدث القرآن عن الشراب الطهور الممزوج بالزنجبيل، ومن البديهي أن الفرق بين هذا الشراب وذلك الشراب كالفرق بين السماء والأرض وبالأحرى بين الدنيا والآخرة، والجدير بالذكر أن العرب كانوا يستخدمون نوعين من الشراب: أحدهما يبعث على النشاط والحركة، والآخر مفتر ومهدأ والأول يمزج مع الزنجبيل، أما الثاني فمع الكافور، وبما أن حقائق عالم الآخرة لا يمكن أن يعبر عنها في إطار ألفاظ هذا العالم، فلا سبيل إلا استخدام هذه الألفاظ للدلالة على معان أوسع وأعلى تحكي عن تلك الحقائق العظيمة)[٣].

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٣١/ ٩٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٨٠.

(٣) تفسير الأمثل: ١٩/ ٢٦٧.

كما يذكر القرآن الكريم أن من الرفاه الموجود في الجنة تنوع الأنهار، والتي لا تكون مملوءة بالمياه مثل أنهار الدنيا، وإنما تملأ بكل أصناف الشراب اللذيذ، ومنها ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

كما ذكر النبي ﷺ هذه الأنهار في الاحاديث الشريفة منها ما ورد في قوله ﷺ: (إنَّ فِي الجَنَّةِ بَحْرَ المَاءِ وَبَحْرَ العَسَلِ وَبَحْرَ اللَّبَنِ وَبَحْرَ الخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ بَعْدُ)(١).

ويذكر القرآن الكريم أصالة ذلك الشراب، وعدم وجود أي غش أو أذى فيه، مثلما هو الحال في شراب الدنيا، وهذا كله يدل على أهمية تلك الأنهار والعيون، وأنواع الشراب الذي يصدر عنها، وإن كان القرآن الكريم ذكر بعض ما يعرف من ذلك الشراب لتقريب الصورة إلى الأذهان، وإلا فإن الأمر أعظم بكثير لا تصل كنهه العقول(٢).

المقصد الثاني: الترهيب من صفات شراب المسيئين من أهل النار

وبعد ذكرنا لأنواع الشراب والأنهار التي يتنعم بها أهل الجنة من أجل مقاصد الترغيب والتقوى، فإن شراب أهل النار قد ذكره تعالى في آياتٍ عدة في القرآن الكريم ووصفه بأشد ما يكون من إنكارٍ لطعمه وعدم استساغتهم له؛ قصدَ التحذير والخشية لما يقرب منه أو يؤدي اليه.

فمما وُصِف به شراب أهل النار ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

أما سبب وصف الشراب بهذا الوصف فإنه تعالى لما قال: ويسقى من ماء، فكأنه قيل:

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٦٩٩.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥١٦، ٥١٧.

وما ذلك الماء فقال: صديد، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار، وقيل: التقدير ويسقى من ماء كالصديد، وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة، وهو أيضاً يكون في نفسه صديداً؛ لأن كراهته تصد عن تناوله[١].

وقد ورد في الحديث الشريف ذكر مَن يُسقَون من هذا الشراب من شاربي الخمر والمسكرات، لقوله ﷺ: (كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ) قالوا: يارسول الله، وما طينة الخبال؟ قال ﷺ: (عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ) أَوْ(عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ)[٢].

كما ورد الحديث الشريف من قوله ﷺ: (مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فإن عاد، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ نَهَرِ الْخَبَالِ)، قيل: وما نهر الخبال؟ قال ﷺ: (صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ)[٣].

كما ورد في الحديث الشريف وصف كيفية شرب المسيئين لذلك الشراب، وذلك في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾، فقال ﷺ: (يُقَرَّبُ إِلَى فِيهِ فَيَكْرَهُهُ، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ)، يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وَيَقُولُ تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾)[٤].

أما اختصاص الشراب من الحميم من بين بقية أنواع العذاب المذكور من بعد إنما هو للإشارة إلى أنهم يعطشون فلا يشربون إلا ماء يزيدهم حرارة على حرارة العطش.

وهذا يدل على أن الشراب لا تتوقف آلامه عند حدود شربه، بل يستمر أثره بعد ذلك

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ١٩/ ٧٩.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٥٨٧.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٣٥.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٤٩٦.

في سائر الجسم، وهو جزاء متوافق تماماً مع تلك المشروبات التي كان المسيؤون يشربونها في الدنيا، وتدمر عليهم صحتهم، من غير مبالاة منهم لتحريمها[1].

وفي الحديث الشريف وصف لأنواع من الأشربة أيضاً، أولها الصديد، وثانيها الحميم والغساق، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٢٨].

والحميم هو الماء الحار المغلي جداً، أما الغساق فاختلفوا فيه على عدة أقوال، منها: الشيء الذي يتقذرونه، والثاني: أنه الشيء البارد الذي لا يطاق، وهو الذي يسمى بالزمهرير، أوثالثاً: أن الغساق ما يسيل من أعين أهل النار وجلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة، ورابعها: الغساق هو المنتن، ودليله ما رُويَ أنه ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهَرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنْيَا»[2].

وخامسها: أن الغاسق هو المظلم قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، فيكون الغساق شراباً أسود مكروهاً يستوحش كما يستوحش الشيء المظلم.

وبذلك إن فُسِّر الغساق بالبارد كان التقدير: لا يذوقون فيها برداً إلا غساقاً، ولا شراباً إلا حميماً، إلا أنهما جمعا لأجل انتظام الآي.

أما إن فسِّر الغساق بالصديد أو بالنتن احتمل أن يكون الاستثناء بالحميم والغساق راجعاً إلى البرد والشراب معاً، وأن يكون مختصاً بالشراب فقط)[3].

كما قيل إن الحميم هو الماء الشديد الحرارة، والغساق معناه الصديد الذي يسيل من جروح الحرق وهو المهل.

---

(١) (يُنظَر) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٩٩، وأسرار ما بعد الموت: ٥١٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٦٤٤.

(٣) (يُنظَر) تفسير مفاتيح الغيب: ٣١/ ١٧.

واستثناء حميماً وغساقاً من برداً أو شراباً على طريقة اللف والنشر المرتب، وهو استثناء منقطع؛ لأن الحميم ليس من جنس البرد في شيء إذ هو شديد الحر، ولأن الغساق ليس من جنس الشراب، إذ ليس المهل من جنس الشراب.

والمعنى: يذوقون الحميم إذ يراق على أجسادهم، والغساق إذ يسيل على مواضع الحرق فيزيد ألمهم، وصورة الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده في الصورة...

وهذا الجزاء موافقاً للعمل الذي جُوزوا عليه، وهو التكذيب بالبعث وتكذيب القرآن كما دل عليه التعليل بعده بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾.

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر، وهما أصلان: أحدهما عدمي وهو إنكار البعث، والآخر وجودي وهو نسبتهم الرسول ﷺ والقرآن للكذب، فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي وهو حرمانهم من البرد والشراب، وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي وهو الحميم يراق على أجسادهم والغساق يمر على جراحهم[1].

وفي الآية الأخرى ما ورد في وصفه تعالى لشراب أهل النار أيضاً بـ(المهل)، فيدرجه في جملة صفات عذابهم وإحاطة النار بهم من كل مكان، فيقول تعالى: ﴿إنا أَعْتَدْنَا لِلظالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويبين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) بأن المهل هو خثارة الزيت، وقيل: هو النحاس الذائب[2]، كما ذكر المفسرون أن هذا المهل هو المقدار المترسب من الدهن، والذي يكون عادة ملوثاً بأشياء وسخة ورديئة الطعم، أو أنه المعادن المذابة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾)[3].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٥/ ٣٠١.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ٥١٤.

د . المساكن والفرش

من نماذج الجزاء الحسي في نعيم الجنة أو عذاب النار، والتي ذكرتها النصوص الكريمة وبعضٍ من تفاصيلها ما يتعلق بمساكن أهل الجنة، وما وُضِع فيها من الفرش، وتبشيرهم بها، وترغيبهم لصالح الأعمال المؤدية إليها، وما يتعلق بمساكن أهل النار وما أنذِروا مما بها من الهوان، والتحذير مما يرمي إليها، وسنتناول البعض من هذه النماذج فيما يأتي:

المقصد الأول: طيبة وترف المساكن والفرش التي أعدها تعالى للمحسنين

وصف تعالى مساكن أهل الجنة، والتي عند يقين العباد بما أعده تعالى لهم منها تصفو نفوسهم في التزكية، ويزهدهم فيما بين أيديهم من نعيم الدنيا مهما كبر.

حيث (يذكر الله تعالى ما أعده للمؤمنين من مساكن طيبة تعوض عليهم كل ما خسروه في الدنيا، لأن همتهم لم تكن في بناء البيوت، وإنما في بناء القيم التي تشكلت منها نفوسهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقد ورد في القرآن الكريم بعض الأوصاف لتلك البيوت المعدة للمحسنين، والتي ترغبهم في الاستعداد للسفر لها، وعدم تضييع أوقاتهم في الانشغال بالترف المرتبط بمساكن الدنيا، قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهذه الآية الكريمة تحمل أجمل الأوصاف لأجمل البيوت، فهي بيوت بعضها فوق بعض مثل القصور العالية، وفوق ذلك تجري من تحتها الأنهار، وتلتف من حولها الأشجار)[١].

ويقول الشيخ مكارم الشيرازي في تفسير الآية الكريمة: (فإن كان أهل جهنم مستقرين في ظلل من النّار، كما ورد في الآية السابقة: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٥٠١.

تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، فإنّ لأهل الجنّة غرفاً من فوقها غرف أُخرى، وقصور فوقها قصور أُخرى، لأنّ منظر الورود والماء والأنهار والبساتين من فوق الغرف يبعث على اللذة والبهجة بشكل أكثر، و(غرف) جمع (غرفة)، بمعنى تناول الشيء؛ ولذا يطلق على من يتناول الماء بكفه ليشربه (غرفة)، ثمّ اطلقت على الطبقات العليا من المنازل، وكشفت الآية أيضاً عن أن غرف أهل الجنّة الجميلة قد زُيِّنت بأنهار تجري من تحتها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ نعم، هذا وعد الله ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾)[1].

كما وردت البشارة بهذه المساكن في الجنات وأنهارها في الحديث الشريف، منها ما رواه أنس بن مالك ، قال: لَمَّا انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئاً لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥][2].

أما سعة هذه المساكن وصفتها فقد ورد ذكرهما في الحديث الشريف، وهو ما ذكرناه في جنتي المقربين وأصحاب اليمين من وصفها بقوله ﷺ: (إنَّ في الجَنَّةِ خَيْمَةً مِن لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُها سِتُّونَ مِيلًا، في كُلِّ زاوِيَةٍ مِنْها أهْلٌ ما يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عليهمُ المُؤْمِنُونَ، وجَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ، آنِيَتُهُما وما فِيهِما، وجَنَّتانِ مِن كَذا، آنِيَتُهُما وما فِيهِما، وما بيْنَ القَوْمِ وبيْنَ أنْ يَنْظُرُوا إلى رَبِّهِمْ إلَّا رِداءُ الكِبْرِ علَى وجْهِهِ في جَنَّةِ عَدْنٍ)[3].

وقوله ﷺ: (إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا،

---

(١) تفسير الأمثل: ١٥/ ٥١.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٩: ٢٥٧.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٤٩.

لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا)[1]، والخيمة مبيت الرجل كالبيت من الخشب، حتى أن العرب تسمي البيت من الشعر خيمة لأنه معد للإقامة)[2].

وقيل هي بيت مربع من بيوت الأعراب، والزاوية الجانب والناحية، وفى الرواية الأولى عرضها ستون ميلاً وفى الثانية طولها فى السماء ستون ميلاً ولامعارضة بينهما، فعرضها فى مساحة ارضها، وطولها فى السماء أي في العلو متساويان[3].

كما ورد أن طولها ثلاثون ميلاً في قوله ﷺ: (الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثُونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ)[4].

وفي بناء هذه المساكن والجنات فقد رُويَ حين سُئِل النبيﷺ عن الجنة، ما بناؤها؟ قال ﷺ: (لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، مِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، حَصْبَاؤُهَا الْيَاقُوتُ وَاللُّؤْلُؤُ، وَتُرْبَتُهَا الْوَرْسُ وَالزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، وَيَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا يَبْلَى شَبَابُهُمْ، وَلَا تُخَرَّقُ ثِيَابُهُمْ)[5]، وإن كان إسناد هذا الحديث فيه ضعف من جهة اسناده، إلا أنه يتقوى بالحديث الصحيح من قوله ﷺ: (بِنَاءُ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ)[6].

أما دواخل هذه البيوت، فذكرتها النصوص الكريمة وزخرت بها، فجلوسهم واتكائهم على فرشهم التي يصفها تعالى بقوله: (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ) [الرحمن: ٥٤]، ويشير الرازي (ت٦٠٦هـ) الى ذكر البطائن بقوله (وإنما ذكر البطائن لأن

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٨٢.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣٨٠.

(٣) فتح الباري: ١٧/ ١٧٦.

(٤) صحيح البخاري: ٣/ ١١٨٥.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٤٤٥.

(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٣٦٢.

من المعلوم أنها تكون أقل حالاً من الظهارة، فإذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة)[1].

و(يذكر القرآن الكريم الفرش المعدة للمحسنين في دار النعيم، ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢ ـ ١٦]، وهي تشير إلى بعض الفرش التي وضعت في تلك البيوت، أو الخيام، ومنها (النمارق المصفوفة)، وهي الوسائد الصغيرة التي يُتكأ عليها، وقد وصفت بكونها [مصفوفة] إشارة إلى إعدادها بطريقة خاصة، لتكون محلاً لجلسات الأنس الجماعية التي يقيمها المؤمنون بعضهم لبعض.

وهكذا وصفت الأرض التي يسيرون عليها بكونها ملأى بالزرابي المبثوثة في كل مكان، مما يدل على الترف العظيم الذي يعيشه أهل الجنة، والذي كان جزاء على زهدهم وورعهم في الدنيا)[2].

أما الأنهار الجارية فيها فقد وصفها تعالى بأروع التشبيهات التي بشَّر بها عباده، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١]، و((مسكوب) من مادّة (سكب) على وزن (حرب) وتعني في الأصل الصبّ، ولأنّ صبّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيّار أو شلاّل فإنّه بذلك يصوّر لنا مشهداً رائعاً حيث إنّ خرير المياه ينعش الروح، ويبهر العيون، وهذه هي إحدى الهبات التي منحها الله لأهل الجنّة)[3].

وقد تسابق العلماء والمفسرون في توصيف هذا النعيم الذي أعده تعالى لعباده من منازلهم في الجنة، فلم يصل الى ما بُشِّروا به، لعدم بلوغ العقول والقلوب على حقيقته، لقوله ﷺ: (قالَ اللهُ تبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ،

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٩/ ٣٦٦..

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٥٠٤.

(٣) تفسير الأمثل: ١٧/ ٤٥٩.

ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهمْ مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][١].

ويصفه الشيخ الشيرازي بإجمال بقوله ((الخلاصة هي أن منزل الجنة لا مثيل له من كل الجهات، فهو الخالي من أي ألم أو عذاب أو حرب أو جدال، وتجد فيه كل ألوان الثمار والأنعام والعيون الجارية والأشربة الطاهرة والولدان المخلدين والحور العين والأسرة المرصعة والفرش الفاخرة والأقداح الجميلة، وكلها في متناول اليد، ومعها جلساء أصفياء، إلى غير ذلك مما لا يمكن عده بلسان أو وصفه بقلم ولا حتى تخيله إذا ما سرحت المخيلة في عالمها الرحب. وكل ما ذكر وغيره سيكون في انتظار من آمن وعمل صالحاً، بعد حصوله على إذن الدخول إلى تلك الدار العالية. وفوق هذا وذاك فثمة لقاء الله، الذي ليس من فوز يوازيه)[٢].

المقصد الثاني: الترهيب من مثوى المتكبرين وسوء المهاد التي أعدها تعالى للمسيئين

وبمقابل ما يتنعم به أصحاب اليمين، كذلك يشتمل الجزاء الحسي للمذنبين من سكنهم في جهنم وعذابهم فيها ويذكر لهم البيوت التي عوضوا بها في الآخرة، نتيجة إهمالهم لأنفسهم، وللقيم الصالحة التي أمروا بمراعاتها، فلا جنات حينئذ، ولا قصورٍ ولا أنهار، إنما هي النار فقط، قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]، حيث تختلف منازلهم فيها، يقول الرازي : (وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب، فيكون عقاب بعضهم أعظم من عقاب بعض، وإنما صرح تعالى بذكر الخلود ليكون الغم والحزن أعظم)[٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٨٥.

(٢) تفسير الأمثل: ٢٠/ ١٥٦.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٠/ ٢٠٠.

وقال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [ص: ٥٥، ٥٦]، فيقول الطوسي (ت٤٦٠هـ) في التبيان: (ابتدأ تعالى فقال ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الذين طغوا في معاصي الله ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾، يعني شر مرجع، ثم بين ذلك المرجع، فقال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وإنما وصف جهنم بأنها مهاد لما كانت عوضاً لهم عن المهاد، فسميت باسمه، كما قال ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقال قوم: هو على تقدير بئس موضع المهاد، والمهاد الفراش الموطأة تقول: مهدت له تمهيدا)[١].

وهكذا ذكر نفورهم منها، وهربهم من السكن فيها، مع أنها هي نفسها التي بنوها في الدنيا، لكنهم انشغلوا بظاهرها عن باطنها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ومثله ما ورد حين بين تعالى جزاء كلا الفريقين في الآخرة، كما جاء في سورة الحج، أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا، وانشغلوا بها وبزينتها، وأولئك الذين سلموا أمورهم لله، ولم يتجاوزوا حدوده، فقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٣].

حيث يبين تعالى هذا المأوى الذي بنوه لأنفسهم، وهم في ذروة شدته وآلامه، فهذه ثيابٌ من النار تُقطع وتُفصَّل، وهذا حميم يُصَب من فوق الرؤوس، يُصهَر به ما في البطون والجلود، وهذه مقامع من حديد، وهذا هو العذاب الأليم يشتد ويتجاوز الطاقة، فيهب

---

(١) التبيان في تفسير القرآن: ٨/ ٥٥٨.

الذين كفروا من الوهج والحميم، والضرب الأليم، يهمون بالخروج من هذا الغم وها هم أولاء يُردون بعنف ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

فيظل الخيال يكرر هذه الصورة الحسية من أولى حلقاتها الى آخرها، ولا يبارحها إلا أن يلتفت الى الجانب الآخر الذي يستطرد إليه السياق ليعرضه، لأن الأصل في قصتهم أن هنالك خصمين اختصموا في ربهم: فأما الذين كفروا فها هو ذا مصيرهم وأكثر من ذلك. والخصم الثاني هم الذين آمنوا فهم هنالك في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، لم تُقَطَع ملابسهم بل فُصِّلت لهم من الحرير، ولهم فوقها حُلي من الذهب واللؤلؤ، وقد هداهم تعالى الى الطيب من القول والى صراط الحميد(١).

هـ . الأزواج والولدان والأهلون

وكذلك الأُسر من الأزواج والولدان والأهلون، فقد فصَّل تعالى في كتابه الكريم ما يكون عليه جزاء الآخرة الحسي بما يتعلق بهم، وموقف المُنَعَّم من أهله يومئذٍ، وموقف المُعذَّب في الجحيم منهم، وكذلك وضَحته الأحاديث النبوية الشريفة، وسنتناول كلا الجزائين فيما يأتي:

المقصد الأول: اجتماع الأزواج والأُسر والأهلون للمحسنين في الجنة

الجنة هي دار الكرامة التي وعدها تعالى عباده المتقين، وهي دار السعادة التي لا تفنى، ومن السعادة التي تكفل الله تعالى بها لعباده المؤمنين أن يجمع الأسرة الواحدة معاً، الوالدين والأولاد، بعد دخولهم الجنة جميعاً برحمة الله تعالى، وقد جاء هذا الوعد في كتاب الله الكريم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

حيث يقول الطبري(ت٣١٠هـ) في تفسيره للآية الكريمة: (اختلف أهل التأويل في

---

(١) (يُنظَر) مشاهد القيامة في القرآن: ٢٥٨.

تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان، ألحقنا بهم ذرياتهم المؤمنين في الجنة، وإن كانوا لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم، تكرمة لآبائهم المؤمنين، وما ألتنا آباءهم المؤمنين من أجور أعمالهم من شيء..

ومما يستدل به المفسرون على هذا الرأي ما رُويَ عن ابن عباس قوله في تفسير هذه الآية: (إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾)[١].

ويؤيده ما ورد في تنوير المقباس (﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن وصدقوا بإيمانهم ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ بإيمان الذرية في الدنيا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ بالآباء ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الآخرة في درجة آبائهم)[٢].

ويقول العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ): (يدخل إلى الله تعالى الذرية بإيمان الآباء الجنة، أو يعطيهم مثل أجور الآباء من غير نقص في أجور الآباء، أو البالغون أطاعوا الله تعالى فألحقهم الله بآبائهم)[٣].

ولَمَّا كان كل نعيم الجنة متسم بالطهارة والسمو والقداسة، وكونه جميعاً مرتبطاً بالعبودية ومعرفة الله تعالى، لذا فقد وصف الله تعالى الأزواج في الجنة بالطهارة كذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥][٤].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، ويقول الشيخ الشيرازي في تفسيره للآية الكريمة: (﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وبذلك فإنّ مضيفهم

---

(١) تفسير جامع البيان: ٢٢/ ٤٦٧.

(٢) تنوير المقباس من تفسر ابن عباس: ٤٤٤.

(٣) تفسير العز بن عبد السلام: ٣/ ٢٣٨.

(٤) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٥٣٣.

الحقيقي هو الله تعالى الذي يدعو ضيوفه ويقول لهم: أدخلوا الجنّة.

ثمّ أشارت إلى أول نعمة من تلك النعم، فقالت: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ ومن الواضح أنّ كون المؤمنين الرحماء إلى جانب زوجاتهم المؤمنات يمنحهما معاً اللذة والسرور، فإذا كانا شريكين في همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين في سرور الآخرة ونشوتها.

وقد فسّر بعضهم (الأزواج) هنا بالمتساوين في الدرجة والأصدقاء والأقارب، فلو صحَّ فوجودهم نعمة عظيمة، إلاّ أنّ ظاهر الآية هو المعنى الأوّل.

وقوله تعالى﴿تُحْبَرُونَ﴾ من مادة حِبْر - وزن فِكر - أي الأثر المطلوب، وتطلق أحياناً على الزينة وآثار الفرح التي تظهر على الوجه)[1].

ولعل ما استقرأناه من مقاصد الشفاعة يوم القيامة مما يدل على ذلك ويسنده، إن كانوا من أهل النار والعياذ بالله شفع فيهم ذويهم لينقذوهم من العذاب فيكونون معهم، إذ ورد عن النبي ﷺ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ)[2].

وكذلك شفاعة الملائكة للمؤمنين ودعائهم من الله تعالى بإدخالهم الجنة مع من صلح من ذويهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧، ٨].

---

(١) تفسير الأمثل: ١٦/ ٩٣.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٧.

حيث يستغفر الملائكة للمؤمنين ويقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلا منا ومنة[1].

أما إن اختلفت منازلهم فإنهم يتزاورون فيما بينهم ويتساءلون عن الأحوال، حيث يخبر تعالى أنه يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا وماذا كانوا يعانون فيها وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملبس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[2].

ويذكر الطبري إن (أولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، القول الذي ذكرنا عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهو: والذين آمنوا بالله ورسوله، وأتبعناهم ذرياتهم الذين أدركوا الإيمان بإيمان، وآمنوا بالله ورسوله، ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم الذين أدركوا الإيمان فآمنوا، في الجنة فجعلناهم معهم في درجاتهم، وإن قصرت

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٧/ ١١٩

(٢) المصدر نفسه: ٧/ ١٢.

أعمالهم عن أعمالهم تكرمة منا لآبائهم، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئاً[1].

ونرى رجاحة هذا القول وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين في مساواتهم في درجتهم، وهو أقرب الى كرم الله تعالى وفضله على عباده، فضلاً على أنه تعالى يلبي لأصحاب الجنة كل ما يتمنوه ولا أمنية عندئذٍ تخلو عن ذلك.

المقصد الثاني: تخاصم المسيئين وحشرهم مع أزواجهم من أهل النار

وعلى عكس أوصاف التآلف والمحبة بين العباد وأسرهم وأهلوهم في جناتهم يوم القيامة، نجد أهل النار وحسب ما دلت عليه النصوص الكريمة أنهم حُرِموا من جميع ذلك، وتناسباً مع سلوكاتهم وأعمالهم ونفوسهم الأمارة بالسوء.

وهم سيُحشرون مع أزواجهم الذين تشابهوا معهم في الأعمال والمصير، أو مع قرنائهم من الشياطين الذين أظلوهم، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

حيث يقول الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) في الميزان في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُم﴾: (الظاهر أن المُراد به قرنائهم من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، الى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وقيل المُراد بالأزواج الأشباه والنظائر، فأصحاب الزنا يُحشرون مع أصحاب الزنا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وهكذا)[2].

وعلى العكس من صفاء قلوب أهل الجنة واتسامها بالطيبة والفرح والمودة بما أنالهم تعالى من عظيم رحمته، نرى النصوص الكريمة تذكر ذلك التخاصم والشقاق بين أهل

---

(١) تفسير جامع البيان: ٢٢/ ٤٧١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٣/ ١٣٢.

النار، الذي كسبوه بما عملته أيديهم، حيث يقول تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩ ـ ٦٣].

فلما وصف تعالى مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا أحباء لهم في الدنيا أولاً، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانياً.

أما الأول: فهو قوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض، بدليل أن ما حكي بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، وقيل إن قوله: هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، وقوله: لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار كلام الرؤساء، وقوله: هذا فوج مقتحم معكم أي: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم في الجهل والضلال، ومعنى اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها، والقحمة الشدة...

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، قالوا (أي الأتباع): بل أنتم لا مرحباً بكم، يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقولهم: أنتم قدمتموه لنا والضمير للعذاب أو لصليهم، فإن قيل ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢][(١)].

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٠٤.

ثالثاً: الجزاء المعنوي للنعيم والعذاب

وقد أشارَ الله تعالى الى هذا الجزاء في آيات عدة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٥٠].

فبعد أن يذكر تعالى ما يطمئن قلوب المؤمنين من عباده الصادقين، يحذِّر من عذابه الأليم، فمع عظمة ما أعدَّه تعالى للمؤمنين في صور الكرم والرحمة والمغفرة للذنوب من الجزاء الحسي وما أعده من عذاب أليم للعصاة والكافرين، فإن الجزاء لا يقتصر على ذلك، بل إنه يتشكل في نفسيات العباد ما تأثرت به من نعيم وعذاب، ولكل منها مقاصده وحِكمه الخاصة سواء بالطمأنينة وتزكية النفوس وتطهيرها، أو بشتى أنواع الآلام النفسية من الحسرة والندم والسخط التي تمثل العذاب المعنوي بمرافقته لعذاب العصاة الحسي من أصحاب الشمال.

ولذلك نرى القرآن الكريم يذكر هذه الناحية من الجزاء، بل يقدمها في أحيان كثيرة على الجزاء الحسي، باعتبار أن السعادة أو الشقاء المرتبط بهما أعظم من السعادة أو الشقاء المرتبط بالجزاء الحسي.

ولذلك فإننا مهما درسنا هذه الأنواع من الجزاء إلا إنه من باب التقريب فقط، إعتماداً على النصوص الكريمة التي بين أيدينا، أما حقيقته فلا يعلمها إلا الله تعالى، وبناءً على ذلك، فسنتناول المقاصد والعبر المرتبطة ببعض هذه الأنواع، وفي أربعة فروع، هي:

١ـ المودة والافتراق.

٢ـ الرضا والسخط.

٣ـ الإكرام والإهانة.

٤ـ السعادة والحزن.

١. المودة والافتراق

عرضَ القرآن الكريم حياة المحسنين والمسيئين في دار الجزاء باعتبارها حياة اجتماعية ترتبط بجهات كثيرة ابتداء من أسرهم وأصدقائهم، والملائكة التي تحيط بهم من كل جانب، مقابل الحرمان والعذاب للمسيئين، ومن ذلك ما تطرقنا إليه في أصناف الجزاء الحسي الذي يلاقيه أهل الجنة من عظيم فضل الله تعالى ورضاه عنهم، وما يلاقوه من التواصل مع أُسرهم من الأزواج والولدان والأهلون، وما يقابله من عذاب أهل النار إذ حُرِموا بسوء أعمالهم من جميع ذلك بعد إذ لم تنفعهم شفاعة الشافعين، ولم يكونوا أهلاً للعفو والرحمة الإلهية مع سعتها وعظمتها، فاقتضت عدالته تعالى أنْ حجبتهم ذنوبهم وكفرهم وجحودهم عما تنَعَّم به اهل الجنة.

ويرافق ذلك الجزاء الحسي في الاجتماع جزاءً معنوياً يملأ نفوس العباد، متمثلاً بالمودة والفرح للتواصل الدائم مع من يُحبون من أهل الجنان، ويقابله ما يملأ نفوس أهل النار من الحسرة واليأس من مرافقة مَن يتمنون الرجوع إليهم.

وهذا ما يعطي ذلك الجزاء بشقيه أبعاداً تربوية كبيرة، ذلك أن المحسنين والمسيئين بسبب تلك العلاقات الكثيرة التي يجدونها، والمعاني الكثيرة التي يسمعونها يسيرون في سيرهم التكاملي، إما للترقي في درجات الجنة، أو الترقي في دركات جهنم إلى أن يخرجوا منها إن كانت لديهم قابلية ذلك الترقي، وربما يكون أحسن قانون للتعبير عن العلاقات التي تربط أهل دار الجزاء، وما قبلها في أرض المحشر تلك المقولة المعروفة التي تقول: (ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل)[١].

لذلك، فقد رأينا تقسيم هذه المقاصد الى قسمين، الأول في المودة واللقاء لأهل الجنة وما يقابلهما من اكتمال السعادة التي بشرهم بها تعالى ورغبهم فيها، والثاني في الافتراق والقطيعة

(١) (يُنظر) أسرار ما بعد الموت: ٤٥٨، والمقوله تُنسَب للإمام مالك رحمه الله.

في أهل النار، وما يقابلهما من الحسرة والندم الذي حذَّرهم به تعالى، وأنذرهم منه.

المقصد الأول: المودة والمحبة التي تعُمُّ المحسنين من أصحاب الجنة

المودة لغةً من (الوَدُّ): وهو مصدر وددتُ، وهو يوَدُّ من الأمنية ومن المودة، وَدَّ يَوَدُّ مودةً[1].

أما في الاصطلاح فالتودد: طلب مودة الأكفاء بما يوجب ذلك، وموجبات المودة كثيرة[2].

وقد وردت كلمة الود والمودة في القرآن الكريم في آياتٍ عدة، والود: محبة الشيء، وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين، على أن التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توده، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، وتقتضي المودةُ المحبة المجردة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، والودود يتضمن ما دخل في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال بعضهم: مودة الله لعباده هي مراعاته لهم[3].

فالجنة دار الكرامة والسعادة الحقيقية الدائمة، والحال الأول والسبب الأساس لهذه السعادة استشعارهم لقربهم من الله تعالى وإكرامه لهم، وسماعهم للبشارة العظيمة، وغيرها كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

يقول ابن عاشور في تفسيره للآية الكريمة: (وهو الدلالة على الكرامة والعناية بأهل الجنة من جانب القدس إذ يوجه إليهم سلام الله بكلام يعرفون أنه قول من الله تعالى، إما

---

(١) العين: ٤/ ٣٥٧.

(٢) التعريفات: ٧١.

(٣) مفردات الفاظ القرآن الكريم: ٢/ ٤٩٩.

بواسطة الملائكة، وإما بخلق أصوات يوقنون بأنها مجعولة لأجل أسماعهم كما سمع موسى كلام الله حين ناداه من جانب الطور من الشجرة فبعد أن أخبر بما حباهم به من النعيم مشيرا إلى أصول أصنافه، أخبر بأن لهم ما هو أسمى وأعلى وهو التكريم بالتسليم عليهم قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢])[١].

ومما يدل على هذا التكريم ما ورد في الأحاديث من كثرة ذكر المؤمنين لله تعالى، كما قال ﷺ: (يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ)[٢]؛ ولذلك كان أعظم نعمة وسعادة للمؤمنين ذلك القرب الله تعالى، والذي يتجلى في نفس تلك المظاهر التي كانت في الدنيا، ولكن بصورة أكثر وضوحاً وجمالاً؛ فمعرفة الله تعالى هي أكبر النعم التي يحن لها المؤمنون، وخاصة المقربين منهم[٣].

وثاني أسباب سعادة أهل الجنة هو ذلك التواصل مع الأسر، ويدل عليه بالإضافة لتلك الآيات الكريمة في نعيمهم الحسي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩]، وظاهر الآية الكريمة يدل على أن لأهل الجنة أسراً مثلما كان لهم في الدنيا.

وكذلك فمصداق هذا الوعد الإلهي قد ورد في آياتٍ عدة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، يقول ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره للآية الكريمة: (أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله تعالى وإحساناً من غير تنقيص

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/ ٤٤.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٨١.

(٣) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٤٦٠.

للأعلى عن درجته)[1].

لذلك يصف تعالى المؤمنين بأنهم الذين يدعون ويتضرعون الى الله تعالى أن يجمعهم بـأهلهم وذويهم في الجنان، فلم يكتفوا بالدعاء لأنفسهم بدخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، كما أخبر عن دعاء الملائكة عليهم السلام لهم بهذا، فقال: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

أما ثالث الأسباب في سعادة أهل الجنة وتوادهم ذلك التواصل مع الإخوان والأصدقاء، المتساوون في الدرجة والمتشاكلون في الطباع، وهو ما عبرت عنه آيات كثيرة، تذكر أن القرناء يكونون في درجة واحدة، بناء على اتفاق طباعهم ومواقفهم وأنواع جزائهم، فلا تقتصر هذه السعادة من الاجتماع والتواصل مع ذوي القربى، بل يشتمل على جميع من تحابَوا في الله تعالى ولو من غير أرحام بينهم، يقول ﷺ: (إنَّ اللهَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: أيْنَ المُتَحابُّونَ بجَلالِي، اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي)[2].

فيبين ﷺ في الحديث الشريف إن فضل هذا التوادد والمحبة في جناب الله تعالى سيرون آثارها يوم القيامة، بل أنه تعالى يستظلهم تحت ظل عرشه الكريم، كما رُوي عن أبي مسلم الخولاني حين قال لمعاذ بن جبل (إني لأحبك في الله) فقال له معاذ بن جبل: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)، قال أبو مسلم الخولاني: فخرجتُ حتى لقيت عبادة بن الصامت فذكرتُ له حديث معاذ بن جبل فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يحكي عن ربه يقول: (حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٨٨.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٨٨.

نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)[1].

ففي هذه الأحاديث الدليل على جمع الله تعالى المتحابين فيه برغم البعد المكاني بينهم، بل إن هذه الأحاديث لا يفهم منها فقط ما نعرفه من البعد المكاني، بل يدخل فيه أيضاً البعد الزماني، حيث يلتقي المؤمنون بكل من يحبونهم من أنبياء الله ورسله والأولياء والصالحين، وكل من هفت قلوبهم محبة لهم.

ولذلك فإن مجتمع أهل الجنة مملوء بأهل العلم والتقوى والحكمة، لا كما يشيع المنحرفون، من أن الجنة محل للشهوات الحسية، لا للمعاني العقلية والروحية، وكيف تكون كذلك، وفيها الأنبياء والأولياء والصالحين والعلماء، وكلهم يبقى بنفس اهتماماته ورغباته التي رحل بها من الدنيا[2].

فهذا باب من أبواب السعادة المعنوية التي وعدها تعالى عباده، وسببٌ من أسبابها، بل إن هذا الاجتماع لا يقتصر على المتحابين في الله من ذوي الأرحام وغير ذوي الأرحام من المؤمنين الصالحين، بل إنه يشتمل لجميع ما تهواه النفوس، وكما ذكرنا في نماذج من ذلك النعيم الحسي فيرافقه تلك الطمأنينة والسعادة التي لم تخطر لهم على بال.

ودليل ذلك ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تدل على هذه النعم الإلهية في دار الجزاء، فضلاً عمَّا يؤيدها من نصوص الحديث الشريف.

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٦/ ٣٨٤.

(٢) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٤٦٦

لهذا فمما رُويَ أنه عندما جاء بعض الأعراب وكان ممن يحبون الزرع، وصف له رسول الله ﷺ الجنة بما يتناسب مع طباعه وما يشتهي، إذ ورد أنه ﷺ (كان يومًا يحدِّث وعنده رجلٌ من أهل البادية، فقال ﷺ: (أنَّ رَجُلًا مِن أهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ في الزَّرْعِ، فَقَالَ له: أَلَسْتَ فِيما شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، ولَكِنِّي أُحِبُّ أنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ واسْتِوَاؤُهُ واسْتِحْصَادُهُ، فَكانَ أمْثَالَ الجِبَالِ، فيَقولُ اللَّهُ: دُونَكَ يا ابْنَ آدَمَ، فإنَّه لا يُشْبِعُكَ شيءٌ)، فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قُرشياً، أو أنصارياً، فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك النبي ﷺ[1].

وكذلك ما رُويَ عنه ﷺ في وجود الخيل لمن أرادها ويهواها في الجنة لما رُويَ من حديث المسعودي أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال ﷺ: (إنْ اللهُ أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ، فَلَا تَشَاءُ أَنْ تُحْمَلَ فِيهَا عَلَى فَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ يَطِيرُ بِكَ فِي الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ إِلَّا فَعَلَتْ) قال: وسأله رجل فقال: يا رسول الله هل في الجنةِ من إبل؟ قال: فلم يقل له ما قال لصاحبه، قال ﷺ: (إِنْ يُدْخِلْكَ اللهُ الجَنَّةَ يَكُنْ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ)[2].

وتقدير الكلام إن أدخلك الجنة الله فلا تشاء أن تحمل على فرس كذلك إلا حُملت عليه، والمعنى أنه ما من شيء تشتهيه الأنفس إلا وتجده في الجنة كيف شاءت حتى لو اشتهيت أن تركب فرساً على هذه الصفة لوجدته وتمكنته منه.

ويحتمل أن يكون المراد إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن يكون لك مركب من ياقوتة حمراء يطير بك حيث شئت ولا ترضى به فتطلب فرساً من جنس ما تجده في الدنيا حقيقة وصفة، والمعنى فيكون لك من المراكب ما يغنيك عن الفرس المعهود[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٨٢٦.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٦٨١

(٣) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي: ٧/ ٢١٣.

ويدل على هذا أيضاً ما جاء في الرواية عن أبي أيوب قوله: أتى النبيﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله إني أُحب الخيل، أفي الجنة خيل؟، فقال ﷺ: (إِنْ أُدْخِلْتَ الجَنَّةَ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ لَهُ جَنَاحَانِ فَحُمِلْتَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَارَ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ)[1]، (ولعله ﷺ لما أراد أن يبين الفرق بين مراكب الجنة ومراكب الدنيا وما بينهما من التفاوت على التصوير والتمثيل، مثل فرس الجنة في جوهره بما هو عندنا أثبت الجواهر وأدومها وجوداً وأنصعها لوناً وأصفاها جوهراً، وفي شدة حركته وسرعة انتقاله بالطير، وأكد ذلك في الرواية الأخرى بقوله جناحان)[2].

فهذه الأحاديث إنما تدل على أن الله تعالى يوفر لكل نفس في الجنة البيئة التي تشتهيها، بل يضيف إليها من كرمه ما يزيد في جمالها ولذتها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وطبعا هذا لا يُعني تلك النفوس المملوءة بالدنس، والتي قد تشتهي ما لا ترتضيه الفطرة السليمة؛ ذلك أن أصحاب تلك الشهوات، وبعد المرور على الصراط يُهذبون منها قبل دخولهم الجنة، فالجنة لا يدخلها إلا الطيبون أصحاب النفوس الطيبة، والرغبات الطيبة[3].

المقصد الثاني: الفُرقة والقطيعة التي تعمُّ المسيئين من أصحاب النار

الفرقة في اللغة من الافتراق والمباينة، و(الْفرق: خلاف الْجمع، فرقه يفرقه فرقا، وفرقه. وَفَارق الشَّيْء مُفَارقَة، وفراقاً: باينه، وَالِاسْم: الْفرْقَة، وتفارق الْقَوْم: فَارق بَعضهم بَعْضًا)[4].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٦٨٢.

(٢) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي: ٧/ ٢١٣.

(٣) (يُنظر) أسرار ما بعد الموت: ٤٦٧.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم: ٦/ ٣٨٣، ٣٨٤.

وجاءت بعدة موارد في القرآن الكريم، قال الراغب الاصفهاني (ت٥٠٤هـ): الفرق يقارب الفلق لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق، والفرق يقال اعتباراً بالانفصال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، والفرق: القطعة المنفصلة. والتفريق أصله للتكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشمل والكلمة)[١].

ففي مقابل ذلك الجزاء المعنوي الممتلئ بالجمال، والذي يتواصل فيه المحسنون مع كل شيء، ابتداء بقربهم من الله تعالى، وانتهاء بأي مخلوق يرغبون في التواصل معه، فضلاً عن إحاطتهم بكل ما يتمنونه ويحبوه، ففي الجانب الآخر نرى أنواع التشتت والتفريق التي يعاني منها المسيؤون ممن آثروا في الدنيا مقاطعة ربهم، ورسله، وهداتهم، وجميع القيم التي جاءوا بها؛ فلذلك كان جزاؤهم من جنس عملهم.

ومن خلال استقرائنا للنصوص الكريمة وبيان ما ورد فيها ليدلنا بعد ذلك الى مقصده تعالى في تحذيره وإنذاره العباد من كل ما يقود إليها، فقد عبَّر تعالى عن أخطر أنواع هذه القطيعة بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وقد سُبقت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، لتبين أن السبب في ذلك الحجاب ليس من الله، وإنما من عند أنفسهم، بعد أن ملأوا قلوبهم بأنواع الشبه التي تحول بينهم وبين ربهم.

وقد سبق ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٠ ـ ١٣]، وهي تبين أن ذلك الحجاب كان قد صنع في الدنيا بسبب التكذيب والتلفيق والتزوير الذي مارسه المسيؤون مع الحقائق والقيم التي جاءتهم بها الرسل[٢].

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢/ ١٨٨.

(٢) أسرار ما بعد الموت: ٤٦٨.

لذلك فقد استحقوا بما أصروا عليه من العناد والتكذيب والتلفيق هذا الحجب عن الله تعالى وعن رحمته وفضله ورأفته، ليبين تعالى بعد ذلك ما اوصلهم إليه من الشقاء والخسران المبين، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٧]، في إن هذه الآيات قد اشتملت على أنواع ثلاثة من الويل، وهي الإهانة، والعذاب، والتقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب.

فأما الإهانة فحجبهم عن ربهم، والحجب هو الستر، ويستعمل في المنع من الحضور لدى الملك ولدى سيد القوم، وكلا المعنيين مراد هنا لأن المكذبين بيوم الدين لا يرون الله يوم القيامة حين يراه أهل الإيمان.

ويوضح هذا المعنى قوله في حكاية أحوال الأبرار: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، وكذلك فإنهم لا يدخلون حضرة القدس قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وليكون الكلام مفيدا للمعنيين قيل: ﴿ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ دون أن يُقال: عن رؤية ربهم، أو عن وجه ربهم كما قال تعالى في آية آل عمران: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وأما العذاب الآخر فهو ما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾وقد عطفت جملته بحرف (ثم) الدالة في عطفها الجمل على التراخي الرتبي وهو ارتقاء في الوعيد؛ لأنه وعيد بأنهم من أهل النار وذلك أشد من خزي الإهانة. والمعنى: أنهم سيصلون عذاب جهنم..

وأما التقريع مع التأييس من التخفيف فهو مضمون جملة: ﴿ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فعطف الجملة بحرف ثم اقتضى تراخي مضمون الجملة على مضمون التي قبلها، أي بعد درجته في الغرض المسوق له الكلام.

واقتضى اسم الإشارة ﴿هذَا﴾ أنهم صاروا إلى العذاب، والإخبار عن العذاب بأنه الذي كانوا به يكذبون؛ يفيد أنه العذاب الذي تكرر وعيدهم به وهم يكذبونه، وذلك هو

الخلود وهو درجة أشد في الوعيد)[1].

وهكذا يذكر القرآن الكريم مشهداً من مشاهد القطيعة يبدأ بدعاء المسيئين وتوسلهم لله تعالى أن يخرجهم مما هم فيه، وهم يرددون بكل خشوع: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

كما يخبر القرآن الكريم عن تلك الآلام الشديدة التي يعاني منها المسيؤون، والتي تجعلهم يطلبون من الملائكة أن يطلبوا من الله تعالى القضاء عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨].

ويقول السيد قطب فيها: (وتسمع الكافرين في جهنم ينادون من وراء الأسوار: ﴿يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فتحس ضيق الصدور، وألم العذاب، ووهج النار، ولفح الجحيم، وإن لم يقل لك كيف هذا الجحيم)[2].

ولأجل تخلصهم من عذاب يومئذ، ومن القطيعة التي نالتهم فحجبتهم عن جميع النعم التي رُزِق بها أهل الجنان، لم يذكر القرآن الكريم مخاطبتهم مع خازن النار فقط، بل إنهم يجرون تلك الحوارات الكثيرة فيما بينهم، والتي يستعيدون فيها جرائمهم التي مارسوها في الدنيا، ويلقي بعضهم على بعض اللوم بسببها، ومن تلك المشاهد والتي تبين تبرءة بعضهم من بعض، علّه يقلل من عقابهم، ولا سيّما بين من كانوا ضعفاء ومستكبرين في الدنيا مما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٠١.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن: ٥٥.

حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨][1].

ومنها ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

بل إن درجة القطيعة التي يرونها تصل الى تبرئ الشيطان بنفسه من أعمالهم التي دعاهم إليها وزينها لهم في حياتهم الدينا، إذ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ونظراً لما سقناه من تواصل المحسنين مع كل ما أَلِفوه وأحبوه بدءاً من تواصلهم مع الله تعالى، نجد تلك الفُرقة التي يعانيها ويعاينها المسيؤون وقد تبرأوا من بعضهم وليس لهم من نصير، فكانوا بين عقابين، حسي بالنار ولهيبها وأغلالها، ومعنوي مملوء بالانقطاع والفراق بينهم وبين كل ما يخفف عنهم هذا العذاب، فصاحَبَ عذابهم الكدورة والحسرة والآلام النفسية غير المتناهية؛ ذلك أن خسرانهم ذلك اليوم خسراناً عظيماً، حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

يقول الخطيب الشربيني[2] في معرض تفسيره للآية الكريمة بعد أن بيّن إن الكاملين

---

(١) (يُنظَر) أسرار ما بعد الموت: ٤٦٩، ٤٧٠.

(٢) محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، الخطيب الشربيني، المفسر والخطيب والعلّامة، من فقهاء الشافعية، من أهل

في خسران أنفسهم (هم الذين أوقعوها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه، وخسروا ﴿أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أيضاً؛ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا ذهاباً لا رجوع بعده البتة.

وقوله تعالى ﴿أَلَا ذَلِكَ﴾ أي: الأمر العظيم البعيد الرتبة في الخسارة ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين، يدل على غاية المبالغة من وجوه؛ أحدها: أنه وصفهم بالخسران ثم أعاد ذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ وهذا التكرير لأجل التأكيد، وثانيها: ذكر حرف (ألا) وهو للتنبيه، وذكر التنبيه يدل على التعظيم، كأنه قال: بلغ في العظم إلى حيث لا تصل عقولكم إليه فتنبهوا له، وثالثها: قوله تعالى ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ﴾ ولفظة (هو) تفيد الحصر كأنه قيل: كل خسران يصير في مقابلته كل خسران، ورابعها: وصفه تعالى بكونه خسراناً مبيناً يدل على التهويل)[1].

هذه بعض مشاهد الألم التي يعاني منها أولئك الذين آثروا أن يقاطعوا ربهم، والهداة الذين أرسلهم، والهداية التي أرسلها معهم، ولذلك كان كل ما حصل لهم من قطيعة جزاء متوافقاً تماماً مع اختياراتهم ورغباتهم التي شكلوا منها نفوسهم، وهي في نفس الوقت نوع من أنواع التربية لهم، ليدركوا قيمة الإيمان الذي فرطوا فيه، وباعوه بثمن بخس، ولهذا ورد في التعقيب على بعض تلك المشاهد قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٥]، وهذا درس لهم، ليتخلصوا من كل ذلك الران الذي طبع قلوبهم في الدنيا عن الهداية، ولا تزال آثاره معهم في الجحيم، ولذلك احتاجوا إلى البقاء فيها حتى يزال عنهم

القاهرة. درس وأفتى في حياة شيوخه، له تصانيف، منها [السراج المنير] في تفسير القرآن، في أربع مجلدات. (يُنظر) شذرات الذهب: ١٠/ ٥٦١، ومعجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»: ٢/ ٤٨٥.

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: ٣/ ٤٣٨.

ذلك الران، أو يبقوا فيها أبد الآبدين)[1].

لذلك حين نقرأ بعض هذه المشاهد عن الذين كفروا وعصوا الرسول: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء:٤٢]، فتتراءى لنا ظلال نفسية واضحة للخزي القاتل والخجل المميت، في موقف المواجهة، حين يُستدعى الشهود من كل أمةٍ، ويُجاء بالرسولﷺ شهيداً على العباد، فلم يكن لهم شهيداً، ولا شافعاً ولا نصيراً.

كما نقرأ عن ذلك العذاب ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام: ١٦]، فيرتسم لنا هول هذا العذاب الذي يُعَد مجرد صرفه رحمة، ولو لم يقل لنا تعالى شيئاً عن ماهيته أو كنهه[2].

من ذلك نعلم أن أغلب مقاصد هذا الجزاء الحسي من الاجتماع والفرقة هي مقاصد تربوية حتى في الحياة الدنيا إذ إنها لا تقتصر على الجزاء الاخروي، والتي تستدعي من العباد مرافقة الصالحين منهم، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، يقول الطوسي (ت٤٦٠هـ): ((الاخلاء) وهو جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني من كانت خلته في دار الدنيا في غير طاعة الله بل كانت في معصية الله، فان تلك الخلة تنقلب عليه عداوة، لان صاحبها يتبين فساد تلك الخلة يوم القيامة، وإنما كان كذلك، لان كل واحد من المتخالين في غير طاعة الله يزين لصاحبه خلاف الحق ويدعوه إلى ما يوبقه ويورثه سوء العاقبة بدل ما كان يلزمه من النصيحة له في الدعاء إلى ترك القبيح وفعل الحسن ثم استثنى من جملة الاخلاء الذين اخبر عنهم أنهم يصيرون اعداءاً، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ؛ لان من كانت مخالته في طاعة الله وعلى ما أمر الله به فانها تتأكد ذلك اليوم ولا تنقلب عداوة)[3].

---

(١) أسرار ما بعد الموت: ٤٧١.

(٢) (يُنظَر) مشاهد القيامة في القرآن: ٥٦.

(٣) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٢٠٩.

كما ذكر الزمخشري (ت٥٤٨هـ) تفسير الآية الكريمة بقوله: (أي: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتاً، إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله)[١].

لذلك ورد في الأدعية المأثورة التعوذ من هذا الحجاب والتباغض وعذابه، ومنها ما ورد في دعاء كميل بن زياد قوله عن الامام علي عليه السلام: (إلهي لأي الأمور إليك أشكو ولما منها أضج وأبكي لأليم العذاب وشدته أم لطول البلاء ومدته، فلأن صيرتني للعقوبات مع أعدائك وجمعت بيني وبين أهل بلائك وفرقت بيني وبين أحبائك وأوليائك، فهبني يا سيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني صبرت على حر نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك)[٢].

٢. الرضا والسخط

يتوافق هذا الجزاء المعنوي تبعاً للأعمال والملكات التي تترسخ في نفوس العباد، وقد آلينا لجعله أول ما يلي مقصدي المودة والافتراق لارتكاز أسبابه على رضا الله تعالى التي تعتمد على التواصل مع الله تعالى من عدمه، وكونه سر التمايز بين أهل الجنة وأهل النار، فضلاً عن كونه سر الجزاء الحسي والمعنوي الذي يلاقيه كلاً منهما، قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهَّ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهَّ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وسنتناول كِلا القسمين فيما يأتي:

المقصد الأول: الرضا الإلهي للمنعمين في الجنان

الرضا ضد السخط، رضي رِضاً ورَضاً ورضواناً، ويُقال: رضي يرضى رضا، فهو مرضي ومرضو، ورضا العبد عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤/ ٢٦٣.

(٢) دعاء كميل بن زياد في ضياء الصالحين: ٣٢٧.

هو أن يراه مؤتمراً لأمره، ومنتهياً عن نهيه، قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

والرضوان: الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خص لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، أي: أظهر كلّ واحد منهم الرّضا بصاحبه ورَضِيَهُ[١].

وقد بشَّر تعالى أصحاب النفس المطمئنة من أول خروجها من الجسد بالرضا التام لما أعدَّه تعالى لها، لذلك كان هذا الرضا سمة من سمات الجزاء المعنوي الذي تتنعم به في جنات النعيم، وقد قرن الله تعالى كل ما يرتبط بالمحسنين برضاه عنهم، باعتباره نتيجة لذلك الرضى الذي مارسوه في حياتهم الدنيا مع الله، أو مع رسله، أو مع التعاليم والأحكام والشرائع والأخلاق التي طولبوا بتنفيذها.

وهؤلاء هم الذين بشرهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ بجنات النعيم من حين وفاتهم وحضور ملائكة الموت لقبض أرواحهم، فهم أصحاب النفوس المطمئنة التي قال فيها تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

ويصف الشيخ محمد جواد مغنية (ت١٤٠٠هـ) هذه النفس في تفسيره الكاشف بقوله: (وهي التي آمنت بالله وصغت الى ذكره، وعملت بأمره ونهيه، وقد بيّن سبحانه أصحاب هذه النفس بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، ومعنى راضية

---

(١) (يُنظَر) المفردات في غريب القرآن: ٣٥٦، والمحكم والمحيط الأعظم: ٨/ ٢٤٣.

مرضية انها تحمد أجرها ومقامها عند الله؛ لأن الله حمد سعيها وأعمالها)[1].

وإن هذا الجزاء لا يقتصر على النعيم المعنوي دون الحسي، بل مرافقاً له ومضافاً إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، فهذا هو اليوم الذي يكافيء به تعالى عباده الصادقين بما وعدهم من الفوز العظيم بالرضوان الذي لا زوال له، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ويلفت الشيرازي النظر في لطيفةٍ في الآية الكريمة وتأثير هذا الرضى في جميع أمور العباد، بقوله (يلفت النظر أنّ الآية، بعد ذكر بساتين الجنّة ونعمها الكثيرة، تذكر نعمة رضى الله عن عباده، ورضى عباده عنه وتصف ذلك بأنّه الفوز العظيم، وهذا يدل على مدى أهمية هذا الرضى المتبادل، فقد يكون أمرؤ غارقاً في أرفع نعم الله، ولكنّه إذا أحس بأنّ مولاه ومعبوده ومحبوبه ليس راضياً عنه، فإن جميع تلك النعم والهبات تصير علقماً في ذائقة روحه.

كما يمكن أن يتوفر لأمرىء كل شيء، ولكنه لا يكون راضياً ولا قانعاً بما عنده، فمن الواضح أنّ هذه النعم بأجمعها غير قادرة على إسعاد تلك الروح، بل تكون دائماً معرضة لعذاب قلق غامض واضطراب نفسي مستمر يقضيان على الراحة النفسية التي هي من أعظم نعم الله تعالى)[2].

كما يشير تعالى إلى أن هذا الرضا هو من أعظم الجزاء الذي يراه المحسنون وهو الفوز الأكبر الذي طالما وعد سبحانه وتعالى المؤمنين به، كما ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

---

(١) تفسير الكاشف: ٨/ ٥٦٤.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ١٩٧.

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]؛ ذلك لأن ما يصل إلى القلب من السرور برضوان الله أكبر من جميع ذلك، فضلاً على أنه ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق، وأي مناسبة بينهما[١].

بل إن أعظم سرور قد يتصوره المؤمن بالله تعالى في أعظم صورة لهذا الرضا الإلهي حين يطرقه ذلك السلام منه تعالى؛ إذ قال تعالى بعد وصفه للنعيم الحسي في سورة يس بما يتممه ويكمله في نفوس عباده بقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧]، يقول السعدي (١٣٧٦هـ)[٢]: (ولهم أيضاً ﴿سَلامٌ﴾ حاصل لهم ﴿مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾، ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله تعالى ﴿قَوْلاً﴾، وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولا أن اللهّ تعالى قدَّر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك)[٣].

كما يصف الشيخ الشيرازي هذا النداء من الله تعالى بقوله: (هذا النداء الذي تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبّة الله، يجعل الروح الإنسانية تتسلّق الأفراح نشوى بالمعنويات التي لا يرقى إليها وصف ولا تعادلها أيّة نعمة أُخرى، نعم فسماع نداء المحبوب، النداء الندي بالمحبّة، المعطّر باللطف، يغمر سكّان الجنّة بالحبور. الحبور

---

(١) (يُنظَر) تفسير مجمع البيان: ٥/ ٧٦، وتفسير مفاتيح الغيب: ١٢/ ٤٦٩.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر، أبو عبد الله السعدي، أثنى عليه مجموعة من علماء عصره، وكان متواضعا حسن الخلق، من مؤلفاته: [الحق الواضح المبين في توحيد الأنبياء والمرسلين]، و[التفسير]، و[الدرة المختصرة في محاسن الإسلام]، توفي سنة١٣٧٦هـ. (يُنظر) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية: ٩/ ٣٢٨ . ٣٢٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٩٧.

الذي تعادل اللحظة منه جميع ما في الدنيا، بل ويفيض عليه...والملفت للنظر أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ سلام الله الذي ينثره على المؤمنين في الجنّة، هو سلام مستقيم بلا واسطة، سلام منه تعالى، وأي سلام ذلك الذي يمثّل رحمته الخاصّة! أي أنّه ينبعث من مقام رحيميته وجميع ألطافه وكراماته مجموعة فيه، ويا لها من نعمة عظيمة!!)[١].

وقد ورد في الحديث الشريف الإشارة الى هذا النوع من الجزاء، ومنه ما جاء في قوله ﷺ: (إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا)[٢].

لذا فقد اتصفت هذه المعيشة في جنات النعيم بالرضا التام فيها بين العباد والله تعالى، فلا يسخط عليهم أبداً، وهو جزاء معنوي تفيض به نفوس العباد وتنشرح له صدورهم، ولهذا نرى القرآن الكريم يصف تلك المعيشة الجديدة التي يعيشها الراضون عن الله بكونها عيشة راضية، وقد وردت البشارة بها في مواضعٍ عدة في الآيات الكريمة، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦، ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢١].

وغيرها من النصوص الكريمة التي ترغب فيها وتجعلها كأنها في مرأى من بصيرة المتدبر لها، لذلك ورد في العديد من الأدعية المأثورة التوسل الى الله تعالى أن ينال هذا الرضا، ومنها ما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام قوله: (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي آنس بقربك، فابتغى عنك حولاً، إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك

---

(١) تفسير الأمثل: ١٤/ ٢١٣.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢١٧٦.

وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيمته لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شئ يقطعه عنك)[1].

المقصد الثاني: السخط الإلهي على المجرمين

وفي مقابل ذلك الرضا للمؤمنين، يقابل المعاندين السخط الذي استحقوه بسوء أعمالهم، والسخط في اللغة من السُّخْطُ والسَّخَطُ: ضِدَّ الرِّضا مِثْلَ العُدْمِ والعَدَمِ، وَالْفِعْلُ مِنْهُ سَخِطَ يَسْخَطُ سَخَطاً. والسخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به[2].

ويأتي في القرآن الكريم بمعنى الغضب الشديد، يقول الراغب الأصفهاني: (والسخط: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة، قال تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، وهو من الله تعالى: إنزال العقوبة، قال تعالى: ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢])[3].

فقد اقتضت عدالة الله تعالى وحاكميته أن ينفذ ما وعد به عباده، فإن كان العبد من الراضين المرضيين، أُعطى الرضا، والمعيشة الراضية، أما إن كان من الساخطين الجاحدين فقد حرم نفسه من هذا الرضا، ولم يلق إلا السخط والغضب الذي وعد به تعالى منكريه وجاحديه.

---

(١) الصحيفة السجادية: ٤١٣.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٣١٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ١/ ٤٦٦.

وقد احتوت النصوص الكريمة على نماذج كثيرة في هذه العقوبة المعنوية، ومنها ما ورد في سورة الطور؛ إذ اشتملت إحدى الصور في بعض مظاهر العذاب، فـ(هاهم أولاء ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، ولفظة (الدَع) لفظة مصورة بجرسها لمعناها، يكاد سامعها يحس بالدفع في ظهور المكذبين، وهم يُزَخون مدفوعين؛ تناسباً مع الخوض والدفع الذي كانوا فيه، وبينما هم يُدَعون في عنفٍ وضغط، يُشار الى جهنم ويُقال لهم ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، ثم ينتقل السياق من لهجة التقرير الى لهجة التهكم والاستنكار ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، أفسحرٌ ما ترَون رأي العين كما كنتم تقولون عن الآيات وفي مقدمتها القرآن، أم قد عميتم فلا ترون ما تشهدون؟ ثم يعود السياق الى الأمر والتقرير: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾، فلا مخرج منها ولا فرار ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦])[١].

فكما أن الفَوز في ذلك اليوم هو الفوز العظيم لتنعم المحسنين برضا الله تعالى، فكذلك حذَّر تعالى مما يحل بالمسيئين من الألم النفسي المشتمل على الحسرات التي لا تنتهي، والتي نجد القرآن الكريم يحذر منها أهل الدنيا كثيرا كي لا يقعوا فيها، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٥ ـ ٥٩].

كما أشار إلى هذا السخط النبي ﷺ في قوله: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ)[٢].

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ٢٠٦.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٦٠١.

ومنه أيضاً ما ورد عن أبي ذر قوله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، قال أبو ذر: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثَ مراراً، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، مَن هم يا رسول الله؟، قال ﷺ: (الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ)[1].

حيث ورَدَ في شرح الحديث، أن هؤلاء بحرمانهم من كلامه تعالى فقد حُرِموا من رضاه تعالى، بقوله (قيل معنى (لَا يُكَلِّمُهُمُ) أى لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وباظهار الرضى بل بكلام أهل السخط والغضب وقيل المراد الاعراض عنهم)[2].

فمن الآثار الحميدة التي يتركها الإيمان بالرضا الإلهي آنذاك تحصيل الرضا في النفس، والسعي نحوه، على خلاف تلك الآثار التي يتركها السخط والإعراض، إذ نجد ارتباط كل النصوص التي تتحدث عن الرضوان المتبادل بين الله تعالى وعباده الصالحين بالجنة؛ وكأنها تشير إلى أن الرضوان جنة من جنان الله تعالى، وهي جنة لا تختص بالآخرة، بل تُعجل للمؤمنين في الدنيا لما يتحصل من آثارها في نفوسهم من التزكية والطمأنينة والأخلاق الفاضلة.

ويدلُّ على ذلك قوله ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ للهِ سَرَايَا مِنَ الْمَلائِكَةِ، تَحِلُّ وَتَقِفُ عَلَى مَجَالِسِ الذِّكْرِ فِي الأَرْضِ، فَارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ)، قالوا: أينَ رياض الجنة يا رسول الله؟، قال ﷺ: (مَجَالِسُ الذِّكْرِ، فَاغْدُوا وَرُوحُوا فِي ذِكْرِ اللهِ، وَذَكِّرُوهُ أَنْفُسَكُمْ، مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ، فَلْيَنظُرْ كَيفَ مَنْزِلَةَ اللهِ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ)[3].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٠٢.

(٢) المنهاج: ٢/ ١١٦.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٦٧١.

٣. الإكرام والإهانة

وتبعاً للرضا الإلهي يوم القيامة عن العباد، فإن من نماذج الجزاء المعنوي الذي أعدَّه تعالى للخلق، ذلك التكريم الذي يناله من رضي تعالى عنهم، ويقابله الإهانة والإذلال لمن نالوا غضبه وسخطه بما قدَّمت أيديهم، وإن الله ليس بظلَّام للعبيد، وسنتناول كِلا هذين المقصدين فيما يأتي:

المقصد الأول: إكرام المحسنين وتبجيلهم

يأتي الإكرام في اللغة من (كرُم)، والكرَم: شرف الرجل، رجلٌ كريم، وقومٌ كَرَم وكِرام، نحو أديم وأدام. والكرامة إسم للإكرام، مثل الطاعة للإطاعة، ونحوه من المصادر، ومثله الحفاوة، أي: مبالغ في الكرامة، وحفا الله به حفوا: أكرمه[(١)].

وفي القرآن الكريم: (الإكرام والتكريم: أن يوصل إلى الإنسان إكرام، أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئاً كريماً، أي: شريفاً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، أي: جعلهم كراماً، قال: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٧][(٢)].

لقد نال المحسنون من أصحاب اليمين الذين عبدوا الله حق عبادته، فتواضعوا فيها له تعالى ولعباده، فلم يظلموا ولم يتجبروا ولم يطغوا، ويدخل بضمنهم أولئك الذين ارتكبوا من الذنوب ما نالوا به عقابهم ثم دخلوا الجنة بعفو الله تعالى، أو بالشفاعة أو بانتهاء مدة عذابهم، فإنهم سيَرون في هذه الجنان جميع أوصاف التكريم والتبجيل والحفاوة مما وعدهم تعالى به، وإنما نالوا هذا الجزاء لكونهم قد نالوا رضا الله تعالى الذي يُعَد المظهر الأساس

---

(١) (يُنظَر) العين: ٤/ ٢٤، والمحكم والمحيط الأعظم: ٤/ ٢٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢/ ٢٩٣.

لجميع أنواع النعيم الحسي والمعنوي، والذي كرَّمهم به تعالى في جميع أصناف التنعم التي لم تخطر لأحد على بال، وهو ما بشرهم به في قوله سبحانه ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

يقول الخطيب الشربيني (ت٩٧٧هـ): (وزادهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿مُكْرَمُونَ﴾ معبراً باسم المفعول إشارة إلى عموم الإكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره؛ لأنه سبحانه قضى بأن يُعلي مقدارهم فيكرمهم بأنواع الكرامات، فيتلقاهم بالبشرى حين الموت وفي قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم إلى دخولهم إلى قصورهم)(١).

ومما ورد في هذا الباب من النعيم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٠ ـ ٤٢].

فالإكرام والتبجيل في تلك الدار من عظيم ما تتوق إليه نفوس المؤمنين من الجزاء المعنوي، كما أن الصَغار والذل من أعظم ما تنفر منه نفوسهم، قال الشيخ السعدي (١٣٧١هـ) في تفسيره الآية الكريمة: (لا مهانون محتقرون، بل معظمون مجلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الإكرام، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب، والأرواح، والأبدان)(٢).

كما ورد في قوله تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، التي يصف في تفسيرها الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) هؤلاء المكرمون بقوله: (الذي يذكرهم بشرافة الذات وشرافة آثار الذات من القول والفعل ويكون المعنى: إنما أكرم الله ذواتهم وحمد آثارهم لأنه يعلم أعمالهم وأقوالهم وهي ما بين أيديهم، ويعلم السبب الذي به وُجدوا، والأصل الذي عليه نشأوا،

---

(١) السراج المنير: ٤/ ٣٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧٠٢.

وهو ما خلفهم كما يقال: فلان كريم النفس حميد السيرة لأنه مرضي الأعمال من أسرة كريمة)[1].

فيظهر تبجيلهم في جميع الصور التي تجعلهم يغتبطون بهذا التكريم الإلهي حتى أنه ليكون ظاهراً في وجوههم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَبَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ(١٨) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ(١٩) كِتَبٌ مَّرْقُومٌ(٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ(٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِف فى وُجُوهِهِمْ نَضرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢٤]، حيث تتحدث عن الأبرار الصالحين وما سيؤلون إليه من تعظيم لشأنهم في حسن مآبهم، ويبدأ الحديث عنهم بقوله تعالى: ﴿كلاَّ إِنَّ كتابَ الأَبْرارِ لَفي عِلِّيينَ﴾، حيث اختلفت وتعددت الأقوال في ﴿عِليِّين﴾، منها ما ذكره الرازي بعد ذكره لأقوال أهل اللغة والتفسير فيها: (هي مراتب عالية محفوظة بالجلالة قد عظمها الله وأعلى شأنها، وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة)[2].

ويذكر الشيرازي في الأمثل تفسيره لهذا العلو، ﴿عِليِّين﴾: جمع (عليّ) على وزن (ملّي)، وهو المكان المرتفع، أو الشخص الجالس في مكان مرتفع، ويطلق أيضاً على ساكني قمم الجبال، وقد فُسِّر في الآية بـ (أشرف الجنان) أو (أعلى مكان في السماء)، وقيل: إنّما استعمل اللفظ بصيغة الجمع للتأكيد على معنى (العلو في علو)، ثم يبين ما جاء في التفاسير من معنييه بقوله:

الأوّل: أنّ المقصود من ﴿كِتَابَ الأَبْرَارِ﴾هو صحيفة أعمال الصالحين والمؤمنين، فجميع الأعمال تجمع في هذا الديوان العام، وهو ديوان عالي المقام وشريف القدر.

الثّاني: أنّ صحيفة أعمال الأبرار تكون في أشرف مكان، أو في أعلى مكان في الجنّة،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٢٧٧.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ٣١/ ٩٠.

وهذا يكشف عن علو شأنهم ورفعة كرامتهم عند الله عزّوجل[1].

كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٠]، أي (وجوه يوم القيامة ذات نعمة وبهجة ونضرة وحسن، يعرف النعيم فيها، أو متنعمة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٧]، وهي وجوه السعداء، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وقبول عملهم، فهي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، أي رضيت عملها لأنها قد أعطيت من الأجر من أرضاها.

وإن اللهَّ تعالى قد وصف أهل السعادة والثواب بوصفين:

أحدهما ـ في ظاهرهم وهو قوله: ﴿ناعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، أو متنعمة.

والثاني ـ في باطنهم وهو قوله: ﴿لِسَعْيِها راضِيَةٌ﴾.

ثم وصف دار الثواب بأوصافٍ، منها أنها ﴿فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾، ﴿لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً﴾ أي إن أصحاب الوجوه الناعمة وهم المؤمنون السعداء في جنة رفيعة المكان، بهية الوصف، آمنة الغرفات لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض.

ولا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة لغو وهذيان لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد اللهَّ تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم، ولأن الجنة منزل أحباب اللهَّ، ومنازل الصفاء لا تتعكر باللغو والكذب والبهتان، كما قال تعالى: ﴿لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً﴾ [مريم: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (٢٦) إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦][2].

الى غير ذلك من النصوص الكريمة التي زخرت بها آيات القرآن الكريم والتي تدل

---

(١) تفسير الأمثل: ٢٠/ ٣٣.

(٢) التفسير المنير للزحيلي: ٣٠/ ٣١٠.

على التكريم الذي يلاقيه أصحاب اليمين وتأثير ذلك في نفوسهم حين يرون صدق الوعد الإلهي بسعة العطاء والكرم والرحمة الإلهية، وخصوصاً حين مشاهدتهم لمظاهر الإذلال والإهانة التي يلاقيها من عصوا الله ورسله من أصحاب الشمال ليعلموا قدراً إضافياً من ذلك التكريم الذي وهبه تعالى لهم ومما أنقذهم منه صدق ويقين إيمانهم بالله تعالى، لذلك يقول فيهم تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

المقصد الثاني: إهانة المسيئين وإذلالهم

الإهانة من الهون، والهون في اللغة: الخزي، وفي التنزيل: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]، أي ذي الخزي، والهون والهوان: نقيض العز، وفي التنزيل: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي كل ذلك هين على الله(١)، وقد ذكر الراغب الأصفهاني أن الهوان على وجهين، هما:

أحدهما: تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والثاني: أن يكون من جهة متسلط مستخف به فيذم به، وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]، و﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨](٢).

فمع كل التبجيل والإكرام الذي يراه المحسنون جزاءً لصدق إيمانهم، يقابلهم ذلك العذاب النفسي الذي يعانيه المنحرفون المتجبرون الذين استعلوا على الله، وتمردوا على أحكامه، والقيم التي أمر بمراعاتها، فقد لقوا كل ما حُذِّروا منذ لحظات موتهم حتى

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم: ٤/ ٤٢٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٢/ ٤٨٥.

سلوكهم سقر، المليء بالإهانة والإذلال والانكسار.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر هذا الاذلال تحذيراً مما يؤدي إليه مصيرهم ان استمروا في الظلال والعصيان، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

فمن صور إذلالهم ما ورد في هذه الآيات الكريمة مصحوباً بالفزع والتوسل، وهو مشهد مروع تضطرب له القلوب، وتقشعر لهوله الجلود، فبينما هم في فزع هذه الغول التي تتميز من الغيظ وهي تتلقفهم بشهيقٍ وهي تفور، تسمع خزنتها وحراسها يتلقون كل فوجٍ مدفوع بسؤالٍ واحدٍ مكرور، فكلهم ذوو شأن واحد: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، والجواب في ذل الإعتراف وخجل الانكسار﴿ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ بل تبجحنا في الإنكار ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أيها الرسل، ونحنُ على هدىً مبين!

ثم تطرد موجة الاعتراف والانخذال، فإذا بهم ينفون عن أنفسهم السمع والعقل ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، فما يذهب الإنسان الى السعير إلا وقد فقد السمع الذي يستمع إلى الهدى، وفقد العقل الذي يقود الى الحق، ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٢].

ولَمَّا كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٨.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن: ٢٠٨.

دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، (أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين)[١].

كذلك ما ورد في قوله تعالى من سورة الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢، ٣]، ففي الآية الكريمة (المُراد بالوجه (الذات)، أي أصحابها، وأصحاب الوجوه وهم الكفار، تكون في ذلك اليوم ذليلة خاضعة لما هي فيه من العذاب، ونسب الخشوع والذل إلى الوجوه لأن أثره يظهر عليها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥])[٢].

ولذلك كان من أوصاف العذاب في القرآن الكريم كونه مهيناً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

كما يصف القرآن الكريم المستحقين لهذا النوع من العذاب النفسي من التصغير والتحقير، ذكرهم الدكتور نورالدين أبو لحية في اسرار ما بعد الموت[٣]، وكلها متناسبة مع الإهانات التي يتعرضون لها، ومنها التمرد على الله ورسوله ومجاوزة الحدود، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

فمنها البخل وكتمان فضل الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

ومنها الكفر بمختلف أنواعه ومظاهره، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٢٨.

(٢) التفسير المنير للزحيلي: ٣٠/ ٢٠٥.

(٣) أسرار ما بعد الموت: ٤٥٣، ٤٥٤.

يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ومنها استعمال مختلف وسائل التضليل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٣].

ومنها أذية الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ومنها التزوير وتكذيب آيات الله تعالى مع الإصرار على ذلك بالاستكبار والاستهزاء بها، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٩].

ومنها محادة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

ويذكر القرآن الكريم أن هذا النوع من الجزاء يبدأ من لحظات الاحتضار؛ حينها تخاطب الملائكة أولئك المتجبرين الطغاة المتمردين على أحكام الله، بذلك الضرب والتعنيف والإهانة، كما صور الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

وقال في مشهد آخر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦ ـ ٢٨].

لذلك يقول ﷺ في ذلك الموقف الذي يخشى التعرض له حتى عباد الله تعالى من

المؤمنين، إذ يقول ﷺ: (إِنَّ الْعَارَ لَيَلْزَمُ الْمَرْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: يَا رَبِّ، لإِرْسَالُكَ بِي إِلَى النَّارِ أَيْسَرُ عَلَيَّ مِمَّا أَلْقَى، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ مَا فِيهَا مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ)[1].

وقوله ﷺ في المتكبرين واستصغارهم في ذلك اليوم: (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ)[2].

وكما أوردنا في تبجيل المؤمنين في سورة المطففين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢٠]، فقد وردت صورتي هذا التبجيل لأصحاب اليمين والإذلال لأصحاب الشمال، فالعلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين، وفي أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين، وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم[3].

وكذلك ما ورد في التفسير المنير للزحيلي بقوله في هذه المقارنة: (بدأت السورة بمطلع مخيف، وهو وعيد المطففين بالعذاب الشديد: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، ثم أبانت أن كتاب الفجار الأشقياء في ديوان الشر، وفي كتاب مرقوم بعلامة، وأن مصيرهم أسفل السافلين في نار جهنم: ﴿كَلَّا، إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧ ـ ١٧].

وأردفت ذلك على سبيل المقارنة والعبرة والجمع بين الترغيب والترهيب ببيان أن صحائف الأبرار في أعلى عليين، وأنها في كتاب مرقوم بعلامة متميزة عن صحائف الفجار: ﴿إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢٨].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٨٧٢٠: ٤/ ٦٢٠.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١١/ ٢٦٠.

(٣) تفسير مفاتيح الغيب: ٣١/ ٩٠.

ثم ختمت السورة بوصف موقف المجرمين من المؤمنين، حيث كانوا يستهزئون ويضحكون منهم في الدنيا لإيمانهم وتقواهم ربهم، ثم انعكاس هذا الموقف في الآخرة حيث صار المؤمنون يتضاحكون من الأشقياء المجرمين ويسخرون منهم، وينظرون إليهم وهم يعذبون في النار وما يلقونه من النكال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠][١].

لذلك يذكر النبي ﷺ تلك الحسرات التي ترافق المعذبين عند إذلالهم ورؤيتهم لما أُعِد لهم من مقاعد في الجنة لو أنهم آمنوا واتقوا، بقوله ﷺ: (لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ، إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ، أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً)[٢].

وبناءً على ذلك يتوجه المؤمنون بالتوسل الى الله تعالى كي يقيهم هذا الخزي يوم القيامة، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٢ ـ ١٩٤].

وكذلك فقد ورد في كلمات الأئمة عليهم السلام التوسل إليه تعالى في أن يقيهم هذا الذل والخزي يوم القيامة، ومنها ما ورد في مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في المناجاة الشعبانية: (إلهي قد سترت علي ذنوباً في الدنيا وأنا أحوج إلى سترها علي منك في الاخرى، إلهي قد أحسنت إلي إذ لم تظهرها لاحد من عبادك الصالحين، فلا تفضحني يوم القيامة على رؤس الاشهاد، إلهي جودك بسط أملي وعفوك أفضل من عملي، إلهي فسرني بلقائك يوم

---

(١) (يُنظَر) التفسير المنير للزحيلي: ٣٠/ ١١٠.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٢.

تقضي فيه بين عبادك،، إلهي اعتذاري إليك اعتذار من لم يستغن عن قبول عذره، فاقبل عذري يا أكرم من اعتذر إليه المسيؤون)[1].

٤. السعادة والحزن

بناءً على كثرة مظاهر وأنواع الجزاء المعنوي يوم القيامة والذي يقابل السعادة التي يهنأ بها المحسنون، والشقاء الذي يتعذب به المسيؤون، فسنختم هذا الفصل في مظاهر السعادة والفرح وما يقابلها من الحزن والندم لكونهما من أهم الصور التي ترافق النعيم والعذاب المعنويين، والتي يجازي تعالى بها عباده المحسنين والمسيئين، وهي التي تصاحب الجزاء الحسي من النعيم والعذاب أيضاً لكن تفوقه بالأهمية لكونها تتعلق بالقلوب لا بالظاهر من الجزاء فحسب.

المقصد الأول: سعادة المؤمنين وفرحهم في نعيم الجنة

السعادة لغةً: خلاف الشقاوة، وسعد يسعد سعدا وسعادة، فهو سعيد: نقيض شقي، وإذا قيل أسعد الله العبد وسعده فمعناه وفقه الله لما يرضيه عنه فيسعد بذلك سعادة[2].

والسعادة: معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير، ويضاده الشقاوة، يقال: سعد وأسعده الله، ورجل سعيد، وقوم سعداء، وأعظم السعادات الجنة، فلذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥][3].

فمن المقاصد المعنوية والتي يريدها تعالى لعباده من ذكره للنصوص الكريمة التي تصف نعيم الجنة تلك السعادة المتمثلة بالفرح والسرور الذي يختلج قلوب العباد من أهل

(١) بحار الأنوار، جزء من مناجاة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ٩١/ ٩٧.

(٢) (يُنظَر) لسان العرب: ٣/ ٢١٣، ٢١٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ١/ ٤٧٧.

الجنة والذي لا حزن بعده، وقد توالت ببشارتهم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، في هؤلاء المؤمنين الصادقين بما عاهدوا فيه إيمانهم، الصابرين في البأساء والضراء، ليجازيهم الله تعالى بأن يملأ قلوبهم بكل أنواع السرور والفرح والسعادة التي لا تُنغَص ولا تُكدَر بأي كدر، ذلك الفرح الذي ينسيهم كل همومهم وآلامهم التي عانوها سواءٌ في حياتهم الدنيا أم في المواقف التي سبقت دخولهم الجنة لأجل تطهيرهم من بقايا أدران الذنوب.

وهؤلاء من الذين يخاطبهم تعالى بقوله: ﴿يَا عِبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وفيه من المعاني التي تدل على هذا الفرح الذي يلاقيه عباد الله تعالى، يقول الرازي: (فقوله ﴿يَا عِبادِ﴾ كلام الله تعالى، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح:

أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة.

ثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم، بدليل أنه لما أراد أن يشرِّف محمداً ﷺ ليلة المعراج، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الاسراء: ١].

ثالثها: قوله تعالى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية، وهذا من أعظم النعم.

و**رابعها**: قوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية..

ليكتب تعالى لهم الجنة فيسعدوا فيها بلا حزن ولا مكدرات، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، والحبرة المبالغة في الإكرام فيما وصف بالجميل، يعني يكرمون إكراماً على سبيل المبالغة[1].

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (أي يقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم، أي

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٦٤٢.

نظراؤكم، تحبرون أي تتنعمون وتسعدون)[1]، كما قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

كما ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: (لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْشَةٌ فِي الْمَوْتِ وَلَا فِي النُّشُورِ وَكَأَنِّي بِهِمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ، وَهُمْ يَنْفُضُونَ شُعُورَهُمْ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُونَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾)[2].

كما وصف تعالى هذا النعيم الذي خصهم به، فقال: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره للآية الكريمة: (وهذا من باب التجانس البليغ ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾، أي آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أي في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ أي في قلوبهم، وهذه كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]؛ وذلك أن القلب إذا سُر استنار الوجه.

ثم يستدل بقول كعب بن مالك في حديثه حين تخلف عن تبوك قال: فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، وما رُوي عن عائشة من أن رسول الله ﷺ دخل عليها مسروراً تبرق أسارير وجهه[3].

كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]؛ حيث يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في

---

(١) تفسير ابن كثير: ٧/ ٢١٩.

(٢) البعث والنشور للبيهقي: ٩٢/ ٨٢، وشعب الإيمان: ١/ ١١٠.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٠٥، و٣/ ١٢٠٤.

روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم[1]، إذ تتعرض هذه الآية الكريمة إلى جانب من مثوبة المؤمنين العظيمة، وقبل كلّ شيء تشير إلى مسألة الطمأنينة وراحة البال، فـ (شُغُل) على وزن سُرُر، و (شُغْل) ـ على وزن لُطْف، وكليهما بمعنى العارض الذي يذهل الإنسان ويصرفه عن سواه، سواء كان ممّا يبعث على المسرّة أو الحزن، ولكن لإلحاقه كلمة ﴿فاكِهُونَ﴾ التي هي جمع (فاكه) وهو المسرور الفرح الضاحك، مما نخلص فيه من الآية الكريمة أنّ المعنى إشارة إلى الإنسان الفرِح المشغول بنفسه، والمنصرف تماماً عن التفكير في أي قلق أو ترقّب، والغارق في السرور والسعادة والنشاط بشكل لا يترك أي مجال للغمّ والحسرة أن تعكّر عليه صفوه، وحتّى أنّه ينسى تماماً هول قيام القيامة، والحضور في محكمة العدل الإلهية، تلك المواقف التي لولا نسيانها فإنّها حتماً ستلقي بظلالها الثقيلة من الغمّ والقلق على القلب، وبناءً على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبة على إنشغال الذهن بالنعمة هو نسيان أهوال المحشر[2].

كما ذكر القرآن الكريم أن هذا الفرح الذي يجازي الله به المؤمنين الصادقين، تبدأ علاماته بعد الموت مباشرة، ليقيهم من أهوال البرزخ والمحشر والقيامة، ويظل مصاحباً لهم في كل المواقف حتى دخولهم الجنة واستقرارهم فيها، كما قال تعالى عن الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ـ ١٧٠].

وكما في القرآن الكريم، فقد وردت البشارة بهذا النعيم المعنوي الذي يصاحب نفوس

---

(١) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٩٦، و٦/ ٥١٨.

(٢) (يُنظر) تفسير الأمثل: ١٤/ ٢١٠، ٢١١.

أهل الجنة وقلوبهم في الحديث الشريف، حيث رُويَ عن عبد الله بن عمر قوله ﷺ: (إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ)(١).

ومنها ما ورد في فرح أعلاهم منزلة وسعادتهم بعطاء الله تعالى لهم، وهم المتحابين في الله تعالى من غير أرحام بينهم، في قوله ﷺ: (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ، قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ)، وقرأ هذه الآية (﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢])(٢).

وكذلك ما ورد عنه ﷺ في فرح أدناهم منزلة، وما أعدَّه تعالى لأعلاهم قوله ﷺ: (سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)، قَالَ ﷺ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧])(٣).

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٧، وصحيح مسلم: ٤/ ٢١٨٩.

(٢) سنن أبي داود: ٣/ ٣١١.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١٧٦.

ولجميل ما قاله الحطيئه في ديوانه في تقوى الله تعالى والسعادة التي تقترن بها[1]:

وَلَســتُ أَرى السَــعادَةَ جَمعَ مالٍ ... وَلَـكِـنَّ الـتَـقـيَّ هُـوَ السَــعيـدُ

وَتَـقـوى اللهِ خَـيرُ الـزادِ ذُخـراً ... وَعِـنـدَ اللهِ لِـلأَتـقـى مَـزيـدُ

المقصد الثاني: حزن العصاة وندمهم وشقائهم في جهنم

الحزن نقيض الفرح، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] قالوا فيه: الحزن: هم الغداء والعشاء، وقيل: هو كل ما يحزن من حزن معاش أو حزن عذاب أو حزن موت، فقد أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان)[2].

كما يأتي معنى الحزن: خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم، ويضاده الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خشنت بصدره: إذا حزنته، يقال حزن يحزن، وحزنته وأحزنته قال عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢].

ومثله الندم والندامة، وهو التحسر من تغير رأي في أمر فائت، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وأصله من منادمة الحزن له[3].

ومثله الشقاء، وغيرها من الآلام النفسية التي تندرج تحت شقاء الكافرين يوم القيامة، والشقاوة: خلاف السعادة، وقد شقي يشقى شقوة، وشقاوة، وشقاء، فكما أن السعادة في الأصل ضربان: سعادة أخروية، وسعادة دنيوية، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية وبدنية وخارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب، وهي الشقاوة الأخروية

---

(١) الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني: ٢/ ١٦٨.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم: ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥، بتصرف يسير.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ١/ ٥٤٧.

والدنيوية، قال عز وجل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣][(١)].

يتذوق المسيؤون والمجرمون في كل لحظة تمر عليهم من الآلام النفسية والغصص والندم والاكتئاب ما يتناسب مع ذلك العتو والبطر والكبرياء التي كانوا يعيشونها في الدنيا، كما قال تعالى عن ذلك الذي ينال صحيفته بشماله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩].

ذلك أن هؤلاء قد أوتوا كتبهم بشمالهم، فتملكتهم الحسرة والندم من هذه اللحظات وترافقهم وهم يُعذَّبون في نار الجحيم، فيصور تعالى موقفهم هذا، وذكره السيد قطب في مشاهد القيامة بقوله: (أدركته الحسرة، وركبته الندامة، فنسمعه يتوجع توجعاً طويلاً، وقد ثبُت المشهد كأنه لا يتحرك ﴿يالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.

لقد طال استعراضه ليتحقق التأثر الوجداني بتأوه الندم وتفجع الحسرة، فإن تم هذا الغرض يستمع في رهبة، ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]، فهنا كل شيء مفصَّلاً مطول، فمن الجمال الفني، ومن التأثر الوجداني، ومن الغرض الديني ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة)[(٢)].

ومثل ذلك الشقاء في الغم والحزن ما ورد من الندم والحسرة في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

وهكذا يذكر القرآن الكريم مشاهد كثيرة عن تلك الحسرات ومشاعر الندم التي يعبر

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ١/ ٢٢٩، ١/ ٥٤٧، ٢/ ٤١٤.

(٢) (يُنظَر) مشاهد القيامة في القرآن: ٢١٥، ٢١٦.

بها المسيؤون عن سوء المصير الذي اختاروه لأنفسهم، وذلك عند تذكرهم لكل موقف من مواقف السوء، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وكذلك ما ورد في الحديث الشريف من الندم والحسرة يومئذٍ لأهل النار حين يرون أمرهم قد قُضي، وليس من عودة لما كانوا عليه، لما رُويَ من قوله ﷺ: (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ (وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩](١).

وكذلك ما رُويَ من قوله ﷺ: (كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً) قَالَ ﷺ: (وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي، قَالَ: فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا)(٢).

وقد جاء في هذا الحزن الدائم والتحذير منه في قول الإمام علي عليه السلام: (فمن يبتغ غير الإسلام ديناً، تتحقق شقوته، وتنقسم عروته، وتعظم كبوته(٣)، ويكون مآبه الى الحزن الطويل والعذاب الوبيل)(٤).

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٧٦٠، وبلفظ مقارب في صحيح مسلم: ٤/ ٢١٨٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٥١٢.

(٣) كبوته: سقطته. نهج البلاغة: الخطبة ١٦١: ٢/ ٢٠٨، هامش (٢).

(٤) نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٨.

وتكون مراتبهم في هذا الحزن والعذاب بحسب جرائمهم؛ أما أولئك الذين أذاقوا المستضعفين كل ألوان الآلام، فتسببوا في قتلهم وتشريدهم وإيذائهم، فإن كل تلك الغصص التي أصابوهم بها تتحول إليهم أضعافاً مضاعفة.

لذلك فقد كان دأب الصالحين من عباد الله تعالى التعوذ مما ورد من الحزن والحسرة يوم القيامة، ومنها ما ورد في مناجاة الإمام السجاد عليه السلام والذي نستأنسُ به أن يكون خاتمة مباحثنا بالتوجه بكلماته الى الله تعالى في دعائه بقوله: (اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والانين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك، يا من قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً من عصيانك، وامنن بالنظر إليك علي وانظر بعين الود والعطف إلي، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهل الاسعاد والحظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين)[1].

---

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة المحبين: ٤١٣.

خلاصة الفصل الثالث

وبعد هذه الرحلة المقاصدية للجزاء الاخروي من النعيم والعذاب وصورهما من المصادر النقلية الصحيحة، وما يتوافق معها مما يذهب إليه العقل البشري في إثبات قدرة الله تعالى على كل شيء، من جزاء أو عقابٍ، نخلص من هذا الفصل بأمور عدة، منها:

١ـ اقتضت إرادة الله تعالى وعدالته أن يبين للناس كافة ما في هذا التصنيف للعباد ومنازلهم من حكم ومعاني كبرى في إثبات الذات الإلهية بصفاتها وأسمائها الحسنى، فضلاً عن مقاصد العباد في الاتعاظ والتذكير، ليتجسد من ذلك أن في الاعتقاد بعالم ما بعد الموت وبقاء أثر أعمال الإنسان حتى يُجازى عليه بالسعادة أو الشقاء يمكنه أن يكون عامل وقاية متين إزاء الذنوب والمعاصي، كما يمكنه أن يكون عاملاً مهماً للحركة وللحث على الاستثمار الصحيح لما أودعه تعالى لدى الإنسان في سبيل خدمة الخلق بالحق.

٢ـ إن التمعن بمقاصد الرحمة او العدالة الإلهية التي نستنبطها من مراتب الجزاء المتعلقة بالسابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال يجعلنا نلتمس ذلك الاتقان الإلهي في هذا التصنيف والتدرج في الحساب بالحق والعدل الذي أمدَّهم تعالى به منذ لحظات احتضارهم حتى مستقرهم الأخير في الجنة أو النار.

٣ـ كثرة الصور الواردة في النصوص الكريمة من مظاهر النعيم والعذاب الحسي والمعنوي والتي وردت في العديد من المرات متتابعة غير منفصلة عن بعضها، وما يرافقها من مظاهر السعادة والشقاء، وغيرها من صفات الجنان العظيمة التي أعدها تعالى لمن اتقاه، أو ما ورد من المزج بين مظاهر النعيم والعذاب، أو الجزاء الحسي مع المعنوي؛ فإنما يُلاحظ اكتمال الصور التي تُرَغب بها أعدَّه تعالى للمحسنين، وتحذرهم مما أعدَّه تعالى للمسيئين.

كما إن سمات هذه الصور جميعاً تشترك بسمةٍ شاملة وهي أنها مشاهد حية، منتزعة من عالم الأحياء، استعملها تعالى كي تكون أقرب لما يستوعبه العقل الإنساني مع أن حقيقتها لم

تخطر لبشرٍ.

٤ـ تندرج المقاصد والعبر المرتبطة بالجزاء الحسي والمعنوي بعد معرفتها تحت المقاصد الوجدانية بالدرجة الأساس؛ ذلك إن الإيمان بها ينير القلب ويزهد في الحياة الدنيا، ويملأ النفس المؤمنة ترغيباً فيما أعدَّه تعالى لعباده، ليكون ذلك سبباً في تحصين ظاهر سلوكه وباطنه عن الانحراف والانقياد للأهواء الزائفة، ليرتقي لأعلى المراتب المقاصدية السلوكية المتضمنة لصالح أعمال القلوب والجوارح.

٥ـ على عكس ما في عذاب النار، فإن نعيم الجنةَ يخلو من جميع مكدرات الحياة الدنيا، فليس في الجنة أيٌّ من معاني البغض والحسد والحقد والصفات الذميمة، وهي مفعمة بالسعادة والحب والطهر، فضلاً عن ذلك، فإن هذا النقاء والسعادة ليس له من نهاية أو زوال بل هي دائمة وخالدةً خلودهم في الجنان.

لذلك فالجنة هي دار الراحة العظمى التي ينالها المحسنون والتي لا تشابه الراحة في الدنيا مهما كانت درجتها ونعيمها، والتي يُلهم سُكانها التسبيح والتحميد والتهليل لله تعالى على ما رزقهم من الفضل العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

الخاتمة

اللهم... لك الحمد منا، والمَن والفضل أن جعلتنا من الناظرين في كتابك النازل من عندك بالحق، ولك الحمد والمن والفضل في أن جعلتنا من الباحثين بسنة نبيك ﷺ الناطق بالصدق، اللهم ألهمنا حمدك وشكرك كما ألهمتنا الانفاس والنطق.

وبعد... فإننا من خلال هذه الرحلة في كتابنا نخرج بحمد الله تعالى على نتائج عدة، منها:

١ـ تتجلى كبرى المقاصد والعِبر المرتبطة بمسائل اليوم الآخر مما يتفق وحاكمية الله تعالى وربوبيته وعظيم قدرته، فضلاً عن مقاصد الجزاء التي ترتبط بالعدالة والرحمة والحكمة الإلهية والقيومية.

وتؤثر مقاصد هذا الإيمان على معارف ونفسيات العباد، فضلاً عن سلوكاتهم كافة، مما يُسهم في رُقي الحياة البشرية، ولو لم تكن هناك من حياةٍ بعد الموت، ومصيرٍ الى جنةٍ أو نار، ونعيمٍ أو عذاب لكانت الحياة في هذا العالم جوفاء وتافهة لا قيمةَ لها، أما مع الايمان بوجودها والتصديق بذلك فإنه يمنح الحياة الهدفية والغائية لها، فضلاً عن إخراجها من العبثية التي اجتاحت قلوب ونفسيات المنكرين لها.

٢ـ ترتبط جميع المقاصد المتعلقة بمباحث المعاد بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا وأفعاله في خلقه؛ فجميعها ترتبط بربوبية الله تعالى وكونه رباً للعالمين، كما ترتبط بقدرته ووحدانيته وانفراده بالأمر والتقدير والتدبير، ومثل ذلك ارتباطها بعدالته تعالى ورحمته ورأفته بعباده.

٣ـ من المقاصد والعِبَر المرتبطة بالبرزخ، تأهيل النفوس الى العالم الآخر، من خلال عرض بعض مشاهده على العباد، فالمؤمنون يلاقون بعض النعيم المُعَد لهم في الجنة تمهيداً لجزائهم في دار الخلود، ومثل ذلك المنحرفين الذين يعاينون بعض العذاب المُعَد لهم في

الآخرة، كون هذه المرحلة تُعَد مرحلة تربوية تتهذب فيها نفوسهم لأجل تطييبهم من تبِعات ذنوبهم، فقد يكتفي بما يلاقوه في هذه المرحلة من العذاب أو تتعداه لما بعده من المواقف حتى يكونوا أهلاً لدخول الجنة.

٤ـ من المقاصد المرتبطة بالنفخ في الصور إحياء جميع الموتى وبعثهم وإحضارهم للمحشر بالإضافة لكون هذا النفخ له دور تكويني يجعل الأحياء المبعوثين مؤهلين بأجسامهم وقواهم للنشأة الثانية، بخلاف ما كان عليه حالهم في النشأة الأولى.

٥ـ يتوافق المعاد الجسماني والروحاني مع القدرة الإلهية وحقيقة الروح، فضلاً عن توافقه مع الرحمة الإلهية والحقيقة الإنسانية؛ لأن مبادئ الجزاء الإلهي الذي وعد تعالى به عباده أن يرَوه بكافة جوارحهم بما يتناسب مع عظيم رحمته تعالى، فضلاً عن توافقه مع الحقائق العلمية المعاصرة من خلال ما ثُبُت نتيجة الأبحاث العلمية الحديثة لما بعد تحليل رميم الإنسان وُجِد أنه مشابه تماماً لتراب الأرض في شكله وتركيبه الكيميائي، لما يجعل تصور هذا المعاد ممكناً عقلاً ولا سبيل لإنكاره بسبب استحالته.

٦ ـ تتجلى في الموقف وحشر المخلوقات جميعاً مالكية الله تعالى وقدرته، وقاهريته على عباده؛ فمع كونه تعالى مالكاً وملكاً في جميع الأوقات، وعلى جميع الأكوان، إلا إن ذلك يتجلى واضحاً حين ينقاد جميع الخلائق تحت رحمته تعالى وإرادته ومشيئته، ويصاحبه عظيم قدرته لما يحدث من تغييرات في مظاهر السموات والأرض، وبصورة تتناسب مع الغاية التكاملية التي يسير بها الكون جميعاً.

٧ ـ من المقاصد والعبر في نشر الصحف والحساب، مقصد إقامة الحجة على العباد بإعطائهم صحف أعمالهم قبل المحاسبة، فإذا جمعهم تعالى في الموقف، وأذِن بفصل القضاء فيهم، أعطاهم الله كتبهم ليقفوا على ما فيها، ويتذكروا ما قدموه في حياتهم من خير أو شَر، فضلاً عن تميز المؤمنين عن الكافرين وإفتراقهم عنهم، ومقصد إكرام الباري تعالى لمن

يُعفَون عن الحساب وأهواله، ومقاصد عدالته تعالى فيمن يُحاسبون.

٨ـ مع كون الله تعالى شهيداً على كل شيء، إلا أنه ذلك اليوم يكون أول الشهداء على الأعمال؛ ولا سيَّما لمن ينكرون عصيانهم، فكان تعالى أول الشهود عليهم، إذ يكتفي بعظم هذه الشهادة المؤمنون الصالحون، ثم الأنبياء والرسل عليهم السلام على أممهم، وشهادة كاتبي الأعمال من الملائكة، وشهادة البشر جميعاً، والجوارح، وكذلك شهادة الأرض والكائنات.

٩ـ من المقاصد المرتبطة بموازين القيامة، تجلي دقة العدالة الإلهية، لدورها في بيان حقائق الأعمال ومنزلتها، سواء بكونه ميزاناً حقيقياً، أو بأن الميزان هو العدل والتسوية، فضلاً عن بيان حقيقة العامل ومنزلته.

١٠ـ تتجلى في نصب الصراط مقاصد وعبر في تجسيد الاستقامة وبيان دقتها، ذلك أن الصراط لا يتوقف على الجسر الممدود على متن جهنم، بل إنَّ له تأثيراً كبيراً في استقامة الخَلق على الطريق الحَق الذي يرتضيه الله تعالى لعباده في الدنيا قبل الآخرة، فضلاً عن التفريق بين مراتب العباد كافة، والإكرام الإلهي للمستقيمين في الدنيا وبيان أنوارهم عليه، وتبيين فضلهم أمام العباد.

١١ـ تتفق الشفاعة في ذلك الموقف مع العدالة الإلهية، وذلك بوجود عدة شروط تتعلق بالشافع والمشفوع له كي تكون مقبولة منجيةً من العذاب، متوافقة مع عدالة الله تعالى في خَلقِه، فضلاً عن التكريم الإلهي للشافعين، في اذنه تعالى لهم بالشفاعة وعلو شأنهم، ورضاه عنهم وعن المشفوع له، وكذلك تتجلى الرحمة الإلهية لأصحاب الذنوب من الموحدين، حيث ان الشفاعة سبباً تحصل لهم به المغفرة لذنوبهم ودخولهم الجنة.

١٢ـ تكريم الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وتبيين مكانته في جميع أحداث ذلك الموقف، ومن أبرزها ري المؤمنين من حوضه صلى الله عليه وآله، وتكريم الله تعالى للمحافظين على الدين، ذلك أن الشُرب من الحوض الذي لا ظمأ بعده من بشارات المؤمنين الصالحين المحافظين على دينهم

غير المبدلين، وكذلك مقصد إذلال المغيرين والمبدلين له.

١٣ـ من كبرى المقاصد والعِبر المرتبطة بجزاء السابقين المقربين، ومنهم الأنبياء عليهم السلام ذلك التكريم الإلهي لهم وتشريفهم على العباد، وذلك لقربهم منه تعالى في الحياة الدنيا؛ ولما فيهم من الاستعدادات والقابليات المبنية على المجاهدات، ففي الآخرة يكونون أولى بهذا القرب والتشريف، فضلاً عن صدق الوعد الذي بشرهم ووعدهم تعالى به.

كذلك مقصد العدالة الإلهية في اختباره للأنبياء والرسل، مع تعرضهم لما يتعرض له جميع الناس من الابتلاءات والاختبارات وبيان مدى قوة ايمانهم ونشرهم لما وُكِلوا فيه من أسباب الهداية الى الدين الحق، وكذلك تتحقق هذه المقاصد في بقية أصناف المقربين من الشهداء والصديقين والصالحين، فضلاً عن مقاصد الترغيب في الصفات الحسنى لهم ولمن سار وتبعهم على نهجهم من أجل الاتصاف بها والوصول بتطبيقها الى مرحلة العبادة الحقة.

١٤ـ من المقاصد المرتبطة بجزاء أصحاب اليمين ونعيمهم، مقصد الرحمة الإلهية، فبرغم إن أعمالهم لم تصل بهم الى مرتبة المقربين ومنزلتهم العالية عند الله تعالى، إلا إنهم بالوقت ذاته ابتعدوا عن الصفات التي تنهدهم بها العقيدة الحقة، إذ لم تصل ذنوبهم الى الكفر بالله تعالى، فأهلَّهم ذلك لدخول الجنة برحمة الله تعالى، فضلاً عن مقصد التربية والحكمة الإلهية فيهم، حيث يبدأ تطهيرهم من ذنوبهم من لحظات الموت نفسها؛ كي يكونوا أهلاً للجنة بتطييبهم من أدران المعاصي والتقصير الذي وقعوا فيه.

١٥ـ من أهم وأبرز المقاصد والعِبَر من الإيمان بعذاب أصحاب الشمال انقاذ الناس من الضلالة؛ لكونها السبب الأول المؤدي لغضب الله تعالى، عن طريق الإنذار والتحذير مما وقعوا فيه، فضلاً عن التحذير من الأفعال التي تقودهم لنيل هذا العذاب.

كذلك مقصد العدالة الإلهية متوافق تماماً مع خلودهم هذا في جهنم؛ وذلك لتحملهم الأوزار المتعدية للذين أضلوهم، أو أجرموا في حقهم، فضلاً عن الملكات التي عجنت بها

نفوسهم، والتي قد لا يطيقون الانفكاك عنها مع طول العذاب، وتبعاً لهذا المقصد فإنهم إن كانوا من العصاة الموحدين فإنهم لم يخرجوا عن ربقة الايمان بالله تعالى فيُعَذَبوا حتى يتطهروا من ذنوبهم ليخرجوا من العذاب الى الجنان، أما بعفو الله تعالى عنهم، أو بانتهاء مدة عذابهم، أو بالشفاعة لهم من الشافعين، وهو جميعاً برحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته.

١٦ـ من المقاصد المرتبطة بالجزاء الحسي في نعيم الجنة أو عذاب النار توافقهما التام مع ما وعد به تعالى على لسان رسله عليهم السلام في النصوص الكريمة، فضلاً عن توافقه مع القدرة الإلهية والكرم الإلهي في صور المظاهر الحقيقية لهذا النعيم، فضلاً عن توافق مقاصده مع ما يذهب إليه العقل الانساني؛ إذ تتحقق سعادة الأبدان في إدراك المحسوسات، وكذلك العذاب لا يشعر بحقيقته ما لم يكن مُشاهداً محسوساً.

١٧ـ كذلك الحال في المقاصد والعِبَر المرتبطة بالجزاء المعنوي من النعيم والعذاب، فمع عظمة ما أعدَّه تعالى للمؤمنين في صور هذه الرحمة والتكريم من الجزاء الحسي وما أعده من عذاب أليم للعصاة والكافرين، فإن الجزاء لا يقتصر على ذلك، بل إنه يتعداه لما يتشكل في نفسيات العباد مما تأثرت به من نعيم وعذاب.

وتندرج أغلب مقاصد الجزاء المعنوي تحت المقاصد الوجدانية، ذلك أن الايمان بها ينير القلب ويزهد في الحياة الدينا، ولكل صنفٍ منها مقاصده الخاصة سواء بالطمأنينة وتزكية النفوس والفرح والإكرام وجميع مظاهر السعادة، أو بشتى أنواع الآلام النفسية من الحسرة والندم والسخط والإهانة وجميع مضاهر الشقاء.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما كثيراً....



المصادر والمراجع

من أهم المصادر والمراجع التي وفقنا تعالى لاقتنائها لتعيننا في إعداد هذا الكتاب بعد مرجِعنا الأول والأساس القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفات، رأينا تقسيمها الى أصنافٍ ثلاثة، هي:

أولاً: الكتب والمؤلفات

١. **الإبانة في أصول الديانة** ـ علي بن اسماعيل الاشعري (ت٢٤٠هـ)، تحقيق وتعليق: فوقية حسين محمود، دار الأنصار، الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢. **ابن سينا ومذهبه في النفس**، فتح الله خليفة ـ بيروت: ١٩٧٤.

٣. **اثبات عذاب القبر** ـ احمد بن الحسين بن علي بن موسى. ابو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق: شرف محمود القضاة، دار الفرقان ـ عمان، الاردن، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ.

٤. **الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة** ـ العلامة شهاب الدين أحمد بن ادريس القرافي (ت ٦٤٨هـ)، تقديم وتحقيق وتعليق: د. بكر زكي عوض، سلسلة مقارنة أديان، حدائق القبة ـ القاهرة، الطبعة٢: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥. **الأحاديث الطوال** ـ سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة الزهراء ـ الموصل، الطبعة الثانية: ١٤٠٤ ـ ١٩٨٣.

٦. **الاحتجاج** ـ أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تعليقات وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، مركز الأبحاث العقائدي.

٧. **أحكام أهل الذمة** ـ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: يوسف أحمد البكري ـ شاكر توفيق العاروري، رمادى للنشر ـ دار ابن حزم، الدمام ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٨. **أحوال البرزخ والآخرة** ـ زين الدين الإحسائي، جمع وإعداد وتعليق: صالح أحمد الدباب، دار المحجة البيضاء ـ مؤسسة شمس هجر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م.

٩. **إحياء علوم الدين** ـ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان (د ط).

١٠. **الأخلاق في القرآن** ـ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ومجموعة من الفضلاء، مطبعة أمير المؤمنين عليه السلام قم، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ.

١١. **أربعون حديثاً من الصحاح العوالي** ـ أبو البركات إسماعيل بن أبي سعد النيسابوري (ت٥٤١هـ)، تخريج الأحاديث والتعليق: مفلح بن سليمان الرشيدي، وبدر الدين بن فواز المطرفي، دار الخضيري للنشر والتوزيع ـ المدينة المنورة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.

١٢. **الأربعين في أصول الدين** ـ محمد بن عمر بن الحسين، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تقديم وتحقيق وتعليق: د. أحمد حجازي السقا، مطبعة دار التضامن ـ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ.

١٣. **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري** ـ أحمد بن محمد بن أبى بكر شهاب الدين القسطلاني (ت٩٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية ـ مصر، الطبعة السابعة: ١٣٢٣ هـ.

١٤. **ارشاد الطالبين** ـ المقداد بن عبد الله بن محمد السيوري الأسدي، (أصل الكتاب تعليق السيوري على كتاب نهج المسترشدين لأبي منصور بن المطهر الحلي)، مطبعة ملك الكتاب: ١٣٠٣هـ.

١٥. **ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم** ـ أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، دار احياء التراث ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٩٩٩م.

١٦. **الإرشاد الى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد** ـ إمام الحرمين الجويني (ت٤٧٨هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم: د. محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحمد، مطبعة السعاد، ومكتبة الخانجي ـ مصر، ١٣٦٩هـ: ١٩٥٠م.

١٧. **أساس البلاغة** ـ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.

١٨. **الاستذكار** ـ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٩. **الاستنساخ جريمة العصر** ـ محمد نبيل النشواتي، دار العلم، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى:. ٢٠٠٥م.

٢٠. **أسرار الأقدار** ـ د. نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

٢١. **أسرار ما بعد الموت بين الدين والعقل** ـ د. نور الدين أبو لحية، مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ.

٢٢. **الأسماء والصفات** أبو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق وتخريج الأحاديث: عبد الله بن محمد الحاشدي، تقديم: الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة السوادي، جدة ـ السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٣. **أصول الدين الإسلامي** ـ د. رشدي محمد عليان، و د. قحطان عبد الرحمن الدوري، دار الإمام الأعظم، بغداد ـ العراق، الطبعة الثانية: ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٢٤. **أصول الدين** ـ الشيخ جمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد الغزنوي الحنفي (ت٥٩٣هـ)، المحقق: الدكتور عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٥. **اصول العقائد في الإسلام** ـ السيد مجتبى الموسوي اللاري، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، مطبعة الهادي ـ قم، الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٦. **الأضحوية في المعاد** ـ ابن سينا (ت٤٢٨هـ)، تحقيق: حسن عاصي أنصار، الناشر شمس التبريزي،١٩٨٣م.

٢٧. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** ـ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٨. **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين** ـ (حاشية إعانة الطالبين) ـ أبو بكر (المشهور بالبكري) بن محمد شطا الدمياطي (ت بعد ١٣٠٢هـ)، (وهو حاشية على حل الفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٩. **الاعتقادات في دين الامامية** ـ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تحقيق: عصام عبد السيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣.

٣٠. **الأعلام** ـ خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم

للملايين، الطبعة الخامسة عشر: ٢٠٠٢م.
٣١. **أعيان الشيعة** ـ السيد محسن الأمين العاملي (ت١٣٧١هـ)، تحقيق واخراج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م
٣٢. **الأغاني** ـ أبو الفرج الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: سمير جانب، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية.
٣٣. **الاقتصاد في الاعتقاد** ـ الإمام محمد أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، شرح وتحقيق وتعليق: د. إنصاف رمضان، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.
٣٤. **الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد** ـ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٦ـ ١٩٨٦م.
٣٥. **أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد** ـ الشيخ سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران: ١٤٠٣هـ.
٣٦. **أقسام العلوم العقلية لابن سينا** ـ ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، مطبعة هندية ـ مصر: ١٩٠٨م.
٣٧. **اكذوبة عذاب القبر والثعبان الأقرع** ـ د. أحمد صبحي منصور، القاهرة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م (د. ط).
٣٨. **اكمال المعلم بفوائد مسلم** ـ عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (ت٥٤٤هـ)، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ مصر، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
٣٩. **أكوان الله** ـ د. نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٣٧.
٤٠. **الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل** ـ الشيخ جعفر السبحاني، بقلم: الشيخ حسن محمّد مكي العاملي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، الطبعة الثالثة (د. ت).
٤١. **أمالي الصدوق** ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، قدَّم له: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
٤٢. **الأمثل في تفسير كتاب الله المُنَزَل** ـ ناصر مكارم الشيرازي، مطبعة سليمان زادة ـ قم، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
٤٣. **إنباه الرواة على أنباه النحاة** ـ أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٢م.
٤٤. **الإنصاف** ـ القاضي ابو بكر بن الطيب الباقلاني البصري (ت٤٠٣هـ)، تحقيق وتعليق: الامام محمد زاهد بن الحسن الكوثري ـ المكتبة الأزهرية للتراث، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.
٤٥. **أوائل المقالات في المذاهب والمختارات** ـ الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت٤٣١هـ)، تحقيق: السيد ابراهيم الانصاري الزنجاني، دار الكتاب الإسلامي، بيروت ـ لبنان: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٤٦. **أوهام وحقائق** ـ د. نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ.
٤٧. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير** ـ أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة.

٤٨. **الايمان اركانه، حقيقته، نواقضه** ـ محمد نعيم ياسين، دار عمر بن الخطاب ـ الاسكندرية، (د. ط).

٤٩. **الايمان بعوالم الآخرة ومواقفها** ـ عبد الله سراج الدين، مطبعة الأصيل، حلب، الطبعة١: ١٤٠٤هـ.

٥٠. **بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الأطهار** ـ العلامة محمد باقر المجلسي (ت١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٥١. **البحر الزخار مسند البزار** ـ أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت٢٩٢هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.

٥٢. **البراهين القاطعة في تجريد العقائد الساطعة** ـ محمد جعفر الأسترآبادي (ت١٢٦٣هـ)، إعداد وتحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم، الطبعة الأولى: ١٣٨٢هـ.

٥٣. **البرهان في تفسير القرآن** ـ السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ)، حققه وعلَّق عليه: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٥٤. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** ـ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عام النشر: جـ ١، ٢، ٣: ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م، جـ ٤، ٥: ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م، جـ ٦: ١٣٩٣ هـ ـ١٩٧٣م.

٥٥. **البعث والنشور** ـ الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، الناشر: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٦. **تاج العروس من جواهر القاموس** ـ محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: د. عبد المنعم خليل إبراهيم، كريم سيد محمد محمود ـ دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م.

٥٧. **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول** ـ محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت١٣٠٧هـ)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٥٨. **تاريخ الاسلام** ـ الامام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، ضبط وتحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٥٩. **تاريخ الفلسفة** ـ إميل برهييه، ترجمة: جورج طرابيشي، الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة١، ١٩٨٧م.

٦٠. **تاريخ المذاهب الإسلامية** ـ محمد ابو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

٦١. **تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)** ـ محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٦٢. **التبيان في تفسير القرآن** ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب العاملي، نشر: دار إحياء التراث ـ قم.

٦٣. **تتمة الأعلام للزركلي** [وفيات (١٣٩٦ ـ ١٤١٥هـ) (١٩٧٦ ـ ١٩٩٥م)، ويليه المستدرك الأول والثاني ـ محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ.

٦٤. **تجريد العقائد** ـ محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ)، دراسة وتحقيق عباس محمد

حسن سليمان، دار المعرفة الجامعية ـ مصر: ١٩٩٦م.
٦٥. **التحرير والتنوير** ـ الامام محمد الطاهر ابن عاشور(ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر ـ تونس: ١٩٨٤.
٦٦. **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي** ـ أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (ت١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٦٧. **تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد** ـ الشيخ إبراهيم محمد الباجوري(ت ١٢٧٧هـ)، تحقيق وتعليق: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٤هـ.
٦٨. **التذكرة في أحوال الموتى وامور الآخرة** ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي(ت٦٧١هـ)، تحقيق: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ.
٦٩. **تصحيح اعتقادات الإمامية** ـ الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان ابي عبد الله العكبري البغدادي (ت٤٣١هـ) تحقيق: حسين دركاهي، مطبعة مهر، قم ـ إيران، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ.
٧٠. **التعريفات** ـ علي بن محمد الجرجاني (ت٨١٦هـ)، المطبعة الخيرية ـ مصر، الطبعة الأولى: ١٣٠٦ هـ.
٧١. **تفسير ابن عرفة برواية الأبي** ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (ت٨٠٣ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م.
٧٢. **تفسير الجلالين** ـ الامام جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة الأولى.
٧٣. **التفسير الحديث**، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة: ١٣٨٣.
٧٤. **تفسير الشريف المرتضى المُسمى ـ نفائس التأويل** ـ جمعه لجنة من العلماء والمحققين بإشراف: السيد مجتبى أحمد الموسوي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى (د. ت).
٧٥. **تفسير العز بن عبد السلام** ـ (وهو اختصار لتفسير الماوردي) ـ عز الدين بن عبد السلام السلمي الدمشقي (ت٦٦٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٧٦. **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير، ومفاتيح الغيب** ـ محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري (ت٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
٧٧. **تفسير القرآن (تفسير السمعاني)** ـ منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ـ السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
٧٨. **تفسير القرآن العظيم** ـ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٧٩. **تفسير القرآن الكريم** ـ محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ)، مع تعليق: المولى علي النوري، مطبعة سيد الشهداء، قم ـ إيران: ١٣٠٢هـ.

٨٠. **تفسير القمي** ـ أبو الحسن علي بن ابراهيم القمي (من أعلام القرنين ٣.٤)، تصحيح وتعليق: السيد طيب الموسوي الخراساني، مطبعة النجف الأشرف: ١٣٧٨هـ.

٨١. **تفسير الكاشف** ـ محمد جواد مغنية، دار الأنوار، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة: ١٩٩٠م.

٨٢. **تفسير المنار** ـ محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م.

٨٣. **التفسير المنسوب الى الامام أبي محمد الحسن بن علي العسكري** عليه السلام. تحقيق: مؤسسة الامام المهدي عليه السلام، اشراف: السيد محمد باقر الاصفهاني، مطبعة اعتماد ـ قم، الطبعة الثانية: ١٤٣٣هـ.

٨٤. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** ـ د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر ـ دمشق، الطبعة الثانية: ١٤١٨ هـ.

٨٥. **تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم** ـ محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن أبي نصر (ت٤٨٨هـ)، تحقيق: د. زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٨٦. **تفسير نور الثقلين**. الشيخ عبد على بن جمعة العروسي الحويزى (ت١١١٢هـ)، مؤسسة اسماعيليان، قم.

٨٧. **تكملة معجم المؤلفين** ـ وَفيات (١٣٩٧ ـ ١٤١٥هـ) (١٩٧٧ ـ١٩٩٥م)، محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأول: ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م.

٨٨. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** ـ يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب: ١٣٨٧هـ.

٨٩. **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس** ـ ينسب الى الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ)، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـلبنان (د ط).

٩٠. **التنويريون والصراعات مع المقدسات** ـ د. نور الدين أبو لحية، مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ.

٩١. **تهافت الفلاسفة** ـ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، الطبعة السادسة.

٩٢. **تهذيب اللغة** ـ أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

٩٣. **التوضيح لشرح الجامع الصحيح** ـ ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت٨٠٥هـ)، تحقي: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٩٤. **التوهم في وصف أحوال الآخرة** ـ الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (ت ٢٤٣هـ)، مكتبة التراث الإسلامي، تحقيق: مصطفى بن علي بن عوض جعفر، سوريا ـ حلب.

٩٥. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ـ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي(ت١٣٧٦)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠ م.

٩٦. **جامع الأخبار أو معارج اليقين في اصول الدين** ـ الشيخ محمد بن محمد السبزواري (من أعلام القرن

السابع الهجري)، تحقيق: الشيخ علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، الطبعة١: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٩٧. **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)** - محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

٩٨. **الجامع الصحيح المختصر** - صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٩٩. **جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن -** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: د عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة، الطبعة الثانية: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٠٠. **الجامع لأحكام القرآن** - تفسير القرطبي - محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٠١. **الجامع لشعب الإيمان** - أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق ومراجعة وتخريج أحاديث: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٠٢. **جزء ابن عمشليق** - أحمد بن علي بن محمد الجعفري أبو الطيب (ت قبل ٤هـ)، تحقيق: خالد بن محمد بن علي الأنصاري، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٠٣. **الجنة والنار** - عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن، الطبعة السابعة: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

١٠٤. **جواهر الكلام في عقائد أهل الإسلام** - عبد الكريم المدرس، دار الحرية للطباعة، بغداد - العراق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٠٥. **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** - عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، محيي الدين الحنفي (ت٧٧٥هـ)، الناشر: مير محمد كتب خانه - كراتشي: ١٣٣٢هـ.

١٠٦. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، مطبعة المدني، القاهرة.

١٠٧. **حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني** - أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (ت١١٨٩هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت - لبنان: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٠٨. **الحدود (المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية)** - الشيخ قطب الدين أبي جعفر محمد بن الحسن النيسابوري المقري(ت٥٤٧هـ)، تحقيق: محمود يزدي مطلق، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للتحقيق والتأليف، قم - إيران، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٠٩. **حسن الظن بالله** - أبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، تحقيق: مخلص محمد، دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١٠. **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة** - جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر، الطبعة الأولى: ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

١١١. **حق اليقين في معرفة اصول الدين** ـ السيد العلامة عبد الله شُبَّر (ت١٢٤٢هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١١٢. **الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية** ـ الشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى: ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

١١٣. **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة** ـ صدر الدين محمد الشيرازي (ت١٠٥٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١١٤. **الحياة الأخرة ما بين البعث الى دخول الجنة أو النار** ـ د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية ـ جدة، الطبعة الثانية: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١١٥. **الخصال** ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ـ الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين ـ قم، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

١١٦. **الدر الثمين في أهم ما يجب معرفته على المسلمين** ـ السيد محسن الأمين العاملي (ت١٣٧١هـ)، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية.

١١٧. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** ـ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١١٨. **دراسات عقائدية** ـ إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة، نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى: ٢٠١٠م ـ ١٤٣١هـ.

١١٩. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،** أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) تحقيق: محمد عبد المعيد حنان ـ مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد ـ الهند، الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

١٢٠. **دروس في الشفاعة والاستشفاع** ـ علي الحسيني الصدر، مطبعة نكارش، قم، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ.

١٢١. **دفع شبه من شبه وتمرد** ـ أبو بكر الحصني الدمشقي (ت٨٢٩هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ـ مصر.

١٢٢. **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تدقيق وتعليق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، بيروت ـ لبنان: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٢٣. **الذخيرة في علم الكلام** ـ لعلم الهدى السيد علي بن الحسين بن موسى، الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى: ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

١٢٤. **ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد** ـ محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، الحسني الفاسي (ت٨٣٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م.

١٢٥. **رجال النجاشي** ـ الشيخ ابو العباس، احمد بن علي بن العباس النجاشي الأسدي الكوفي (ت٤٥٠هـ)، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ ـ٢٠١٠م.

١٢٦. **رسالة أضحوية في أمر المعاد** ـ ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، ضبط وتحقيق: الأستاذ سليمان دنيا، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى: ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م.

١٢٧. **رسالة الى أهل الثغر** ـ علي بن إسماعيل بن أبي بشر، أبو موسى الأشعري (ت٣٢٩هـ)، تحقيق: عبدالله شاكر محمد الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى: ١٩٨٨م.

١٢٨. **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني** ـ محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ.

١٢٩. **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة** ـ الشيخ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت: ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.

١٣٠. **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات** ـ العلامة السيد محمد باقر الموسوي الخوانساري (ت١٣١٣هـ)، مكتبة اسماعيليان، المطبعة الحيدرية، طهران ـ إيران: ١٣٩٠هـ.

١٣١. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين،** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٣٢. **روضة الواعظين** ـ الشيخ العلامة محمد بن الفتال النيشابوري (ت٥٠٨هـ)، تحقيق: غُلا محسين المجدي، ومجتبى الفرجي، مطبعة نكارش، قم ـ إيران، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.

١٣٣. **رياض العلماء وحياض الفضلاء** ـ الميرزا عبد الله افندي الاصبهاني (من أعلام القرن الثاني عشر)، تحقيق: السيد احمد الحسيني، مطبعة الخيام ـ قم ١٤٠١هـ.

١٣٤. **زاد المسير في علم التفسير** ـ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العربية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

١٣٥. **زاد المعاد في هدى خير العباد** ـ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الطبعة الرابعة عشر: ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٦م.

١٣٦. **زهر الآداب وثمر الألباب** ـ إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (ت٤٥٣هـ)، دار الجيل، بيروت ـ لبنان (د. ط).

١٣٧. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير** ـ الإمام شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت ٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة ـ مصر، ١٢٨٥هـ.

١٣٨. **سنن ابن ماجة** ـ ابن ماجة أبو عبد الله بن محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت).

١٣٩. **سنن أبي داود** ـ أبو داود سليمان بن الأشعث الأَزَدي السجستاني (ت٢٧٥هـ)، ضبط وتحقيق وتعليق: شُعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية دمشق ـ الحجاز، طبعة خاصة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٤٠. **سنن الترمذي (الجامع الكبير)** ـ محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، أبو عيسى (ت:٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان ١٩٩٨م.

١٤١. **سير أعلام النبلاء** ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الحادية عشرة: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤٢. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٤٣. **شرح اصول العقائد** ـ الشيخ عبد الجليل علي الأمير، تقريظ الحكيم عبد الله الأحقافي، منشورات دار الوعي الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى: ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

١٤٤. **شرح الأصول الخمسة** ـ القاضي عبد الجبار بن احمد الهمذاني الآسدآبادي (ت٤١٥هـ)، تحقيق: د.عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤٥. **شرح الباب الحادي عشر** ـ العلامة الحلي، مع شرحيه النافع يوم المحشر لمقداد بن عبد الله السيوري(ت٨٢٦هـ)، ومفتاح الباب لأبي الفتح بن مخدوم الحسيني، تحقيق وتقديم: مهدي محقق، مؤسسة الطبع التابعة للإستانة الرضوية المقدسة، مشهد ـ ايران، الطبعة الأُولى: ١٤٢٣هـ.

١٤٦. **شرح الخريدة البهية في علم التوحيد** ـ الشيخ احمد بن محمد العدوي الشهير بـ الدردير(ت١٢٠١هـ)، تحقيق وتعليق: عبد السلام بن عبد الهادي شنار، (ب. ط)

١٤٧. **شرح الصدور بشرح حال الموتى في القبور** ـ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: عبد المجيد طعمه حلبي، دار المعرفة ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤٨. **شرح العقائد النسفية** ـ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩١هـ)، تعليق: عبد السلام عبد الهادي شنَّار، دار البيروتي، ودار ابن عبد الهادي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٤٩. **شرح العقيدة الطحاوية** ـ ابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٣٩١هـ.

١٥٠. **شرح المقاصد** ـ الإمام مسعود بن عمر بن عبد الله ـ سعد الدين التفتازاني(ت٧٩٣هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م

١٥١. **شفاء السقام في زيارة خير الأنام** ـ العلَّامة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥١هـ)، اعتنى به: منصور خليفة الضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

١٥٢. **الشفاعة** ـ بحوث في حقيقتها وأقسامها ومعطياتها ـ السيد كمال الحيدري، مؤسسة الهدى للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٥٣. **الشفاعة** ـ محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، سلسلة كتاب اليوم، إصدار كل شهر، عدد يوليو ١٩٩٩م.

١٥٤. **الشفاعة حقيقة إسلامية** ـ مركز الرسالة، مكتب السيد علي الحسيني السيستاني، دمشق، (ب. ط).

١٥٥. **الشفاعة في الكتاب والسنة** ـ جعفر السبحاني، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية:١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٥٦. **الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (١٣٧٧هـ)** حياته وآثاره، إعداد: سعود بن صالح بن محمد السيف، دار العاصمة للنشر والتوزيع ـ السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٥٧. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** ـ اسماعيل بن حماد الجوهري(٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٥٨. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان** ـ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٥٩. **صحيح مسلم ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ـ** مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م

١٦٠. **الصحيفة السجادية** ـ للإمام السجاد علي بن الحسين زين العابدين ـ عليه السلام، تقديم: السيد محمد باقر الصدر، الدار الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٦١. **ضياء الصالحين** ـ في الأدعية والزيارات ـ الحاج صالح الجوهري، منشورات لقاء، قم، الطبعة ١٣، ١٣٨٦هـ.

١٦٢. **طبقات الشافعية الكبرى** ـ نصير الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.

١٦٣. **طرح التثريب في شرح التقريب** ـ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت٨٠٦هـ)، وأكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم ابن العراقي (ت٨٢٦هـ)، الطبعة المصرية القديمة (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).

١٦٤. **عالم الآخرة** ـ السيد محمد حسين الطباطبائي، إعداد: الشيخ قاسم الهاشمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٦٥. **العدل الإلهي** ـ الأستاذ مرتضى مطهري، ترجمة: محمد عبد المنعم الخاقاني، الطبعة٢: ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م.

١٦٦. **العدل على مذهب اهل البيت** ـ الشيخ علاء الحسون، مطبعة ليلى ـ المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ.

١٦٧. **عقائد الامامية الاثني عشرية** ـ ابراهيم الموسوي الزنجاني، قم، الطبعة الخامسة: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٦٨. **العقائد الحقة** ـ دراسة علمية جامعة في اصول الدين الإسلامي على ضوء الكتاب والسنة والعقل ـ السيد علي الحسيني الصدر، مجمع الذخائر الإسلامية، مطبعة ستاره ـ قم، الطبعة الأولى: ١٣١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٦٩. **عقود المرجان في تفسير القرآن** ـ السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ)، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية ـ قم، الطبعة الأُولى: ١٣٨٨هـ.

١٧٠. **العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام** ـ المحقق العلّامة جعفر السبحاني، نقله الى العربية: جعفر الهادي، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام، قم ـ إيران، (ب. ط)

١٧١. **العقيدة الإسلامية واسسها** ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ـ سوريا، الطبعة الرابعة عشر: ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٧٢. **العقيدة الإسلامية ومذاهبها** ـ د. قحطان عبد الرحمن الدوري، كتّاَب ناشرون ـ الاردن، الطبعة الثالثة: ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

١٧٣. **علل الشرائع** ـ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه ـ الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، تحقيق وتدقيق: محمد صادق بحر العلوم الطباطبائي، منشورات المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، الطبعة الأولى: ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

١٧٤. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** ـ أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين االعيني (ت٨٥٥هـ)، دار احياء التراث العربي ـ بيروت، (د. ط).

١٧٥. **عون المريد لشرح جوهرة التوحيد** في عقيدة أهل السنة والجماعة ـ عبد الكريم تتان، ومحمد أديب الكيلاني، دار البشائر، دمشق ـ سوريا، الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٧٦. **العين** ـ الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، ترتيب وتحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٧٧. **عيون أخبار الرضا** ـ الشيخ أبو جعفر الصدوق ـمحمد بن محمد بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، منشورات الشريف الرضي، مطبعة الأمير ـ قم، الطبعة الأولى: ١٣٧٨هـ.

١٧٨. **غاية المرام في عقائد أهل الإسلام** ـ الحاج حمدي الأعظمي، مطبعة العارف ـ بغداد، الطبعة الثانية: ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

١٧٩. **غاية المرام في علم الكلام** ـ علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الآمدي (ت٦٣١هـ)، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: ١٣٩١هـ.

١٨٠. **غريب الحديث** ـ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: د. عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٨١. **الغنية في أصول الدين** ـ أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد المتولي الشافعي، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٨٧م.

١٨٢. **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ـ الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٨٣. **فتح القدير** ـ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

١٨٤. **الفرائد في حل شرح العقائد** ـ وهو (حاشية ابن أبي شريف على شرح العقائد للتفتازاني): تحقيق: محمد العزازي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان (د. ط).

١٨٥. **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ـ** أبو القاسم البلخي (ت٣١٠هـ)، والقاضي عبد الجبار(ت٤١٥هـ)، والحاكم الجشمي (ت٤٩٤هـ)، تحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية ـ تونس: ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٤م.

١٨٦. **الفلسفة والعرفان والإشكاليات الدينية:** دراسة معرفية تعنى بتحليل نظام الفلسفة والعرفان وفهمه للإشكاليات الدينية ـ يحيى محمد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ـ لبنان: ٢٠٠٨م.

١٨٧. **في ظلال القرآن** ـ سيد قطب، دار الشروق، القاهرة ـ مصر، الطبعة ٣٢: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٨٨. **فيض القدير شرح الجامع الصغير** ـ الشيخ عبد الرؤوف المناوي (١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، الطبعة الأولى: ١٣٥٦م.

١٨٩. **قاموس الشوارفية للمترادفات (عربي إندونيسي) ـ** د. كمال الدين مرجوني، مطبعة جيفوتات، جاكرتا: ٢٠٠٩م.

١٩٠. **القاموس المحيط** محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثامنة: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م.

١٩١. **قبس من غياث سلطان الورى** ـ علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني رحمه الله (ت٦٦٤هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الامام المهدى عليه السلام، قم ـ إيران.

١٩٢. **القلب السليم** ـ السيد عبد الحسين دستغيب، ترجمة: الشيخ حسين كوراني، دار البلاغة، الطبعة الثانية: ١٩٩٠م ـ ١٤١٠هـ.

١٩٣. **قواعد العقائد** ـ نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ)، تحقيق: علي الرباني الكلبايكاني، مطبعة الأمير ـ قم ١٤١٦هـ.

١٩٤. **القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى** ـ د. عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، الطبعة السابعة: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٩٥. **الكافي** ـ محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، دار المرتضى، بيروت، الطبعة الاولى: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٩٦. **الكافي في الفقه** ـ أبو الصلاح الحلبي (ت٤٤٧هـ): تحقيق: رضا أستادي، مكتبة الامام امير المؤمنين عليه السلام العامة، قم ـ إيران (د ط).

١٩٧. **كبرى اليقينيات الكونية** ـ وجود الخالق ووظيفة المخلوق ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، ودار الفكر، دمشق سوريا، تصوير عن الطبعة الثامنة ١٩٨٢م: في ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٩٨. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** ـ العلامة أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧ هـ.

١٩٩. **كشف الأستار عن زوائد البزار** ـ نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٠٠. **كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء** ـ الشيخ جعفر كاشف الغطاء، تحقيق: مكتب الاعلام الإسلامي، مؤسسة بوستان كتاب، قم ـ إيران: ١٣٧٩هـ.

٢٠١. **كشف المراد في شرح تجريد** ـ نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ)، شرح: جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت٧٢٦هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٠٢. **الكليات ـ** ابو البقاء ايوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٠٣. **الكنى والألقاب** ـ الشيخ عباس القمي، تقديم: محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر، طهران ١٣٤٨هـ.

٢٠٤. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ـ** علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حياني ـ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٠٥. **كنز الفوائد** ـ الشيخ محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي (ت٤٤٩هـ)، تحقيق: العلامة الشيخ عبد الله نعمة، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان:١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٠٦. **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري** ـ محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني

(ت٧٨٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٠٧. **لسان العرب** ـ الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ،

٢٠٨. **اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية** ـ جمال الدين مقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلي (ت٨٢٦هـ)، تحقيق: السيد محمد علي القاضي الطباطبائي، مطبعة شفق، تبريز ـ إيران: ١٣٩٧هـ.

٢٠٩. **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية** ـ شرح الدرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية ـ العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني (ت١١٨٨هـ)، تعليقات: الشيخ عبد الرحمن أبا بُطَين، والشيخ سليمان بن سحمان، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢١٠. **المبدأ والمعاد** ـ صدر المتألهين الشيرازي (ت١٠٥٠هـ)، منتدى الحكمة والفلسفة ـ إيران (د. ط)

٢١١. **مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن** ـ الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، تقديم: حماد بن محمد الأنصاري، دار الراية، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

٢١٢. **مجمع البيان في تفسير القرآن** ـ الامام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢١٣. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ـ أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة ـ مصر، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢١٤. **مجمل اللغة** ـ احمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسن (ت٣٩٥هـ) تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢١٥. **مجموع الأربعين أربعين من أحاديث سيد المُرسلين ﷺ** ـ الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠هـ)، عناية وتخريج الأحاديث: الشيخ احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان: ٢٠١٠م.

٢١٦. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ـ ابن عطية الأندلسي(ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأُولى: ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

٢١٧. **المحكم والمحيط الأعظم** ـ علي بن اسماعيل بن سيده المرسي ابن سيدة (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الكريم هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان: الطبعة الأولى: ١٣٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢١٨. **مختار الصحاح** ـ الشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت٦٦٠هـ)، إخراج: دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، مكتبة لبنان: ١٩٨٦م.

٢١٩. **المختصر في أصول الدين على مذهب أهل التوحيد والعدل** ـ القاضي عبد الجبار، تحقيق: محمد عمارة.

٢٢٠. **مدارس النفس اللوامة** ـ د. نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الطبعة١: ١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م

٢٢١. **مذاهب الإسلاميين** ـ د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٨م.

٢٢٢. **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** ـ علي بن سلطان، محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٢٣. **المسامرة شرح المسايرة لابن الهمام** ـ محمد بن محمد بن أبي شريف (ت٩٠٦هـ)، مخطوطة بالرقم ٥١١٤

ف ٣/١١٤٨، تاريخ النسخ: القرن الثاني عشر الهجري، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات.

٢٢٤. **المستدرك على الصحيحين** ـ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ)، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة، الطبعة الأُولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢٢٥. **مسند أبي يعلي الموصلي** ـ أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث ـ دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٢٦. **مسند الإمام أحمد** ـ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٢٧. **مشاهد القيامة في القرآن** ـ سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٢٨. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** ـ أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي أبو العباس (ت٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية ـ بيروت، ١٩٧٨م.

٢٢٩. **المصنف في الأحاديث والآثار** ـ أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد (ت٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٣٠. **المظاهر الإلهية** ـ صدر الدين الشيرازي (ت١٠٥٠)، تحقيق: الأستاذ جلال الدين الآشتياني، مؤسسة بوستان كتاب، قم، الطبعة الثالثة: ١٤٢٩هـ.

٢٣١. **المعاد** ـ رؤية قرآنية ـ السيد كمال الحيدري ـ بقلم الشيخ خليل رزق، مؤسسة الامام الجواد للفكر والثقافة، بغداد ـ العراق، الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٢٣٢. **معارج التفكر ودقائق التدبر** ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم ـ دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

٢٣٣. **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول** ـ حافظ بن أحمد حكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم ـ الدمام، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م.

٢٣٤. **معالم أصول الدين** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الكتاب العربي ـ لبنان.

٢٣٥. **معالم التنزيل في تفسير القرآن** ـ الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ.

٢٣٦. **معجم البلدان** ـ للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢٣٧. **معجم ألفاظ العقيدة** ـ أبو عبد الله عامر عبد الله فالح، تقديم: الشيخ عبد الله عبد الرحمن بن جبرين، مكتبة العبيكان، الرياض ـ الطبعة الأُولى: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م

٢٣٨. **المعجم الكبير** ـ الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق وتخريج الأحاديث: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٣٩. **معجم اللغة العربية المعاصرة** ـ د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر:

عالم الكتب، الطبعة: الأولى: ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م.

٢٤٠. **معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر** ـ عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة: ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م

٢٤١. **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية** ـ الادارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية ـ مصر، الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٤٢. **معجم طبقات المتكلمين** ـ اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، تقديم وإشراف: العلامة جعفر السبحاني، مطبعة مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ـ قم، الطبعة الأُولى: ١٤٢٤هـ.

٢٤٣. **معجم مقاييس اللغة** ـ أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر ـ مصر، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٤٤. **معرفة المعاد** ـ السيد محمد حسين الحسيني (ت١٤١٦هـ)، دار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة١، ١٤١٦هـ

٢٤٥. **المغني في أبواب التوحيد والعدل** ـ عبد الجبار المعتزلي (ت٤١٥هـ)، تحقيق: د. محمود محمد قاسم.

٢٤٦. **مفاهيم القرآن** ـ جعفر السبحاني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

٢٤٧. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** ـ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (د. ط).

٢٤٨. **مفردات ألفاظ القران الكريم** ـ الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم، المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق ـ سوريا، الطبعة الرابعة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٢٤٩. **المفردات في غريب القرآن** ـ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢٥٠. **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** ـ أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ ـ ٦٥٦ هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو ـ أحمد محمد السيد ـ يوسف علي بديوي ـ محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ودار الكلم الطيب، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٥١. **مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين** ـ الإمام أبو الحسن الأشعري (ت٣٣٠هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان: ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٥٢. **المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى** ـ الشيخ محمد أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشب، مكتبة القرآن، القاهرة ـ مصر: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٥٣. **الملل والنحل** ـ ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ)، تحقيق: الاستاذ احمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٥٤. **من لا يحضره الفقيه** ـ الشيخ الصدوق ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تعليق: العلامة الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيرت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٦٨.

٢٥٥. **منازل الآخرة** ـ حول الموت وعالم ما بعد الموت، المحدث الشيخ عباس القمي، ترجمة: د. عبد المهدي اليادكاري، دار الزهراء، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ.

٢٥٦. **منازل النفس المطمئنة** - د. نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الطبعة١، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.
٢٥٧. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** - أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ.
٢٥٨. **المنهاج في شعب الإيمان** - الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبو عبد الله الحَلِيمي (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢٥٩. **المواقف** عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.
٢٦٠. **موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي** - أحمد شوقي إبراهيم، مصر، شركة نهضة مصر: ٢٠٠٤م.
٢٦١. **موسوعة الإعجاز** - أبو عبد الله عامر عبد الله فالح، تقديم: الشيخ عبد الله عبد الرحمن بن جبرين، مكتبة العبيكان، الرياض - الطبعة الأُولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٦٢. **ميزان الحكمة** - محمد الريشهري (١٣٢٥هـ)، مطبعة إعتماد، مركز الطباعة والنشر في دار الحديث، قم - ايران، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.
٢٦٣. **الميزان في تفسير القران** - العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٦٤. **نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة** - أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور (ت ١٣٤٨هـ)، تقديم: الشيخ محمد أبو زهرة، دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م
٢٦٥. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** - إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢٦٦. **نظم المتناثر من الحديث المتواتر** - محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بـ الكتاني (ت١٣٤٥هـ)، المحقق: شرف حجازي، دار الكتب السلفية - مصر، الطبعة الثانية: ١٣٢٨هـ.
٢٦٧. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** - الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر- بيروت: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٢٦٨. **النكت والعيون** - علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت٤٥٠هـ)، مراجعة وتعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، (ب. ط).
٢٦٩. **نهاية الاقدام في علم الكلام** - الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، تصحيح وتحرير: الفريد جيوم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى:١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٢٧٠. **نهاية الآمال في صحة وشرح حديث عرض الأعمال** - العلّامة محمد ابن صديق الغمازي الحسني الادريسي، مكتبة القاهرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٧١. **النهاية في الفتن والملاحم** - الامام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الجيل، بيروت - لبنان: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٧٢. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري

ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر احمد الراوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت، (د. ط).

٢٧٣. **نهج البلاغة للإمام علي بن ابي طالب عليه السلام** ـ شرح الشيخ محمد عبده (ت١٣٢٣هـ)، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت: ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

٢٧٤. **نور الافهام في علم الكلام** ـ العلامة السيد حسن الحسيني اللواساني (ت١٤٠٠هـ)، تحقيق: السيد ابراهيم اللواساني، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٧٥. **نيل الأوطار** ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث ـ مصر، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٧٦. **الهداية الأثيرية** ـ الشيخ صدر الدين الشيرازي، الطبعة الحجرية، في بيان إعادة النفس في الآخرة.

٢٧٧. **هداية المريد لشرح جوهرة التوحيد** ـ للإمام العلامة برهان الدين إبراهيم اللقاني المالكي (ت١٠٤١هـ)، تحقيق وضبط: مروان حسين عبد الصالحين البجاوي، دار البصائر، القاهرة، الطبعة١، ١٤٣٠:هـ ـ ٢٠٠٨م.

٢٧٨. **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ـ إسماعيل بن محمد أمين بن البغدادي (ت١٣٩٩هـ)، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية ـ إستانبول ١٩٥١، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٢٧٩. **هكذا تكلم لقمان** ـ نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ.

٢٨٠. **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ـ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم ـ دمشق، والدار الشامية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٥ ـ ١٩٩٥م.

٢٨١. **وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان** ـ لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ـ لبنان: ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٨٢. **اليوم الآخر في ظلال القرآن** ـ أحمد فائز، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة ١٧، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٨٣. **الإنسان والعقيدة** ـ العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، تحقيق: الشيخ صباح الربيعي، والشيخ علي الأسدي، مكتبة فدك، مطبعة سرور، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٨٤. **الزهد** ـ أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٨٥. **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** ـ وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، الشيخ محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٨٦. **سنن النسائي** بشرح السيوطي وحاشية السندي، ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة: ١٤٢٠هـ)..لشمس الساطعة،

٢٨٧. **المطالب العالية من العلم الإلهي** ـ الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٨٨. **المعجم الأوسط** ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، التحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، وأبو الفضل عبد المحسن بن ابراهيم الحسيني، نشر دار الحرمين، القاهرة ـ مصر: ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٢٨٩. **معجم المؤلفين**. الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت. لبنان (د. ط): ١٣٩٧هـ.١٩٧٧م.

ثانياً: الرسائل العلمية والبحوث

٢٩٠. **أحوال المحتضر**. محمد عبد العزيز أحمد العلي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة٣٦ العدد١٢٤: ١٤٢٤هـ.

٢٩١. **اشكالية الموت في الديانات السماوية والأرضية**، بحث يسرى وجيه السعيد، مجلة ذوات الصادرة عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد ٤٣.

٢٩٢. **الإعجاز العلمي في السنة النبوية**، د. زغلول النجار، شركة نهضة مصر، الطبعة السابعة: ٢٠٠٥م.

٢٩٣. **الإعجاز العلمي في عجب الذنب**، د. عثمان جيلان، بحث ألقاه في المؤتمر السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عقد في دبي: ٢٠٠٤م.

٢٩٤. **مبحث النظر عند المتكلمين**. الدكتور محسن قحطان حمدان. بحث منشور. مجلة كلية العلوم الإسلامية. جامعة بغداد، العدد ٣٠ لسنة ١٤٣٣هـ. ٢٠١٢م.

٢٩٥. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، (بحث) من موسوعة قضايا إسلامية معاصرة. د. محمد الزحيلي، دار مكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا. دمشق، (د. ط)

٢٩٦. **مقاصد العقائد عند الامام العز بن عبد السلام**. بوطيب عبد القادر، اشراف: د. عمار جيدل، كلية العلوم الإسلامية، الخروبة، جامعة الجزائر، رسالة ماجستير ٢٠١٣م.

ثالثاً: المقالات ومواقع الانترنت

٢٩٧. **الاعتقاد بخرافة عذاب القبر يخالف قول رب العالمين**، مقال على الموقع:

١٢٣٢١٤٥١٣.htmlblog.com/articlehttp://daikiri.over

٢٩٨. **البعث الجسماني في القرآن والحقائق العلمية**. أ.د: كمال الدين نور الدين مرجوني، أستاذ مشارك ورئيس قسم العقيدة والأديان، جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، على الرابط:

html.**٦٨٧٠**post/blog**٠٩/٢٠١٣**nurdin.blogspot.com/kamaluddinhttps://dr

٢٩٩. **عذاب القبر، حقيقة أم خرافة**، د. عدنان إبراهيم، مقال على الموقع:

QME**٣**hkqTx**٩**https://www.youtube.com/watch?v=Y

٣٠٠. **قراءة في علم مقاصد الشريعة** مقال للدكتور علاء الدين الزعتري، جامعة الناصر نُشِر بتاريخ ٤/ ١/ ٢٠١٤م على الموقع: .edu.com/ebook/http://www.al

٣٠١. **مصدر خرافة عذاب القبر**، سامح عسكر، الحوار المتمدن، ٢٣ فبراير ٢٠١٣، على الموقع:

٣٤٦٧٦٠**h**ttp://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=

٣٠٢. **منهج طالب العلم في دراسة العقيدة**، مقال في موقع صيد الفوائد، أ. سامح عبد الاله عبد الهادي:
https://saaid.net/mktarat/alalm/١١٢.htm

٣٠٣. **موقع الإسلام ويب:** https://library.islamweb.net

٣٠٤. **موقع الباحث أحمد صحي منصور:**
id=٦٥٠١article.php?mainalquran.com/arabic/showhttp://www.ahl

٣٠٥. **موقع الباحث علي منصور كيالي:**
fBq٨G١١HE٦bsTcPogwguB١https://m.me/DrAliKayali?fbclid=IwAR
.sg٠jZ٧KpDADJtmjZA٤٢Pu٤S٠hB٥UJqgc

٣٠٦. **موقع الباحث محمد شحرور:**
https://m.me/Dr.Mohammad.Shahrour?fbclid=IwAR٢x٠YuGRLG٦L
٣SSlbQyW٨uK٢٧ANnEWT٤dw٤٨HepwpfPFz٩Dlk٤lP٦Vshow

٣٠٧. **موقع أبجد:** .https://www.abjjad.com/author

٣٠٨. **موقع الدكتور نور الدين أبو لحية** http://www.aboulahia.com.

٣٠٩. **موقع أهل القرآن، على الرابط:**
٦١٠٣id=alquran.com/arabic/profile.php?mainhttp://www.ahl

٣١٠. **موقع مؤسسة الامام الصادق عليه السلام :** http://imamsadeq.org/

٣١١. **هاجس البعث: الموت والقيامة في الحضـارات الإنسـانية**، أحلام رحال، مدونة الأجنحة والنور، بقلم: أحـلام رحـال، ٢٢/ ٢/ ٢٠١٤م، عـلـى الـرابـط: .
wordpress.com٠٠٢https://ahlam

.٣١٢ https://web.archive.org/web/٢٠٠٩٠٦٢٢٠٣٣٠٤١

٣١٣. http://www.islamonline.net/Arabic/contemporary/politic/٢٠٠١
٨.shtml_/article١